النقد الثقافى فى كتابات نقادنا القدماء

مع دراسة خاصة عن نسق الفحل عند د. الغذامى

النقد الثقافى فى كتابات نقادنا القدماء

مع دراسة عن نسق الفحل عند د. الغذامى

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
منشية الصدر - القاهرة
١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

هذه الفصول

هذه فصول فى النقد الثقافى أحببت أن أتوجه بها إلى القراء الكرام بعد طوفة سريعة فى تراثنا النقدى أطلعتنى على أن نقادنا القدماء كانوا يمارسون النقد الثقافى بكل أريحية وسلاسة وتلقائية، وإن لم يعرفوا المصطلحات التى نعرفها نحن الآن لذلك التيار النقدى المنتشر على نطاق واسع منذ سنوات ونظن أنه شىء جديد رَفَدَنا به النقدُ الغربى، وما الجديد سوى اسمه ومصطلحاته. ولسوف يطلع القارئ معى على النصوص التى تثبت أن نقادنا القدماء كانوا يعرفون الأنساق الثقافية، وينفتحون على كل الإبداعات الأدبية دون تهميش لأى منها أو لأى من المبدعين، ويعاملون الإبداع النسوى باحتفاء شديد وكرم بالغ لم يعاملوا بهما إبداعات الرجال، ويهتمون بالإبداع العامى والنكت والكتابات الفكاهية والساذجة وغير ذلك مما ينادى النقد الثقافى بالاهتمام به. ثم ألحقتُ بهذه الفصول فصلا آخر خصصته لما سماه الكاتب السعودى د. عبد الله الغذامى بـ"نسق الفحل" وقلبت فيه كل ما قاله عن ذلك النسق فى كتابه: "النقد الثقافى– قراءة فى ألأنساق الثقافية" لأنتهى فى آخر المطاف إلى أن كل ما قاله د. الغذامى تقريبا لا يثبت على محك الأخذ والرد بل هو مجرد دعاوى وأوهام لا توجد إلا فى ذهنه وليس لها حقيقة خارجية، مع تعضيد كل ما قلته صغيرا كان أو كبيرا بالشواهد الكثيرة الحاسمة.

الأنساق الثقافية فى نقدنا القديم

ظهر "النقد الثقافى" بمصطلحاته فى العقود الأخيرة كرد فعل على انصراف النقد الأدبى فى الغرب قبل ذلك عن المضمون إلى حد كبير وتركيزه على الشكل والبنية. ويهتم هذا اللون من النقد بمضمون النص الأدبى حصريا أو على الأقل: أولا وثانيا وثالثا ورابعا حتى تاسعا بما فى ذلك النصوص التى لم يكن يهتم بها النقاد ولا يكتبون عنها لأن أصحابها الذين أبدعوها هم من فئة المؤلفين المهمَّشين الذين لا يرى لهم نقاد الأدب قيمة تذكر فى دنيا الإبداع حسبما يقول النقاد الثقافيون. وكان رواد هذا الاتجاه النقدى يهتمون بالمضامين الفلسفية والتاريخية والاجتماعية والفكر الماركسى، ويؤخرون الجانب الأدبى إلى أسفل القائمة إن رأوا أن له مكانا أو مكانة فى تلك القائمة. ومن بين المصطلحات التى ظهرت على أقلام بعض "النقاد الثقافيين" مصطلح "الأنساق الثقافية"، أى الأوضاع والنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفلسفية والاجتماعية، وما أدراك؟

وليس فى النقد الثقافى من الناحية المبدئية ما يُنْكَر أو يُسْتَنْكر، فالعمل الأدبى لفظ ومعنى، أو شكل ومضمون، أو بناء ومحتوى. وما كتب الكاتبون وأبدع المبدعون ونظم الشعراء وألف النُّثَّار إلا ليؤدوا إلى القراء رسالة ذات مضمون، ومن ثم فمن الطبيعى أن يهتم النقد الأدبى بهذا المضمون. أما إن أتى الاهتمام بذلك المضمون، كما يصنع بعض دعاة النقد الثقافى، على حساب الجانب الجمالى فى النص الأدبى وإزاحةً له من المشهد فهنا نقول بكل حسم: قف! إنك أيها الناقد الثقافى تريد أن تمحو الإبداع الأدبى وتحوله إلى بحوث ودراسات فكرية. كذلك ينبغى أن نعرف أن النقد الثقافى ما هو إلا عصير النقد الاجتماعى القديم مصبوبا فى كؤوس جديدة. ومن ذلك مثلا أن إحدى رواد المنهج الاجتماعى الأوائل، وهى مدام دى ستايل، قد أصدرت عام ١٨٠٠م كتابا بعنوان "De la littéraure considérée dans ses rapports avec les institutions sociales: الأدب فى علاقته بالنظم الاجتماعية" حاولت أن تبين فيه مدى تأثير الدين والأساطير والبيئة والعادات والقوانين وأساليب الحكم وما يتبع ذلك من نظم الحياة على الأدب من جهة، وتأثير الأدب على هذا كله من جهة أخرى. ويمكن القارئَ مراجعةُ ما كتبتُه فى هذا الموضوع فى بداية الفصل الرابع

من كتابى: "مناهج النقد العربى الحديث"، وهو خاص بالحديث عن المنهج الاجتماعى. كما كان النقاد اليساريون يهتمون أشد الاهتمام بمضمون العمل الأدبى مركزين على الفكر اليسارى معلين من شأنه، وداعين المؤلفين إلى الالتزام به والانحياز إلى الطبقة العاملة التى كانت قبل ذلك مهمشة مهضومة الحقوق، وجاء اليوم الذى يجب أن تنال فيه حقوقها المغصوبة بحتمية التاريخ التى لا يمكن أن تتخلف. كل ما فى الأمر الآن أنه قد ظهرت فى النقد الثقافى بعض المصطلحات التى تعجب وتبهر بعض القراء وتوهمهم أنهم أمام نقد ليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل، نقد هو ابن بَجْدَتها، ومنها مصطلح "الأنساق الثقافية"، وما هو فى حقيقة الأمر إلا الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من عادات وتقاليد وعقائد ومواقف وأفكار وأنظمة...

بل إن النقاد العرب القدماء كانوا واعين بهذه الجوانب فى النصوص الأدبية التى يتناولونها، ولكن ليس بهذه الضجة ولا بضيق الأفق الموجود عند كثير من دعاة النقد الثقافى الذين يهملون الجانب الفنى والجمالى فى تلك النصوص ويحولونها إلى نصوص جافة لا يرون فيها إلا تلك "الأنساق الثقافية" التى شرحناها قبيل قليل شرحا بسيطا مريحا أزال عنها هالتها الضخمة الساطعة، بيد أنهم لم يكونوا يستخدمون المصطلحات التى يستعملها النقاد الثقافيون ولا كانوا يعرفون تنظيراتهم. وبالمثل فإن نقادنا القدماء لم يهملوا النصوص ولا المؤلفين المهمشين على حسب قول نقادنا الثقافيين، بل كانوا يهتمون بهم اهتمامهم بالمبدعين الكبار. وكانوا طوال الوقت واعين بما يسمى فى "النقد الثقافى" بـ"الأنساق الثقافية"، وإن لم يسموها هذه التسمية بل كانوا يزاولون الأمر كما يتنفس معظم الناس دون أن يطلقوا على الهواء الذين يستنشقونه: "شهيقا"، والهواء الذى يتخلصون منه: "زفيرا".

ولقد كان علماؤنا القدماء يرددون دائما مقولة ابن عباس الشهيرة والصادقة الدقيقة: "الشعر ديوان العرب"، فهو يحتوى على مظاهر حياتهم وبواطنها وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم وأوضاعهم وحروبهم وحرفهم وأساليب حياتهم ووصف بلادهم وذكر أنسابهم ورجالهم ونسائهم... إلخ. يقول أبو هلال العسكرى مثلا فى "الصناعتين": "ومن أفضل فضائل الشّعر أنّ ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جَزْلُها وفصيحُها، وفَحْلُها وغريبها من الشعر، ومن لم

يكن راويةً لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته. ومن ذلك أيضاً أنّ الشواهد تُنْزَع من الشعر، ولولاه لم يكن على ما يلتبس من ألفاظ القرآن وأخبار الرسول ﷺ شاهد. وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلاَّ من جملة أشعارها. فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها. فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدبٍ بلغة العرب أو ناظر في علومها إليه ماسّة، وفاقَتُه إلى روايته شديدة".

وهذه المقولة تقابلنا فى كثير من الكتب التى تتحدث عن شعر العرب قديما وحديثا. ومن هنا قلت إن نقادنا ومؤرخى أدبنا القدامى كانوا يقفون أمام الشعر العربي يستخرجون منه كل ما يتعلق بحياة العرب وجوانبها المختلفة مما يشتغل به الآن من يُسَمَّوْن بـ"النقاد الثقافيين"، وإن لم يعرفوا مصطلحات النقد الثقافى ولا مفاهيمه، بل كانوا يمارسون ذلك بالسليقة. وهذا الكلام ينطبق على كثير جدا من نصوص النثر، وبخاصة نصوص النثر الأدبى، وعلى وجه أخص ما كان منها أخبارا وحكايات وقصصا.

لا بل إن القِصَص لتفوق الشعر فى رصد جوانب الحياة العربية لما يتوافر لها من التفصيل والاستقصاء والتدقيق الذى لا يتسع له الشعر بقيوده وقِصَر سطوره. ومن يرجع إلى "قصص العرب" التى جمعها من كتب الأدب والتاريخ القديمة مُحَّد أحمد جاد المولى وزملاؤه يجدها تعكس مظاهر حياتهم ومعتقداتهم ومعارفهم ومثلهم ومفاخرهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم ومناسباتهم ومنازعاتهم ومعاركهم... إلخ. وبالمثل يصور القرآن المجيد وأحاديث النبى عليه السلام العادات والتقاليد والأنظمة والعقائد والعبادات والأطعمة والأشربة والعلاقات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والأحوال النفسية والقيم الأخلاقية عند العرب مما يعرف الآن بـ"الأنساق الثقافية". ولدينا من الكتب التى رصدت هذا الجانب أو ذاك من حياة العرب فى الجاهلية اعتمادا على القرآن والحديث والكتب التى تتعلق بهما كتاب "نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب" لابن سعيد المغربى، وهو مجرد مثال. ويدور الكلام فيه على تاريخ العرب العاربة وأخبار الرسل والملوك، وأخبار القبائل، وأخبار الشعراء وغيرهم في الجاهلية. وقد رجع المؤلف إلى كثير من كتب التفسير والحديث والسِّيَر وغيرها من الكتب كـ"التيجان في ملوك حِمْيَر" لابن هشام و"الحماسة" لأبي تمام، و"الأمثال" لأبي عبيدة، و"نثر

الدُّرّ" للوزير الآبي، و"جمهرة أنساب العرب" لابن حزم، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي... إلخ.

والآن تَعَالَوْا ننظر فى نصوصنا الأدبية والنقدية القديمة لنرى مصداق ما أقول. إن امرأ القيس وزهيرا وعنترة بن شداد مثلًا حين يقولون على الترتيب:

عُوجَا عَلى الطَّلَلِ المحيلِ لعلَّنا نبكي الديارَ كما بَكَى ابنُ خِذامِ

* * *

ما أرانا نقول إلا مُعَارا أو مُعَادًا من لفظنا مكرورا

* * *

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ؟ أم هل عرفتَ الدارَ بعد تَوَهُّمِ؟

إنما يشيرون إلى نسق من الأنساق الثقافية جرى عليه العرف لدن شعراء الجاهلية، وقلدهم فيه شعراء العصور التالية بما فى ذلك جزء من العصر الحديث، وهو نسق الوقوف على الأطلال وبكاء الحبائب اللاتى رحلن مع قبيلتهن تاركاتٍ المكان الذى كن ينزلنه ويملأنه بالحياة والبهجة ويزلزن قلوب شبانه، ثم غادرنهم للذكريات الأليمة والضياع والبكاء جراء هذا الحرمان المؤنس.

وقد تحدث ابن قتيبة فى كتابه: "الشعر والشعراء" عن هذا النسق الثقافى الفنى نقلا عمن أراد أن يؤصِّله من أهل الأدب. قال: "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الرَّبْع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلةُ العَمَد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَر لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفَرْط الصبابة والشوق ليُمِيل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس لائطٌ بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسببٍ، وضاربًا فيه بسهمٍ حلالٍ أو حرامٍ. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق فرَحَل في

شعره وشكا النَّصَب والسهر وسُرَى الليل وحَرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكأفاة وهزّه للسَّمَاح وفضّله على الأشباه وصغّر في قدره الجزيل. فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعَدَل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطِل فيُمِلّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظماءٌ إلى المزيد... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزلٍ عامرٍ أو يبكي عند مَشِيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يَرِد على المياه العِذَاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جَرَوْا على قطع منابت الشِّيح والحَنْوة والعَرَارة".

على أن الذى يهمنا من هذا النص هو ما جاء فيه من أن تلك هى السبيل التى كان ينتهجها دائما أصحاب القصائد، وهو ما لا يوافقه الواقع، إذ هناك قصائد جاهلية كثيرة جدا لم يجر فيها ناظموها على هذه الخطة، بل تراهم يدخلون فى موضوعهم مباشرة، أو يستهلون شعرهم بشىء آخر غير الوقوف على الأطلال: كالنسيب مثلا أو وصف الخمر أو التحسر على أيام الشباب التى انصرمت ولم يعد لها من رجوع... وغير ذلك من الابتداءات، وإن كان افتتاح القصيدة بالوقوف على الطلل أشهر من غيره من الافتتاحات.

وحتى إذا وقف الشعراء على الأطلال فإن كثيرا منهم لا يُعْقِبون ذلك بالرحلة لا للممدوح ولا لأى شخص آخر، بل كثيرا ما لا يكون هناك ممدوح البتة، كما هو الوضع فى معلقتى عنترة والملك الضِّلّيل مثلا. كذلك فكثير من هذا الشعر لا يزيد على أن يكون تصويرا لأمر لا صلة بينه بتاتا وبين الأغراض الشعرية التقليدية ولا البناء الفنى الذى تحدث عنه ابن قتيبة بأى حال. ومن ذلك بعض أشعار الشَّنْفَرى التى يصف فيها لقاءه بالغول وعراكه معها. واضحٌ إذن أن ما قاله ابن قتيبة لا يقتصر على شعر المديح، بل يقع فى شعر المديح وفى غيره. وحتى فى شعر المديح فإنه لا يقع عليه كله بل على بعضه فقط. أى أن ما يحسبه كثير من الباحثين نظاما صارما (أو "نسقا ثقافيا" باصطلاح نقادنا الثقافيين) يتَّبعه

الجاهليون والقدماء عموما فى بناء القصيدة لم يكن فى الحقيقة كذلك، بل كان يراعَى فى بعض قصائد المديح، وإن لم يقتصر عليها بل يَشْرَكها فى ذلك كثير من القصائد غير المَدْحِيّة أيضا كمعلقة امرئ القيس، التى يتناول فيها مغامراته اللاهية مع النساء ويصف الحصان والسحاب والسيل، وكمعلقة طرفة، التى يستهلها بالوقوف على أطلال خَوْلة رغم أنها ليست فى المديح ولا حتى فى الهجاء أو الرثاء أو أى موضوع من موضوعات الشعر التقليدية، بل فى التعبير عن التمرد على التقاليد القبلية والحيرة فى فهم الحياة، وكمعلّقة عنترة بن شداد، التى يفخر فيها بشجاعته وفروسيته أمام حبيبته ويرسم صورة حانية لأَدْهَمه، الذى ود لو يستطيع أن يرفع صوته بالكلام الواضح المبين كما يفعل البشر حتى يمكنه الشكوى مما يلقاه فى المعارك من متاعب...

وفى نفس الموضوع يكتب ابن رشيق فى كتابه: "العمدة فى محاسن الشعر وآدابه": "وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب، واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء، وإن ذلك استدراج إلى ما بعده. ومقاصد الناس تختلف: فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال، وتوقع البين والإشفاق منه، وصفة الطلول والحمول، والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومَرّ النسيم، وذكر المياه التي يلتقون عليها والرياض التي يحلّون بها من خُزَامَى وأُقْحُوان وبَهَار وحَنْوة وظَيَّان وعَرَار وما أشبهها من زهر البرية الذي تعرفه العرب وتنبته الصحاري والجبال وما يلوح لهم من النيران في الناحية التي بها أحبابهم، ولا يعدون النساء إذا تغزلوا ونسبوا، فإذا وقع مثل قول طرفة:

وفي الحيّ أَحْوَى ينفُض المَرْدَ شادنٌ ... مُظَاهِرُ سِمْطَيْ لؤلؤٍ وزبرجدِ

فإنما هو كناية بالغزل عن المرأة. وأهل الحاضرة يأتي أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحرس والأبواب، وفي ذكر الشراب والندامى والورد والنسرين والنيلوفر وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانية، وفي تشبيه التفاح والتحية به ودس الكتب وما شاكل ذلك مما هم به منفردون. وقد ذكروا الغلمان تصريحاً، ويذكرون النساء أيضاً: منهم من سلك في ذلك مسلك الشعراء اقتداء بهم، واتباعاً لما ألفته طباع الناس معهم، كما يذكر أحدهم الإبل ويصف المفاوز على العادة المعتادة، ولعله لم يركب

جملاً قط ولا رأى ما وراء الجبانة، ومنهم من يكون قوله في النساء اعتقاداً منه، وإن ذكر فجَرْياً على عادة المُحْدَثين وسلوكاً لطريقتهم لئلا يخرج عن سلك أصحابه، ويدخل في غير سلكه وبابه، أو كناية بالشخص عن الشخص لرقته، أو حب رشاقته. وهذا مما لا يطلب عليه شاهد لكثرته، إلا أني أتلمح في هذا المكان بقول أبي نواس:

عليّ عينٌ وأذن من مذكَّرة   موصولة بهوى اللوطي والغَزِل

كلاهما نحوها سام بهمته   على اختلافهما في موضع العمل

والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز، وما أنضى من الركاب، وما تجشم من هول الليل وسهره، وطول النهار وهجيره، وقلة الماء وغؤوره، ثم يخرج إلى مدح المقصود ليوجب عليه حق القصد، وذمام القاصد، ويستحق منه المكافأة...

ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو الوثب، والبتر، والقطع، والكسع، والاقتضاب: كل ذلك يقال. والقصيدة، إذا كانت على تلك الحال، بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء، وهي التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطب. قال أبو الطيب:

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدَّمُ   أَكُلُّ فصيحٍ قال شعراً متيَّمُ؟

فأنكر النسيب. وزعموا أن أول من فتح هذا الباب وفتق هذا المعنى أبو نواس بقوله:

لا تبك ليلى، ولا تطربْ إلى هندِ   =   واشرب على الورد من حمراءَ كالوردِ

وقوله، وهو عند الحاتمي، فيما روى عن بعض أشياخه، أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين:

صفة الطلول بلاغة الفدم   فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر، وأخذ عليه ألا يذكرها في شعره قال:

أَعِرْ شعرك الأطلال والمنزل القَفْرا   فقد طالما أزرى به نعتُك الخمرا

دعاني إلى نعت الطلول مسلَّطٌ   تضيق ذراعي أن أردَّ له أمرا

فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً   وإن كنتَ قد جشمتني مركباً وَعْرا

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام، وإلا فهو عنده فراغ وجهل. وكان شعوبي اللسان، فما أدري ما وراء ذلك، وإن في اللسان وكثرة ولعه بالشيء لشاهداً عدلاً لا تُرَدّ شهادته...".

لقد كان أبو نواس ذا أصل فارسي، وكان متمردا ومدمنا للخمر، وليس لدى الفرس خيام ولا ترحال ولا أطلال، فلم يكن يمثل له الوقوف على الأطلال نسقا مفهوما، فضلا عن أن يكون مقبولا، بله أن يكون فيه ما يدعو إلى الفخار. ومن هنا نستطيع أن نفهم سر حملته الشعواء على الأطلال والدِّمَن وعلى وقوف الشعراء من عرب وغير عرب على الأطلال والدمن فى أوائل قصائدهم. إنه نسق ثقافى لا يجد له صدى فى نفسه ولا يحس بالارتباط به على أى نحو، وإن كان قد عاد إلى الوقوف على الأطلال فى بعض أشعاره فيما بعد، وهو ما يدل على أنه فشل فى محاولته تحطيم هذا النسق الثقافى المغروس فى أعماق النفس العربية ونفس من تشرَّب من غير العرب التمسك بهذا النسق، وظل الشعراء أوفياء له حتى بدايات العصر الحديث.

ذلك أن الوقوف على الأطلال قد صار تقليدا فنيا، أى "نسقا ثقافيا" بمصطلح الوقت، لدى كثير من الشعراء، فكان من الصعب جدا على هؤلاء الشعراء المتمسكين به اطِّراحه جملة وعلى الفور، بل اقتضى ذلك الزمنَ الطويل حتى مر جزء غير قليل من العصر الحديث. وممن وقفوا على الرسوم والأطلال من شعراء العرب فى عصرنا المرحوم أحمد فارس الشدياق:

لا تسألاني عن رُبًى ووهادِ	أو عن طلول قد عَفَتْ أو وادِ
فلطالما أجريتُ دمعيَ عندها	وكذاك ذاب من الجماد فوادي
لو أن طول النَّحْب يُغْنِي ناحِبًا	لَاعْتَضْتُ عن سهري بطِيبِ رقادي
إني على سقمي تحملت النوى	فإلى متى العدمان في إيجاد؟
إن طال تحمالي فكم من قائل:	أرأيتَ من حُمِلوا على الأعواد؟
وإلامَ أُحْرَم، والعناءُ مُلازِمي	حتى غدوتُ طريدة بطرادي؟
يعدونيَ المطلوب موعوداً به	وينالـه غيري بلا ميعاد

أَمِـــنَ ادكّـــار الرَّبْـــع أظفـــرُ بالمـــنى فتحـــول مـــا بيـــني وبـــين ســـهادي؟

أيـــــن المـــــنى، وأحبـــــتي مبثوثـــــة في كـــــل حاضـــــرة وكـــــل بـــــلادِ؟

ومنهم أيضا أبو الهدى الصيادى، وهو عالم دين سورى معروف، وكان لصيقا بالسلطان عبد الحميد، وتوفى عام ١٩٠٩م:

لي في بـــــوادي الـــــرقمتين غـــــزالُ هجمـــــتْ علـــــيّ لأجلـــــه العُـــــذَّالُ

وفَنِيـــــتُ إذ نار تـــــؤجّ بأضـــــلعي والعـــــين يـــــدْفُق دمعهـــــا الـــــسيَّالُ

والبعـــــد مـــــزَّق مهجـــــتي بنـــــصاله يا مـــــا يُـــــسَلُّ مـــــن البعـــــاد نـــــصالُ

...

أغـــزالَ وادي الـــرقمتين، وأنـــت قـــد غَـــشَّاك مـــن لطـــف الجمـــال جـــلالُ

رفقًـــــا بمحـــــروق الفـــــؤاد مُوَلَّـــــهٍ قـــــد أقعدتْـــــه مـــــن النـــــوى الأثقـــــالُ

...

يبكـــي الطلـــول لأجـــل وجهـــك مغرمـــا ولأهلهـــــا قـــــد تُنْـــــدَب الاطـــــلالُ

ولَـــــــرُبَّ بـــــــرقٍ بالغُـــــــوَيْر أثاربي لـــذوي الحِمَـــى، ولكـــلِّ حـــالٍ حـــالُ

ومنهم كذلك إبراهيم اليازجى الشاعر والكاتب اللبنانى الشهير:

أحبابَنـــا، هَـــل لِـــذاك العَهْـــد تـــذكارُ يُـــدْنِي إلَـــيكُم إذا لَم تُـــدْنِنا الـــدارُ؟

بِنْـــتُم، فَلَـــمْ يُغْنِنـــا مِـــن أُنْـــسِكُم سَـــكَنٌ يومـــاً وَلا راقَنـــا مِـــن بعـــدكم جـــارُ

تجـــري المُـــنَى ســـانِحاتٍ في خَـــواطِرنا ومـــا لَهـــا غَيْـــرَ جَمْـــعِ الـــشملِ أَوطـــارُ

قَـــد قَطَّـــع البُعْـــدُ نَجْـــوانا وَمـــا بَرِحَـــتْ في القلـــب مـــنكم أَحاديـــثٌ وَأَسْـــرارُ

نَبِيـــتُ في الرَّبْـــعِ نَسْتَـــسْقي الغَمَـــامَ لكـــم وَقَـــد سَـــقَتْ رَبْعَكـــم للـــدمعِ أمطـــارُ

حَـــــقٌّ عَلَيْنــــــا، وَإِن غِبْــــــتُم، زيارتُــــــه فهـــــل نـــــراكم وَأنـــــتم فيـــــهِ زُوَّارُ؟

أَمـــا الكَـــرَى فَـــسَلوا عَنـــهُ الخَيـــالَ إذا وارتْـــهُ مِـــن ظُلمـــاتِ اللَيـــلِ أســـتارُ

يطـــوفُ مـــن حولنـــا حـــتى يعـــود وَقَـــد أَصـــــابَهُ مـــــن رشـــــاشِ الـــــدمعِ آثارُ

ومنهم شاعر كبير بحجم أمير الشعراء أحمد شوقى رغم ثقافته الفرنسية واطلاعه على شعر الفرنسيس ونثرهم ونقدهم، وإنجازاته فى ميدان المسرح والرواية، إذ قال مثلا:

أُنادي الرسـمَ لـو مَلَـكَ الجَـوابا	وَأَجْزِيـهِ بِـدَمْعِيَ لـو أَثابا
وَقَـلَّ لِحَقِّـهِ العَـبَراتُ تَجْـري	وَإِن كانَـت سَـوادَ القَلـبِ ذابا
سَـبَقْنَ مُقَـبِّلاتِ التُّـرْبِ عـنّي	وَأَدَّيْـنَ التحيَّـةَ وَالخِطـابا
فَنَثْـرِي الـدمعَ فِي الـدِّمَنِ البَـوَالي	كَنَظْمـي في كَواعِبِهـا الـشبابا
وَقَفْـتُ بِهـا كمـا شـاءتْ وَشـاؤوا	وقوفـاً عَلَّـمَ الـصبرَ الـذهابا
لَهـا حَـقٌّ، وَلِلأَحبـابِ حَـقٌّ	رَشَـفْتُ وِصـالَهُم فيهـا حبـابا

ومنهم الشاعر المصرى أحمد نسيم:

أزف الرحيـل، فهـل بلغـت مرامـا؟	ودنا الفـراق، فهـل شَـفَيْت أُوَامـا؟
قـف وقفـةً في الحـي يُقْرِئْـك الهـوى	قبـل الـوداع تحيـة وسـلاما
بالله لا تـنس الربـوع وأهلهـا	واذكـر هنـاك محبـة وغرامـا

...

وانظـر الى الرَّبْـع المُحِيـل، فعينـه	ممـا بـه تُـذْرِي الـدموع سـجاما
لعـب الزمـان بـه، فقطَّـب وجهَـه	حـزناً، وعـبَّس ثغـرَه البـسَّاما
لِلّه أيـة لوعـة عـصفت بنـا	تركـت دمـوع المقلتـين ركامـا؟
لا تمنعـوني في المنـازل وقفـةً	تـشفي عُـضَالا في الفـؤاد عُقَامـا

... وهكذا.

ثم ظهر تيار تجديدى حمل أصحابه على تقليد الشعراء المحدثين لشعراء العرب القدماء فى تعدد موضوعات قصائدهم وافتتاحها بالوقوف على الأطلال أو بالغزل، ومن ثم ينعدم الاتساق بين الافتتاح وبين الموضوع الأساسى للقصيدة، كما فعل العقاد على سبيل المثال فى كتاب "الديوان" حين هاجم شوقى لافتتاحه إحدى قصائده الوطنية التى استقبل بها الوفد المصرى لدن عودته من أوربا بعد الحرب العالمية الأولى قائلا:

اِثْنِ عِنَانَ القلبِ واسْلَمْ بهِ مِنْ رَبْرَبِ الرملِ ومن سِرْبِهِ

إذ قال: "لقد كان الرجل من الجاهلية يقضي حياته على سفر: لا يقيم إلا على نية الرحيل، ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل، بين نُؤْيٍ تهيج ذكراه، ومعاهد صبوة تُذْكِي هواه، هِجِّيراه كلما راح أو غدا حبيبةٌ يحن إلى لقائها، أو صاحبة يترنم بموقف وداعها. فإذا راح ينظم الشعر في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة، ثم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب، فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان.

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء إلى ملوك الحيرة وغسان وفارس، وينتجعون الأمراء والأجواد في أقاصي بقاع الجزيرة، يحملون إليهم المدائح، يبدأونها أحيانًا بوصف ما تجشَّموه في سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشُّقَّة، وأحيانًا كانوا يصفون الناقة التي تُقِلّهم وخفة سيرها وصبرها على الظمإ والطَّوَى ومواصلتها الليل بالنهار سعيًا إلى الممدوح، كناية عن الشوق إلى لقائه. وكان الغرض في الحالتين واحدًا، وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مثوبته، فكأن الابتداء بالغزل ووصف المَطِيّ في قصائدَ نُظِمَتْ في المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يُعَدّ من باب اللغو والتقليد.

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء، ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والأستاذ، فأقاموا المتقدمين أساتذة، واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها. وكان شعراء البادية لا يزالون يَفِدون على الأمصار، فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين، فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء إلى الفرق بينهما. ومن شعراء الحَضَر من تقدَّم تقدمًا حسنًا فنعى على المتقدمين بكاء الدِّمَن والطلول، وأفرد كثيرًا من الغزل في قصائد قائمة بذاتها. وأشهر هؤلاء أبو نواس. ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب، ويتجنب ذلك في العظائم كما صنع أبو تمام في يائيته المشهورة التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية، وفي رائيته التي أولها:

الحق أبلج، والسيوف عَوَارِ فحَذَارِ من أُسْد العرينِ! حَذَارِ!

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة، وذكر نهوضه إلى الروم فقال مفتتحًا:

ذي المعالي، فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَى   هكذا هكذا، وإلا فلا لا

حالُ أعدائنا عظيمٌ، وسيف الد   دولة ابن السيوف أعظم حالَا

ومضى فيها كلها على هذا النمط. وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم، فاستهل قصيدته بالبيت السيار:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ   هو أولٌ، وهي المحل الثاني

وكما صنع الشريف وأضرابه في كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها. ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح، وقل الابتكار أو انعدم، ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الأمير في المدينة، وإنه لعلى خطوات من داره، فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التي اجتازها والمطايا التي أضناها وحقوق الصبابة التي قضاها. وكان الواحد من هؤلاء يزجّ بغزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمَّة والجوائح الطامَّة. هؤلاء هم المقلدون الجامدون. والآن، وقد بادت الطلول والقصور، ونُسِخَتْ آية المديح بمطالعه ومقاطعه، وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال، يجيء شوقي فيتماجن ويتصابى في مطلع قصيدة يتنظر بها مستقبل أمة ويقول فيها:

قد صارت الحال إلى جِدّها   وانتبه الغافلُ من لَعِبِهْ

ويجئ أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين إنه مجدد وإنه عصري، بل إنه شاعر العصر.

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لأجله إتيان هذه المجانة والعبث؟ فقد يكون له عذر الإجادة لو كان مبتدعًا فيه أقل ابتداع، وإنْ حقَّ عليه اللومُ لوضعه في غير موضعه، ولكنه هو الغزل الرث الذي لِيكَتْ معانيه وأوصافه، ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون. فأيُّ سُوقَةٍ من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضح بها شعر أمير الشعراء؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطِّعي العروض لم يقل في وصفه: "قَدٌّ يتثنى كالبانة"، "أردافٌ مرتجه كالكثبان" أي كأكوام الرمل، "خدٌّ كالورد"، "حِسَان كالأقمار أو كالنجوم"، "مشية كمشية القطا"، "عينان لهما سحر هاروت وماروت"، "ظبية الرمل"... إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة. وهذه هي روح العصر فيما يحدسون!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه: فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة، وأنها خلْوٌ من الأسباب والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم. وأما الكلام الشعري فيه ففي بيت القصيد أو بيتيه وهما:

قطارهم كالقطر هز الثَّرَى   وزاده خِصْبًا على خِصْبِهِ

لولا استلامُ الخلق أرسانَه   شَبَّ فنال الشمس من عُجْبِهِ

وإنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح، ولو كان للشاعر فضل في التناسب المحكم بينهما، لكان أشعر الشعراء ولكنْ مُكْرَهٌ أخوك لا بَطَل".

ولو كان العقاد ناقدا ثقافيا لقال إن هذا النسق الشعرى لا يتسق مع حياتنا الحضرية الحديثة، ومن ثم لا ينبغى التمسك به بل الواجب اطِّراحه حتى لا يثقل خطونا الإبداعى. ويكفى أن هذا النسق مكث بضعة عشر قرنا يستفتح به كثير جدا من الشعراء قصائدهم رغم أن معظمهم لم يكونوا من ساكنى البادية ولا يعرفون الأطلال ولا الدِّمَن والرسوم ولا يقفون فيها يذكرون حبائبهم ويبكون ماضيهم ويسترجعون ذكرياتهم. كذلك نادى العقاد وغيره من الشعراء والنقاد المجددين بأن تكون القصيدة كالجسد الحى الواحد كل شىء فيه قارٌّ فى موضعه لا يتقدم ولا يتأخر، وأن تدور من أولها لآخرها حول موضوع واحد، ويسودها ذات الجو النفسى. وكانت نتيجة جهود العقاد وأضرابه أن اختفى تماما الوقوف على الأطلال وما يشبهه من شعرنا الحديث، وبخاصة فى شعر التفعلية الذى قطع كثيرا من الوشائج بينه وبين شعرنا القديم، واختفى هذا النسق الثقافى الفنى وصار مجرد ذكرى.

صحيح أن إبراهيم ناجى مثلا قد نَظَم قصيدة بديعة قل أن يوجد لها نظير لا فى شعرنا ولا فى شعر الأمم الأخرى فى وصف بيت الحبيبة حين رحلت عنه، ومر هو به، فلم يجد سوى العدم والسكون والوحشة والبِلَى والعنكبوت بعدما كان كعبته التى يطوف بها ويصلى إليها صباحا ومساء، ويسجد ويعبد الحسن المقيم بها، فرفرف قلبه كالذبيح، ولم تُجْدِ معه المناشدة بالاتِّئاد، لكن لا علاقة لشىء من ذلك بالأطلال والصحراء والرسوم والدمن، بل الحديث فى القصيدة إنما يدور حول بيت عصرى له دَرَجٌ ونوافذ قد نسج العنكبوت عليها خيوطه، فضلا

عن أنه قد جعل القصيدة كلها عن غرامه اللاهب بحبيبة القلب التى ولت وولى معها كل شىء جميل، فلم يعد البيت يضحك نوره له كلما هل عليه كما كان يصنع فى الماضى بل لقيه بوجه جامد متجهم كأنه لا يعرفه ولا سبق له أن رآه. إنه موضوع مستقل تمحَّضَتْ له القصيدة كلها، ولم يكن مجرد مقدمة تُوَطِئِّ لما يريد الشاعر أن ينظم فيه من غرض أو أغراض أخرى:

هذه الكعبةُ كنّا طائفيها   والمصلّين صباحاً ومساء

كم سجدْنا وعبدْنا الحسن فيها   كيف بالله رجعنا غرباء؟

دارُ أحلامي وحبي لَقِيَتْنا   في جمود مثلما تَلْقَى الجديد

أنكرتْنا، وهي كانت إن رأتنا   يضحك النور إلينا من بعيد

رفرف القلبُ بجنبي كالذبيحْ   وأنا أهتف: يا قلب، اتَّئِدْ

فيجيبُ الدمعُ والماضي الجريحْ:   لِمَ عُدْنا؟ ليت أنّا لَمْ نَعُدْ

لِمَ عُدنا؟ أوَلَمْ نَطْوِ الغَرَامْ   وفَرَغْنا مِن حنينٍ وألَمْ

ورَضِينا بسكونٍ وسلامْ   وانتهينا لفراغٍ كالعَدَمْ؟

أيها الوكر، إذَا طار الأليفْ   لا يَرَى الآخرُ معنًى للسماءْ

ويَرَى الأيامَ صُفْراً كالخَرِيفْ   نائحاتٍ كرياح الصَّحراءْ

آهِ مما صنع الدهر بنا   أَوَهَذَا الطللُ العابسُ أنت؟

والخيالُ المطرقُ الرأس أنا؟   شَدَّ ما بِتْنا على الضنك وبِتّ!

أين ناديكَ؟ وأين السُّمَّرُ؟   أين أهلوك بساطاً وندامَى؟

كلما أرسلتُ عيني تنظرُ   وثَبَ الدمعُ إلى عيني وغامَا

موطنُ الحُسْن ثَوَى فيه السأمْ   وسَرَتْ أنفاسُه في جَوِّهِ

وأناخَ الليلُ فيه وجَثَمْ   وجَرَتْ أشباحُه في بَهْوِهِ

والبِلَى أبصرتُهُ رأي العِيَان   ويداه تنسجان العنكبوت

صحتُ: يا ويحك! تبدو في مكان   كل شيء فيه حيٌّ لا يموت

كل شيء من سرور وحَزَنْ   والليالي من بهيجٍ وشَجِي

وأنا أسمـــــعُ أقـــــدامَ الـــــزمنْ	وخُطَـا الوحــدة فــوق الــدَّرَجِ
رُكْـــنِيَ الحــاني ومَغْنــايَ الــشفيق	وظــلالَ الخلــد للعــاني الطَّلِــيحْ
عَلِـــم الله لقـــد طـــال الطريـــقْ	وأنا جئتُــــك كيمــــا أســــتريحْ
وعلـــى بابـــك أُلْقِـــي جَعْبَـــتي	كغريــبٍ آبَ مــن وادي المِحَــنْ
فيـــك كَـــفَّ الله عـــنى غـــربتي	ورَسَـا رحلـي علـى أرض الـوطنْ
وطـــني أنـــتَ، ولكـــني طريـــدْ	أبـــديُّ النفـــي في عـــالَمِ بؤســـي
فـــإذا عـــدت فللنجـــوى أعـــودْ	ثم أمـضي بعـد مـا أُفْـرِغُ كأسـي

ولقد حرصت على سوق القصيدة كاملة من شدة افتتانى بها منذ قرأتها فى الكتاب الخاص بمقرر اللغة العربية فى التوجيهية عام ٦٥– ١٩٦٦م، فكانت طلقة استقرت فى سويداء قلبى، طلقة إبداعية تحيى ولا تميت، فأنعشتنى وصارت تزودنى منذئذ بالمشاعر الجياشة الراقية البهيجة رغم ما يغلف أبياتها كلها من حزن وأسى، لكنها عبقرية ناجى، التى صيرت الأحزان بلسما وسعادة.

ورغم اختفاء النسق الطللى من حياتنا الأدبية منذ وقت غير قصير بتأثير الشعراء والنقاد التجديديين فقد قرأت للدكتور مُحَمَّد عبد المطلب فى كتابه: "القراءة الثقافية" تعليقا على ما كتبته الشاعرة العراقية نازك الملائكة عن الظروف التى نظمت فيها قصيدتها فى الكوليرا عام ١٩٤٧م حين تفشت فى مصر وحصدت مئات الأرواح، إذ قالت إنها كانت مرتبكة فى البداية لَدُنْ نظمها تلك القصيدة بخصوص الشكل الفنى الذى ينبغى أن تخرج فيه، ثم ختمت كلامها فى ذلك الموضوع بأنها تركت بيتها ولجأت إلى بيت كان تحت الإنشاء، ولم يكن هناك عمال يعملون فيه فى ذلك اليوم لأنه يوم جمعة، فوفر لها السكون والهدوء اللازمين فى مثل تلك الظروف مما كانت تفتقده فى بيتها، وبقيت هناك إلى أن انتهت من تلك القصيدة فى جلسة واحدة.

وكان تعليق د. عبد المطلب على القصيدة وما صنعته صاحبتها فى ذلك اليوم حين نظمتها هو أن الشاعرة قد استعادت، حين التجأت إلى البيت الخالى الهادئ المجاور لبيت أسرتها، الحالة الشعرية التى كان يقصد بعض الشعراء القدامى دخولها، وأن مسلكها ذاك يمثل

توثيقا للعودة إلى الحالة الشعرية التراثية، وبخاصة حالة الوقوف على الطلل، وأن هذا لا يتنافى مع البيت الذى لجأت إليه، إذ كان بيتا تحت الإنشاء، فهو قريب من البيت الطللى فى مظهره الناقص، فضلا عن خلوه من البشر فى ذلك اليوم كما أشرنا، وهو ما يوازى خلو الطلل من البشر، وأن هذا المظهر البيئى للطلل التراثى قد تحول إلى مظهر اجتماعى بفعل الرحيل والافتراق الذى يباعد بين الأحباب والأصدقاء، وأن الطلل قد صعَّد من مظهره الاجتماعى ليكون حالة نفسية ممتلئة بالحنين والشوق والحزن، وهو ما حوله إلى طقس إبداعى شبه مقدس يبدأ به الشاعر قصيدته.

لكن هناك بضع ملحوظات على ما جاء فى هذا الكلام: فأولا كانت قصيدة الكوليرا هى أولى قصائد التفعيلة لدى شاعرتنا العراقية. وقصائد التفعيلة أبعد ما تكون عن الشعر القديم الذى تبتدئ كثير من قصائده المدحية بالذات بالوقوف على الأطلال. كما أن الطلل هو عبارة عن بقايا بيت كان قائما يعج بالحياة ثم انتقل عنه أصحابه فقوضوا خيامهم ومضوا فى الصحراء العريضة وخلفوه للوحشة والوحش، ومر الشاعر بالمكان المهجور الموحش الذى كانت تملؤه حبيبته حياةً وأنسًا وبهجةً أيامَ كانا يعيشان فيه مع قبيلتيهما فأثار فى نفسه الأحزان واللوعات، أما البيت الذى التجأت إليه الشاعرة العراقية فهو بيت فى سبيله إلى النهوض والارتفاع لا طلل خرب لأنه كان تحت الإنشاء. أى أنه كان يسير فى عكس اتجاه الطلل. وقد لجأت إليه الشاعرة عامدة متعمدة هروبا من ضجة بيتها ونشدانا للهدوء والسكون والسكينة لبعض الوقت حتى تنتهى من نظم قصيدتها ثم تعود إلى بيتها مرة أخرى فى دقيقة أو دقيقتين، ولم تكن مارة به مصادفة فى سفرها عبر الصحراء المتناوحة. وهو فوق ذلك كان لصق بيت أسرتها، فلم تكن حين خلت بنفسها فيه تشعر بوحشة ولا حزن ولا تؤودها الذكريات، بل كان تفكيرها يدور حول ضحايا الكوليرا فى مصر. وهذا أمر أبعد ما يكون عن الحب والنسيب كما هو واضحٌ بَيِّنٌ لا يحتاج إلى برهان.

وإذا كان الطلل الصحراوى يمثل الوحشة والانقطاع فإن البيت المذكور يقوم وسط العمران المدنى حيث لا وحشة ولا انقطاع. وهذه سمة فارقة أخرى بين الطلل الصحراوى وبين ذلك البيت الحضرى. وفوق هذا ليس هناك أحباب رحلوا عن المكان، بل أناس ينتظرون

إكمال البيت لينتقلوا إليه ويقيموا فيه. كذلك فكلام نازك الملائكة عن البيت الذى كان تحت الإنشاء لم يرد فى القصيدة التى نظمتها، بل ورد فى ذكرياتها التى سطرتها عن ذلك الموضوع فيما بعد. والوقوف على الأطلال، ذلك الذى يسميه الزميل: "الطقس المقدس"، وما هو بمقدس كما رأينا وتَيَقَّنّا، ليس كلاما يقال خارج القصيدة بل هو جزء أصيل من القصيدة ذاتها. دعنا من أنه أول تلك الأجزاء. ثم إن الوقوف على الأطلال معناه أن القصيدة بناء متعدد الأغراض، بينما قصيدة الكوليرا تقتصر على موضوع واحد من أولها إلى آخرها. وأخيرا فإن الوقوف على الأطلال اختصاص رجالى حتى إنى "لا أذكر" امرأة وقفت على الأطلال، اللهم إلا ما كان من إشارة ليلى الأخيلية إلى ذلك من بعيد فى قصيدة يتيمة لها، وكانت الإشارة تذكرا لأهلها لا لحبيبها، وهى القصيدة التى قالتها فى مديح مروان بن الحَكَم:

طَرِبْتُ وما هذا بساعَةِ مَطْرَبِ ... إلى الحي حَلّوا بَيْنَ عاذٍ فجُبْجُبِ
قَدِيماً فأَمْسَتْ دارُهُمْ قَدْ تَلَعَّبَتْ ... بِها خَرَقاتُ الريحِ من كُلِّ مَلْعَبِ
وكَمْ قَدْ رَأَى رائيهِمُو وَرَأَيْتُهُ ... بِها لِيَ مِنْ عَمٍّ كَريمٍ ومِنْ أَبِ
فَوارِسُ مِنْ آلِ النَّفَاضَةِ سادَةٌ ... ومِنْ آلِ كَعْبٍ سُؤْدَدٌ غَيْرُ مُعْقَبِ

ثم ها هى ذى نازك الملائكة بنفسها تبدى رأيها فى مقدمة ديوانها: "شظايا ورماد" الصادر عام ألف وتسعمائة وتسعة وأربعين من الميلاد تجاه الوقوف على الأطلال وكل ما يتعلق بالشعر العربى القديم من وزن وقافية ومعان وعبارات وألفاظ، فتقول: "ألم تصدأ هذه اللغة لطول ما لامستها الأقلام والشفاه منذ سنين وسنين؟ ألم تألفها أسماعنا، وترددها شفاهنا، وتَعْلِكها أقلامنا، حتى مَجَّتْها وتقيأتها منذ قرون، ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون؟ لقد سارت الحياة، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحاسيس، ومع ذلك ما زال شعرنا صورة لـ"قِفَا نَبْكِ" و"بانتْ سعادُ"، والأوزان هي هي، والقوافي هي هي، وتكاد المعاني تكون هي هي! ويقولون: ما للغة؟ وأية ضرورة إلى منحها آفاقاً جديدة؟ فينسَوْن أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت. والواقع أن اللغة العربية لم تكتسب بعدُ قوةَ الإيحاء التي تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التي تملأ أنفسنا اليوم. لقد كانت يوماً لغة موحية

تتحرك وتضحك وتبكي وتعصف، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل".

ثم تمضى متهمةً الشعرَ العربى القديم كله بأنه شعر لا يصف سوى المظاهر الخارجية. وهو رأى قاس تمام القسوة، وفيه تسرع ومبالغة غير معقولة ولا مقبولة، لكن دلالته ساطعة، ألا وهى أن الشاعرة لا يمكن أن يكون الوقوف على الأطلال قد شغلها أو خطر لها أو تأثرت به على أى نحو عندما كانت تنظم قصيدة "الكوليرا". بل إنها لتؤكد أن كل شىء فى الشعر العربى من ألفاظ وأساليب وأوزان وقوافٍ سوف يصيبه زلزال يأتى عليه، وأننا لا بد أن نتأثر بأشعار الأمم الغربية المتقدمة، أو نكفّ عن الاطلاع على ثقافتها وآدابها. ولا يمكن من تقول هذا الكلام أن تفكر، وهى تنظم قصيدة "الكوليرا"، فى استرجاع نسق الوقوف على الأطلال. وهذا إن كانت النساء يقفن على الأطلال. وهذه هى القصيدة أضعها بين يدى القراء ليتيقنوا من صدق ملاحظاتى تجاه ما قاله كل من الكاتبين:

سكَن الليلُ
أصغِ إلى وَقْعِ صَدَى الأنَّاتْ
في عُمْق الظلمةِ تحتَ الصمتِ على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ
***
في كل فؤادٍ غليانُ
في الكوخِ الساكنِ أحزانُ
في كل مكانٍ روحٌ تصرخُ في الظُلُماتْ
في كلِّ مكانٍ يبكي صوتْ
هذا ما قد مَزّقَهُ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ
يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

***

طَلَع الفجرُ

أصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ

في صمتِ الفجْر أصِخْ. انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أمواتٍ، عشرونا

لا تُحْصِ. أصِخْ للباكينا

اسمعْ صوتَ الطِّفْل المسكين

مَوْتَى مَوْتَى. ضاعَ العددُ

مَوْتَى موتَى. لم يَبْقَ غَدُ

في كلِّ مكانٍ جَسَدٌ يندُبُه محزونْ

لا لحظَةَ إخلادٍ لا صَمْتْ

هذا ما فعلتْ كفُّ الموتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

***

تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

الكوليرا

في كَهْفِ الرُّعْب مع الأشلاءْ

في صمْت الأبدِ القاسي حيثُ الموتُ دواءْ

استيقظَ داءُ الكُولِيرَا

حقْدًا يتدفّقُ موْتورا

هبطَ الوادي المرِحَ الوَضّاءْ

يصرخُ مضطربًا مجنونا

لا يسمَعُ صوتَ الباكينا

في كلِّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ

في كوخ الفلاّحة، في البيتْ

لا شيءَ سوى صرَخات الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
***
في شخص الكوليرا القاسي ينتقمُ الموتْ
الصمتُ مريرْ
لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ
حتّى حَفّارُ القبر ثَوَى لم يبقَ نَصِيرْ
الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ
الميّتُ من سيؤبّنُهُ؟
لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيرْ
الطفلُ بلا أمٍّ وأبِ
يبكي من قلبٍ ملتهِبِ
وغدًا لا شكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ
يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
يا مصرُ، شعوري مزَّقَهُ ما فعلَ الموتْ!

لا بـل إن نازك الملائكـة، حينمـا عالجـت فى إحـدى قـصائدها العمودية موضـوع حـب قيس وليلى، لم تتحدث عن الأطلال بكلمة واحدة بل تناولت القصة بروحٍ معاصرةٍ تماما.

فهذا نسق ثقافى من الأنساق التى عرفها أدبنا القديم وما قاله بشأنه شعراؤنا ونقادنا القدامى، وقد فرغنا منه. والآن إلى نسق آخر من أنساق الثقافة العربية القديمة هو نسق المنافرة والمفاخرة. والمنافرة هى المحاكمة، ولفظها مأخوذ من "النَّفَر"، فكانوا إذا تنازع الرجلان وادعى كل واحد منهم أنه أعزُّ نفراً من صاحبه تحاكموا إلى العلامة، فمن فضّله منهما قيل: نفَّره عليه، أي فضَّل نَفَره على نَفَر الآخر. فمن هذا أُخِذَت المنافرة، وقال زهير:

فـــإن الحـــقّ مقطعـــه ثـــلاثٌ   يمـــينٌ أو نِفَـــارٌ أو جـــلاءُ

وقد ألف بعضهم الكتب فى المنافرات. ومن أشهر المنافرات فى تاريخ العرب منافرة عبد المطلب وحرب بن أمية. قال ابن حبيب فى كتابه: "المنمَّق فى أخبار قريش": "كان رجل من اليهود من أهل نجران يقال له: "أذينة" في جوار عبد المطلب بن هاشم، وكان يتسوق في أسواق تهامة بماله، وإن حرب بن أمية غاظه ذلك، فألب عليه فتياناً من قريش وقال لهم: هذا العِلْج الذي يقطع الأرض إليكم ويخوض بلادكم بماله من غير جوار ولا أمان! والله لو قتلتموه ما خفتم أحدا يطالب بدمه. قال: فشد عامر بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي عليه وصخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة فقتلاه، وكان معهما ابن مطرود بن كعب الخزاعي، قال: فجعل عبد المطلب لا يعرف له قاتلا حتى كان بَعْدُ، فعلم من أين أتى، فأتى حربَ بنَ أمية فأنَّبه لصنيعه وطالب بدم جاره، فأبى حرب ذلك عليه وانتهى بهما التماحك واللجاج إلى المنافرة، فجعلوا بينهما النجاشي ملك الحبشة، فأبى أن ينفِّر بينهما، فجعلا بينهما نُفَيْل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب فأتياه. فقال لحرب بن أمية: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأوسم منك وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل منك صفدا، وأطول منك مذوداً؟ وإني لأقول هذا، وإن فيك لخصالاً: إنك لبعيد الغضب، رفيع الصيت في العرب، جلد المريرة، تحبّك العشيرة، ولكنك نافرت منفَّراً. قال: فنفَّر عبدَ المطلب على حرب، فغضب حرب من ذلك وأغلظ لنفيل وقال: من انتكاس الدهر أنْ جعلناك حكما... قال: فأراد حرب بن أمية إخراج بني عدي بن كعب من مكة، فاجتعمت لذلك بنو عبد شمس بن عبد مناف وبنو نوفل بن عبد مناف، وغضب لعبد المطلب بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة، وغضبت بنو سهم لبني عدي لأنهم من الأحلاف فمنعوهم. فلما رأى ذلك حرب بن أمية كف عنهم".

ومن المنافرات القديمة أيضا، ولكن بعد الإسلام، ما جاء فى "إيضاح شواهد الإيضاح" لأبى على القيسى: "كانت بين أبى الفرزدق وبين سحيم بن وثيل منافسة، فنحر غالبٌ ناقةً وأمر أن يُصْنَع منها طعام، وجعل يهدي منها إلى قوم من بني تميم لهم جلالةٌ جفاناً من ثريد، ووجه منها إلى سحيم بن وثيل جفنة، فكفأها، وضرب الذي أتاه بها، وقال: "أمفتقرٌ أنا إلى

طعامه؟". فنحر هو ناقة، فوقعت المنافرة بينهما، فنحر غالب ناقتين، ونحر سحيم ناقتين، ثم نحر غالب ثلاثاً، ونحر سحيم ثلاثاً، فعمد غالب إلى مئة ناقة فنحرها، فغُلِب غالبٌ. فلما انصرف الناس إلى الكوفة قال بنو رياح لسحيم: جررت علينا عار الدهر! هلا نحرت كما نحر، وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين؟ فاعتذر بأن إبله كانت غائبة، ثم عمد إلى ثلاثمائة ناقة وعقرها، وقال للناس: شأنكم بها. فقال علي بن أبي طالب ﷺ: هذا مما أُهِلَّ به لغير الله، فلا يأكلْ أحد منها شيئاً. وأمر بطرح الناس عنها، فأكلتها السباع والكلاب. فكان الفرزدق يفخر بذلك".

وفى القرآن إشارات إلى تلك العادة الجاهلية: ففى سورة "الكهف" نسمع صاحب الجنتين المغرور بماله وآله يحاور الرجل الصالح المؤمن بالله قائلا: "أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا". وكان الكفار من كل أمة يعترضون على رسولهم بأنهم أكثر أموالا وأولادا، وما هم بمعذَّبين حسبما يخبرنا القرآن الكريم فى سورة "سبأ". وفى القرآن سورة تسمى: سورة "التكاثر" إشارة إلى ما كان يصنعه كفار قريش من مكاثرة بعضهم بعضا بالأموال والأولاد افتخارا وطلبا للغلبة والانتصار على منافسيهم. وحين جاءهم الرسول بالإسلام كان مما عابوه به أنه أبتر، أى بلا أولاد ذكور لأن أولاده ماتوا فى صغرهم، ولم يعش له إلا الإناث. ومن أحاديث الرسول عليه السلام لأصحابه: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم. فمن كان حالفا فليحلفْ بالله أو ليسكتْ".

فهذا نسق من أنساق الثقافة موجود فى تاريخ العرب وحياتهم من قبل الإسلام واستمر بعده زمنا. والآن إلى نصوص من كتب الأدب والنقد القديمة تأثرت بهذا النسق واتخذت منه معيارا من معايير جودة الشعر أو رداءته حسب الحالة. ومن ذلك مثلا ما نقرؤه فى "الأغانى" من أن "نابغة بني ذبيان كانت تُضْرَب له قبة من أَدَم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسان بن ثابت، وعنده الأعشى، وقد أنشده شعره، وأنشدته الخنساء قولها: "قَذًى بعينك أم بالعين عُوَّارُ؟" حتى انتهت إلى قولها:

وإنّ صخراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بـه ... كأنـه عَلَـمٌ في رأسـه نارُ

وإن صخراً لَمَوْلانا وسـيّدُنا ... وإن صخراً، إذا نَشْتُو، لنَحَّارُ

فقال: لولا أن أبا بصيرٍ أنشدني قبلك لقلتُ: إنكِ أشعر الناس! أنتِ والله أشعر من كل ذات مثانة. قالت: والله ومن كل ذي خصيتين. فقال حسان: أنا والله أشعر منكَ ومنها. قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفنات الغُرُّ يَلْمَعْن بالضُّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْن من نجدةٍ دما

وَلَدْنا بني العنقاء وابْنَيْ مُحَرِّقٍ فأَكْرِمْ بنا خالاً، وأكرم بنا ابْنَما

فقال: إنك لشاعر لولا أنك قَلَّلْتَ عدد جِفَانك، وفخرتَ بمن وَلَدْتَ، ولم تفخر بمن وَلَدَك. وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلتَ: "الجفنات" فقَلَّلْتَ العدد، ولو قلتَ: "الجِفَان" لكان أكثر. وقلت: "يلمعن في الضحى"، ولو قلت: "يبرقن بالدجى" لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت: "يقطرن من نجدة دماً" فدللت على قلة القتل، ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرتَ بمن وَلَدْتَ، ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً".

فالمنافرة نسق ثقافى اتخذه النابغة معيارا للمفاضلة بين حسان والأعشى، وإن كانت هناك رواية أخرى تقول إن الخنساء هى التى وجهت تلك الانتقادات إلى حسان. لقد كان الجاهليون إذا صنعوا معروفا فإنهم يصنعونه للسمعة والشهرة ورئاء الناس، ويضيقون صدرا إذا وجدوا غيرهم يسبقهم فى ذلك المضمار ولو بالكلام، فكانوا يلجأون هم ومنافسوهم إلى الكهان أو شيوخ القبائل كى يحكموا بينهم وبين خصمائهم فى منافرة يقف فيها كل من المتنافرَيْن أمام الحكم والجمهور متفاخرا بإنجازاته وإنجازات قبيلته، وكان الحكم يقضى لمن كانت له إنجازات أو فضائل أكبر، ومنها الكرم والانتصارات الحربية وكثرة العدد والشهرة والوسامة والأناقة... إلخ. ومن ثم يمكننا أن نفهم ملاحظات النابغة على استعمال حسان لـ"الجفنات" بدلا من "الجفان" و"يلمعن فى الضحى" عوضا عن "يبرقن فى الدجى"، و"يقطرن" مكان "يجرين". ومن الواضح أن تلك الملاحظات لا تراعى الواقع بل المهم فيها أن يرسم الشاعر صورة براقة ذات تهاويل من شأنها أن تعينه عند المنافرة والمفاخرة بنفسه وقبيلته فى إحراز الانتصار على منافسه. أى أن المهم عند الناقد هو أن يكون الشاعر وفيا للنسق الثقافى الخاص بالمفاخرة والمنافرة حتى ينجح فى امتحان التنافس بينه وبين أخصامه وأخصام قبيلته.

وقد مر بنا أن العرب كانت تفتخر بآبائها وتعظمهم وتحلف بهم. وكان من أسباب نفورهم من الإسلام فى أول ظهوره ما وجدوا فيه من زراية على الأوثان وعابديها، الذين هم آباؤهم وأسلافهم: "قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ، وإنا على آثارهم مقتدون". ومع هذا فهناك اتجاه آخر يُعْلِي من شأن الإنجازات الشخصية ولا يعول على ما صنعه الآباء، وهؤلاء يسمون الشخص الذى يعتمد على فَعَاله هو لا فعال آبائه وأسلافه: "عِصَامِيّ" نسبة إلى عصام، وكان عصام لا يعتمد على أحد غير نفسه فى بلوغ غاياته، ومن ثم قيل فيه:

نَفْسُ عصامٍ سَوَّدَتْ عصاما وعَلَّمَتْه الكَرَّ والإقداما

بخلاف من يرتكن فى تقديم نفسه إلى الناس لمفاخر آبائه، فإنهم يقولون إنه "عِظَامِيّ"، أى ينتسب إلى عظام آبائه، التى لا تملك له نفعا ولا ضرا، إذ العظام لا تقدم ولا تؤخر. وماذا فى عظامٍ نَخِرَةٍ؟ ويعبر عن هذا الاتجاه البيت التالى:

إذا ما الحي عاش لعَظْمِ مَيْتٍ فذاك العظم حيٌّ، وَهْوَ مَيْتُ

وكذلك هذان البيتان:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك مضمونه عن النسبِ

إنّ الفتى من يقول: هأنذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

ويُرْوَى أن الخصيب والى مصر فى عهد الرشيد سأل أبا نواس عن نسبه، فقال: أغناني أدبي عن نسبي. وللمتنبى بيتان من الشعر جامحان فى التعبير عن افتخاره بنفسه ورفض الافتخار بآبائه رغم سموق نسبهم بناء على كلامه والتأكيد بأنهم هم من يَشْرُفون به لا هو:

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفوا بي وبجَدّي فخرتُ لا بجدودي

وبهم فَخْرُ كلّ مَنْ نَطَقَ الضاد وعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ

بل بلغ من جموحه فى هذا الأمر أنه، فى رثائه لجدته، التى كان يحبها حبا جما، جعل مفخرها أنها جدته، أى فى انتسابها إليه، غير مبال بأن هذا لا يليق فى الرثاء. قال يخاطبها:

فَوا أَسَفا أَلّا أُكِبَّ مُقَبِّلًا لِرَأْسِكِ وَالصدرِ الَّذي مُلِئا حَزْما

وَأَلّا أُلاقي روحَكِ الطَيِّبَ الذي كَأَنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كانَ لَهُ جِسما

وَلَوْ لم تكوني بِنتَ أَكرَمِ والِدٍ لَكانَ أباكِ الضخمَ كَونُكِ لي أُمّا

لَإِن لَــذَّ يــومُ الــشامِتينَ بِيَوْمِهــا ... فَقَـد وَلَـدَتْ مِـنّي لِأَنْفِهِمُـو رَغْمـا
تَغَـرَّبَ لا مُـسْتَعْظِماً غـيرَ نَفْـسِهِ ... ولا قــابِلًا إِلَّا لِخالِقِــهِ حُكْمــا

وكان من آثار اعتداد المتنبى المفرط بنفسه وافتخاره الجامح بمناقبه صحيحةً كانت أو مدعاة، وخروجه من ثم على نسق الشاعر المداح، الذى لا يتعالى على أى من رجال الحكم والوزارة والمال، أن أثار ضغينةَ مَنْ رفض أن يمدحهم، فاجتهدوا فى الإساءة إليه بكل سبيل، وإن ظل شاعرنا على ترفعه واعتداد بذاته فلم يتنزل إلى مستوى من تطاولوا عليه وتركهم فى سبابهم له وانتقادهم إياه وزرايتهم عليه يخبُّون ويُوضِعون. جاء فى كتاب: "أبو الطيب المتنبى وما له وما عليه" لعبد العزيز الثعالبى: "ولما قدم أبو الطيب من مصر بغداد، وترفع عن مدح المهلبي الوزير ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك، شق ذلك على المهلبي، فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه، وتبارَوْا في هجائه، وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة (مُحَمَّد بن عبد الله الزاهد) الهاشمي والحاتمي وأسمعوه ما يكره، وتماجنوا به، وتنادروا عليه، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم...

ثم إن أبا الطيب المتنبي اتخذ الليل جملا، وفارق بغداد متوجها إلى حضرة أبي الفضل بن العميد مراغما للمهلبي الوزير، فورد أرجان، وأحمد مورده، فيحكي أن الصاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبي إياه بأصبهان، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان، وهو إذ ذاك شاب وحاله حويلة، ولم يكن اسْتُوزِر بعد، وكتب إليه يلاطفه في استدعاء، وتضمن له مشاطرته جميع ماله، فلم يقم له المتنبي وزنا، ولم يجبه عن كتابه ولا إلى مراده، وقصد حضرة عضد الدولة بشيراز، فأسفرت سفرته عن بلوغ الأمنية، وورود مشرع المنية، واتخذه الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة، ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته، وهو أعرف الناس بحسناته، وأحفظهم لها، وأكثرهم استعمالا إياها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته".

ويذكر الثعالبى بعض ما انْتُقِد به أبو الطيب فى مخاطبة ممدوحيه من الملوك وكبار رجال الدولة: "كقوله:

فغــدا أســيرًا قــد بللــتَ ثيابــه ... بـــدم، وبـــلَّ ببولـــه الأفخـــاذا

وقوله:

وما بين كاذَتِي المستغير كما بين كاذتي البائلِ

وقوله:

خَفِ اللهَ واستر ذا الجمالَ ببرقع فإن لُحْتَ حاضت في الخدور العواتقُ

ويقال: لما أُنْكِر عليه "حاضت" غَيَّرَه فجعله "ذابت"، وذِكْر البول والحيض مما لا يحسن وقوعه في مخاطبة الملوك والرؤساء. وأقبح موقعا من ذلك قوله في قصيدة يرثي بها أخت سيف الدولة، ويعزيه عنها حيث يقول:

وهل سمعتَ سلاما لي ألم بها؟ فقد أطلتُ وما سلمتُ عن كَثَبِ

وما باله يسلم على حرم الملوك، ويذكر منهن ما يذكره المتغزل في قوله:

يعلمن، حين تحيّي، حُسْنَ مبسمِها وليس يعلم إلا اللهُ بالشَّنَبِ؟

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقتُه بها، وضربتُ عنقه على قبرها. قال الصاحب: ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل، مع فساد الحس، على سوء أدب النفس. وما ظنك بمن يخاطب مَلِكًا في أمه بقوله:

بعيشِك هل سلوتَ؟ فإن قلبي، وإن جانبتُ أرضك، غير سالي؟

فيتشوق إليها، ويخطئ خطأ لم يُسْبَق إليه. وإنما يقول مثل ذلك من يرثى أهله، فأما استعماله إياه في هذا الموضع فدال على ضعف البصر بمواقع الكلام".

وفى "الفتح على أبي الفتح" لابن فورجة (ت٤٥٥هـ) نقرأ: "وقوله:

وجَنَّبَني قربَ السلاطين مقتُها وما يقتضي من جماجمها النَّسْرُ

قال أبو الفتح: "المَقْت" البُغْض. أي كأن الطير ينتظر قتلى السلاطين ليأكل من لحومها. وهذا شرحٌ مُغْنٍ. ولَقِيتُ بعض المتكلفين الذين يزعمون أنهم لقوا أبا الطيب وقرأوا عليه شعره يزعم أنه حُبِس على هذا البيت. وقال له علي بن محمد الأنطاكي: ما هذه الجرأة عليَّ، ومواجهتك إياي بهذا المقال في السلاطين، وأنا منهم؟ فاعتذر بأن قال: إنما عَنَيْتُ مقتهم إياي لا مقتي لهم. وعنيت بـ"النسر" الأخذ والاختطاف. يقال: نَسَرْتُ أَنْسر نَسْرًا، أي خَطِفْتُ. وعنيت بـ"الجماجم" الأكابر والسادات. فقلت له: فما صنع بقوله:

ولا تَحْسَبَنَّ المجد زِقًّا وقَيْنَةً   فما المجد إلا السيف والفتكة البِكْرُ
وتضريبُ أعناق الملوك وأن تُرَى   لك الهبوات السود والعسكر المَجْرُ؟

فلم يُحِرْ جواباً. وهذا من الكذب الذي لا يبارك الله فيه، إذ الرجل له في ذاك عادة، وهو يعده جرأة وقدرة وقلة احتفال. ألا تراه يقول:

مدحتُ قوما، وإن عشنا نظمتُ لهم   قصائداً من إناث الخيل والحُصُنِ
تحت العجاج قوافيها مضمَّرة   إذا تُنُوشِدْن لم يدخلن في أُذُنِ؟"

ومن هذا الوادى تعليقات العكبرى على بعض أبيات المتنبى التى يخرج فيها على النسق الثقافى الخاص بعلاقة الشاعر المادح بممدوحه وما ينبغى له التزامه تجاهه من الإجلال والخضوع والتخاشع، إذ كان المتنبى حريصا على أن يتعامل مع ممدوحيه تعامل الند للند لا مادح مع ممدوح، كقوله مثلا فى تهنئة كافور ببناء دار جديدة:

إنما التهنئات للأكفاءِ   ولمن يَدَّنِي من البُعَداءِ
وأنا منك لا يهنئ عضوٌ   بالمسرات سائر الأعضاءِ:

وهذا تعليق العكبرى: "يقول: رسم التهاني إنما يجري بين الأكفاء، وبينك وبين من يتقرب إليك من بعد. وقوله: "يَدَّنِي": من الدنوّ. يريد أنا منك أشاركك في كل أحوالك، أفرح بفرحك. فهل رأيت عضواً من جملة يهنيء سائر الأعضاء؟ ولا يكون ذلك لاشتراكه معها. وهذه عادة أبي الطيب: يدعي المساهمة والكفاءة لنفسه، ويشركها مع الممدوحين في كثير من المواضع. وليس ذلك للشاعر، وإنما كان هو يعمله إدلالاً عليهم". ومن ذلك أيضا قوله تعليقا على بيت المتنبى الذى يعرّض فيه بسيف الدولة ويرفع كافورا فوقه، والكلام فى الشطر الأول عن أفراسه التى حملته إلى مصر حيث كافور:

قواصِدُ كافورٍ تَوَارِكُ غيرِهِ   ومَنْ قَصَد البحرَ استقلَّ السواقيا:

"ويقال إن سيف الدولة لما سمع هذا البيت قال: له الويل! جعلني ساقية، وجعل الأسود بحراً؟ وإن كان المتنبي قصد هذا، فلقد أبان عن نقض عهد وقلة مروءة، لأنه مدح خلقاً، فلم يعطه أحد ما أعطاه عليّ بن حمدان ولا كان فيهم من له شرفه وفضله لأنه عربي

من سادات تغلب عالم بالشعر. ولم يمدح مثله في الشرف والحسب إلا مُحَّد بن عبد الله الكوفي الحسني".

وقوله فى الأبيات التالية من شعر شاعرنا:

تُحَقِّــرُ عِنــدي هِمَّــتي كُــلَّ مَطلَــبٍ   وَيَقــصُرُ في عَيــني المَــدَى المُتَطــاوِلُ

وَمــا زِلــتُ طَــوداً لا تَــزولُ مَنــاكِبي   إِلى أَن بَــــدَت لِلـــضَّيْمِ فيَّ زَلازِلُ

...

وَمَـن يَبْـغِ مـا أَبْغـي مِـنَ المَجـدِ وَالعُـلا   تَــساوَى المَحــايِي عِنــدَهُ وَالمَقاتِــلُ

أَلا لَيــسَتِ الحاجــاتُ إِلّا نُفوسَــكُم   وَلَــيسَ لَنــا إِلّا الــسُيوفَ وَســائِلُ:

"يريد أنه لا يترك قتال الأعداء، ولا يطلب إلا أنفسهم، ولا يتوسل إلى أحد، بل يتوسل إلى بلوغ مراده بسيوفه. وقال الواحدي: "يقول لملوك عصره: لا نطلب إلا أرواحهم، ولا نتوسل إلا بسيوفنا". ولا يقول هذا القول إلا لدلالته على حمقه".

ويقول مُحَّد توفيق البكرى (ت١٩٣٢م) فى كتابه: "أخبار أبي الطيب المتنبى" عن تغير الأحوال بالمتنبى من الفقر المدقع، أيام كان يمكن أن تنحط مكافأته على القصيدة المدحية إلى دينار واحد، إلى الغنى الطائل بعد اتصاله بسيف الدولة وإكرام الأمير الحمدانى له: "وكان سيف الدولة قد رتب له ثلاثة آلاف دينار في كل سنة على ثلاث قصائد يعملها، وذلك غير العطايا والمنح. فلما صار أبو الطيب إلى ما صار إليه داخله العُجْب بنفسه فتعالى على رجالات الحضرة وأكثر من الإدلال والسمو والتيه وأوسعهم تحقيرا واهتضاما، فغصت الجماعة به، وكثرت الوشاة، وانطلقت الألسن، وبسرت له وجوه المنافسة والحسد، وملئت القلوب بالبغضاء حتى كان الأمراء من بني حمدان كأبي فراس وغيره من أبغض الناس له، وأكثروا فيه من الشكاية والسعاية، وسيف الدولة لا يسمع منهم قولا ولا يعيرهم أذنا في الغالب. وربما يقع في نفسه بعض الشيء منه، فيفطن له أبو الطيب ويبادره بالاعتذار والاستعطاف على لسان الشعر، فيقبل منه حتى قالوا إنه لما أنشده هذا البيت من قصيدة له:

إن كــان سَــرَّكمو مــا قــال حاســدنا   فمـــــا لجـــــرحٍ إذا أرضـــــاكمو أَلَمُ

وكان سيف الدولة واجدا عليه، رضي عنه وقربه وقبَّل رأسه وأجازه. إلا أن أبا الطيب لم يرعو عن غُلَوَائه ولم ينهنه من كبريائه بل أصر على خطته واستمر على طريقته، ففسد رأي سيف الدولة فيه، وتحول قلبه عنه وغض منه، وجرت بينهما مسائل ووقائع تَبَيَّنَ المتنبي منها ذلك وعرفه، إلى إن كان ذات يوم، وقد حضر مجلسَ سيف الدولة، وفيه جماعة من العلماء والفضلاء كأبي الطيب اللغوي وأبي عبد الله بن خالويه النحوي، وجرت مسألة في اللغة تكلم فيها ابن خالَوَيْهِ مع أبي الطيب المتنبي، فضعَّف أبو الطيب قولَ ابن خالويه، فأخرج من كمه مفتاحا فضرب به المتنبي فشَجَّه. وكان ابن خالويه معظَّما عند بني حمدان، وله عليهم مشيخة، فلم يُقْدِمِ سيف الدولة على الانتصاف لأبي الطيب من ابن خالويه، فغضب أبو الطيب لذلك، وكانت من أعظم أسباب فراقه له".

وقال ابن عبيد الله العلوى الحضرمى (ت١٩٥٦م) فى كتابه: "العود الهندى عن أمالىَّ فى ديوان الكندى" مستفزا من إغراق المتنبى فى مدح نفسه والعجب بها عجبا مسرفا: "وكثيرا ما يشفُّ كلام الناظم عن انحطاط نسبه وزمانة حسبه، كما في قوله:

وَلَسْتُ أُبَالِي بَعْدَ إِدْرَاكِيَ العُلاَ ... أَكَانَ تُرَاثاً مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسْبَا

وقوله:

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الجُدُوْدَ لَهُمْ ... مَنْ نَفَرُوْهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ

وتراه من أجل ما يجد من ذلك في نفسه يفضِّل الفرع دائما على الأصل لا في نفسه فقط بل حتَّى في ممدوحيه. ألا تراه يقول لسيف الدولة:

وَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ؟

ويقول له أيضا:

وَالعَاذِلِينَ فِي النَّدَى العَوَاذِلاَ ... قَدْ فَضَلُوْا بِفَضْلِكَ القَبَائِلاَ

ومن ذلك قوله:

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيْفٍ ... وَلَوَ انِّي لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازِي

وقوله:

كُلُّ آبَائِهِ كِرَامُ بَنِي الدُّنْـ ... ـيَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الكِرَامِ

وقوله:

فَـإِنْ يَـكُ سَـيَّارُ بْـنُ مُكْـرَمٍ انْقَـضَى   فَإِنَّـكَ مَـاءُ الـوَرْدِ إِنْ ذَهَـبَ الـوَرْدُ

وقوله:

وَإِنْ تَكُـنْ تَغْلِـبُ الغَلْبَـاءُ عُنْـصُرَهَا   فَـإِنَّ فِي الخَمْـرِ مَعْـنىً لَـيْسَ فِي العِنَـبِ

وقوله:

فَتِيهـاً وَفَخْـراً تَغْلِـب ابْنَـةَ وَائِـلٍ   فَأَنْـتِ لِخَـيْرِ الفَـاخِرِينَ قَبِيـلُ

وقوله:

وَمَـا أَنَا مِنْهُمُـو بِالعَـيْشِ فِـيْهِمْ   وَلَكِـنْ مَعْـدِنُ الـذَّهَبِ الرَّغَـامُ

وقوله:

وَلَـو لَمْ تَكُـوْنِي بِنْـتَ أَكْـرَمِ وَالِـدٍ   لَكَـانَ أَبَاكِ الـضَّخْمَ كَوْنُـكِ لِي أُمَّـا

وقوله:

تَمْـشِيْ الكِـرَامُ عَلَـى آثَارِ غَيْرِهِمُـو   وَأَنْـتَ تَخْلُـقُ مَـا تَأْتِي وَتَبْتَـدِعُ

وقوله:

وَيُغْنِيْـكَ عَمَّـا يَنْـسُبُ النَّـاسُ أَنـهُ   إِلَيْـكَ تَنَـاهَى المَكْرُمَـاتُ وَتُنْـسَبُ

وقوله:

تَـشَرَّفَ عَـدْنَانٌ بِـهِ لاَ رَبِيْعَـةٌ   وَتَفْتَخِـرُ الـدُّنْيَا بِـهِ لاَ العَوَاصِـمُ

وقوله:

أَنْـسَابُ فَخْرِهِمُـو إِلَيْـكَ، وَإِنَّمَـا   أَنْـسَابُ أَصْـلِهِمُو إِلَى عَـدْنَانِ

وكذب والله وافترى! إنّما ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم".

وقال العلوى الحضرمى أيضا ينتقده ويقرّعه: "وبينا صاحبنا يعترف بقلة العد، ويشتكي من صفورة اليد، ويقول:

أهـمُّ بِـشَيْءٍ، وَاللَّيَـالِي كَأَنَّهَـا   تُطَـارِدُنِي عَـنْ كَونِـهِ وأُطَـارِدُ

وَحِيـدٌ مِـنِ الخُـلاَّنِ فِي كُـلِّ بَلْـدَةٍ   إِذَا عَظُـمَ المَطلُـوبُ قَـلَّ المُـسَاعِدُ

ويقول للمغيث العجلي:

لَمَّـــا أقَمْـــتَ بِأنطَاكِيَّـــةَ اختَلَفَـــتْ ... إلَيَّ بِالخَـــبَرِ الرُّكْبَـــانُ فِي حَلَبَـــا

فَـسِرتُ نَحْـوَكَ لاَ أَلْـوِيْ عَلَـى أحَـدٍ ... أحُـــثُّ رَاحِلَـــتَيَّ: الفَقْـــرَ وَالأدَبَا

إذا به ينتفش دماغه، ويمتلئ فراغه، ويعقص أنفه، ويمد إلى النجوم كفه، ولا يستحي أن يقول للمغيث في نفس القصيدة:

وَإن عَمِـرْتُ جَعَلْـتُ الحَـربَ وَالِـدَةً ... وَالـــسَّمهَرِيَّ أخـــاً، وَالمَـــشْرَفِيَّ أبَا

بِكُـلِّ أشْـعَثَ يَلقَـى المَـوتَ مُبتَـسِماً ... حَـــتَّى كَـــأنَّ لَـــهُ فِي قَتلِـــهِ أرَبَا

قُـحٍّ يَكَـادُ صَـهِيلُ الخَيـلِ يَقذفُـهُ ... عَـنْ سَـرْجِهِ مَرَحـاً بِالعِـزِّ أو طَـرَبَا

فَـالمَوتُ أعْـذَرُ لِي، والـصَّبْرُ أَجْمَـلُ بِي ... وَالبَـرُّ أَوْسَـعُ، وَالـدُّنيَا لِمَـنْ غَلَبَـا

فانظر كيف يطمع في الملك الكبير، وما يجد ما يتبلغ به من ناقة أو بعير". لقد انتهك المتنبى نسق المديح والمداحين، أى لم يراع الأصول التى ينبغى التزام الشعراء المادحين بها ولا يصح خروجهم عنها، فكان أن أصلاه بعض النقاد نار التخطىء والتقريع.

هذا، وقد وقف د. مُحَّد عبد المطلب فى كتابه: "القراءة الثقافية" عند قول المجنون عن ليلى:

أرانى إذا صـــليتُ يممـــتُ نحوهـــا ... بـــوجهى، وإن كـــان المـــصلَّى ورائيـــا

ورأى فيه إحالة إلى نسق ثقافى آخر شديد الإبعاد فى الماضى، ألا وهو نسق عبادة الأنثى إلهةً، إذ قال إن "القراءة الثقافية (لهذا البيت) سوف تحيلنا على نسق ثقافى موغل فى القدم كانت فيه الأنثى إلهة معبودة. وليس من اليسير الوصول إلى هذا النسق إلا بتجاوز القناع الصياغى من ناحية، وفتح الذاكرة على مخزونها الثقافى من ناحية أخرى. على أن يلاحظ أن هذا المخزون له طابع تراكمى أيضا، إذ إن هذه المرجعية المقدسة قد تلتها مراحل أخرى هبطت بالأنثى هبوطا بشعا عبر عنه القرآن بقوله: "وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم" (النحل/ ٥٨)".

ولكن أين يا ترى كانوا يودعون هذا المخزون الثقافى المتراكم الخاص بعبادة الأنثى فى بلاد العرب؟ إن القول بمخزون ثقافى متراكم هنا يذكرنى بما كان يقوله كارل يونج العالم النفسى

الشهير عن "اللاشعور الجمعى" من أنه ما ترسب فى النفس الإنسانية خلال آلاف السنين من الأساطير والترهات كنموذج الخطيئة والتفكير مثلا وتشهِّى الموت والرغبة فى العودة إلى الرحم والولادة الجديدة كما جاء عند مود بودكين الناقدة الأمريكية المتأثرة بيونج. ولكن كم من البشر يا تُرَى يوافقون بودكين على ما تقوله عن تلك النماذج؟ إننا نحن المسلمين مثلا لانشعر أبدا بصدى أى شىء من هذا فى نفوسنا على أى نحو من الأنحاء. ثم إن هذه الأفكار لا تورَث بيولوجيا بل يتشربها الإنسان من خلال الثقافة التى يتلقاها ويقتنع بها.

كذلك من الواضح أن هذا اللاشعور الجمعى، كما يقول يونج، هو شىء يقع فى الأصل خارج النفس الفردية ثم ينتقل إليها بالوراثة، فأين مكان هذا اللاشعور يا ترى؟ وكيف يتم انتقاله إلى نفس كل إنسان فى كل العصور وفى جميع الأمكنة؟ ولماذا يقتصر ذلك على الأساطير والترهات وما أشبه ولا يشمل الخبرات العملية والعلمية؟ ثم أين الدليل على صحة ذلك كله؟ إن يونج يستدل على وجود هذا اللاشعور الجمعى بأن روائع الأدب والفن تتسم بسمة الخلود، فهل هذا دليل كاف؟ وماذا عن الأعمال الأدبية والفنية غير الخالدة؟ ثم هل هناك أعمال فنية وأدبية يجمع على روعتها والانبهار بها كل البشر؟ كلا وألف كلا. كذلك فمن الاعتساف الشديد بل المستحيل ردّ كل عمل أدبى أو فنى إلى هذه الرواسب الأسطورية والتُّرَّهِيَّة المزعومة، فالغالبية الساحقة من هذه الأعمال لا علاقة لها ظاهرا وباطنا بتلك الأساطير والترهات. ومن الغريب أيضا أن يقال إن هذه الرواسب وحدها هى التى تلتقى عندها البشرية جميعا. أليس فى العلوم والرغبة فى السيطرة على الطبيعة والطموح إلى القضاء على المرض والفقر والتطلع نحو السعادة مثلا ما يربط بين أفراد البشر؟ أمن المعقول أن البشر، رغم كل هذا التقدم الذى أحرزوه، لا يرتبطون إلا عن طريق الأساطير والترهات الضاربة فى أعماق الأحقاب؟

وبالمناسبة فأغلبية الجماهير لا تلقى أدنى بال للروائع الأدبية والفنية. ولو كانت المسألة مسألة لاشعور جمعى لكانت هذه الجماهير هى أول من تفتنها هذه الروائع ولكان تحمسها لها أشد من تحمس غيرها لأنها أدنى من المثقفين والنقاد إلى الفطرة التى تقترب من هذا اللاشعور الجمعى المفترض. ولكن على العكس من ذلك فإن الذى يشترك فيه الناس جميعا كرغبة

الجنس والطعام والشراب والتطلع إلى القوة والسلطان وما إلى ذلك ليس من الإبداع الفنى أو الأدبى فى شىء، وإن صلح كل من هذه الرغبات أن يكون موضوعا لعمل فنى أو أدبى بطبيعة الحال، إلا أن هذه نقرة أخرى. فما يقال عن ذلك المخزون الثقافى المتراكم هو تقريبا نفس ما قيل عن مخزون هذا اللاشعور الجمعى من حيث لامنطقيته ولامعقوليته ولامقبوليته: مجرد مزاعم لا دليل على صحتها.

ثم أين فى أشعار العرب أو فى القرآن الكريم أو فى الحديث أو فى كتب التاريخ أن العرب كانوا يؤلهون "امرأة معينة" فى يوم من الأيام؟ نعم أين ذلك؟ وما اسم المرأة أو أسماء النسوة اللاتى كان العرب يؤلهونهن ويعبدونهن؟ وما السبب يا ترى فى أن العرب تحولوا من تأليه المرأة وعبادتها إلى كراهيتها والنفور منها بحيث تسودّ وجوههم ويكابدون الغيظ والخزى حين يبَشَّر الواحد منهم بأن زوجته قد ولدت له أنثى؟ لقد أشار القرآن فى هذا الصدد إلى أنهم كانوا يفعلون ذلك خشية الفقر والعار، فهل كان العرب لا يخافون الفقر والعار حين كانوا يعبدون المرأة ثم إذا بهم فجأة قد تحولوا فأصبحوا يخافون الفقر والعار؟ فما السبب يا ترى فى هذا التحول الغريب؟ وهل يخاف العبادُ الفقر والعار بسبب آلهتهم؟

كذلك ينبغى ألا ننسى أن بعض الأسر العربية فقط هى التى كانت تئد بناتها لا العرب كلهم، بل كان من العرب أنفسهم حكماء أخذوا على عاتقهم إنقاذ الولائد من الوأد والقيام بتربيتهن وتنشئتهن، ومنهم صعصعة جد الفرزدق وزيد بن عمرو بن نفيل. وإلا فلو كان الوأد وكراهية البنات شائعا بين العرب لقد كان ينبغى أن ينقرض العرب منذ وقت طويل لأن تكاثر النوع يستلزم ذكرا وأنثى لا ذكرا فقط. ثم إن حالات الوأد التى حدثنا عنها التاريخ حالات محدودة لا تدل على أن الأمر كان منتشرا الانتشار الذى يوحى به كلام الأستاذ الدكتور. كما ينبغى أن نتنبه إلى أن كراهية الأنثى إنما كان شعورا مقصورا على وقت الولادة، وإلا فكيف نعلل احترام العرب العظيم لأمهاتهم وغيرتهم الفائقة على زوجاتهم ورحمتهم لبناتهم وزوال أكثر من برج من عقلهم لو مس أيًّا من أمهاتهم أو زوجاتهم أو بناتهم سوءٌ كما حدث مثلا من عمرو بن كلثوم حين قطف رقبةَ الملك النعمان بن المنذر بالسيف لا لشىء إلا لأن أم النعمان طلبت من أم ابن كلثوم أن تناولها طبقا من الأطباق وهى ضيفة عندها، فعد هذا

إهانة لا تغتفر ولا يغسلها إلا الدم؟ وانظر كيف يضع ابن كلثوم الزوجة في مكان ومكانة عالية:

علـــى آثارنا بِـــيضٌ حِـــسَانٌ ... نُحَـــاذر أن تُقَـــسَّم أو تهـــونا

أخَـــذْنَ علـــى بعـــولتهنّ عهـــداً ... إذا لا قَـــوْا كتائـــب مُعْلَمينـــا

لَيَـــسْتَلِبُنّ أفراســـاً وبيـــضاً ... وأســـرى في الحديـــد مُقَرّنينـــا

إذا مـــا رُحْـــن يمـــشين الهُـــوَينى ... كمـــا اهْتَـــزَّت متـــون الـــشاربينا

يَقُـــتْنَ جيـــادنا ويقلـــن: لـــستم ... بُعُولَتَنَـــــا إذا لم تمنعــــونا

إذا لم نحمهـــــنّ فـــــلا بقينـــا ... لـــشيء بعـــدهن ولا حيينـــا

وانظر ذلك كيف يتوجس حطان بن المعلَّى توجسا شديدا مما عسى أن يقع لبناته بعد موته:

أَنْـــزَلَنِي الـــدَّهْرُ علـــى حُكْمِـــهِ ... مِـــن شـــامِخٍ عـــالٍ إلى خَفْـــضِ

وغـــالَنِي الـــدَّهْرُ بـــوَفْرِ الغِـــنَى ... فَلَـــيْس لِي مـــالٌ سِـــوَى عِرْضِـــي

أَبْكَـــانِيَ الـــدَّهْرُ، ويا رُبَّمـــا ... أَضْـــحَكَنِي الـــدَّهْرُ بمـــا يُرْضِـــي

لَـــوْلا بُنَيَّـــاتٌ كَزُغْـــبِ القَطـــا ... رُدِدْنَ مـــن بَعْـــضٍ إلى بَعْـــضِ

لَكَـــانَ لِي مُـــضْطَرَبٌ واسِـــعٌ ... مِـن الأَرْضِ ذات الطُّولِ والعَـرْضِ

وإنمّـــــا أوْلأدنا بَيْنَنـــــا ... أَكْبـــادُنا تَمْـــشِي علـــى الأَرْضِ

وقال بَشِير بن النّكْث الثَّقفِي:

أَلاَ لَيْـــتَ شِـــعْرِي إنْ سُـــلَيْمَةُ فاتهَـــا ... بِيَ المَوْتُ ما تَلْقَى من النَاسِ والدَّهْرِ؟

إذا ظَلَمُوهـــا حَقَّهـــا، وتَناصَـــرُوا ... عَلَيْهـــا، ولجُّـــوا في القَطِيعَـــةِ والهَجْـــرِ

فتَـــدْعُو أَباهـــا، والـــصَّفائِحُ دُونَـــهُ ... ولَبَّيْـــكِ! لَـــوْ أَنِيّ أَجَبْـــتُ مِـــن القَـــبْرِ

وانظر مقدار الحنان والحب في كلام عامر بن الظَّرِب العَدْواني لابنته حين أتاه صعصعة بن معاوية يخطبها إليه، إذ قال: "يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي، فارحم ولدي قبلتك أو رددتك. والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب. وقد أنكحتُك

خشية ألا أجد مثلك، أفر من السر إلى العلانية. يا معشر عَدْوان، خرجتْ من بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة ولا رغبة. أقسم لولا قسم الحظوظ على الجدود، ما ترك الأول للآخر ما يعيش به".

وكانت هناك نساء يتكهَّنَّ ويحظين بالإجلال والرهبة، ويُنْظَر إليهن على أنهن ذوات اتصال بالغيب ويعلمن المجهول. كما ضرب العرب الأمثال بنساء فى العزة والحكمة والفضل، مثل "ما يومُ حليمةَ بِسِرٍّ"، "أَمْنَعُ من أم قرفة"، أَبْصَرُ من زرقاء اليمامة"... وكان هناك من حكمن من النساء كبلقيس ملكة سبإ والزباء ملكة تدمر. وأخيرا وليس آخرا لو كانت الأنثى مبغوضة على هذا النحو فكيف نعلل قصائد النسيب المتولِّهة المنظومة فيها ورَفْع الشعراء مكانتها عالية؟

ثم لماذا كان المجنون وحده هو الذى هاج عنده هذا المخزون المتراكم فأنطقه بهذا الكلام؟ وهل تتسق عبادة المرأة مع عشق المجنون لها هذا العشق البشرى؟ إن الإلهة إنما تُعْبَد ولا تُعْشَق، وإلا فليأت لنا أحد بإلهة كان يعشقها عابدوها، فضلا عن أن "يستعين بالله" كى يهبه القدرة على تحمل ما يسببه له هذا العشق من عذاب لا يوصف كما فى حالة المجنون؟ ودعنا من أنها تزوجت رجلا آخر غير الذى كان يعشقها هذا العشق الجنونى بما يستتبعه الزواج من معاشرة جنسية واحتكاك يومى تنفعل فيه النفوس ويدب الخلاف والخصام حتى لو كان الزواج قائما على الحب الشديد. ودعنا كذلك من أنها قد ماتت، ورثاها المجنون. ثم إن شاعرنا الولهان قد نفى، فى القصيدة التى اختار منها الأستاذ الدكتور هذا البيت واقتطعه من سياقه، أن يكون مشركا حين قال عن صلاته ما قال، وإنما هو العشق الذى ولهه توليها وطير عقله تطييرا. وهذا التعليل منه صحيح مائة فى المائة، وكل شعره فيها وأخباره فى عشقه تدل على أنها قد بلبلت عقله أيما بلبال، ولم يعد يجد عنها سُلُوًّا أو يستطيع لها نسيانا، إذ كانت قد أنشبت جذورها الحديدية المدببة فى القلب، ولم يكن ممكنا انتزاع هذه الجذور الحديدية أبدا، اللهم إلا بانتزاع روحه معها حتى لقد دعا اللهَ عليها أن يبتليها بما ابتلاه به من عذاب. يقول المجنون فى القصيدة المذكورة:

أراني إذا صلَّيتُ يمَّمْتُ نحوها أمامي، وإنْ كانَ المصلَّى ورائيا

وما بيَ إشراكٌ، ولكنَّ حبَّها — مكانَ الشَّجَى أعيا الطَّبيبَ المُداوِيا

أُصَلِّي، فما أدري إذا ما ذكرتُها — أثنتَيْنِ صلَّيتُ الضُّحى أمْ ثمانيا

وما جئتها أبغي شفائي بنظرةٍ — فأبصرتُها إلاَّ انصرفتُ بدائيا

قَضى اللهُ بالمعروفِ مِنها لِغَيْرِنا — وبالشوقِ والإبعادِ مِنها قَضَى لِيا

...

دَعَوتُ إلَهَ الناسِ عِشرينَ حِجَّةً — نَهاري وَلَيْلي في الأَنيسِ وَخالِيا

لِكَي تُبْتَلَى ليلى بِمِثْلِ بَليَّتي — فَيُنصِفَني مِنها، فَتَعلَمَ حالِيا

فَلَمْ يَستَجِب لي من هواها بدعوةٍ — وَما زادَ بُغْضِي اليومَ إلّا تَمادِيا

وَتُذْنِبُ لَيلى ثُمَّ تَزْعَمُ أنني — أَسَأْتُ، ولا يخفى على الناسِ ما بِيا

فهل هناك من يدعو على إلهته؟ ويدعو من؟ يدعو الله! أى أنه يدعو إلها أن يعاقب إلهة. ما هذا؟ كذلك من الواضح البين أن المجنون يعرف أنه مسلم وأن المسلم إذا صلى فقبلته الكعبة، وأن هناك صلاة اسمها صلاة الضحى ها هو ذا يؤديها، إلا أن عقله الذى طار منه بسبب هذا العشق الطاغى لم يعد يعرف كم ركعة صلى. ثم هل تعرف عبادةُ المرأة الصلاةَ بشكلها الإسلامى؟ ولو كان التفسير الذى قدمه الأستاذ الدكتور صحيحا فلماذا لم يظهر عند المجنون هذا المخزون الثقافى المتراكم الخاص بتأليه المرأة سوى مرة واحدة يتيمة لم تتكرر ثانية فى حياة هذا العاشق المُعَنَّى؟ وإذا كان تأليه المرأة لا وجود له بتاتا فى الشعر الجاهلى الوثنى فكيف يظهر فى شعر المجنون، وهو الرجل المسلم الحريص على الصلاة بما فيها صلاة الضحى النافلة رغم الآلام التى تنتاشه من كل جانب جراء حبه اليائس لليلى؟ ترى لو كانت ليلى إلهة أكان يستجير بالله ليخفف عنه عذاب حبها؟ كيف يا ترى؟ يقول المحب المسكين داعيا ربه وطالبا منه المعونة على هذا الحب المستحيل ومتعجبا من هذا القضاء العجيب وذاكرا إياه فى كل حال:

ألا في سَبيلِ اللهِ قَلبٌ مُعَذَّبٌ — فَذِكْرُكِ يا لَيْلَى الغَدَاةَ طَرُوبُ

...

وَلَوْ أَنَّني أَسْتَغفِرُ اللهَ كُلَّما — ذَكَرتُكِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبُ

...

أُحِبُّــكِ يا ليلـــى مَحَبَّـــةَ عاشِـــقٍ   أَهــاجَ الهَــوَى في القَلْــبِ مِنْــهُ لَهيــبُ
أُحِبُّــكِ حَـــتّى يَبْعَـــثَ اللهُ خَلْقَـــهُ   ولي مِنْــكِ في يــومِ الحساب حَسِيبُ
سَــقَى اللهُ أَرضــاً أَهْــلُ لَيلــى تَحُلُّهــا   وَجــادَ عَلَيْهــا الغَيْــثُ وَهْــوَ سَــكُوبُ

* * *

حَلَفْـــتُ لَهـــا بِالمَـــشْعَرَيْنِ وَزَمْـــزَمٍ   وَذو العَــرْشِ فــوقَ المُقْــسِمينَ رقيــبُ
لَـئِن كــانَ بَــرْدُ المــاءِ حَــرّانَ صــادِياً   إِلَيَّ حَبيبـــــاً إِنَّهـــــا لَحَبيــــــبُ

* * *

ذَكَرتُــكِ والحَجــيجُ لَهُــم ضَــجيجٌ   بِمَكَّـــةَ، وَالقُلـــوبُ لَهـــا وَجيـــبُ
فقلـــتُ ونحـــن في بَلَـــدٍ حَـــرامٍ   بِـــهِ واللهِ أُخْلِـــصَتِ القُلـــوبُ:
أَتـــوبُ إِلَيـــكَ يا رَحمَـــنُ مِمّـــا   عَمِلــتُ، فَقَــد تَظــاهَرَتِ الــذُنوبُ
فَأَمّــا مِــنْ هَــوَى ليلــى وَتَرْكــي   زيارَتَهـــا فَـــإِنّي لا أَتـــوبُ
وكيـــف، وعنـــدها قَلـــبي رَهـــينٌ   أتــوبُ إليــك منهــا أو أُنيــبُ؟

* * *

أَيا رَبِّ، إن لَمْ تَقْــسِمِ الحُــبَّ بينَنــا   سَـواءَينِ فـاجعلني عَلـى حُبِّهـا جَلْـدا

* * *

فَيـا رَبِّ، هَـبْ نفـسي لنفسي وداوِني   بِلَيْلَــى لِتُجْلَــى كُربَــةٌ وَزَفــيرُ

* * *

دعــوتُ إلهــي دعــوةً مــا جهلتهــا   وربي بمــا تخفــي الــصدورُ بــصيرُ:
لـئن كنـتَ تُهْـدِي بَـرْد أنيابهـا العـلا   لِأَفْقَـــرَ مـــني إنـــني لَفَقِـــيرُ؟
فقـد شـاعت الأخبـار أنْ قـد تزوجـتْ   فهـــل يأتيـــنّي بالطـــلاق بَـــشِيرُ؟

* * *

عَلَيـــكِ سَـــلامُ اللهِ يا غايَـــةَ المُـــنَى   وَقـــاتِلَتي حـــتى القِيامَـــةِ والحـــشرِ

* * *

أَلا زَعَمَــــتْ ليلـــى بِأَنْ لا أُحِبُّهـــا   بَلَـى وَالليـالي العـشرِ وَالـشفعِ وَالـوَتْرِ
بَلَـى والـذي لا يَعْلَـمُ الغَيـبَ غَـيرُهُ   بِقُدْرَتِـهِ تَجْـري الـسَّفائِنُ في البحـرِ
بَلَـى والـذي نادى مِـنَ الطـورِ عَبْـدَهُ   وَعَظَّـمَ أَيامَ الذبيحـةِ وَالنحـرِ
لَقَـد فُضِّلَت ليلـى عَلى الناسِ مِثلَما   على ألـفِ شـهرٍ فُـضِّلَتْ لَيْلَـةُ القَـدْرِ

* * *

لَعَـلَّ الَّـذي يقـضي الأُمـورَ بعلمـه   سَيَـصْرِفُني يومـاً إليـه علـى قَـدْرِ
فَتَفْتُـرُ عَـينٌ مـا تَمَـلُّ مِـنَ البُكَـا   وَيَـسْكُنُ قَلْـبٌ مـا يُنَهْنَـهُ بِالزَّجْـرِ

* * *

أَبى اللهُ أَن تَبقـى لِحَـيٍّ بَـشاشَةٌ   فَـصَبْراً عَلـى مـا شـاءه اللهُ لي صَـبْرا

* * *

أَمَـا والـذي أعطـاكِ بَطْـشاً وَقُـوَّةً   وَصَـبْراً وَأَزْراني وَنَقَّـصَ مِـن بَطْـشي
لَقَـد مَحَـضَ اللهُ الهـوى لَـكِ خالِـصاً   وَرَكَّبَـهُ في القلـب مِـنّي بـلا غِـشِّ

* * *

أَقـولُ لِمُفْـتٍ ذاتَ يَـومٍ لَقيتُـهُ   بِمَكَّـةَ وَالأَنْـضاءُ مُلْقًـى رِحَالُهَـا:
بِرَبِّـكَ أَخْـبِرني أَلَمْ تَأْثَمِ الـتي   أَضَـرَّ بجـسمي مـن زَمـانٍ خَيَالُهـا؟
فَقَـالَ: بَلـى واللهِ سَـوفَ يَمَـسُّها   عَـذابٌ وَبَلْـوَى في الحيـاةِ تَنَالُهـا
فَقُلْـتُ، وَلَمْ أَمْلِـك سَـوابِقَ عَبْـرَةٍ   سـريعٍ إلى جَيْـبِ القمـيصِ انْهِمالُهـا
عَفـا اللهُ عَنهـا ذَنْبَهـا وَأَقالَهـا   وَإِنْ كـانَ في الـدنيا قلـيلاً نَوَالُهـا

* * *

حَجَجْـتُ وَلَمْ أحجـج لِـذَنْبٍ جَنَيْتُـهُ   وَلَكِـنْ لِتُعْـدِي لي على قـاطِعِ الحَبْـلِ
ذَهَبْـتَ بِعَقلـي في هَواهـا صَـغيرةً   وَقَـد كَـبِرَتْ سِـنّي، فَـرُدَّ بِهـا عَقْلـي
وَإِلّا فَـساوِ الحُـبَّ بيـني وبينَهـا   فَإِنَّـكَ يا مـولايَ تَحكُـمُ بِالعَـدْلِ

* * *

خليلـي لا واللهِ لا أملـك الـذي   قـضى اللهُ في ليلـى ولا مـا قـضى ليـا

قــضاها لغــيري، وابــتلاني بحبهــا فهــلا بــشيءٍ غــير ليلــى ابتلانيــا؟

* * *

حَلَفــتُ لَإِنْ لاقَيْــتُ ليلــى بِخَلْــوَةٍ أَطــوفُ ببيــتِ اللهِ رَجْــلانَ حافِيــا
شَــكَرتُ لِــرَبِّي، إذ رَأَيْتُــكِ، نَظْــرَةً نَظَــرْتُ بها لا شَــكَّ تَــشْفِي هُيَامِيــا

* * *

فَيــا رَبِّ، إذ صَــيَّرتَ لَيلــى هِــيَ المُــنَى فَــزِنِيِّ بِعَيْنَيهــا كَمــا زِنْتَهــا لِيــا
وَإِلّا فَبَغِّـــــضْها إِلَيَّ وَأَهْلَهـــــا فَــإِنِّ بِلَيْلَــى قــد لَقِيــتُ الــدَواهِيا
يَلومــونَ قَيْــساً بَعــدَ مــا شَــفَّهُ الهَــوَى وَباتَ يُراعــي الــنجمَ حَــيْرانَ باكِيــا
فَيــا عَجَبــاً مِمَّــن يلــومُ عَلــى الهَــوى فَــتًى دَنِفــاً أمــسى مِــنَ الــصبرِ عــارِيا
يُنــادِي الَّــذي فَــوقَ الــسمواتِ عَرْشُــهُ لِيَكْــسِفَ وَجْــداً بــينَ جَنبَيــهِ ثاوِيا

* * *

أَمـا والـذي حَجَّـتْ لـه العيسُ وَارتَمـى لِمَرْضــاتِهِ شُــعْثٌ طَوِيــلٌ ذَمِيلُهــا
لَإِنْ نائِبــاتُ الــدهرِ يومــاً أَدَلْــنَ لي عَلــى أُمِّ عَمْــروٍ دَوْلَــةً لا أُقِيلُهــا

كذلك نرى المجنون يدعو لليلى ويدعو على ليلى، فهل هناك عابد يدعو للإلهة التى يعبدها أو يدعو عليها؟ ومع ذلك فمن الممكن جدا أن يشير الأستاذ الدكتور إلى مناة والعزى ونائلة مثلا بوصفها آلهة أنثوية. لكن الكلام فى هذه الأوثان يختلف عما يقوله عن المرأة الإله، فلم تكن أى من الثلاث (إن كانت اللات أنثى لا رجلا لأن هناك من يقول إن اللات كان رجلا يلتّ السويق بالطائف) امرأة معروفة. كما أن هذه الأوثان ليست آلهة بالمعنى المفهوم للألوهية، بل وسائط تشفع عند الله. ولم يكن العرب يصلّون لأية منها، بَلْهَ أن تكون الصلاة هى صلاة الإسلام، بل ينحرون ويقدمون القرابين ويحلقون رؤوسهم فى الحج عندها ويستفتون كهنتها فى بعض أمور الغيب. وهم فى هذا إنما يتخذون تلك الآلهة وسائط تقربهم إلى الله زلفى، أما الله فهو فى علوه السامق الشاهق خالق الكون ورازق الكائنات وفى يده كل شىء. أى أن الألوهية لا تزال تستخدم ضمير المذكر لا المؤنث. وبهذا يتضح أن الكلام عن تأليه الأنثى، وكأنها احتلت مكانة الله سبحانه وصارت الألوهية مؤنثة، فكلام لا موضع له من

الإعراب، إذ النسق الألوهى ما زال على حاله لم ينزل الله من عليائه ويتركها لوثن أنثوى. قلت: وثن أنثوى، ولم أقل: امرأة لأنه لم يحدث أنْ أَلَّه الجاهليون امرأة تأليها بحيث تأخذ مكانة الله سبحانه. إن الأوثان هى فى حقيقتها مجرد وسائط بين الجاهليين وبين الله لا أكثر ولا أقل.

وإلى جانب ذلك نرى الأستاذ الدكتور يتحدث عن عبادة الأنثى على أنها طبقة مطمورة فى أعماق التاريخ تحتاج إلى حفر كثير إلى أن نصل إليها فى تلك الأعماق البعيدة فى باطن الأرض. لكن نسى الزميل العزيز أن الأمر لا يتطلب حفرا ولا خلافه، إذ كانت مناة والعزى وغيرهما من الآلهة المؤنثة موجودة إلى عهد جد قريب فوق سطح الأرض وعلى مشهد ومسمع من الجميع فى بلاد العرب وغير العرب لا تحت أكداس التراب والصخور فى الأعماق البعيدة. وبالمثل لا موضع هنا للقول بأن الزمان قد جار على وضع المرأة فهبط بها من الألوهية إلى أن صارت تُوأَد وتُدْفَن فى التراب. ذلك أن التشفع بمناة والعزى كان يسير كتفا إلى كتف مع وأد البنات إلى أن سطع نور الإسلام لا كما يقول الأستاذ الدكتور من أن عبادة المرأة كانت سائخة فى طبقات التاريخ السفلية بما تراكم فوقها من أتربة وصخور كثيرة انتهت بالطبقة العلوية التى صارت فيها موؤودة بعدما كانت معبودة. وكما كانا يسيران معا يدا بيد فقد اختفيا أيضا معا يدا بيد حين هل نور الإسلام العظيم.

وزيادة على هذا لا ينبغى أن ننسى الإشارة إلى أن الأوثان الذكورية كانت أكثر من نظيرتها الأنثوية، فقد كان هناك من الأصنام الذكور وَدٌّ ويغوثُ ونهم وهُبَل واللات وسُوَاع ونسر واليعبوب ويَعُوق والفلس وذو الكفين ومناف وسعد وسُعَيْر وذو الشرى وباجر وذو الخُلَصَة وعميانس وعائم والأُقَيْصِر ورُضَاء ورئام فى مقابل مناة والعُزَّى والسَّجَّة ونائلة فقط حسبما جاء فى كتاب "الأصنام" وفهارس المرحوم أحمد زكى له. وأخيرا وليس آخرا لم يكن العرب، كما قلت، يُصَلُّون للأوثان: لا الذكور منها ولا الإناث، بله أن تكون الصلاة إسلامية، بل كانوا ينحرون عندها أو يستعينون بها فى معرفة الغيب من خلال كهانها بإجالة القداح أو يحلقون شعورهم عندها فى الحج أو يُهْدُون إليها من الأنعام والحرث كما سبق التنويه. ليس ذلك فقط بل كان العرب المشركون، حسبما فصلنا القول آنفا، يعبدون الله سبحانه بوصفه رب الأرباب خالق كل شىء، وما الأوثان إلا وسائط تقربهم إليه زلفى ليس

إلا. ونحن نستخدم لله ضمير المذكر لم يشذ أحد فى أية أمة عن هذا، اللهم إلا نوال السعداوى، التى تعترض على ذلك وتدعو إلى استخدام ضمير المؤنث له!

فهذا هو الأسلوب الصحيح لدراسة هذه القضية، أما امتلاخ بيت من سياق قصيدة وإهمال سائر أبياتها وسائر قصائد الديوان فليس بالأسلوب السليم للحكم فى قضية كهذه. والمجنون، كما هو واضح من الشواهد المارة، رجل مسلم نقى الإسلام يؤمن بالله إيمانا عميقا خالط منه اللحم والدم وسيطر على عقله وقلبه، ويتجه إليه سبحانه كلما حزبه أمر، ويعرف فرائض دينه ولا يمكن أن يمر بخاطره ولو على بعد سبعين خريفا ضوئيا شىء من الشرك، فضلا عن تأليه الأنثى والصلاة لها. وفى هذا السياق أرانى مع د. عبد المطلب تماما فى تحذيره، ومعه كل الحق، مما يمكن أن يقع من الناقد الثقافى حين يبدأ من النسق لا من النص، ثم يلوى رقبة النص ليتماشى مع النسق، على حين ينكر النصُّ هذا النسق المفروض عليه إنكارا صارخا.

إذن فماذا؟ إذن فالأمر لا يعدو أن يكون مبالغة شعرية يحاول المجنون من خلالها التعبير عن حبه الشديد وتعلقه الشاهق بليلى. وإلا فهل يصدق أحد أنه كان يصلى ناحيتها ويترك القبلة؟ وهل كان يعرف مكانها عند كل صلاة حتى يمكنه التوجه نحوها؟ أم هل كانت معه بوصلة مبرمجة على استشعار مكانها فيخرجها من جيبه ويضعها على السجادة ويصلى إلى الناحية التى يشير إليها عقرب البوصلة؟ بل هل كان عند المجنون عقل يعرف به أنه لا يصلى إلى القبلة بل إلى ليلى؟ وهل ترك عشق ليلى له عقلا؟ ولماذا كان هو فحسب الذى يصلى ناحية حبيبته دون كل المحبين؟ أهو وحده الذى كان معه مفتاح غرفة المخزون الثقافى؟ إننا نحن البشر نبالغ كلنا فى كلامنا حتى فى كلام الحياة اليومية الاعتيادى. وكثير جدا من المحبين الشبان يقولون لحبائبهم إنهم يعبدونهن عبادة. ولعلنا أخذنا هذا التعبير أو الإكثار منه من قولهم بالفرنسية مثلا: "**Je t'adore**". وهو نفس ما يقوله كثير من الناس عن أولادهم وأحفادهم الصغار، يريدون إلى القول بأنهم يحبونهم ويتعلقون بهم تعلقا يفوق الحد. ومجانين الحب كثيرون: مجنون سعاد حسنى، ومجنون ليلى مراد، ومجنونة عبد الحليم حافظ مثلا. أم ترى هؤلاء أيضا كان مع كل منهم مفتاح للمخزون الثقافى؟

ومن هذه المبالغات أيضا قول أبى نواس الأفاق الكبير عن مُحَمَّد الأمين:

أخــذتُ بحبــلٍ مِــن حِبــالِ مُحَمَّــدٍ أَمِنْــتُ بِــهِ مِــن نائِــبِ الحَــدَثانِ
تَغَطَّيْــتُ مِــن دهــري بِظِـلِّ جَناحِــهِ فَعَيْــني تَـرى دهـري، ولـيس يـراني
فَلَوْ تُسْأَل الأيّامُ: ما اسمي؟ لَمَا دَرَتْ وَأيــن مكــاني؟ مــا عَــرَفنَ مَكــاني
أَذَلَّ صِــعابَ المُــشكِلاتِ مُحَمَّــدٌ فَأَصْــبَحَ ممــدوحاً بِكُــلِّ لِــسانِ
يجِــلُّ عَــنِ التــشبيهِ جــودُ مُحَمَّــدٍ إذا مَرِحَــت كَفّــاهُ بِالهَطَــلانِ
يُغِبُّــكَ معــروفُ الــسماءِ، وَكَفُّــهُ تَجــودُ بِــسَحِّ العُــرْفِ كُــلَّ أَوانِ
وَإِن شَـبَّتِ الحـرب العـوانُ سَمَـا لهـا بِــصَوْلَةِ لَيــثٍ في مــضاءِ سِــنانِ
فَــلا أَحَــدٌ أَسْــخَى بِمُهجَــةِ نَفــسِهِ علــى المَــوتِ مِنــهُ، وَالقَنــا مُتَــدَانِ

ولقد والله قرأت وصفا للحظات الأخيرة من حياة الأمين قبل أن يُقْتَل، فكدت أبكى إشفاقًا له ورقةً لضعفه وعجزه الذى ذكرنى بضعف الأطفال وعجزهم رغم معرفتى بأنه كان فاسدا لا يستحق خلافة المسلمين. ومع هذا يصفه هنا أبو نواس بأنه شجاع يصول ويجول كالليث متى شبت الحرب. وأما مبالغته فى تفضيل الأمين على السماء فى الكرم والغيث، ومبالغته فى وصف حمايته له من الدهر حتى إن الدهر لا يستطيع أن يصل إليه ولا أن يراه أو يعرف أين هو فلا تحتاجان إلى تعليق.

ومثل ذلك قول ابن الأثير فى "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" عن أبى تمام والبحترى والمتنبى: "وهؤلاء الثلاثة هم لاتُ الشعر وعُزَّاه ومَنَاتُه، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعتْ بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء". لقد شبه ابن الأثير أبا تمام والبحترى والمتنبى باللات والعزى ومناة. فهل نقول إنه ظل يحفر فى أعماق التاريخ حتى وصل إلى طبقة مطمورة فى المخزون الثقافى هى الطبقة التى كان العرب يعبدون مع الله أوثان اللات والعزى ومناة، فأخذ منها اسم اللات والعزى ومناة وعبادة العرب لها؟ لكن هل كان يمكن أن يمضى الأمر بهذه السلاسة لو كان الأمر قد تم على هذا النحو؟ يقينا لقد كان ابن الأثير جديرا أن يمزَّق عرضه ويُتَّهَم بكل موبقة فى عقيدته. لكننا ننظر فنجد ابن الأثير نفسه يشرح تشبيه هؤلاء الشعراء

بتلك الآلهة الثلاثة. إنه مجرد مجاز يستعمل الكاتب فيه كلامه على التوسع لا على الدقة والتحبيك مبالغة منه فى الإعلاء من شأن أولئك الشعراء الثلاثة الكبار ليس إلا. ولقد وضح الكاتب ذاته مقصوده من تلك الصورة وأن الكلام عن تفوقهم فى الشعر على غيرهم مثلما تتفوق هذه الأوثان الثلاثة على بقية أوثان الجاهليين حتى إنها هى الأوثان الوحيدة التى ورد ذكرها فى سورة "النجم" معا فى آية واحدة. ويدل على أن الأمر لا علاقة له بالاعتقادات الوثنية أن العزى ومناة على الأقل مؤنثتان، بينما أبو تمام والبحترى والمتنبى كلهم ذكور. فليس فى الأمر مخزون ثقافى ولا حتى مخزون بضائع! وهل هناك من يجهل اللات والعزى ومناة حتى نقول إنها مطمورة فى باطن التاريخ السحيق مع سائر المخزونات الثقافية وأن اكتشافها وكشفها قد كلف ابن الأثير شيئا وشُوَيَّات؟

وكثيرا ما تقابلنا فى الشعر والنثر عبارة "كعبة القصاد" أو "كعبة القاصدين" فى وصف الرجل الذى يسرع الناس إلى بيته واثقين أنه سيؤدى لهم حاجاتهم، ولا يمكن أبدا أن تكون محمَّلة بأية اعتقادات دينية، إذ هى تعبير مجازى. ومثله قول حسين بن مطهَّر اليمانى عن أحد ممدوحيه:

الحـــجُّ يُقْـــصَد كـــلَّ عـــامٍ مـــرّةً   ولـــك العـــوالمُ كـــلّ حـــين تَقْـــصِدُ

وهو ما علق عليه الشهاب الخفاجى فى كتابه: "ريحانة الأَلِبّا وزهرة الحياة الدنيا" قائلا: "هذا المعنى كثير مسبوق إليه كقول بعض العصريِّين:

كعبــةٌ أُسِّــسَتْ علــى الفــضلِ لكــن   كـــلَّ حـــينٍ لهـــا تحُـــجُّ الوُفـــودُ

وأصله قول سعيد بن سلام، وقد قال له بعض ندمائِه فى بستان: ما أحسن هذا البستان! فقال له: أنت أحسنُ منه لأنه يُؤتِى أكُلَه كلَّ عام، وأنت تُؤتِى أكُلكَ كلَّ حِين". ويقول شاعر آخر هو الشهاب بن فضل الله لأحد الحَمَّامِيّين فى الثناء على حمَّامه، وهو هزل صراح:

وحمّـــامكم كعبـــةٌ للوفـــود   تحـــجّ إليـــه حفـــاةً عُـــرَاهْ

ومن قبل قال أبو تمام لبعض ممدوحيه:

ويـضحَكُ الـدَّهرُ مـنهم عـن غطارفـةٍ   كـأنَّ أيّامَهُـم مِـنْ حـسنِها جُمَـعُ

ويقول المتنبى لسيف الدولة مادحا إياه بأنه عيد العيد:

هنيئاً لك العيدُ الذي أنت عِيدُه وعيدٌ لمن سَمَّى وضَحَّى وعَيَّدَا

وليس فى شىء من هذا كله سوى المجاز، والمبالغات، والهزل أيضا.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فلا بد أن نشير فى هذا السياق إلى النص التالى لابن طباطبا العلوى، وفيه كلام قريب مما يقوله النقاد الثقافيون عن طبقات الأنساق الثقافية المتراكبة واحتياجها منا إلى مواصلة الحَفْر فيها كى نصل منها إلى ما من شأنه تسليط الضوء على كثير من التصرفات والاعتقادات والنصوص الأدبية لدى الشعب موضع الدراسة. قال ابن طباطبا بشأن الصور التى تخالف ما درج عليه العرب وإلى أى مدى يمكن تقبلها أو رفضها: "اعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحِكَم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها. وهم أهل وبر: صحونهم البوادي، وسقوفهم السماء. فليست تعدو أوصافُهم ما رَأَوْه منها وفيها، وفي كل واحدة منهما في فصول الزمان على اختلافها من شتاء وربيع وصيف وخريف، من ماء وهواء ونار وجبل ونبات وحيوان وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن، وكل متولد من وقت نشوئه، وفي حال نموه إلى حال انتهائه. فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفُسها من محمود الأخلاق ومذمومها، في رخائها وشدتها، ورضاها وغضبها، وفرحها وغمها، وأمنها وخوفها، وصحتها وسقمها، والحالات المتصرفة في خلقها من حال الطفولة إلى حال الهرم، ومن حال الحياة إلى حال الموت. فشَبَّهَتِ الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبتْ إليه في معانيها التي أرادتها.

فإذا تأملتَ أشعارها وفتشت جميع تشبيهاتها وجدتها على ضروب مختلفة تتدرج أنواعها: فبعضها أحسن من بعض، وبعضها ألطف من بعض. فأحسن التشبيهات ما إذا عُكِس لم ينتقص، بل يكون كل مشبَّه بصاحبه مثلَ صاحبه، ويكون صاحبه مثله مشبهاً به صورة ومعنى. وربما أشبه الشيء الشيء صورةً وخالفه معنًى، وربما أشبهه معنًى وخالفه صورةً، وربما قاربه وداناه أو شامه، وأشبهه مجازاً لا حقيقة. فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يُحْتَجّ بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول، أو حكاية تستغربها، فابحث عنه ونَقِّر عن معناه، فإنك لا تعدم أن

تجد تحته خبيئة إذا أَثَرْتَها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته.

وربما خفي عليك مذهبهم في سنن يستعملونها بينهم في حالات يصفونها في أشعارهم، فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم، ولا تفهم مثلها إلا سماعاً، فإذا وقفتَ على ما أرادوه لَطُفَ موقعُ ما تسمعه من ذلك عند فهمك. والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه. كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح، فجسده النطق، وروحه معناه. فأما ما وصفتْه العرب، وشبهت بعضه ببعض فما أدركه عيانها فكثير لا يُحْصَر عدده، وأنواعه كثيرة. وسنذكر بعض ذلك ونبين حالاته وطبقاته إن شاء الله تعالى.

وأما ما وَجَدَتْه في أخلاقها ومدحتْ به سواها، وذَمَّتْ من كان على ضد حاله فيه، فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخَلْق الجمال والبسطة، ومنها في الخُلُق السخاء والشجاعة، والحلم والحزم والعزم، والوفاء والعفاف والبر والعقل والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والمداراة والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكتم السر والمواتاة وأصالة الرأي والأنفة والدهاء وعلو الهمة والتواضع والبيان والبِشْر والجَلَد والتجارب والنقض والإبرام وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قِرَى الأضياف وإعطاء العُفَاة وحمل المغارم وقمع الأعداء وكظم الغيظ وفهم الأمور ورعاية العهد والفكرة في العواقب والجِدّ والتشمير وقمع الشهوات والإيثار على النفس وحفظ الودائع والمجازاة ووضع الأشياء مواضعها والذَّبّ عن الحريم واجتلاب المحبة والتنزه عن الكذب واطِّراح الحرص وادِّخار المحامد والأجر والاحتراز من العدوّ وسيادة العشيرة واجتناب الحسد والنكاية في الأعداء وبلوغ الغايات والاستكثار من الصدق والقيام بالدِّيَة وكَبْت الحساد والإسراف في الخير واستدامة النعمة وإصلاح كل فاسد واعتقاد المِنَن واستعباد الأحرار بها وإيناس النافر والإقدام على بصيرة وحفظ الجار. وأضداد هذه الخلال البخل والجبن والطيش والجهل والغدر والاغترار والفشل والفجور والعقوق والخيانة والحرص والمهانة والكذب والهلع وسوء الخلق ولؤم الظَّفَر والخَوَر والإساءة وقطيعة الرحم والنميمة والخلاف والدناءة والغفلة والحسد والبغي والكبر والعبوس والإضاعة والقبح والدمامة والقماءة والابتذال والخَرَف والعجز والعِيّ.

ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها، وتضاعف حسنها، وتزيد في جلالة المتمسك بها، كما أن لأضدادها أيضاً حالات تزيد في الحط ممن وُسِم بشيء منها ونُسِب إلى استشعار مذمومها، والتمسك بفاضحها: كالجود في حال العسر موقعه فوق موقعه في حال الجِدَة، وفي حال الصحو أحمد منه في حال السُّكْر. كما أن البخل من الوافر القادر أشنع منه من المضطر العاجز، والعفو في حال المقدرة أجلُّ موقعاً منه في حال العجز، والشجاعة في حال مبارزة الأقران أحمد منها في حال الإحراج ووقوع الضرورة، والعفة في حال اعتراض الشهوات والتمكن من الهوى أفضل منها في حال فقدان اللذات واليأس من نيلها، والقناعة في حال تبرج الدنيا ومطامعها أحسن منها في حال اليأس وانقطاع الرجاء منها. وعلى هذا التمثيل وجميع الخصال التي ذكرناها. فاستعملت العرب هذه الخلال وأضدادها، ووصفتْ بها في حالي المدح والهجاء مع وصف ما يُسْتَعَدّ به لها ويتهيأ لاستعماله فيها، وشَعَّبَتْ منها فنوناً من القول وضروباً من الأمثال وصنوفاً من التشبيهات ستجدها على تفننها واختلاف وجوهها في الاختيار الذي جمعناه، فتسلك في ذلك منهاجهم، وتحتذي على مثالهم إن شاء الله تعالى".

لكنا لا نذهب إلى هذا المدى الذى يذهب إليه العسكرى من رفض كل شيء لا يجرى على النسق المعتاد، إذ الحياة تحب التجديد، ومن طبيعتها أنها تزود أبناءها دائما بالطارف المنعش المثير، وإلا أسنتْ وركدت ولم يعد لها طعمها الأول الجميل. ومن ذلك على سبيل المثال انتقاد أبى هلال العسكرى فى "الصناعتين" قول جميل بن معمر:

خليلــيَّ، فيمــا عــشتما هــل رأيتُمــا قتــيلا بكــى مــن حــبِّ قاتِلــه مثلــي؟
فلــو تركــتْ عقلــى معــي مــا طلبتُهــا ولكــنْ طِلابِيهَــا لمَــا فــاتَ مــنْ عقلِــي

إذ كان تعليقه على البيت: "زعم أنه يهواها لذهاب عقله، ولو كان عاقلاً ما هَوِيَها". يريد أن يقول: معنى كلام جميل أنها لا تستحق أن تُحَبّ. وهو استقباح للبيت كما نرى، إذ حسب أنه هجاء لا نسيب. لكن لا أظن جميلا أراد هذا، بل أراد الإقرار بالعجز عن نسيانها أو سُلُوّها مهما فعل لأن حبها تغلغل فى قلبه تغلغلا ليس إلى التخلص منه سبيل، فقد طيرت له عقله، أى ألغت إرادته، فهو لا يستطيع أن يتخذ قرارا بالابتعاد عنها ومحاولة نسيانها حتى يستريح من العذاب الأليم الذى يقاسيه ليل نهار. ولو كان عنده عقل وعزيمة يستطيع أن

يتخذ بهما مثل هذا القرار لوضع قلبه تحت قدميه موطِّنا نفسه على نسيانها. ولكن أنى له ذلك؟

وقال العسكرى أيضا عن بيت لعمر بن أبى ربيعة: "ومن المعيب قول عمر بن أبي ربيعة هذا:

أَوْمــتْ بكفَّيهَــا مــن الهَـوْدَجِ:   لـولاكَ في ذا العــامِ لم أَحْجُـجِ

أنــتَ إلى مكــةَ أخــرجتَني   حُبّـاً، ولـولا أنــتَ لم أخــرجِ

لا ينبئ الإيماء عن هذه المعاني كلها". فمن قال لأبى هلال إنها أومأت بكفيها فقط؟ إن القرآن الكريم مملوء بالتراكيب التى ينتقل فيها الكلام من السرد إلى الحوار مباشرة دون استعمال عبارة تمهيدية لكلام المتحاور. وجمال البيت فى هذا الانتقال. والمعنى أنها حين أخرجت كفيها همست له قائلة: ...". فهذا الحذف من أروع الكلام. ويرى القارئ أنى وضعت نقطتين متراكبتين بعد عبارة "أومت بكفيها من الهودج:" للإشارة إلى أن هاهنا فعل قول محذوفا.

وبالمثل عاب عالمنا الجليل على المثقِّب العبدى قوله عن ناقته:

تقــول إذا درأتُ لهــا وَضِـيني: أهــذا دِينُــه أبــداً وديــني؟

أَكُــلَّ الــدهر حِــلٌّ وارتحــالٌ؟   أمــا يُبْقِــى علــيَّ ولا يَقِيــني؟

مفضلا عليه بيت عنترة التالى:

فـازورّ مـن وقـع القَنَـا بلَبانِـه   وشـكَا إليَّ بعـبرةٍ وتحمحُـمِ

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى   ولكان، لو عَلِمَ الكلامَ، مُكَلِّمِى

ومن الواضح أنه يرى فى بيتى المثقب مبالغة فى غير محلها. والرد على ذلك من أسهل ما يمكن. فلكل شاعر أسلوبه وطريقته. والنصان كلاهما جميلان. ويمكن أن يكون الفرق بين الطريقتين راجعا إلى أن حصان عنترة كلمه أثناء الحرب، والحرب لا تسمح بالحوار الطويل، وإلا ضاع المحارب، إذ الحرب تستلزم التركيز فى مقارعة الأعداء والتنبه التام لكل ما يفعلونه، وإلا أُتِيَ من انصرافه إلى الأخذ والرد مع الحصان. أما ناقة المثقب فتحدثه ويستمع إليها على راحته سواء كان الحديث فى البيت أو أثناء السفر. فكلاهما يحتاج إلى الأنس بالكلام مع

رفيقه، وبخاصة أن الناقة لا تعرف الراحة أبدا، فكان لا بد أن تفضفض، وتركها الشاعر تأخذ راحتها فى الفضفضة.

كذلك عاب أبو هلال على أبى تمام قائلا عن بيت له يشبِّه فيه الحِلْم بالبُرْد. قال: "ومن الغلط قول أبي تمام:

رقيقُ حواشِي الحِلْم لو أنَّ حِلْمَهُ بكفَّيْكَ ما مارَيْتَ في أنه بُرْدُ

وما وصف أحدٌ من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام الحِلْم بالرّقة، وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة كما قال النابغة:

وأعظمُ أحلاماً، وأكبر سيداً وأفضلُ مشفوعاً إليه وشافعا

وقال الأخطل:

صُمٌّ عن الجهل، عن قِيل الخَنَا خُرُسٌ وإن ألمَّت بهم مكروهةٌ صبرُوا

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهمْ وأعظمُ النّاسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

وقال أبو ذؤيب:

وصَبْرٌ على حدثِ النّائباتِ وحِلْمٌ رزينٌ، وعقلٌ ذكيّ

وقال عديّ بن الرّقاع:

أبتْ لكمو مواطِنُ طيّباتٌ وأحلامٌ لكم تزنُ الجبالا

وقال الفرزدق:

أبتْ لكمو مواطِنُ طيّباتٌ وأحلامٌ لكم تزنُ الجبالا

ومثل هذا كثير. وإذا ذمّوا الرجل قالوا: خفّ حِلْمُه وطاش، كما قال عياض بن كثير الضَّبِيّ:

تنابلةٌ سودٌ خفافٌ حلُومُهُم ذوو نَيْرَبٍ في الحيّ يغدو ويطرقُ

وقال عقبة بن هبيرة الأسدي:

أَبَنُو المغيرةِ مثلُ آل خويلدٍ؟ يا للرِّجال لخفَّةِ الأحلامِ!

لا بل أحسبني سمعت بيتاً لبعض المحدثين يصف فيه الحلمَ بالرّقةِ، وليس بالمختار".

هذا ما قاله أبو هلال، ورغم إجلالى له فإنى أختلف معه فى تقييم بيت أبى تمام اختلافا شديدا. ذلك أن العسكرى حَسِب الحِلْم شيئا واحدا، وهو الرزانة والصلابة فى مواجهة أحداث الدهر وكوارثه ومخاوفه، ناسيا أن من الحلم أيضا أن يكون الإنسان متسامحا مع من أساء إليه وألا يقابل الرعونة برعونة مثلها وأن يعمل كل ما من شأنه إزالة الخوف والحرج من نفوس جلسائه إذا ما بدر منهم شيء مسيء، وبخاصة إذا كان من غير قصد... إلخ. فهذا الحِلْم الأخير هو الذى قصده أبو تمام وصوَّره فى تلك الصورة الشاهقة. وإلا فهو فى البيت التالى يصف نوع الحلم الذى لا يعرف سواه أبو هلال:

لَكَ هَضْبَةُ الحِلْمِ التي لو وازَنَت ... أَجَأً إذن ثَقُلَت، وَكانَ خفيفا

ثم لقد تسرع أبو هلال، رحمه الله، حين جزم جزما قاطعا بأن أحدا من الشعراء العرب طوال تاريخهم لم يصف الحلم بالرقة، إذ الجزم فى مثل تلك الحالة غير مستحب ولا هو ممكن، فنحن لسنا أجهزة كاتوب نذكر كل شيء باستخدام الباحث، وهذا بافتراض أن جهاز الكاتوب قد شُحِن بكل شيء. وعلى كل حال فهذه عدة شواهد على ذلك النحو من الحلم أسوقها كيفما اتفق. قال إبراهيم بن المهدى أخو هارون الرشيد:

ما ألينَ الكَنَفَ الذي بَوَّأْتَني ... وطناً، وأمرعَ رَتْعَهُ للراتعِ!

للصالحات أخاً جُعِلْتَ وللتقى ... وأباً رءوفاً للفقيرِ القانع

نفسي فداؤك إذ تضلّ معاذري ... وألوذ منك بفضل حلمٍ واسعِ

أملاً لفضلكَ، والفواضلُ شيمةٌ ... رفعتْ بناءك بالمحلّ اليافع

فبذلتَ أفضلَ ما يضيق ببذله ... وُسْعُ النفوسِ من الفَعَال البارعِ

وعفوتَ عمن لم يكن عن مثله ... عفوٌ ولم يشفع إليك بشافعِ

إلا العلوُّ عن العقوبة بعدما ... ظفرتْ يداك بمستكينٍ خاضع

فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وعويلَ عانسةٍ كقوس النازعِ

وقال الحيص بيص:

كأن نسيم الجاشِريَّةِ ذِكْرُهُ ... إذا مرّ غِبَّ القطرِ فوق الخمائل

لطافـةُ حلـمٍ دونهـا مـاءُ مُزْنـةٍ　　وبطـشٌ كـأطراف القنـا والمناصِـلِ

وقال الشريف الرضى:

حِلْـمٌ كَحاشِـيَةِ الـرِّداءِ ودونَـهُ　　بأسٌ يَـدُقُّ عَوامِـلَ الأَرْمـاحِ

وقال الشريف المرتضَى:

بأنّـك رُضْـتَ الحِلْـمَ حـتّى لبِسْتَهُ　　شِعاراً، ولكـنْ ليس يُنْضَى ويُخْلَعُ

وقال الكُمَيْت بن زيد الأسدى:

رأيـتُ ثيـاب الحلـم وهـي مُكِنَّـةٌ　　لذي الحلم يَعْرَى، وهو كاسٍ، سليبُها

وقال ابن الدُّمَيْنة:

وَأَذْكُـرُ أَيّامَ الحِمَـى ثُمَّ أَنثَـنِي　　عَلَـى كَبِـدِى مِـن خَـشيَةٍ أَن تَـصَدَّعَا

وَلَيْـسَت عَـشِيّاتُ الحِمَـى بِرَواجِـعٍ　　عَلَيـكَ، وَلَكِـن خَـلِّ عَينَيـكَ تَـدمَعَا

بَكَـت عَيْـنِىَ اليُمـنَى، فَلَمّـا زَجَرْتُهَـا　　عَـنِ الجَهـلِ بَعْـدَ الحِلـمِ أَسـبَلَتا مَعـا

وقال هدبة بن الخشرم:

يَبيـتُ عَـن الجـيرانِ مُعـزِب جَهْلِـهِ　　مُـرِيح حَواشـي الحِلْـمِ للخَـيْرِ واصِـفُ

وقال ابن خفاجة:

فَـإِنَّ لِإِبـراهِيمَ فَيْـأَةَ رَأْفَـةٍ　　تَعـودُ بِعَطْـفِ الحِلْـمِ، وَالعَـوْدُ أَحْمَـدُ

وقال أبو العتاهية:

مـا أَزْيَـنَ الحِلْـمَ لِأَرْبابِـهِ　　وَغايَـةُ الحِلْـمِ تَمـامُ التُّقَـى

وفى ترجمة إسماعيل بن صبيح فى "إعتاب الكتاب" لابن الأبار نقرأ: "يروى أن أعرابيا دخل على الرشيد فأنشده أُرجوزةً مدحه فيها، وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً، وكان من أحسن الناس خطًّا وأسرعهم يداً، فقال الرشيد للأعرابي: صف هذا الكاتب! فقال:

رقيـق حواشـي الحلـم حـين تثـور　　يريـك الهوينـا، والأمـور تطـير

... وواضح أن أبا تمام لم يكن ابن بجدتها حين وصف ممدوحه بأنه "رقيق حواشى الحلم". والطريف أن أبا هلال قد أورد هذا البيت فى كتابه: "أبيات المعانى".

وفى "المحاسن والمساوئ" لإبراهيم البيهقى نقرأ فى الكلام عن شجرة نسب النبى عليه السلام: "تفرّع من شجرة باسقة الندى، شامخة العلا، عربية الأصل، قرشية الأهل، مَنَافِيّة الأعطان، هاشمية الأغصان، ثمرتها القرآن، تَنْدَى بماء ينابيع العلم في رياض الحِلْم، لا يذوي عودها ولا تجفّ ثمرتها ولا يضلّ أهلها..."، فجعل الحلم روضة، وهل هناك ما هو أرق من الرياض؟

والآن نعود إلى موضوعنا الأصلى فنقول إن من الممكن جدا أن يدخل كثير مما تقوله كتب التفسير فيما يسمى بـ"الأنساق الثقافية"، وإن لم يَعِ مفسرو القرآن بطبيعة الحال أنهم يمارسون نقدا ثقافيا، إذ لم يظهر هذا المصطلح إلا بعد قرون طوال. لقد كانوا يعتمدون فيما يقولون على علمهم الواسع ومنطقهم الإنسانى الراسخ. لنأخذ مثلا قوله تعالى: "إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطَّوَّف بهما. ومَنْ تطوَّعَ خيرا فإن الله شاكر عليم"، الذى إن أخذناه على ظاهره كان المعنى أن السعى بين الصفا والمروة ليس فرضا بل إذا أراد الحاج أو المعتمر أن يفعل ذلك لم يكن عليه من حرج. وكأن الأفضل ألا يفعل. ولكن متى علمنا أن الآية لا تتحدث عن تلك القضية بل تُفْهِم المتحرجين من السعى بين التَّلَّيْن على ما سيأتى بيانه أن الوضع قد اختلف الآن وأنه لا داعى من ثم للشعور بالحرج، بل على المسلم أن يتم حجه وعمرته بذلك السعى وهو مطمئن القلب والضمير لا ينبغى أن يحس بقلقٍ أو وسوسةٍ استقام المعنى. فهذا لون من القراءة يستعين فيه المفسر بالنسق الثقافى الخاص بشعائر الحج والعمرة ومعرفة حكم كل شعيرة منها، وإلا ضل عن المقصود الإلهى من الآية.

ويوضح هذا الحديث التالى الموجود فى "صحيح ابن حبان": "سأَلْتُ عائشةَ زوجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلْتُ لها: أرأَيْتِ قولَ اللهِ: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ..." إلى آخِرِ الآيةِ؟ فقُلْتُ لعائشةَ: فواللهِ ما على أحدٍ جُناحٌ ألَّا يطَّوَّفَ بينَ الصَّفا والمروةِ. فقالت عائشةُ: بئس ما قُلْتَ يا ابنَ أختي! إنَّ هذه الآيةَ لو كانت على ما أوَّلْتَها عليه كانت "فلا جُناحَ عليه ألَّا يطَّوَّفَ بهما"، ولكنَّها إنَّما أُنزِلت في الأنصارِ: قبْلَ أنْ يُسلِموا كانوا يُهِلُّون لمناةَ الطَّاغيةِ الَّتي كانوا يعبُدونَ عندَ المُشَلَّلِ، وكان مَن أهَلَّ لها يتحرَّجُ أنْ يطَّوَّفَ بينَ الصَّفا والمروةِ.

فلمَّا أسلَموا سألوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن ذلك وقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا كنَّا نتحرَّجُ أنْ نطَّوَّفَ بالصَّفا والمروةِ. فأنزَل اللهُ: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" (البقرة/ ١٥٨). قالت عائشةُ: ثمَّ قد سنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الطَّوافَ بهما، فليس لأحدٍ أنْ يترُكَ الطَّوافَ بهما".

وفى شرح الحديث بموقع "الدرر السنية" نقرأ ما نصه: "سَأَلَ عُرْوَةُ خالتَه عائِشةَ رضي الله عنها عَن مَعْنى قَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" حيثُ فَهِمَ منها أنَّ السَّعيَ غَيرُ واجِبٍ عَلى الحاجِّ، فَأجابَتْه بِأنَّه قَدْ أخْطَأَ في فَهْمِه، وأنَّ الآيةَ أُنْزِلَتْ في الأنْصارِ حيثُ كانوا قَبلَ أن يُسلِموا يَحُجُّونَ لِصَنَمٍ يُسَمَّى: مَناةَ، عندَ المُشَلَّلِ، وهي ثَنِيَّةٌ بَينَ مَكَّةَ والمَدينةِ تُشرِف عَلى قُدَيْدٍ، فَكانَ مَنْ حَجَّ مِن الأنصارِ يَرى في السَّعْيِ بَينَ الصَّفا والمَروةِ إِثْمًا عَظيمًا لِأنَّه كانَ فيهِما صَنَمانِ يَعبُدهما غَيرُهم، وهُما إساف ونائِلةُ، وكانوا يَكرَهونَهما. فَلَمَّا أسْلَموا سَألوا رَسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم عَن ذلك، فَأَنْزلَ اللهُ تَعالى الآيةَ، فَبَيَّنَ لهم ألا إِثْمَ عليهم في السَّعْيِ بَينَ الصَّفا والمَرْوةِ كَما كانوا يَظُنُّونَ، لِأنَّ السَّعْيَ بَينَهما مِن شَعائِرِ الله، أي مِن مَناسِكِ الحَجِّ والعُمرةِ...".

وسأل نصارى اليمن فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بعض الصحابة: كيف يقول القرآن إن مريم أخت هارون، وبينها وبينه كل ذلك الزمن الطويل؟ وقد سأل رسولَ الله عن تفسير الآية أولئك الصحابةُ الذين سمعوا تشكيك النصارى فيها، فقال لهم ما معناه أنهم كانوا يحبون الانتساب إلى الصالحين والنبيين منهم. وهذا هو الحديث كما فى "صحيح ابن حبان": "بعثني رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ إلى نجرانَ، فقالوا لي: ألستُمْ تقرأونَ: "يَاأُخْتَ هَارُونَ"، وقد كانَ بينَ موسى وعيسى ما كانَ؟ فلم أدرِ ما أجيبُهُم. فرجَعتُ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فأخبرتُهُ، فقالَ: ألا أخبرتَهُم أنَّهم كانوا يُسمُّونَ بأنبيائِهِم والصَّالحينَ قبلَهُم؟".

فلولا معرفة الرسول عليه السلام بوحى من ربه النسقَ الثقافيَّ الخاصَّ بالنسب عند بنى إسرائيل وما فيه من تجوُّز ومجاز ما أمكن فهم الآية ولظل النصارى يشغبون على المسلمين دون أن يستطيع المسلمون الرد على تلك الشبهة. ولقد عدت إلى "دائرة المعارف الكتابية"

النصرانية منذ سنوات لأرى ماذا تقول تحت عنوان "أخت" فوجدت أن هذه الكلمة تُسْتَعْمَل فى الكتاب المقدس استعمالات مجازية كثيرة تدخل الكلمة القرآنية تحت عدد منها بكل أريحية، مع التنبيه إلى أن القرآن ليس هو الذى سماها: "أخت هارون" بل كان مجرد حاك لمناداة قومها لها بهذه التسمية. ولم نسمع قط أن اليهود فى المدينة قد اعترضوا على ذلك.

قالت مادة "أخت": "تستخدم هذه الكلمة كثيراً في العهد القديم، وهي في العبرية "أبوت"، للإشارة إلى:

١– أخت شقيقة من نفس الأبوين.

٢– أخت من أحد الأبوين (تك ٢٠: ١٢ ، لا ١٨: ٩).

٣– امرأة من نفس العائلة أو العشيرة (تك ٢٤: ٦٠، أي ٤٢: ١١).

٤– امرأة من نفس البلد أو الناحية (عدد ٢٥: ٢٨).

٥– يقال مجازيا عن مملكتي إسرائيل ويهوذا إنهما أختان (حز ٢٣: ٤).

٦– تعتبر المدن المتحالفة أخوات (حز ١٦: ٤٥).

٧– تستخدم نفس الكلمة العبرية لوصف أشياء ذات شقين أو أشياء مزدوجة، مثل الستائر أو الشقق التي يقال عنها: "بعضها موصول ببعض" (وفي العبرية "موصول بأخته"– خر ٢٦: ٣ و ٦) ، كما تطلق أيضاً على أزواج الأجنحة (حز ١: ٩ ، ٣: ١٣).

٨– لوصف بعض الفضائل المرتبطة بالشخص مثل: "قل للحكمة: أنت أختي" (أم ٧: ٤، أي ١٧: ١٤).

٩– لوصف العلاقة بين محب وعروسه كتعبير عن الإعزاز (نش ٤: ٩، ٥: ١، ٨: ٨).

وفي العهد الجديد تستخدم الكلمة اليونانية "أيلف" (أخت) في المعاني الآتية:

١– لوصف القرابة بالجسد أو بالدم (مت ١٢: ٥، ١٣: ١٩،٥٦: ٢٩، لو ١٠: ٣٩، لو ١٤: ٢٦، يو ١١: ١، ١٩: ٢٥، أع ٢٣: ١٦).

٢– أخت في المسيح: "أختنا فيبي" (رو ١٦: ١، وانظر أيضاً ١ كو ٧: ١٥، ١ تي ٥: ١، يع ٢: ١٥).

٣- قد تشير إلى كنيسة: "أختك المختارة" (٢ يو ١٣)".

كذلك لولا معرفة السياق الثقافى الخاص بتصور اليهود عن الله تعالى طبقا لما جاء فى العهد القديم من أنه سبحانه لا يختلف عن البشر إذ يتعب كما يتعبون ويحتاج من ثم إلى الحصول على استراحة حتى إنه، بعدما خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، استراح فى اليوم السابع، فلولا معرفة السياق المذكور لما فهمنا قول الآية رقم ٣٨ من سورة "ق" على لسان رب العزة: "ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، وما مسنا من لُغُوب"، أى تعب وإجهاد، إذ لم يكن أحد من المسلمين يخطر بباله أن الله سبحانه يعتريه التعب أبدا. لكن اليهود يفترون عليه أنه يتعب ويستريح ويحقد على البشر ويدخل فى صراع بدنى معهم ويغير قراراته بسهولة كأى شخص انفعالى متسرع يتخذ قرارات غير مدروسة وتتحكم فيه عواطفه المتقلبة. يقول الكتاب المقدس فى أول الإصحاح الثانى من سفر "التكوين": "[1]فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. [2]وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. [3]وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا". وفى حديث عن ابن عباس رضى الله عنه من أحاديث "إتحاف الخيرة المهرة" أن "عُمرَ بنَ الخطَّابِ، رضي اللهُ عنه، استلقى في حائطٍ مِن حيطانِ المدينةِ، فوضَع إحدى رجليه على الأخرى. وكان اليهودُ تَفْتَرِي على اللهِ عزَّ وجلَّ، يقولونَ: إنَّ ربَّنا تبارَك وتعالى فرَغ منَ الخَلْقِ يومَ السبتِ ثم تَرَوَّحَ. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: "ولقَدْ خَلَقْنا السماواتِ والأرضَ وما بينَهُما في ستةِ أيامٍ، وما مسَّنا مِن لُغُوبٍ". فكان أقوامٌ يَكْرَهونَ أن يضَعَ إحدى رِجْلَيْه على الأخرى حتى صَنَع عُمر".

وفى تفسير الآية رقم ٥١ من سورة "القلم"، ونصها: "وإنْ يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر، ويقولون إنه لمجنون" يقول الزمخشرى فى "كشّافه": "وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ: "إنْ" مخففة من الثقيلة، واللام علمها. وقرأ "ليزلقونك" بضم الياء وفتحها. و"زَلَقَه وأَزْلَقَه" بمعنى. ويقال: "زَلَقَ الرأسَ وأَزْلَقَه: حلقه"، وقرأ "ليُزْهِقونك" من "زهقت نفسُه وأزهقها". يعني أنهم، من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شَزْرًا بعيون العداوة والبغضاء، يكادون

يُزلّون قدمك أو يهلكونك. من قولهم: "نظر إليَّ نظرا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني". أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال:

يتقارضون إذا التقوا في مَوْطِنٍ= نظرا يُزِلّ مواطىءَ الأقدامِ

وقيل: كانت العين في بنى أسد، فكان الرجل منهم يتجوّع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: "لم أر كاليوم مثله" إلا عانَهُ. فأُرِيدَ بعض العيانين على أن يقول فى رسول الله ﷺ مثل ذلك، فقال: "لم أر كاليوم رجلا"، فعصمه الله. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية. "لما سمعوا الذكر" أي القرآن لم يملكوا أنفسهم حسدا على ما أوتيت من النبوة".

وكل من رجعت إليهم من المفسرين يشرحون الآية بأنها تتحدث عن العين والإصابة بالعين. وكان النسق الثقافى الخاص بالعين وتأثيراتها يرشح لهذا الفهم رغم أن الآية لا تقول شيئا من ذلك، وإنما هو التأثر بالنسق الثقافى، أى الاعتقاد الذى كان الناس ولا يزالون يعتقدونه فى العين. فهو الذى دفعهم دفعا إلى هذا التفسير. وأنا لا أرى فيها شيئا من ذلك، بل أفهمها على أنها صورة بيانية ترسم عنف الغيظ والتربص والرغبة فى الإيذاء، وهو كقولنا إن نظرة فلان إلى فلان تكاد أن تحرقه. ولا حرق ولا نار، بل مجرد تعبير مجازى عن شدة البغضاء. ومنذ قرأت هذا التفسير فى بداية شبابى حين كنا ندرس مادة "التفسير" فى السنة الأولى بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة مع د. شكرى عياد وأنا أفهمه الفهم الذى ذكرته هنا، ولا أومن أبدا بأن الكلام فى العين. ومن كثرة ما يأتينى الرد على نفيى تأثير العين بأن الحسد مذكور فى القرآن صرت أتوهم ضاحكا أنى أنا الوحيد بين المسلمين الذى لا يؤمن بالعين ولا بالعائنين.

وقد وجدت مقالا عن العين الحسادة فى "ويكيبيديا" العربية يطوف بالقارئ العالم كله قديما وحديثا، فيخيل إليه أن الدنيا كلها تؤمن بالعين على اختلاف البلاد والأديان والأزمان. ومع هذا فما زلت أرى أن العين لا تضر، وثم أسباب متعددة تجعلنى مقتنعا بهذا: أن الله سبحانه قد أقام كونه على نظام صارم، فلا يمكن أن يترك هذا النظام عرضة للانتهاك بسبب عين لا راحت ولا جاءت. الواقع أن هذا وذاك لا يتفقان ولا يتسقان. كما أن الإيمان بالعين ينشر التوتر فى علاقات الناس، إذ يتبادلون الاتهام بسواد القلب وسوء النية والرغبة فى

الإيذاء والإضرار، ولن ننتهى من ذلك أبدا. ليس هذا فحسب بل إنه يبث القلق فى نفوس المؤمنين بالعين ويجعلهم يعيشون على صفيح ساخن طول الوقت خشية أن يخطئ أحدهم فيثنى على ما لديهم من أشياء أو أولاد فتقع المصيبة، وكذلك يجعل كل من يقول كلمة طيبة فى أولاد شخص من الأشخاص أو ملابسه أو إنجازاته مثلا يتحسب لكل ما يخرج من فمه خشية أن يقول كلمة عابرة لا قيمة لها، فيتصادف أن يصاب الشىء أو الشخص الذى أبدى إعجابه به وتجىء الطوبة فى المعطوبة وتكون كارثة. بل لقد يصل الهوس بالعين إلى الحد الذى يقول فيه بعض الفقهاء القدماء إن العين إذا مات المعيون بها فجزاء صاحبها القتل. الله أكبر! لم يبق إلا هذا حتى نصبح مضحكة الشعوب والأمم. ثم إن العين يصعب التنبه لها فى معظم الأحيان، وبخاصة أن العائنين، حين يصوبون نظراتهم الهيدروجينية إلى أحد، فإنهم يفعلون ذلك فى الغالب دون أن يكون هذا الأحد واعيا به، بل دون أن يواجهه، إذ يكفى أن ينظر إليه ولو من ظهره أو من جانبه أو من وجهه وهو غافل أو نائم مثلا. ومعنى هذا أن الله سبحانه يعرضنا لأذى المؤذين دون أن تكون عندنا الأداة التى نكتشف بها سبب الأذى ولا شخصية المؤذى. كذلك لا أذكر أنى رأيت إنسانا يعين أحدا ويؤذيه. كل ما هنالك كلام فى كلام، أما فى الواقع فلم أر شيئا.

وإلى جانب ذلك فإنه ما من أحد سوف يقر بأن عينه شريرة تحسد وتؤذى، فضلا عن أن يوافق على الاستحمام وإعطاء الماء المتخلف عن ذلك لمن عانه حتى يشفيه الله كما جاء فى أحد الأحاديث المنسوبة للنبى عليه السلام على ما سوف نرى بعد قليل. وفوق ذلك فهذا الإجراء لا يفترق فى شىء عن السحر. أما الذين يقولون إن الحسد مذكور فى القرآن فالرد هو أن أحدا لا يمكنه إنكار الحسد حتى لو لم يذكره القرآن الكريم، فالحسد شعور طبيعى عند كل الناس، وكل الأمر هو أن بعضهم يتركه يستفحل فى قلبه، فيدفعه إلى الحقد على المحسود والرغبة فى إيقاع الأذى به أو تفويت فرص الخير عليه لا بعينه بل بإرادته الواعية وتخطيطه الخبيث، كإطلاق الشائعات السيئة عنه وتشويه صورته، وكالسعى به عند رؤسائه رغبة فى إسقاطه لديهم وتأخير مرتبته عندهم، بل قد يصل الحسد والحقد فى نفوس بعض الناس إلى أن يتحككوا بالمحسود ويضربوه، وربما قتلوه لا لشىء إلا بسبب ذلك الشعور الكريه.

وأنا أنادى دائما من يعتقدون فى العين بأن نخضع الحسد بها للتجربة العلمية، فيقول لى الأغبياء إنها عملية ميتافيزيقية لا يمكن دراستها ماديا، فيكون ردى هو أن العين شىء مادى، والشعاع الذى يدعى الناس أنه يخرج منه ويتسبب فى وقوع الحروب الكونية شىء مادى، والآثار التى تترتب عليها من انفجار نجفة الصالون أو وقوف محرك السيارة أو انهدام البيت مثلا كلها أمور مادية. لكن أحدا لا يستجيب لما أقول. واضح أن الناس مغرمة بالمزاعم والادعاءات دون أن تكون عندهم الرغبة فى حسم الأمر حسما سليما لا يخر منه الماء. إنهم يريدون شغل أنفسهم بالتفاهات دون أن يبذلوا جهدا فى تجنيب أنفسهم القلق، الذى يفرى أعصابهم فريا: سواء كان سبب القلق حقيقيا أو موهوما مزعوما.

وقد كنت منذ بعض سنوات أناقش، فى موضوع العين، أستاذة جامعية متخصصة فى العلاج الطبيعى، وهى سيدة دقيقة فى عملها وتأخذه بجدية شديدة وتهتم بالسؤال عن كل صغيرة وكبيرة فى حالة المريض وتسجلها بالتفصيل وتتابع تطورها باهتمام كبير، ففوجئتُ بأنها تدافع عن الاعتقاد فيها. ولما سألتها: على أى أساس بنيتِ حكمكِ هذا؟ كان ردها هو أننا قد نكون فى مكتبنا جالسين وقد أعطينا ظهرنا لباب الغرفة واستغرقنا فى تأدية عمل من الأعمال، ثم فجأة نرفع أعيننا ونلتفت نحو الباب فنجد أحدا من الناس ينظر إلينا. وعبثا أقول إن ذلك أمر نادر جدا، وإن حدوث العكس لَيَصِلُ إلى أضعاف أضعافه حتى ليكاد يكون هو القاعدة. أقصد أننا كثيرا ما نلتفت نحو الباب ظنا منا أن أحدا من أفراد الأسرة بالبيت أو العاملين معنا فى الشغل مثلا قد أتى يريد منا شيئا أو ليقول لنا شيئا، ثم لا نجد أحدا. كما أن عمل العين هنا لا صلة بينه وبين عمل العين الحسادة المزعوم، ومن ثم فوقوع هذا ليس دليلا على صحة ذاك. وسر استغرابى هنا أن الأستاذة الدكتورة متخصصة فى الطب، وهو فرع من العلوم الطبيعية التى يفترض أنها تطبع المتخصصين فيها بالتمسك بالتجربة العملية فى كل الأمور المادية.

ثم لو كانت العين حقا لما أفلحت البشرية فى شىء لأنه ما من متفوق من البشر إلا وهناك من يحسده ويحقد عليه ويتمنى أن ينكسح من الوجود كله. فلو كانت العين حقا لانكسر كل متفوق أو لانتاشته الأمراض من كل جانب أو انقلبت به السيارة أو احترق

الكتاب الذى يؤلفه أو امسحت ذاكرته فلم يستطع أن يؤلف شيئا أو فشل فى تسجيل الأهداف فى مرمى الخصم، وبدلا من إحراز هدف فإنه يجلّى فى كل ركلة أو يصوبها بالخطإ فى مرمى فريقه مثلا لينهزم فريقه بنيران صديقة أو احترقت به وبرفقائه الطائرة أو أصابته رصاصة المدعوّ إلى الفرح الذى يكون أول شىء يفعله هو إطلاق النار فى الهواء عند دخوله بيت العروس، فتستقر فى سويداء قلبه بدلا من الانطلاق فى الفضاء إلى كوكب المريخ... وهكذا. أليس هذا ما يوجبه منطق الإيمان بضرر العين؟ ألم يكن ينبغى أن يتخلف الغرب جراء حسدنا له ونبرنا عليه ونقنا ضده ويخر كل الغربيين صرعى أمراض لا يُعْرَف لها سبب ولا يقدر الأطباء أن يعالجوها أو تنهدم بلادهم على رؤوسهم فيريحونا ويستريحوا منا ومن عيوننا التى تندب فيها رصاصة؟ لكن منذ متى ينزل أمثال هؤلاء على حكم العقل والمنطق؟ لو كانوا يحكِّمون عقولهم أصلا ما آمنوا منذ البدء بالعين الحسادة.

وزيادة على هذا كله فليس فى القرآن نص يقول بالعين أبدا فى أى موضع منه. لا أقصد الآيات التى يلويها معتقدو قدرة بعض الناس على الإصابة بل أقصد الآيات الصريحة التى لا تقبل الشك. أما الأحاديث النبوية فمنها هذا الحديث: "أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالأَنْفُسِ"، أى بالعين. ووجه الغرابة فى هذا الكلام هو أنه يشترط قضاء الله وقدره فى الإصابة بالعين، وكأن الإصابات الأخرى لا تستلزم ذلك. أما إذا كان المقصود هو وضع الموت بالعين فى فئة أخرى من الوَفَيَات خارج قضاء الله وقدره فمعنى ذلك أن هناك من ألوان الموت ما يمكن ألا يخضع للقضاء والقدر. وفوق ذلك فالحديث يقرر أن أكثر الموت فى أمة المسلمين راجع إلى العين مع أن وقائع التاريخ لا تساعد على هذا الاقتناع، ودعك من أنه يجعل منا أمة من الحسادين الذين يصيب بعضهم بعضا بنظرات العيون. ويكفى فى التدليل على خطإ ذلك الكلام أن مرض سهل بن حنيف فى الماء بسبب نظر عامر بن ربيعة إليه وثنائه على بشرته البيضاء وهو يستحم عاريا على ما سوف يأتى للتوّ هو، فيما نعلم، الحالة الوحيدة من الإصابة بالعين فى عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين على الأقل، إذ لم نسمع بحالة غيرها آنذاك.

لا أجهل أن هناك حديثا منسوبا للنبى عليه الصلاة والسلام يقول: "العين حق. ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغتسلوا". ولو ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك وحيا من السماء، وبالمعنى الذى يقصده من يؤمنون بالعين، لما كان لى إلا أن أصدق ما قاله سيدنا رسول الله. لكن لى عدة سؤالات: هل قال النبى ذلك فعلا؟ الجواب هو أن كتب الحديث تقول إن هذا حديث صحيح. إذن فمن حيث الرواية: الحديث صحيح. لكن هل إذا كان الحديث صحيحا فى نظر أهل الحديث من ناحية الإسناد أفلا بد أن يكون صحيحا بالضرورة؟ هل الأحاديث مجرد رواية لا دخل لها بالتفكير المنطقى فى مضمونها ومعناها؟ ثم هل قاله ﷺ على سبيل الوحى؟ أم هل كان ذلك مجرد اجتهاد منه كاجتهاده فى مسألة تأبير النخل، الذى اتضح أن ما أشار به فى هذا الخصوص كان فى غير موضعه ولم يكن هو الأسلوب السليم فى عملية التلقيح؟ لكن هل يترك الله الأمر فى هذه الحالة دون أن يتم تصحيح الخطإ على نحو أو على آخر كما حدث فى تأبير النخل؟ معنى هذا أن يكون النبى قد قال ذلك أولا حتى يمكن أن يصحَّح ما يكون قد وقع منه من سهو أو نسيان أو خطإ، فهل قاله فعلا؟

كذلك هل يمكن أن يسبق شيءٌ القَدَر؟ إن القدر هو مشيئة الله عز شأنه، فهل يمكن أن يخطر هذا المعنى على بال رسول الله ﷺ وينطق به فى حديث يظل يردده المسلمون طوال الحياة؟ ترى هل هناك شيء يقع على الأرض أو فى السماء يمكن أن يكون بمشيئة غير مشيئته سبحانه، بله أن تسبق تلك المشيئة مشيئته تعالى، بله أن يكون هذا الشيء هو العين، التى يرى ابن القيم أنها قد تصيب، وقد تخيب، فضلا عن أنها ليست بالقضية الهامة على الإطلاق، بل هى لا فى العير ولا فى النفير، وبخاصة أن معظمنا لا يرى أثرا لها فى الواقع؟ أقول: "معظمنا" لمجاراة الطرف الآخر سَدًّا لباب اللجاج ليس إلا. فكيف يمكن أن نصدق أن الرسول عليه السلام يلجأ، فى الكلام عنها، إلى هذا التعبير المتجاوز؟ الواقع أننى فى أشد الحيرة.

ومن الأحاديث التى قررت ذلك الموضوع أيضا الأحاديث التالية: "انطلق عامرُ بنُ ربيعةَ وسهلُ بنُ حُنَيْفٍ يريدان الغُسْلَ. قال: فانطلَقا يلتمِسانِ الخَمَرَ. قال: فوضع سهل جُبَّةً

كانت عليه من صوفٍ، فنظرتُ إليه فأصبتُه بعينى، فنزل الماءَ يغتسلُ. قال: فسمعتُ له فى الماءِ قرقعةً، فأتيتُه فناديتُه ثلاثًا، فلم يُجِبْنى. فأتيتُ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخبرتُه فجاء يمشى فخاض الماءَ كأنى أنظرُ إلى بياضِ ساقَيْه. قال: فضرب صدَره بيدِه، ثم قال: اللهمَّ أذهِبْ عنه حرَّها وبردَها ووصَبَها. قال: فقام. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: إذا رأى أحدُكم من أخيه ومن نفسِه ومن مالِهِ ما يُعْجِبُه فلْيُبرِّكْهُ، فإنَّ العينَ حقٌّ".

"اغتسلَ سهلُ بنُ حُنَيْفٍ بـ"الخَرَّارِ" فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامرُ بنُ ربيعةَ ينظرُ، وكان سهلٌ رجلاً أبيضَ حسنَ الجلدِ، قال: فقال له عامرُ بنُ ربيعةَ: ما رأيتُ كاليومِ ولا جلدَ عذراءَ. قال: فوُعِكَ سهلٌ مكانَه، واشتدَّ وعَكُه، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبره أنَّ سهلاً وُعِكَ، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسولَ اللهِ. فأتاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبر سهلٌ بالذى كان من أمرِ عامرٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: علامَ يقتلُ أحدُكم أخاهُ؟ ألا بَرَّكْتَ؟ إنَّ العينَ حقٌّ. تَوَضَّأ له. فتوضَّأ له عامرٌ، فراح سهلٌ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليس به بأسٌ".

"خرج (سهيل بن حنيف) مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالخرار دخل ماءً يغتسل، وكان رجلا وضاء، فمر به عامر بن ربيعة فقال: لم أر كاليوم حسن شيء ولا جلد مخبَّأة. فما لبث سهل أن لُبِطَ به، فدُعِيَ له نبى الله ﷺ، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ من تتهمونه به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرا ودعا بإناء فيه ماء فأمر عامرا، فغسل وجهه فى الماء وأطراف يديه وركبتيه وأطراف قدميه، ثم أخذ النبى ﷺ ضَبْعَى إزار عامر وداخِلَته فغمرها فى الماء ثم أفرغ الإناء على رأس سهل وأكفأ الإناء من دبره، فأُطْلِقَ سهل لا بأس به".

والآن أى هذه الأحاديث هو الصحيح؟ هل ذهب الحاسد إلى الرسول فأخبره بما وقع منه من حسد كاد أن يقتل صاحبه؟ أم هل سأل رسول الله من حوله فوجهوا الاتهام إلى عامر بن ربيعة؟ فكيف عرفوا أنه عامر، وهم لم يكونوا موجودين حين عان سهيلا؟ ثم هل كان المحسود، أيا كان، يحتاج إلى أن يخلع ملابسه حتى يرى الحاسد لون بشرته؟ أليست بشرة الواحد منا تظهر حتى وهو مرتدٍ ملابسه من خلال صدره ووجهه وذراعيه مثلا؟ أم كان الرجال فى ذلك الوقت يغطون كل بقعة من أجسادهم؟ كذلك متى كان رجال العرب، فضلا

عن المسلمين، يتفاخرون بأن جلودهم تشبه جلود العذارى كى يحسد بعضهم بعضا على هذا؟ إننى لا أنفى وجود الحسد فى الناس، فالحسد شعور بشرى يكاد لا يفلت منه أحد. وعلى هذا فليس لمن يحاول إثبات أثر العين دليل على وجود ذلك الأثر بالقول بأن الحسد مذكور فى القرآن، إذ الحسد موجود كما قلنا، ونحن نؤمن به سواء ورد ذكره القرآن أو لا.

لكن السؤال هو: هل يؤثر هذا الحسد فى المحسودين عن طريق نظرات عين الحسود؟ أما أنا فلا أعتقد ذلك، بل أرى أن الحسد إنما يؤثر فى عن طريق ما يمكن أن يحيكه الحاسد من مؤامرات على من يتفوق عليه ويثير الغيظ والحقد فى نفسه، أو من خلال ما يضعه فى طريقه من عقبات أو يثيره فى وجهه من مشاكل أو يشنه ضده من شائعات مثلا، إن لم يفكر فى ضربه أو قتله. أما العين فقصة أخرى. بيد أن بعض المفسرين يقرأون قوله تعالى مخاطبا الرسول عليه السلام فى سورة "القلم": "وإنْ يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونكَ بأبصارهم لما سمعوا الذِّكر ويقولون إنه لمجنون" على أنه إشارة إلى عيون الكفار وقدرتها على أن تصيب الرسول بالضر فتسقطه على الأرض بقوة الشعاع الصادر منها نحوه.

وهو تفسير مضحك. فالكفار لم يكونوا يحسدون الرسول على النبوة بل كانوا يضيقون به وبدعوته لأنها كانت تهديدا عنيفا لتقاليدهم وعاداتهم وعقائدهم التى درجوا هم وأسلافهم عليها. ثم على أى شيء كان يمكن أن يحسدوا الرسول؟ لقد كان ضعيفا مضطهدا آنذاك لا يملك حولا ولا طولا ولا مالا ولا رئاسة ولا زعامة مما يمكن أن يثير الأحقاد فى النفوس. أما الحسد على النبوة فقد ظهر فى المدينة، وكان اليهود أصحابه. ولم يذكر القرآن أنهم عانُوا الرسول عليه السلام، بل ذكر أنهم كانوا يؤلبون المشركين ضده ويزعمون لهم أن وثنيتهم خير من توحيده. وكان مبعث حسدهم له أن النبوة قد فارقت بنى إسرائيل وانتقلت إلى العرب واختير لها مُحَمَّد ﷺ، بينما هم لا يطيقون أن تكون النبوة فى أى قوم غيرهم. ونجد ذلك الموضوع فى سورة "النساء".

وقد ورد ذكر "القرقعة" فى الحديث الأول، وهى صوت الحديد عند اصطدامه بالحديد وما أشبه من الأصوات. وإنى لأتساءل: ما دخل القرقعة هنا بالعين والإصابة بها؟ ثم كيف يترك الرجل زميله فى هذا الوضع المفزع ويذهب لرسول الله كى يخبره بما حصل دون أن يحاول

مساعدته مع أن كل الشواهد تدل على أنه فى خطر عظيم إذ لم يستطع الرد عليه حين ناداه ثلاث مرات لا مرة واحدة، وسمع بدلا من ذلك صوت قرقعة، وكأن هناك حديدا يصدم حديدا، وبخاصة أن الذهاب إلى رسول الله والعودة معه لا بد أن يستغرق وقتا طويلا يكون المعيون فيه قد صار فى خبر كان؟ ثم ماذا كان يمكن أن يقع لو لم يكن هناك رسول الله؟ لقد كان الرجل فى كرب عظيم، وكانت حياته فى حرج كما يفهم من سياق الرواية. أإلى هذا الحد يكون خطر العيون، وتكون حياة الشخص المَعِين رهنا بالمصادفات التى لا تجرى على قانون؟

أنا لا أكذِّب كلاما ثبت أن رسول الله قاله فعلا، بل كل ما أبغيه هو محاولة إقامة مثل هذا الأمر على أسس علمية صلبة بدلا من الاعتقاد فى شىء لا ندرى مدى مبلغه من الصحة. ولا أظن الرسول عليه السلام يضيره أو يغضبه أن نحاول التحقق من كلام ينسب إليه. إننا نحبه ﷺ حبا جما، ونحب أن نتأكد مما يُرْوَى عنه ومن صحته كى نصدق أنه قاله حقا. ذلك أن حبنا الحقيقى له ﷺ يقتضينا أن نلجأ إلى العلم للتحقق من صحة أى شىء. أليس هو الذى نادى بفضل العلم والعلماء؟ أليس القرآن هو الذى يدعو الكفار إلى الإتيان بأثارة من علم إن كانوا صادقين؟ ومن السهل التحقق من هذه المسألة، فهى ليست مسألة غيبية لا تخضع للتجربة كما يهرف بعض الناس، بل من المسائل المادية. أليست العين شيئا ماديا؟ أليس الجسد المصاب بها شيئا ماديا؟ أليست الأشعة التى يقال إنها تصدر عنها وتضر من تقع عليه مما يمكن قياسه بالآلات المادية مثلها مثل الأشعة الضوئية والتيارات الكهربية مثلا؟ فهذا أفضل مليون مرة من بقائنا أسرى لاعتقاد عجيب يفسد العلاقات بين الناس ويترتب عليه تشاؤم بعضهم من بعض ونفور بعضهم من بعض وتجنب بعضهم لبعض دون أن يكون لهذا الاعتقاد أساس سليم.

وبالنسبة لى لا أذكر أنى شاهدت أحدا يؤذى أحدا بعينه أو بكلامه. وأنا طول عمرى من المتفوقين فى الامتحانات الدراسية، ولا أستطيع أن أتذكر أن أذًى قد أصابنى جَرَّاءَ هذا قَطّ. كما أننى كنت من الصبيان والشبان البارعين فى كرة القدم فى قريتى وقرى المركز الذى تتبعه قريتنا، وكان المشجعون من أهل القرية يهتفون لى كما يهتفون لأمثالى، ولم أنكسر بحمد الله فى الملاعب إلى أن كبرت وتركت الكرة من تلقاء نفسى. أقول هذا لا على سبيل التفاخر

بل لتوضيح الأمر ليس غير، وإلا فهناك من هو أحسن منى فى الدراسة والذكاء والكرة كثيرا جدا، ولم يحدث لهم شيء.

ترى هل يغضب الرسول أو يجد فى الأمر مِسَاسًا برسالته إذا ما أراد أحد الصحابة التحقق مثلا مما قاله عليه السلام لهم من أن عدم تأبير النخل لا يمنعه من الإثمار؟ بل لقد حدث هذا فعلا، وقام الصحابة بتجربة ما قاله الرسول فى هذا الشأن فترتب عليه أن النخيل لم يثمر ذلك العام، فراجعوه عليه السلام، فما كان منه سوى أن قال بكل بساطة وتواضع ونزول على مقتضى الحق والواقع: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، ولم يقل لهم فى غضب: كيف تراجعوننى فى أمر أخبرتكم فيه برأيي؟ ففى الحديث "أنَّ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مرَّ بقومٍ يُلَقِّحون، فقال: لو لم تفعلوا لَصَلَح. قال: فخرج شِيصًا. فمرَّ بهم فقال: ما لِنَخْلِكم؟ قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم".

والغريب أن ثَمَّ حديثا فى شرح "موطإ" الإمام مالك المسمى بـ"المنتقى" يقول: "رَوَى ابْنُ السُّنِّيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: "كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا خَافَ أَنْ يُصِيبَ شَيْئًا بِعَيْنِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَلا تَضُرَّهُ"، وهو ما يعنى أن عينه عليه الصلاة والسلام كانت هى أيضا مؤذية لولا أنه كان يستعين على أذاها بتبريك الشيء أو الشخص الذى ينظر إليه. غفرانك اللهم! لم يبق إلا أن يقال هذا عن النبى ﷺ. ألا إن هذا لهو الهوس بعينه! أما كيف نحصل على ماء اغتسال العائن لصبه على المعيون فقد قرأت فى شرح إحدى روايات الحديث الذى نحن بصدده ما يلى: "الغُسلُ أنْ يُؤْتَى بالقَدَحِ، فيُدخِلَ الغاسلُ كفَّيْهِ جميعًا فيه ثمَّ يغسِلَ وجهَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه اليُمنى فيغسِلَ صدرَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه فيغسِلَ ظهرَه ثمَّ يأخُذَ بيدِه اليُسرى يفعَلُ مِثلَ ذلك، ثمَّ يغسِلَ رُكبتَيْهِ وأطرافَ أصابعِه مِن ظَهرِ القدَمِ ويفعَلَ ذلك بالرِّجْلِ اليُسرى ثمَّ يُعْطِى ذلك الإناءَ، قبْلَ أنْ يضَعَه بالأرضِ، الَّذى أصابه العينُ ثمَّ يمُجَّ فيه ويتمضمضَ ويُهْرِيقَ على وجهِه ويصُبَّ على رأسِه ويُكْفِئَ القَدَحَ مِن وراءِ ظَهرِه". وهذا، كما نرى، أشبه بأعمال السحر. ثم من ذا يا تُرَى يرضى بأن يقال عنه إنه حسّاد حقود يؤذى الناس بعينه، ويقتلهم بها قتلا، ويوافق على الاغتسال ويعرض نفسه لذلك الأمر الفاضح المهين؟ إن هذه دعوة إلى إفساد العلاقات بين الناس أكثر مما هى فاسدة أصلا. ثم إن إحدى

روايات الحديث لا تأتى لمسألة الاغتسال بذكرٍ بتاتا بل تقول إن النبى ضرب صدر المعين بيده ودعا له، فنشط مما كان يعانيه فى الحال. وفى تلك الرواية أيضا أن العائن لم يكف عن طريقته فى النظر إلى جلود الرجال، فقد ذكر أنه رأى بياض ساقى الرسول وهو يخوض الماء لإنقاذ سهل بن حُنَيْف. وصدق من قال: يموت الزمار وإصبعه تلعب. والحمد لله أن الرواية لم تقل إنه عان الرسول أيضا.

ليس ذلك فقط، بل يمضى الهوس بذلك الموضوع حتى لنقرأ، فى ذات الكتاب المذكور آنفا، كلاما عجيبا منسوبا للقرطبى مُفَاده أنه "لَوْ أَتْلَفَ الْعَائِنُ شَيْئًا ضَمِنَهُ، وَلَوْ قَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقِصَاصُ أَوِ الدِّيَةُ إِذَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ عَادَةً. وَهُوَ فِى ذَلِكَ كَالسَّاحِرِ الْقَاتِلِ بِسِحْرِهِ عِنْدَ مَنْ لا يَقْتُلُهُ كُفْرًا، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَيُقْتَلُ، قَتَلَ بِسِحْرِهِ أَمْ لا لِأَنَّهُ كَالزِّنْدِيقِ". ومعنى هذا أن القرطبى لا مانع عنده أن يقتل العائن كم قتيلا للتجربة، ولكن حين نتأكد من خلال التجارب أنه يَعِين فعلا فعندئذ لا بد من قتله إذا مات الـمَعْيُون. والواقع أننا لو أخذنا بهذا الحكم العجيب الذى سوف يجعلنا مهزلة الأمم لسوف يقوم الجهلة، وما أكثرهم وأشد حماقتهم واختلال عقولهم، باتهام بعضهم بعضا بالقتل عن طريق العين، وسوف ينتهى الأمر بتفانى المسلمين. وشكرا للإمام القرطبى على غيرته "القاتلة" على الدين، فهكذا ينبغى أن تكون الغيرة، وإلا فلا.

وعلى خلافه ابن عبد البر والإمام النووى، إذ يقول الأول نقلا عن صاحب "المنتقى": "إِنَّ مِنَ الطَّبْعِ الْبَشَرِى الإِعْجَابَ بِالشَّيْءِ الْحَسَنِ وَالْحَسَدَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ. فَلِذَا لَمْ يُعَاتَبْ عَامِرٌ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى تَرْكِ التَّبْرِيكِ الَّذِى فِى وُسْعِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَقْتُلُ، وَتَوْبِيخُ مَنْ كَانَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ سُوءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْقَدَرِ السَّابِقِ بِذَلِكَ كَالْقَاتِلِ يَقْتُلُ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ إِنَّمَا تَعْدُو إِذَا لَمْ يُبَرِّكْ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ أَنْ يُبَارِكَ". وهذا كلام معقول رغم أنى لا أطمئن إلى أن العين تؤذى.

وفى "المنتقى" كذلك نقرأ للنووى أنّه "لا يُقْتَلُ الْعَائِنُ، وَلا دِيَةَ وَلا كَفَّارَةَ، وأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى منضبطٍ عَامٍّ دُونَ مَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الأَحْوَالِ مِمَّا لا انْضِبَاطَ لَهُ. كَيْفَ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ فِعْلٌ أَصْلاً، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ حَسَدٌ وَتَمَنٍّ لِزَوَالِ النِّعْمَةِ؟ وَأَيْضًا فَالَّذِى يَنْشَأُ عَنِ

الإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ حُصُولُ مَكْرُوهٍ لِذَلِكَ الشَّخْصِ، وَلا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الْمَكْرُوهُ فِى إِزَالَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَكْرُوهٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَثَرِ الْعَيْنِ. قَالَ الْحَافِظُ: وَلا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ إلا الْحُكْمُ بِقَتْلِ السَّاحِرِ، فَإِنَّهُ فِى مَعْنَاهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَسِرٌ". وفى "المنتقى" أيضا أنه قد "نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِى لِلإِمَامِ مَنْعُ الْعَائِنِ إِذَا عُرِفَ بِذَلِكَ مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَكُفُّ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ آكِلِ الثومِ وَالْبَصَلِ الَّذِى مَنَعَهُ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لِئَلا يُؤْذِىَ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمَجْذُومِ الَّذِى مَنَعَهُ عُمَرُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الاخْتِلاطَ بِالنَّاسِ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمَوَاشِى الَّذِى يُؤْمَرُ بِإِبْعَادِهَا إِلَى حَيْثُ لا يَتَأَذَّى بِهَا أَحَدٌ". ورغم أنى لست من أنصار تحديد إقامة العائن، أو بالأحرى: من يظن الناس أنه عائن، فلا شك أن هذا أخف كثيرا جدا من قتله، وإن كنت متيقنا أن كثيرا جدا من الناس سوف يتهمون أنفسهم بأنهم حسادون قراريون حتى يأكلوا ويشربوا وهم مستريحون فى البيوت لا شغلة ولا مشغلة. وطظ فى تحديد الإقامة!

هذا، وقد قرأت مقالا عن العين والحسد فى المشباك هذا نصه، وهو يقول بل يصرخ بأن النسق الثقافى عندنا هو الإيمان بالعين إيمانا مطلقا، فلا جدوى من الكلام المنطقى العاقل فى هذا الموضوع. ومن هذا نفهم بكل قوة سر تفسير الآية الحادية والخمسين من سورة "القلم" عند المفسرين القدامى بأنها تتحدث عن العين والإصابة بها رغم أن الكلام كله كلام مجازى: "تعريف العين: يقول ابن القيم في "الزاد": "هي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمَعِين تصيبه تارة، وتخطئه تارة". ويقول في كتابه: "بدائع الفوائد": "العائن والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منها تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه: فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المَعِين ومعاينته، والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضا".

ويقول في كتابه: "الزاد" (الجزء الثالث): "ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية بل قد يكون العائن أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإن لم يره. وكثير من العائنين يؤثرون في المَعِين بالوصف من غير رؤية أ.هـ. والعين تتلف الشيء الذي نال إعجاب العائن،

أما الحسد فيتلف أي شيء يمتلكه المحسود لو كان حسداً عامًّا، وإلا أتلف ما حسد عليه المحسود.

تعريف الحسد: يقول ابن القيم في كتابه: "بدائع الفوائد": "أصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها. ويذكر العلماء أن مراتب الحسد أربعة: الأولى تمني زوال النعمة عن المنعم عليه ولو لم تنتقل للحاسد. الثانية تمني زوال النعمة عن المنعم عليه وحصوله عليها. الثالثة تمني حصوله على مثل النعمة التي عند المنعم عليه حتى لا يحصل التفاوت بينهما. فإذا لم يستطع حصوله عليها تمنى زوالها عن المنعم عليه. الرابعة حسد الغبطة، ويسمى: "حسداً" مجازاً، وهو تمني حصوله على مثل النعمة التي عند المنعم عليه من غير أن تزول عنه. روى البخاري في صحيحه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ. وَرَجلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمل.

والحاسد صاحب نفس خبيثة تتأجج روحه حتى تحدث موجات تؤثر فى ذاتها، فلا يشترط أن يكون الحاسد عائناً. فالحسد ضرر يتأجج من النفس مؤثرة، وتكيفه الشياطين لأذية المحسود، ويشترط لوقوع أذى الحاسد على المحسود أن يراه ولو مرة واحدة أو يعرفه. ولا تشترط الرؤية لإيقاع الحسد بعكس العين فيشترط فيها الرؤية والمشاهدة. وكما قال الدكتور مُحَمَّد الهاشمي إن الحسد وراء معظم الأمراض.

الفرق بين الحسد والعين: قال ابن القيم: "العائن حاسد خاص. ولهذا، والله أعلم، إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعمّ. فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائنا، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين. وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته (بدائع الفوائد/ ٢/ ٢٣٣).

والعائن يحتمل أن يصيب المَعْيُون ويتمنى زوال النعمة عليه، وقد لا يكون ذلك، وحالما يقع نظره على أمر بإعجاب واستحسان قد يصيبه بالعين دون قصد زوال تمني النعمة عليه. قال الشيخ مُحَمَّد الأمين المختار الشنقيطي رحمه الله: "وقد يَعِين العائن ما يكره أن يصاب بأذى

منه كولده وماله". قال ابن القيم: "والنظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه كما تؤثر نفسه بالحسد. وقد يكون سببه الإعجاب، وهو الذي يسمونه بـ"إصابة العين"، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المَعِين. وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك (بدائع الفوائد/٢ / ٢٣٣).

والحسد أعم من العين، فضرر الحاسد يكون بالعين التى تقويها النفس الحاسدة الخبيثة لو كان الحسد ديدن الشخص، وقد يكون ضرر الحاسد بالقول أو بالفعل. والعين تتلف الشيء الذي نال إعجاب العائن، أما الحسد فيتلف أي شيء يمتلكه المحسود لو كان حسداً عامًّا، وإلا أتلف ما حسد عليه المحسود. ولو حسدك أحد ما على سيارة فإنه لا يشترط أن تتلف السيارة بل قد يقع الضرر عليك بمرض أو نَصَبٍ أو وَصَبٍ، أما العائن فإنه يصيب السيارة دون غيرها.

اصـبر علـى كيـد الحسو   د فـإن صـبرك قاتلـهْ
فالنـار تأكـل نفـسها   إن لم تجـد مـا تأكلـه

كيفية علاج المصاب بالعين أو الحسد: القرآن الكريم. الالتجاء إلى الله بقراءة بعض السور القرآنية وبعض الآيات، وهي أيضا عظيمة النفع مع المداومة عليها، وهي الفاتحة وآية الكرسي والآيتان في نهاية سورة "البقرة والإخلاص والمعوذتان".

نقوم برقية المريض مثلما كان يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام إذا زار مريضا. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله: يمسح بيده اليمنى ويقول: اللهم رب الناس، أَذْهِب الباس. اشفه، وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما.

قراءة الأوراد والأذكار الواردة عن الرسول ﷺ حيث ورد عنه ﷺ أذكار تقرأ في الصباح والمساء. وهذا أحسن ما يمكن للإنسان أن يصون ويحفظ به نفسه من الحسد والمس والجن والعين وغير ذلك. وهذه الأذكار مطبوعة على شكل كراسة صغيرة تباع في المكتبات بسعر زهيد، ونفعها وخيرها عظيم: "حصن المسلم من أذكار الكتاب والسنة" ليتطهر بيتك من سائر أنواع المعاصي، فإنها تجلب الشياطين وتنفر الملائكة، فيرتفع عن البيت وأهله حفظ

الله وعنايته، ويصبح من فيه عرضة لتخبيل الشياطين. وهذا كثيراً ما يُغْفَل عنه، وهو من أعظم أسباب البلاء بهذه الأمراض. ولنتذكر الحديث عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: "يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ. احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ": "رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح".

وقال ابن القيم فى "زاد المعاد": "النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية. وأشبه الأشياء بهذا الأفعى، فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية: فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تؤثر في طمس البصر كما قال النبي ﷺ، ومنها ما تؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك النفس وكيفيتها الخبيثة المؤثرة. والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظنه مَنْ قَلَّ علمُه ومعرفتُه بالطبيعة والشريعة، بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرُّقَى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل".

وتعقيبى هو أن هذا المبحث لا ينبغى أن يتناوله الفقهاء والوعاظ بل العلماء المتخصصون فى العلوم الطبيعية. فهذا ميدانهم، ولا يمكن حسم الموضوع بالجدال النظرى على طريقة المشايخ. وقد شاهدت برنامجا تلفازيا أجنبيا منذ بضعة عقود، وكان عن الحصول على سم الأفاعى بطريقة علمية، فكان العالم المنوط به ذلك يثير الأفعى المواجهة له بطريقة لا أذكرها الآن، فتندفع نحوه فاتحة فمها مرسلة منه سمها، فيتلقاه المِجَنُّ الزجاجىُّ الذى يضعه بين وجهه وبين الأفعى، ثم يكشطه فى إناء خاص بذلك. فلعل الحديث النبوى يشير إلى إصابة الأفعى للبشر بهذا السم، وليس عن الإصابة بمجرد النظر.

وعلى كل حال فكما قلت: لا يصح أن يزج علماء الدين بأنوفهم فى هذه المسألة لأنها خارج اختصاصهم تماما. وينبغى أن يكف الناس عن تصور أن العالِم الدينى يعرف كل شىء

ويستطيع الفتوى فى كل شىء. إنه متخصص فى فرع ضيق من العلم الدينى النظرى لا يدخل فيه إصابة الحيات للبشر، والحوامل بالذات، حتى لو جاء هذا الكلام فى حديث منسوب للنبى عليه الصلاة والسلام. فما يقوله النبى أوسع من أن ينحصر فيما يسمى بـ"العلوم الشرعية"، إذ كثيرا ما يقول ﷺ أشياء يحتاج فهمها إلى تخصصات أخرى منها الطب والصيدلة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس...

ومما يمكن أن يدخل فى باب النقد الثقافى من مؤلفات علمائنا القدامى أيضا كتاب "الأصنام" لابن الكلبى (٢٠٣هـ)، فقد استخلص من القرآن والحديث والشعر الجاهلى والإسرائيليات وغير هذا كثيرا من المعلومات التى تتصل بنسق الوثنية والشرك وعبادة الأصنام، مضيفا إلى ذلك بعض المباحث الهامة كالكيفية التى دخلت بها الوثنية بلاد العرب والأشخاص التى قاموا بذلك، مع كثير من الحكايات المتعلقة بالأصنام وعبادتها. والكتاب دراسة غاية فى الأهمية لأصنام الجاهلية وأسمائها والمواد التى صنعت منها والمواضع التى كانت تقوم فيها، وبيوتها وسَدَنَتها والقبائل التي كانت تعبدها والمناسك التى كانت تؤدَّى لها والابتهالات التى كانت تُرْفَع إليها، والآيات والأحاديث والأشعار التى ورد ذكرها فيها، علاوة على الحديث عن اليهودية والنصرانية وعبادة الجن والشجر. وهو أول كتاب في هذا الموضوع. ويمكن التمثيل لما كتبه مؤلفه بما قاله عن"مناة" من أنه أقدم الأصنام، وأن العرب كانت تدخله فى أسمائها كـ"عبد مناة" و"زيد مناة"، وأنه كان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وأن العرب كلها كانت تعظمه وتنحر عنده وتهدى له.

ومما يورده ابن الكلبى أيضا فى كتابه المذكور أن الأوس والخزرج ومن يسير مسيرتهم كانوا، حين يحجون، يقفون المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أَتَوْا وثنها، فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا هناك، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك. وهو هنا يستشهد بقول عبد العزى بن وديعة المزني:

إني حلفت يمينَ صدقٍ بَرَّةً   بمَنَاةَ عند محلِّ آل الخَزْرَجِ

وبِقَوْل الله سبحانه فى سورة "النجم": "ومناةَ الثالثةَ الأخرى"، وأن هذا الوثن كان لهُذَيْل وخُزَاعة، وأن قريشا وجميع العرب كانوا يعظمونه، إلى أن أمر رسول الله ﷺ عام الفتح بهدمه.

لا تهميش فى الأدب العربى لأى إبداع أو لأى مبدع

يهتم النقد الثقافى بمن يسميهم: "المهمَّشين"، أى المبدعين الذين لا يعترف بهم ممثلو السلطة الأدبية الرسمية. وهو يعد هذا الاهتمام خصيصة من خصائصه التى يتميز بها عن غيره من ألوان النقد الأدبى الأخرى. ومنذ قرأت هذا الكلام وأنا أطوف بخيالى فى جنبات أدبنا العربى لأرى: هل أدبنا العربى عرف ذلك التهميش؟ أم هل كانت السلطة الأدبية والنقدية الرسمية فيه تهمش جانبا من الإبداعات الأدبية؟ وقد خرجت من هذا التطواف بأن أدبنا لم يعرف التهميش يوما لأى أحد أو لأى شىء أو لأية طائفة أو لأية هيئة، ولم يتخذ تجاه أى من المبدعين موقفا دينيا أو مذهبيا أو طائفيا أو اجتماعيا أو طبقيا أو سياسيا يمنعه من البوح بما فى عقله أو قلبه بسببه أو يَحُلْ بين صوته وبين آذان الناس وعقولهم وقلوبهم. لقد أخذ الجميع بطريقة أو بأخرى فرصتهم فى ميدان الإبداع منذ الجاهلية فمقبلا: أخذ الأميون فرصتهم كما أخذها القارئون الكاتبون، وأخذ العبيد والخدم فرصتهم كما أخذها السادة والأحرار، وأخذ اليهود والنصارى والمشركون فرصتهم كما أخذها المسلمون، وأخذ الشواذ المنحرفون فرصتهم كما أخذها المستقيمون الملتزمون، وأخذ الأعاجم فرصتهم كما أخذها العرب الأصلاء، وأخذ الشعوبيون فرصتهم كما أخذها محبو العرب المتحمسون لهم، وأخذ الحرفيون والصناع فرصتهم كما أخذها كبار الشعراء والأدباء، وأخذ البذيئون المفحشون فرصتهم كما أخذها أطهار اللسان المراعون للياقة وأصول الأدب، وأخذ الموسوسون فرصتهم كما أخذها العقلاء، وأخذ المتحامقون فرصتهم كما أخذها المتزنون، وأخذ المجاهيل فرصتهم كما أخذها المشاهير، وأخذ الصعاليك واللصوص وقطاع الطريق فرصتهم كما أخذها ملتزمو القانون المسالمون الذين يلتزمون الجادة، وأخذ الناس العاديون فرصتهم كما أخذها الخلفاء والوزراء وأصحاب المناصب الكبيرة، وأخذ المتصوفة والمعتزلة والخوارج فرصتهم كما أخذها شعراء أهل السنة، وأخذ شعراء كل حزب معارض فرصتهم كما أخذها شعراء السلطة، وأخذ القُصَّاص والخطباء والكتاب فرصتهم كما أخذها الشعراء، وأخذ الجادون فرصتهم كما أخذها الهازلون، وأخذ أصحاب الموضوعات الخفيفة فرصتهم كما أخذها أصحاب الموضوعات الجليلة، وأخذ مستعملو العامية فرصتهم كما أخذها مستعملو الفصحى، وأخذ أصحاب النكت والحكايات الطريفة فرصتهم

كما أخذها أصحاب النصوص الطويلة ذات الوزن، وأخذ البدو فرصتهم كما أخذها أهل الحضر والمدن... إلخ.

ومن ثم فما يقوله النقد الثقافى عن نفسه فى هذه المسألة مباهيا موجود عندنا منذ القديم لم يتخلف يوما. وهو دليل آخر على أن علماءنا ونقادنا كانوا يمارسون النقد الثقافى قبل الهنا بسنة بل بقرون، ودون ضجة مصمة كالتى يحدثها مُحْدَثو النعمة عندنا الذين يتباهَوْن باتباع ما يقوله النقاد الغربيون كما تتباهى القرعاء بشعر بنت خالتها، فتراهم يتهافتون على كل شىء يأتينا من النقد الغربى ويتحمسون له كأنه من إبداعهم، ثم إذا انصرف عنه الغربيون انصرفوا هم بدورهم عنه وصاروا يعيبونه بما يعيبه به الغربيون حذوك القذة بالقذة.

ونبدأ بالأميين. وكان العرب فى الجاهلية أمة أمية لا يمثل القراء الكاتبون فيها نسبة تذكر. ويقر الرسول عليه السلام بذلك فيقول: نحن العرب أمة أمية. ومن هنا كانت الغالبية العظمى بين الشعراء والخطباء لا تقرأ ولا تكتب، ومع هذا لم نسمع أن هذا قد أغلق فى وجهها الباب فلم تشعر أو تخطب أو أن مؤرخى الأدب والنقاد وعلماء اللغة والتاريخ قد قللوا من شأنهم أو ضربوا صفحا عن ذكرهم، بل كان اللغويون والأخباريون يقصدون البوادى ليأخذوا عن البدو الأميين اللغة والأخبار والأشعار والخطب والقصص ويتعلموا على أيديهم. ولو كانت قد وقفت الأمية عائقا فى وجوه مبدعى الجاهلية لما وصلتنا أشعارهم أو خطبهم أو قصصهم أو أخبارهم.

ولعل شيوع الأمية هو السبب فى أن شعراء الجاهلية كانوا يشبهون منظر الأطلال وما فيها من خطوط فى الرمل وبقايا أشياء تركها وراءهم أفراد القبيلة الراحلة بالكتابة ذاكرين القلم واللوح والمُمْلِى والكاتب، إذ الكتابة عند الأمى شىء له خطره وجلاله، فمن هنا فرضت الكتابة وأدواتها نفسها على أولئك الشعراء وصفا وتشبيها. قال المهلهل بن ربيعة:

لابْنَــةِ حِطّــانَ بــن عَــوْفٍ مَنــازِلٌ   كمــا رَقَّــشَ العُنــوانَ في الــرَّقِّ كاتِــبُ

وقال عبيد بن الأبرص:

لمــن الــدار أقفــرت بالجنــابِ   غــير نُــؤْيٍ ودِمْنَــةٍ كالكتــابِ؟

وقال سلامة بن جندل:

لمـن طلـلٌ مثـل الكتـاب المنمـقِ خلا عهده بين الصُّلَيْبِ فمُطْرَقِ؟

وقال طرفة بن العبد:

كـــسطور الـــرَّقّ رقَّـــشَهُ بالـــضحى مُـــرَقِّشٌ يَـــشِمُهْ

وقال حاتم الطائى :

أتعـرف أطـلالا ونُـؤْيًا مهـدما كخطِّـك فى رقٍّ كتـابا منمنمـا؟

وقال المرقِّش الأكبر:

الـدار قَفْـرٌ، والرسـوم كمـا رَقَّـش فى ظهـر الأديم قلـمْ

وقال امرؤ القيس:

لمـن طلـلٌ أبـصرتُه فـشجانى كخـط زَبُـورٍ فى عَـسِيبِ يمـانى؟

وقال أيضا:

أتتْ حِجَجٌ بَعْدي عليها، فأصْبَحَتْ كخـطِّ زَبُـورٍ في مـصاحف رُهْبَـان

وقال معوِّد الحكماء:

فَـإِنَّ لهـا مَنـازِلَ خـاوِياتٍ عَلـى نَمَلَـى وَقَفـتُ بِهـا الرِّكـابا

مِـنَ الأَجْـزاعِ أَسْـفَلَ مِـن نُمَيْـلٍ كمـا رَجَّعْـتَ بِالقَلَـمِ الكِتـابا

كِتـابَ مُحَـبِّرٍ هـاجٍ بَـصيرٍ يُنَمِّقُـهُ، وَحـاذَرَ أَن يُعَـابا

أما بعد الإسلام فقد تحول العرب إلى أمة تكتب وتقرأ، و"لا أذكر" أنى قابلت فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية شاعرا أو خطيبا أو حتى شخصا عاديا وُصِف بأنه أمى، اللهم إلا الشاعر الخباز الملقب بـ"الخبز أرزى" والشاعر الملقب بـ"عين بصل". أى أن المبدعين الأميين فى الجاهلية أخذوا فرصتهم على أتمها مثلما أخذها القارئون الكاتبون قبل الإسلام وبعده. ومعنى هذا أن الأميين لم يهمَّشوا البتة من قِبَل النقاد المسلمين، الذين كانوا يقرأون ويكتبون وتضلعوا من العلم تضلعا، ولم تكن ثقافتهم شظايا بدائية من المعرفة من هنا ومن هاهنا كالحال التى كان عليها شعراء العصر الجاهلى وخطباؤه بوجه عام.

فإذا انتقلنا إلى العبيد والخدم قفز على الفور عنترة العبسى، الذى لم يمنعه سواده ولا عبوديته ولا قيامه بدور الخادم لقبيلته قبل أن يقر أبوه بنوته له وينتشله من مستنقع العبودية من أن يحتفى العرب جميعا فى الجاهلية والإسلام وإلى الآن به وبشعره ويُحِلّوه محلًّا عاليا بين كبار الشعراء ويُجْمَع ديوانه ويوضَع بين أصحاب المعلقات وتقوم حوله الدراسات ويستخلص منه العبر والدروس والشواهد اللغوية والبلاغية. وقد وضعت كتابا عنه محصت فيه شعره وفصلت شعره الحقيقى عن الشعر المنحول له ونفيت هذا الأخير بعدما استخلصت السمات المميزة له، وبينت كيف وقع بعض كبار مؤرخى الأدب ونقاده فى العصر الحديث فى مصيدة الأشعار المنسوبة إليه زورا وبهتانا. وهذا يدل على عظمة شعره، وخاصة المعلقة العجيبة. بل إننى وضعت دراسة طويلة فى المقارنة بين "سيرة عنترة" و"مغامرات تليماك" للقس الفرنسى فينيلون فى أصلها الفرنسى وفى ترجمتها العربية بقلم رفاعة، وقضيت أوقاتا ممتعة وأنا أكتب تلك الدراسة، وكل ذلك ببركة هذا الشاعر الكبير الذى لم تمنعنى عبوديته أنا وسائر من كتبوا عنه فى القديم والحديث من العلماء العرب من الاهتمام العظيم به، وهو اهتمام يستحقه عنترة عن جدارة، ويدل على أن حضارتنا لا تعرف تهميش العبيد فى ميدان الإبداع الأدبى حتى إنه هو الشاعر الجاهلى الوحيد بل الشاعر العربى الوحيد فى كل العصور الذى ألفت له سيرة شعبية، تلك السيرة التى وضعته فى أرفع محل بين الشعراء والفرسان، ونالت إعجاب كثير من أدباء الغرب ونقاده. وهذه بعض أبيات من معلقته الفريدة:

لَمّا رَأَيتُ القَومَ أَقبَلَ جَمعُهُم	يَتَذامَرونَ كَرَرتُ غَيرَ مُذَمَّمِ
يَدعونَ عَنتَرَ، وَالرِماحُ كَأَنَّها	أَشطانُ بِئرٍ في لَبانِ الأَدهَمِ
ما زِلتُ أرميهِم بِثُغْرَةِ نَحرِهِ	وَلَبانِهِ حَتّى تَسَربَلَ بِالدَّمِ
فَازْوَرَّ مِن وَقعِ القَنا بِلَبانِهِ	وَشَكا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمحُمِ
لو كانَ يدري ما المحاوَرَةُ اشتَكى	وَلَكانَ، لَو عَلِمَ الكَلامَ، مُكَلِّمي
وَلَقَد شَفى نفسي وَأَذهَبَ سُقْمَها	قيلُ الفَوارِسِ: وَيْكَ عَنتَرَ! أَقْدِمِ
وَالخَيلُ تَقتَحِمُ الخَبارَ عَوابِساً	مِن بينِ شَيْظَمَةٍ وَآخَرَ شَيظَمِ
ذُلُلٌ رِكابي حَيثُ شِئتُ، مُشايِعي	لُبِّي، وَأَحفِزُهُ بِأَمرٍ مُبْرَمِ

وَلَقَد خَشيتُ بِأَن أَمُوتَ وَلَم تَدُر ... لِلحَرْبِ دائِرَةٌ عَلى ابْنَيْ ضَمضَمِ
الشاتِمَيْ عِرْضِي، وَلَم أَشتمهُما ... وَالناذِرَيْنِ، إِذا لَمَ الْقَهُما، دَمِي
إِنْ يَفْعَلا فلقد تَرَكْتُ أَباهُما ... جَزَرَ السِّباعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

هذا شعر ملوكى، وإن كان قائله عبدا أسود. وأدبنا العربى أدب كريم لا يقوّم المواهب بناء على الأحساب والأنساب بل على الحس النقدى والإنسانى السليم. وعلى هذا فقد بوأ عنترةَ وشعرَه مكانة سامقة بين أضرابه من الشعراء فى كل العصور.

وهناك سُحَيْم عبد بنى الحسحاس، وهو شاعر مسلم مات مقتولا فى ظروف سوف أذكرها حالا، وفاخر بنفسه ومواهبه رغم عبوديته وسواد بشرته، فقال هذا البيت العجيب الشاهق الذى قلما يطير بيت آخر مَطِيرَه:

إن كنتُ عبدا فنفسي حرةٌ كرمًا ... أو أسودَ اللون إني أبيض الخُلُقِ

وله ديوانٌ فرض نفسه على العلماء والنقاد، ولم يعبأوا بأنه عبد ولا أنه أسود الجلد، بل عَبَأوا فقط بموهبته وشاعريته الكبيرة، ولم يمنعهم من تقديره هذا التقديرَ الكبيرَ ما كتبه من شعر يصف ما وقع بينه وبين إحدى فتيات القبيلة التى كان عبدا من عبيدها وصفًا أراد به النيل من أهلها وتحديهم بما صنع مع ابنتهم، إذ عد ذلك انتصارا لعبوديته على سيادتهم أثلج به صدره وهدهد مرارات قلبه:

أَلِكْني إليها، عَمْرَكَ اللهُ يا فتًى، ... بآيةِ ما جاءت إلينا تهادِيا
تَهادِيَ سيلٍ في أباطحَ سهلةٍ ... إذا ما علا صَمْداً تفرَّع وادِيا
ففاءَتْ، ولم تَقضِ الَّذي أقبلتْ به ... ومن حاجةِ الإنسانِ ما ليس قاضِيا
وبِتْنا وِسادَانا إلى عَلَجانةٍ ... وحِقْفٍ تَهاداهُ الرِّياحُ تَهادِيا
تُوَسِّدُني كفًّا وتَثْني بمعصمٍ ... عليَّ وتحنُو رِجْلَها من ورائِيا
أميلُ بها ميلَ النَّزيف وأتَّقي ... بها البردَ والشَّفَّانَ من عن شمالِيا
فما زالَ بُرْدِي طَيِّباً من ثيابها ... إلى الحَوْل حتَّى أنْهَجَ البُرْدُ بالِيا
وهبَّتْ شمالٌ آخرَ اللَّيل قَرَّةٌ ... ولا ثوبَ إلاَّ درعُها ورِدائِيا

وكان المفضَّل الضَّبِّيّ يقول عن هذه القصيدة: "قصيدة الأسود ديباج خسروانيّ". وهو وصف لا يقال بسهولة، وبخاصة من عالم كبير بصير بالشعر كالمفضل الضبى. كما شهد له الأصمعى بالفصاحة. وقال العلوى فى الفصل الثالث من كتابه: "نضرة الإغريض فى نصرة القريض"، وهو في فضلِ الشعر ومنافِعِه وتأثيرِهِ في القلوبِ ومواقِعِه: "مات سُحَيمٌ عبدُ بني الحَسْحاس، وله ذِكْرٌ أضْوَع من المسكِ وأنضرُ من الآسِ. ولولا الشعرُ لما عُرِف، ولا بالإجادةِ وُصِفَ". وقد أثار ابن شرف القيروانى فى "مسائل الانتقاد" الشك فى ادعائه المقدرة على تصبية النساء، وعد ذلك منه تنفيسا عن تألمه لحرمانه منهن ونفورهن عنه، فعوَّض ذلك بادعاء العكس وأن النساء واقعات فى غرامه مولهات به وأنهن طوع يمينه ينال منهن مبتغاه بكل سهولة.

وفى "الأغانى" أنه "كان عبداً أسود نوبيّاً أعجميّاً مطبوعاً في الشعر، فاشتراه بنو الحسحاس، وهم بطن من بني أسد... قال أبو عبيدة...: كان عبد بني الحسحاس عبداً أسود أعجميًّا، فكان إذا أنشد الشعر، استحسنه أم استحسنه غيره منه، يقول: أهشنت والله. يريد: أحسنت والله... وأخبرنا أبو خليفة عن مُحَمَّد بن سلام قال: كان عبد بني الحسحاس حلو الشعر رقيق الحواشي. وفي سواده يقول:

وما ضر أثوابي سوادي، وإنني ... لكالمسك، لا يسلو عن المسك ذائقُهْ

كُسِيتُ قميصاً ذا سوادٍ، وتحته ... قميصٌ من الإحسان بيضٌ بنائقُهْ

... أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا أحمد بن أبي خيثمة قال: أنشدني مصعب بن عبد الله الزبيري لعبد بني الحسحاس، وكان يستحسن هذا الشعر ويعجب به، قال:

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له ... عند الفخار مقام الأصل والورِقِ

إن كنتُ عبداً فنفسي حرةٌ كرماً ... أو أسودَ اللون إني أبيض الخلقِ

وقال الأثرم: حدثني السري بن صالح بن أبي مسهر قال: أخبرني بعض الأعراب أن أول ما تكلم به عبد بني الحسحاس من الشعر أنهم أرسلوه رائداً فجاء وهو يقول:

أنعت غيثاً حسناً نباته ... كالحبشي حوله بناته

فقالوا: شاعر والله، ثم انطلق بالشعر بعد ذلك". وقد ذكره ابن حبيب فى "كتاب المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام" مع الأشراف الذين قُتِلوا فى الجاهلية. وترجم له ابن الجوزى فى "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم"، وصلاح الدين الصفدى فى "الوافى بالوفيات"، وابن شاكر فى "فوات الوفيات"، والمرزوقى فى "أمالى المرزوقى"، والبغدادى فى "خزانة الأدب"، وابن معصوم فى "سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر". وترجم له ابن سلام فى كتابه: "طبقات الشعراء" وقال عنه: "حلو الشعر، رقيق حواشى الكلام".

وفى "المذاكرة فى ألقاب الشعراء" يذكر الإربلى من شعراء عبيد العرب جماعة منهم نُصَيْب، وعبد بني الحسحاس، وميسرة الأول، وميسرة الأخير، وورك، وأبو عطاء، وذكوان، ومورق، وذو الركبة، والسابل، ومنتجع، وفتحس، وعبد بني بكر، والمندلث، والحيقطان، وزامل، وأبو التيار، والمثلم، والهزر، وروح، وأبو دلامة، ودهيقين، وفائق، ولهذم، والمرقال، وعجب، وشنير، وجندل، وأبو العراف، وكوكب، وروح بن الطائفية، إلى جانب الشواعر الجوارى، مثل عنان، والذلفاء، وخنساء، وملك، وصرف، وفضل، ومحنثة، ومدام، وخِشْف، وعلم، وريم، وسكن.

ثم مضى الإربلى يتحدث عن أولئك الشعراء العبيد قائلا: "كان نُصَيْب ذا عبلة ودين ومنطق، وكان لا يهجو أحداً، وكان عبداً أسود. وسئل جرير عنه فقال: هو أشعر أهل جلده. وذُكِر عند الفرزدق فقال: سهامه صوائب. وذكر أن نصيباً أنشد جريراً شعره، وقال: كيف ترى يا أبا حزرة؟ قال: أنت أشعر أهل جلدتك. ومن جملة شعره:

فما ضرَّ أثوابي سوادي، وإنني ... لكالمسكِ لا يسلو عن المسكِ ذائقهْ

ولا خيرَ في ودِّ امرئٍ متكارهٍ ... عليكَ ولا في صاحبٍ لا توافقهْ

إذا المرءُ لم يبذلْ من الودِّ مثلما ... بذلتُ له فاعلمْ بأني مفارقهْ

وقيل: إن شخصاً عيره بسواد فقال:

ليسَ السوادُ بناقصي ما دامَ لي ... هذا اللسانُ إلى فؤادٍ ثابتٍ

منْ كان تُعْليهِ منابتُ بيتهِ ... فبيوتُ أشعاري خلقنَ منابتي

كم بين أسودَ ناطقٍ من كلةٍ ... ماضي المقالِ، وبين أبيضَ صامتِ

إني ليحـــــسدني الرفيــــعُ ببيتــــهِ   من فضل ذاكَ، وليس لي من شامتِ

ويروى أن سكينة بنت الحسين عليه السلام عتبت على نصيب في شيء، وقالت له: اذهب، فلست أكلمك حتى يشيب الغراب. فرحل وأقام بالحجاز حتى شابت لحيته. وجاء ووقف بابها، وقال: قاق، قاق، قاق. ها قد شاب الغراب. فأذنت له، وأحسنت جائزته. وقال مسلمة بن عبد الملك لنصيب: يا أسود، أمدحت شيئاً؟ وعنى به رجلاً من أهل بيته. قال: نعم. قال: فهل أعطاك شيئاً؟ قال: لا والله. قال: فلم لا تهجوه؟ قال: نفسي أحق بالهجاء منه حين دعتني إلى مدح مثله. فأعجبه جوابه، فقال له: تمنَّ ولا تُشْطِطْ. فقال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأني أعلم أن كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة. فأعطاه عشرة آلاف دينار...

وأما عبد بني الحسحاس فهو سحيم بن هبد بن سفيان بن عصاب بن كعب بن سعد بن ثعلبة بن دودان. وكان رقيق الحواشي أسود، فعُيِّر بذلك فقال:

إن كنــتُ عبــداً فنفــسي حــرةٌ كرمــاً   أو أســودَ الخلــقِ إني أبــيضُ الخلــقِ

ويقال: إن أول شعر قال أنهم أرسلوه رائداً، فجاء وهو يقول:

أنعــتُ غيثــاً حــسناً نباتــهُ   كالحبــــشيّ حولـــهُ بناتــــهُ

فقالوا: شاعر والله. وأنشد:

عمــــيرةَ وَدِّعْ إنْ تجهــــزتَ غــــازيا   كفى الـشيبُ والإسـلامُ للمـرءِ ناهيـا

فقال له عمر: أما أنك لو كنت قدَّمت الإسلام على الشيب لأجزتُك. فلما أنشده فيها:

وبتنـــــا وســـــادانا إلى عَلَجانــــــةٍ   وحِقْــــفٍ تهـــاداهُ الـــرياحُ تهـــاديا

وهَبَّـــتْ شَمــالٌ آخــرَ الليـــلِ قــرةٌ   ولا ثــــوبَ إلا درعهــــا وردائيــــا

فمــا زال بــردي طيبــاً مــن ثيابهــا   إلى الحــولِ حــتى أنهــجَ الــبردُ باليــا

تُوَسِّـــدني كفَّـــا، وترفـــعُ معـــصماً   علــيَّ، وتحنــو رجلهــا مــن ورائيــا

أميـــلُ بهــا ميــلَ النزيــفِ، وأتقــي   بهـا الـريحَ والـشفانَ مـن عـن شماليـا

فقال عمر: زَنَىَ العبدُ. ومن قصيدته هذه:

فمــا بيـــضةٌ باتَ الظلـــيم يحفهـــا   ويرفـــعُ عنهـــا جؤجـــؤاً متجافيـــا

ويجعلهـــا بـــين الجنـــاحِ ورفـــهِ ويُفْرِشُـها وَحْفـاً مـن الـريش عافيـا
بأحـسنَ منهـا يـومَ قالـتْ: أراحـلٌ مـع الركـبِ، أمْ ثاوٍ لـدينا لياليـا؟
أَلِكْـني إليهـا، عمـرك الله، يا فـتى بآيـةِ مـا جـاءتْ إلينـا تهـاديا
ألا نادِ في آثارهـــنَّ الغوانيـــا سُـقِينَ سماماً، مـا لهـنَّ ومـا ليـا؟
وراهـنَّ ربي مثـلَ مـا قـد وَرَيْنَـني وأَحْمَـى علـى أكبـادهنَّ المكـاويا
أشـارتْ بمـدراها، وقالـتْ لتربهـا: أعبـدُ بـني الحسحاسِ يزجـي القوافيـا؟
رأتْ رجـلاً رثًّا، وسـحقَ عبـاءةٍ وأسـودَ ممـا يملـكُ النـاسُ عـاريا
كـأنَّ الثـريا علقـتْ فـوقَ نحرهـا وجمـرَ غـضًى هبـتْ بـهِ الـريحُ ذاكيـا
فـإنْ تُقْبِلـي بالـودِّ أُقْبِـلْ بمثلـهِ وإنْ تُـدْبِري أُدْبِـرْ علـى حـالِ باليـا

وكـان نُصَيْب وسُحَيْم أشعر شعراء العبيـد، ومـن نـذكر بعدهما لم يكـن في طبقتهمـا. ولبعضهم الأبيات القليلة. ونحن نذكرهم: ذكر وزر. كان عبداً لبني العنبر من تميم. وهو القائل:

لعمـرُ بـني المملـوكِ مـا عـاشَ، إنـهُ، وإنْ أعجبتـهُ نفـسهُ، لـذليلُ
تـرى النـاسَ أنـصاراً عليـهِ، ومـا لَـهُ مـن النـاسِ إلا ناصـرونَ قليـلُ

وأما ميسرة وميسرة فهما عبدان لبني العنبر: أحدهما ميسرة أبي الدرداء، وهو الذي رثى معاوية فقال:

فهاتيـكَ النجـومُ، وهـنَّ خُـرْسٌ يَـنُحْنَ علـى معاويـة الـشآمي

والآخر ميسرة أبي نصر، وكان عبداً لعمر بن شريك. ولطمه رجل من بني دارم، فافترى عليه ميسرة، فقدمه إلى صاحب اليمامة، فجلده أربعين سوطاً. قال: والله لئن لم تجلدني ثمانين لأهجونك هجاء تتمنى أنك لم تكن سمعته. فوفاه ثمانين، فأنشده:

قـذفت أخـا زيـدٍ فكملـت قذفـهُ فكمِّـلْ، هـداكَ الله، جلـدَ أبي نـصرِ
ولا تتركـنّي ناقـصاً فتعيبـني تمـيمُ بـنُ مـرٍّ، والقبائـلُ مـن قـسرِ
فلـستُ بعبـدٍ يلطـمُ النـاسُ وجهـهُ ويُلْفَـى، غـداةَ الـروعِ، منـتفخَ الـسَّحْرِ

وإنما كان غرضه أن يحده تمام الحد ليحقق أنه حر لأن العبد يُحَدّ نصف الحد، وقد كان حد القذف عندهم الثمانين... ولما قال الفرزدق:

وقِـدْرٍ كحيـزومُ النعامـةِ أحمـستْ   بأجـذالِ خـشبٍ زالَ عنهـا هـشيمها

قال ميسرة: ما حيزوم النعامة؟ والله ما يشبع رجلين. ولكني أقول:

وقـدرٍ كجـوفِ الليـلِ أحمـشتُ غليهـا   تـرى الفيـلَ فيهـا طافيـاً لم يفـصّلِ

ولما قال الفرزدق أيضاً:

وقـدرٍ كجـوفِ العَـيْرِ مـلآنَ مـترعٌ   يطيـفُ بـهِ ولـدانُ قـيسٍ وخنـدفِ

قال ميسرة: وما جوف العير؟ ومن يذكر من ولدان قيس وخندف مع هذا القدر؟ ولكني أقول:

وقـدرٍ كجـوفِ البـاقري تَحَجُّـهُ   علـى العـسرِ والإيـسارِ أهـلُ المواسـمِ

وقال ميسرة للفرزدق:

لقـد ذلَّ مـن يحمـي الفـرزدقُ عِرْضَـهُ   كمـا ذلـتِ الأخنـافُ تحـتَ المناسـمِ

فلما بلغ الفرزدق ذلك غضب، وتطلب ميسرة، فسمع ميسرة فقال:

مـتى تلقـني تلـقَ امـرءًا غـيرَ طائـلٍ   ولـيسَ بنجّـاءٍ مـن الغمـراتِ
يـرى المجـدَ أنْ يلقـى أصـرةَ ذودهِ   منفخـةَ الأطـرافِ مـستوياتِ

فرآه الفرزدق يوماً فشد عليه بالسيف، وقال له: استغث بمولاك. فصاح بمولاه، فقال مولاه للفرزدق: ليس هو عبداً، إنما هو حر. قال الفرزدق: ذلك أردت. وكان غرضه يشيع أنه حر. فأدناه وأعطاه. وميسرة الذي يقول:

لعمـري لأعرابيـةٌ في عبـاءةٍ   لهـا حـسبٌ زاكٍ كـريمٍ ومنـصبُ
أُعِينَـتْ بإسـلامٍ وعتـقٍ وصـبغةٍ   وإنْ يـكُ سـوءٌ، فهـو عنهـا مجنـبُ
أحـبُّ إلينـا مـن ضِـناكٍ ضِـفَنَّةٍ   عليهـا مـن الكتـان والقطـنِ منهـبُ
لعمـري وشـيخٌ قاعـدٌ وسـطَ هجمـةٍ   تـروحُ عليـهِ بالـشياءِ وتغـربُ
أحـبُّ إلينـا مـن ضِـفَنٍّ نـرى لـهُ   عظامـاً وأثـواباً تـصانُ وتحجـبُ

وأما ورك فكان عبداً لبشر النهشلي. ويقال إن مولاه سلم إليه ناقة عُشَراء، وقال له: إياك أن تحمل عليها شيئاً. فحمله فأجهضت. فأنشأ عند ذاك يقول:

ألا لا أبالي أنْ يـضيعَ جنينها ... إذا لم يلمني في اللمامِ رفيقُ
يخوفني بشرٌ، وبشرٌ محكمٌ ... وليس ببشرٍ، إنْ تشاءَ، صديقُ

وله :

لا أحمدُ النارَ أخشى أنْ يضلَّ بها ... عانٍ يريدُ سناها جائعٌ صردُ
لكنْ أقولُ لمن يعرو مناكبها: ... ألقوا الضرامَ عليها عَلَّها تَقِدُ
إما أقومُ إلى سيفي فأشحذهُ ... أو يستهلُّ عليكم محلبٌ زبدُ
إني لأحمدُ ضيفي حين ينزلُ بي ... ألا يكلفني فوقَ الذي أجدُ

قال مؤلف الكتاب: لقد سمعت هذه الأبيات من جماعة من الفضلاء وأهل الأدب، وأسألهم عن قائلها، فيعزونها إلى غير قائلها. وكذا في هذا الكتاب أبيات كثيرة تُضْرَب بها الأمثال، ويُتَداوَل بها، ولا يُعْلَم لمن هي.

وأما ذكوان فكان عبداً لمالك الدار مولى عثمان بن عفان. فعتق ذكوان، وعظم شأنه، ووَلِي بعضَ أطراف الشام في زمن معاوية. وكان شاعراً خطيباً، وكان أشد الناس سيراً، لم يُدْرَك أَسْيَرَ منه. سبق الحاج إلى المدينة، فدخلها في يوم وليلة، فقدم على أبي هريرة، وهو خليفة مروان على المدينة، فصلى معه العشاء، فقال له: حجك غير مقبول، قال: ولم؟ توشك أنك قد نفرت قبل الزوال. فأخرج كتباً كانت معه، وهي من بعد الزوال، فقال في ذلك:

فأُقْسِمُ لا تنفكُّ، ما عشتُ، سيرتي ... حديثاً لمن وافى بجمعِ المحصَّبِ

وذكوان الذي يقول للضحاك بن قيس الفهري :

تطاولَ لي الضحاكُ حتى رددتهُ ... إلى نسبٍ في قومهِ متقاصرِ
فلو شهدتْني من قريشٍ عصابةٌ ... قريشِ البطاحِ لا قريش الظواهرِ
لغَطّوكَ حتى لا تنفسَ بينه ... كما غطَّ في الدوارِ والمتزاورِ
ولكنهم غابوا، وأُلْفِيتَ حاضراً ... فقُبِّحْتَ من حامي ذمارٍ وناصرِ!

... وأما مورق فكان عبداً لرجل يكنى: "أبا الحوساء" من مذحج، وكان شجاعاً. فضربه يوماً مولاه ضربة آلمته، وما كان يعرف أنه يقول الشعر، فقال:

خفـــتُ أبا الحوســاءِ خوفــاً يقلــقُ
كأنـــهُ مـــوجٌ محـــيطٌ محـــدقُ
فبـــتُّ، والقلـــبُ مـــروعٌ يخفـــقُ
يكـــادُ مـــن بـــين الـــضلوعِ يمـــرقُ

فقال له مولاه: والله إنك لم ترد مدحي، وإنما أردت أن تعرفني أنك شاعر فأتقيك. فلما سمع ذلك مورق هرب. فبلغه أن مولاه يطلبه، فخافه، وخافه أيضاً مولاه خوفاً أن يهجوه. فزاد مورق في أرجوزته يتوعد منه ويسخر أخرى :

قـــد علـــمَ الغـــربيُّ والمـــشرقُ
أنـــك في القـــومِ صـــميمٌ ملـــصقُ
عـــوداكَ نبـــعٌ وهـــشيمٌ بـــروقُ
جَـــدٌّ لئـــيمٌ، وكـــريمٌ معـــرقُ
فأنـــتَ نارٌ وربيـــعٌ مغـــدقُ
وأنـــتَ ليـــلٌ ونهـــارٌ مـــشرقُ
كيـــفَ الفـــواتُ، والطَّلـــوبُ مـــورقُ؟
شـــيخٌ مغـــيظٌ، وســـنانٌ يـــبرقُ
وحنجـــرٌ رحـــبٌ، وصـــوتٌ ملـــصقٌ
وشـــدقُ ضـــرغامٍ، ونابٌ يحـــرقُ
وشـــاعرٌ باقـــي الرســـومِ مفلـــقُ

وأما ذو الركبة فكان عبداً. وسمي: "ذا الركبة" بقوله :

ســخرَ الغــواني إذْ رأيــنَ مُوَيْهِنــاً　　كــالبَوِّ، أكهــبُ شــاحبٌ منهــوكُ
والركبتـــانِ مفـــارقٌ رأســـاهما　　والظهــرُ أحــدبُ، والمعــاشُ ركيــكُ

سـئمَ الحيـاةَ، ولاحَ في أعطافـهِ ... قـشفُ القتـيرِ، وذلـةُ المملـوكِ

فجنى جناية، فباعوه في بعض الأسواق إلى رجل، فضربه يوماً، فقال:

ولـولا عريـقٌ فيَّ مـن حبـشيةٍ ... يـردُّ إباقـي بعـدَ حـولٍ مُجَـرَّمِ

وبعدَ السُّرَى في كل طخياءَ حِنْدِسٍ ... وبعـدَ طلـوعي مخرمـاً بعـدَ مخـرمِ

علمـتَ بأني خـيرُ عبـدٍ لنفـسهِ ... وأنـكَ عنـدي مغـنمٌ، أيّ مغـنمِ

وأما المندلث فكان عبداً لبني عبد شمس، فقتل عبداً آخر فخاف، فلحق بحاجبٍ أحد بني الخطاب بن عبد شمس، فقال:

أقـولُ لأدنى صـاحبٍ أستـشيرهُ ... وللأخطـلِ الطـائيّ: مـا تـريانِ؟

فقال الذي يبدي النصيحةَ: إنني ... أرى اليـومَ أنْ تختـارَ أرضَ عمـانِ

فـإنْ لا تكـنْ في حاجـبٍ وبـلادهِ ... نجـاةٌ فقـد زلـتْ بـكَ القـدمانِ

فتىً من بني الخطابِ يهتزُّ للندى ... كمـا اهتـزَّ ماضـي الشفرتينِ يمـانِ

... وأما أبو عطاء فمشهور، وهو أبو عطاء السندي، وكان عبداً لبني أسد. وهو القائل في يوم من بني عبد المطلب:

لا بكتْ عين الذي تبكي لهم ... آفـةُ الـدينِ وأعـداء العـربْ

وكان حائل اللون، في لسانه عجمة لا يكاد يفصح عن شئ. فكان إذا عمل شعراً استعان بمن يورده عنه. فعمل بعض الأيام شعراً، وأعوزه من ينشده عنه، فكتب إلى صديق له معلم يسأله أن ينفذ إليه غلاماً ينشد له شعراً كان امتدح به بعض الأشراف:

أعـوزتني الـرواةُ يا ابـن سـليمٍ ... وأبى أنْ يقـيمَ شـعري لـساني

وغـلا بالـذي أجمجـمُ صـدري ... وشـكاني مـن عجمـتي شـيطاني

وعـدتني العيـونُ أنْ كـان لـوني ... حـائلاً سـيئاً مـن الألـوانِ

فـضربتُ الأمـورَ ظهـراً لـبطنٍ ... كيـفَ أحتـالُ حيلـةً لبيـاني

وتمنيـتُ أنـني كنـتُ بالـشع ... رِ فـصيحاً، وبانَ بعـضُ بنـاني

ثمَّ أصـبحتُ قـد أنخـتُ ركـابي ... عنـدَ رحـبِ الثنـاءِ والأعطـانِ

عندَ منْ إن سألتَ أعطى، وإنْ يع ... طِ جـــزيلاً فلـــيسَ بالمنـــانِ

فـإلى مـن سـواك يا ابـن سـليمٍ ... أشـتكي حـيرتي وفـكّ عنـاني؟

فـاكفني مـا يـضيقُ عنـه روائـي ... بغـلامٍ مـن صـالحِ الغلمـانِ

يفهـمُ النـاسَ مـا أقـولُ مـن الـشع ... رِ، فـإنَّ البيـانَ قـد أعيـاني

ثمَّ خـذني بالـشكر يا ابـنَ سـليمٍ ... حيـثُ مـا كنـتَ حاضـر البلـدانِ

فقـديماً مـا كـانَ مـني جـزاءً ... كـلُّ ذي نعمـةٍ بمـا أولاني

وأما بسطام فكان عبداً لبني عدي، وهو الذي يقول:

لئنْ قصرتْ في أعينِ الناسِ قامتي ... فـإنَّ لـساني في النـديّ طويـلُ

أطـال لـساني طائـلٌ لا أغبـهُ ... ووجـهٌ كمـصباحِ الظـلامِ جميـلُ

وعِـرْضٌ كـأنَّ الـنجمَ لا يـستطيعهُ ... وأبـيضُ مـن مـاءِ الحديـدِ صـقيلُ

وما ضرني أنْ كنتُ عبداً، وناصري ... عزيـزٌ، ورأيٌ بعـد ذاكَ أصـيلُ

وحـول قنـاتي عـصبةٌ عدويـةٌ ... تميـلُ علـى الأعـداءِ حـينَ أميـلُ

وأما أبو دلامة فكان عبداً لفضافض الأسدي، وملكه فأعتقه، فكان من صحابة أبي جعفر المنصور. وكان أبو دلامة غزير الشعر، مفتناً في أساليبه، وكان مع ذلك كثير النادرة والهزل. ويروى أنه مثل بين يدي أبي جعفر المنصور، فأنشده:

إني أرقـتُ، وقـد باتـتْ تعـاتبني ... أمُّ الدلامـةِ لمـا شـفها الجـزعُ

لا والـذي، يا أمير المؤمنينَ، حوى ... لـكَ الخلافـةَ، في أكنافهـا الرفـعُ

مـا زلـتُ أُكْـسِبها مـالاً فتأكلـهُ ... دوني ودونَ عيـالي ثمَّ تـضطجعُ

ناشـدتُها بكتـابِ الله حُرْمَتنـا ... فلـم تكـنْ بكتـابِ الله ترتفـعُ

فاخرنطمتْ، ثمَّ قالتْ، وهي معرضةٌ ... أأنـتَ تتلـو كتـابَ الله يا لكـعُ؟

اذهـبْ تبـغَّ لنـا نخـلاً ومُزْدَرَعـاً ... كمـا لجيراننـا نخـلٌ ومـزدرِعُ

واخـدعْ خليفتنـا، إنْ كنـتَ سـائلهُ ... إنَّ الخليفـةَ للـسُّؤَّالِ ينخـدعُ

فقال له الخليفة: قد انخدعنا لك. سل حاجتك. قال: جريب مساحه في بيت المال، قال: هو لك. فخرج إلى الخزان فخط ستين في ستين، فدخلت بيوت الأموال فيه، فقال الخزان: يا أمير المؤمنين، ورد اليوم أمر من أمرك احتجنا فيه إلى مناظرتك. قال: وما هو؟ قالوا: إن أبا دلامة أتانا فخط ستين في ستين وقال: قد أمر أمير المؤمنين بهذا صلة تحوي بيوت الأموال. فقال: عليَّ به. فقال: ويلك! تسألني مسألة محال؟ فقال: والله، يا أمير المؤمنين، لقد علمت أن ذلك لا يسوغ لي. ولكن لك ضيعتين على شاطئ الفرات: إحداهما نورا، والأخرى برنورا، وهما مشتقان من اسم النار، وأبو دلامة عياله أحق بالنار منك. فقال: خذهما، لا بارك الله لك فيهما. ومغَلهُّما خمسون ألف دينار. فكانت في يَدَيْ أبي دلامة وورثته إلى أن بادوا. وفي رواية أخرى أنه قال له المنصور: قد أقطعتك أربعمائة جريب، نصفها عامر ونصفها غامر، قال: وما الغامر؟ قال: الذي لا شيء فيه. قال له: فقد أقطعتك من العذيب إلى الثعلبية. فضحك منه، وأقطعه ما أراد...".

ويلحق بهذه الطبقة الشعراء الحرفيون، وهم من يمارسون حرفة من الحرف ولا يتعيشون من شعرهم بل من حرفتهم. ولعل أول من يفد إلى الذهن منهم الراعى النميرى الشاعر الأموى المعاصر لجرير والفرزدق ومن شعراء النقائض، وهذا إذا صح أنه كان راعيا، إذ هناك من يقول إنه سمى بـ"الراعى" لا لأنه كان راعيا فعلا بل لأنه يكثر من وصف الإبل. ومن شعره هذه الأبيات البديعة، وهى فى إحساس العربى الحاد بأمر الضيافة والكرم:

عَجِبتُ مِنَ السارينَ وَالريحُ قَرَّةٌ ... إِلى ضَوءِ نارٍ بَينَ فَردَةَ وَالرَّحى

إِلى ضَوءِ نارٍ يَشتَوي القِدَّ أَهلُها ... وَقَد يُكْرَمُ الأَضيافُ، وَالقِدُّ يُشتَوى

فَلَمّا أَتَونا فَاشتَكَينا إِلَيهِمُو ... بَكَوْا، وَكِلا الحَيَّينِ مِمّا بِهِ بَكَى

بَكى مُعْوَزٌ مِن أَن يُلامَ وَطارِقٌ ... يَشُدُّ مِنَ الجوعِ الإِزارَ عَلى الحَشَا

فَأَلطَفْتُ عَيني: هَل أَرى مِن سَمينَةٍ ... وَوَطَّنتُ نَفسي لِلغَرامَةِ وَالقِرَى

فَأَبصَرتُها كَوْماءَ ذاتَ عَريكَةٍ ... هِجاناً مِنَ اللاتي تَمَتَّعْنَ بِالصُّوَى

فَأَومَأتُ إِيماءً خَفِيّاً لِحَبتَرٍ ... وَلِلَّهِ عَينا حَبتَرٍ! أَيَّما فَتَى!

وَقُلتُ لَهُ: أَلصِق بِأَيْبَسِ ساقِها ... فَإِن يَجبُرِ العُرقوبُ لا يَرْقَإِ النَّسا

فَـــأَعجَبَنِي مِـــن حَبْـــتَرٍ أَنَّ حَبـــتَراً　　مَضى غَـيرَ مَنكـوبٍ، وَمُنـصُلَهُ انتَـضى

كَــأَنّيَ وَقَــد أَشــبَعتُهُم مِــن سَــنامِها　　جَلَـوتُ غِطـاءً عَـن فُـؤادِيَ فَـانجَلى

فَبِتْنـــا وَباتَـــت قِـــدرُنا ذاتَ هِـــزَّةٍ　　لَنـا قَبْـلَ مـا فيهـا شِـواءٌ وَمُـصطَلى

ومنهم أبو العتاهية، وكان يبيع الجِرَار بالكوفة، وسمى لهذا بـ"الجرّار". وحاز أبو العتاهية شهرة قلما يحوزها شاعر فى عصره وبعد عصره. ولم يقلل من شأنه أبدا أنه كان يبيع الجرار، وهى مهنة من أحقر المهن قيمة. ولا داعى للحديث أكثر من ذلك عنه، فكل من لهم أدنى علاقة بالأدب العربى القديم يعرفونه معرفة عظيمة. وكان الجاحظ يبيع السمك وهو صبى فى أسواق البصرة، ولم يقف هذا فى طريقه إلى الشهرة والتبجيل وذيوع كتبه وترامِى القراء عليها البتة. ومثله فى الفقر واحتراف مهنة ضئيلة الشأن المتنبى، الذى كان أبوه سقاء فقيرا، ولكن شعر ابنه ملأ الدنيا وشغل الناس، وما أصدق قوله عن شعره:

أنام مـــلء جفـــونى عـــن شـــواردها　　ويـــسهر الخلـــق جرَّاهـــا ويختـــصمُ

كذلك كان أبو تمام فى صباه يملأ خزّان الجامع بالماء فى الفسطاط قبل أن يصير شاعرا كبيرا. ولم تعقه مهنة الصبا من أن يصير شاعرا يشار إليه بالبنان وتمتلئ كتب النقد والأدب بأشعاره وأخباره والتخاصم حوله وحول أدبه .

ومنهم كذلك الشاعر العباسى محمود الوراق، الذى كان يشتغل نخاسا أو وراقا على خلاف فى ذلك. ولم تمنع حرفته العلماء والنقاد من رواية شعره والإشادة به والثناء عليه والتعاطف معه. ومعظم شعره فى الوعظ والزهد والتنفير من الدنيا:

إِني شَـــكوتُ لِظـــالِمي ظُلمـــي　　وَغَفَـــرتُ ذاكَ لَـــهُ عَلـــى عِلْـــمِ

رَأَيتُــــهُ أَسْــــدَى إِلَيَّ يَــــداً　　لَمــــا أَبانَ بِجَهلِــــهِ حِلْمــــي

رَجَعَــتْ إِســاءَته عَلَيــه وَإِحــسا　　نِي مُـــــــضاعَف الجـــــــرمِ

وَغَـــدوتُ ذا أَجـــرٍ وَمحمَـــدَةٍ　　وَغـــدَا بِكَـــسْب الـــذَمِّ وَالإِثِمِ

مــــازالَ يَظلِمُــــني وَأَرحَمَــــهُ　　حَـتى بَكيــت لَــهُ مِــنَ الظُلْــمِ

ومن شعره أيضا:

بكيــــتُ لقُـــــرْبِ الأجَـــــلْ　　وبُعْــــد فــــوات الأمَــــلْ

ووافِـــــدِ شَـــــيْبٍ طَـــــرَا بَعُقْـــــب شـــــبابٍ رَحَـــــلْ
شـــــبابٌ كـــــأنْ لم يَكُـــــنْ وشـــــيبٌ كـــــأَنْ لم يَـــــزَلْ
طَـــــوَاك بَـــــشيرُ البقـــــاءِ وحَـــــلَّ بـــــشيرُ الأجَـــــلْ
طَـــــوَى صـــــاحبٌ صَـــــاحباً كـــــذاك اخـــــتلافُ الـــــدُّوَلْ

ومنهم الخبز أرزى، وكان خبازا بمربد البصرة تجتمع الناس عليه، ويقصد دكانه الشعراء يجلسون إليه وهو ينشد شعره. وكان أميا. وله فى الغزل:

لا أستطيع مـن الـضَّنَى شكوى الـضَّنَى ويكـــاد مـــا بي أن يـــرقَّ لِمـــا بي
لا صـــبر لي! أَنَّ عليـــك تـــصبُّري والتيـــهُ دابُـــكَ، والتـــذلُّل دابي؟
فخلعــتُ في خلــع العــذول تجمُّلــي ولبــستُ ثــوبَ الــسقم تحــت ثيــابي
لا تمزجــوا كأســي، فــإن مــدامعي تكفــي وتفــضل عــن مــزاج شــرابي

وله أيضا:

أســـــتغفرُ اللهَ وأســـــتغفر ال محبــوبَ مــن ذَنبَــيْنِ في ذنــبِ
إن نظـــرت عيـــني إلى غـــيره بـــشهوةٍ هَـــمَّ بهـــا قلـــبي
فقـــد عـــصيتُ اللهَ في نظـــرتي وخُنْــتُ مــن أهــوى بــلا عَتْــبِ
فعائـــــذٌ باللهِ مـــــن نظـــــرةٍ فيهـــا فـــساد الـــدِّين والحـــبِّ

وله هاجيا متهكما:

مـن حـديثي أن ابـنَ بكـرٍ دعـاني لـــشقائي، فليتـــه مـــا دعـــاني
غـــرَّني منـــه منظـــرٌ ولبـــاسٌ وأثاث ومجلـــــــــــس وأَوَانِ
مجلــس كالجنــان حــسناً، ولكــن قــبَّح الجــوعُ حُــسنَ تلـك الجنـانِ
فلَعَمْــرِي كــان الخــوانُ، ولكــن لم يكــن مــا يكــون فــوق الخــوانِ
وجفـــان مثـــل الجـــوابي ولكـــن لــيس فــيهنَّ مــا يُــرَى بالعيــانِ
وَغَـضَار الألـوان جـاءت، ولكـن لـــيس فيهـــا روائـــح الألـــوانِ
فـــإذا مـــا أدرتُ فيهـــا بنـــاني لم أجـــد مـــا أمَـــسُّه ببنـــاني

إنــني ماضــغٌ علــى غــير شــيءٍ غــير صــكِّ الأســنان بالأســنانِ
ترجــع الكــفُّ وهــي أفــرغ منهــا عنــد مَــدّي لهــا، فــدأبي وشــاني
لــو تــراني والجــوع يــضحك مــنّي عنــد غــسلي يــديَّ بالأشــنانِ
زاد في الــسكر مــسرفاً مثلمــا أس رَفَ عنـــد الطعـــام بالنقـــصانِ
والغـــضارات فارغـــات أتَتنـــا وســـقانا بالمـــترع المـــلآنِ
ســـكرةٌ فـــوق جوعـــةٍ تـــركتني راحمـــاً كـــلَّ جـــائعٍ ســـكرانِ

ومن شعراء العصر العباسى الحرفيين أيضا أبو الطيب ابن الوشاء (ت٣٢٥هـ)، وهو كاتب وأديب وشاعر وراوية ونحوي. فبالإضافة إلى علمه الواسع باللغة كان شاعراً، وإن كان مُقِلاً، وألَّف عدداً من من الكتب في الأدب والأخبار والنحو، وعمل مُدرِّساً للصبيان في مكتب العامَّة. ومن شعره:

يا مــن يقــوم مقــام الــروح في الجــسد لا تحــسبنّي خلــي البــال مــن سُــهُدِ
حاشاك مِنْ أَرَقى! حاشاك من قلقي! حاشاك من طول ما ألقى من الكَمَدِ
حـــزني عليـــك جديـــد لا نفـــاد لـــه أوهــى فــؤادي، وأوهــى عقــدة الجَلَــدِ
والــصبر عنــك قليــل مــضرم قلقــاً بــين الــضلوع كــصبر الأم عــن ولــد

وترجم له الصفدى فى "الوافى بالوفيات": "الوشاء النحوي مُحَمَّد بن أحمد بن اسحق بن يحيى الوشاء أبو الطيب النحوي. من أهل الأدب حسن التصنيف، مليح التأليف، أخباري. توفي سنة خمس وعشرين وثلثمائة... كان نحويا معلما لمكتب العامة وكان يعرف بـ"الأعرابي". وله من الكتب "الجامع في النحو، كتاب مختصر في النحو، المقصور والممدود، المذكر والمؤنث، كتاب الفرق، خلق الإنسان، خلق الفرس، المثلث، أخبار صاحب الزنج، الزاهر في الأنوار والزهر، كتاب السلوان، المذاهب، الموشح، سلسة الذهب، أخبار المتظرفات، الحنين إلى الأوطان، حدود الطرف الكبير، المَوْشِيّ". ومن شعره:

لا صـــبر لي عنـــك ســـوى أنـــني أرضـــي مـــن الـــدهر بمـــا يقـــدرُ
مـــن كـــان ذا صـــبرٍ فـــلا صـــبرَ لي مِثْلِـــيَ عـــن مثلـــك لا يـــصبرُ"

كما ترجم له ياقوت الحموى فى "معجم الأدباء"، والأنبارى فى "نزهة الألباء فى طبقات الأدباء"، والسيوطى فى كتابه: "بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة".

ولدينا الوأواء الدمشقى (ت٣٨٥هـ)، الذى كان مناديا فى بدء أمره بدار البطيخ بدمشق. ومن شعره الجميل:

دَواءُ قلـــبيَ في الهـــوى دائـــي　　　أَعْيـــا عِلاجـــاتِ الأَطبـــاءِ
حَوَيـــتُ أَسْـــقامَ الـــوَرى مُفْـــرداً　　　وحازهـــا النَّـــاسُ بأَسمـــاءِ
لَوْ شِئْتُ أَنْ أَمشي لِفَرْطِ الضَّنى　　　مـشيتُ مِـن سُـقْمي عَلَـى المـاءِ

ومنه:

هِـيَ الحَيـاةُ الَّـتي تَحْيَـا النُّفُـوسُ بِهـا　　　تُمِيتُهـا كُلَّمـا شَـاءَتْ وَتُحْيِيهـا
لَـوْ أَنَّهـا خَاطَبَـتْ مَيْتـاً لَكَلَّمَهـا　　　وَقَـامَ مِـنْ قَـبْرِهِ شَـوْقاً يُلَبِّيهـا
عَادَيْتُ مِنْ أَجْلِها رُوحي، وَقَدْ عَلِمَتْ　　　رُوحـي بِأَنِّيَ أُعَـادِي مَـنْ يُعادِيهـا
وَلَـسْتُ أَبْكـي بِـدَمْعِي حِـينَ تُبْعِـدُني　　　لَكِـنْ بِرُوحـي عَلَيْهـا حِـينَ أَبْكِيهـا
للهِ إِنْـسانُ طَـرْفِي حِـينَ صَـارَ بِهـا　　　عَبْـدي كَمـا صِـرْتُ فِيها عَبْدَ حُبِّيها
غرِيـتُ بِاللَّـوْمِ فِيهـا إِذْ غرِيـتُ بِهـا　　　فَـصِرْتُ أَهْـوى مَلامـي مِـنْ مَلامِيهـا
هَـذا لأَنَّ عَـذابي صـارَ يَعْـذُبُ لِي　　　فيهـا وَأَنَّ حَيَـاتِي مِـنْ أَيادِيهـا

وقد انتشرت ظاهرة الشعراء الحرفيين فى العصر المملوكى. وكانوا يتناولون فى كثير من الأحيان موضوعات الحياة اليومية، ويتسم شعرهم بالبساطة وقرب المأخذ والروح الشعبية والفكاهة حتى فى سياق الجد والشجن والشكوى. ومن هؤلاء أبو الحسين الجزار، وهو مصرى من أهل القرن السابع الهجرى، وعمل بالجزارة كأبيه وأقاربه، ولما صار ينظم الشعر ويتفوق فيه حاول الاسترزاق منه، لكنه عاد مجددا إلى حرفة الجزارة. ومن شعره فى ذلك الموضوع قوله :

حـــسبي حرافـــاً بحـــرفتي حـــسبي　　　أصـــبحت منهـــا معـــذب القلـــبِ
موسَّـــخ الثـــوب والـــصحيفة مـــن　　　طـــول اكتـــسابي ذنبـــاً بـــلا كـــسبِ
أعمــــل في اللحـــــم للعِـــــشَاء ولا　　　أنال منــــه العَـــشَا، فمـــا ذنـــبي؟

خـــلا فـــؤادي، ولي فـــم وســـخ   كـــــأنني في جـــــزارتي كلـــــبي

ومنه أيضا:

لا تلمـني يا سـيدي شـرَفَ الـدِّي   نِ إذا مـــا رأيتَـــني قَـــصَّاباً
كيـف لا أشـكرُ الجـزارةَ مـا عـش   تُ حِفَاظـــاً وأَرفـــضُ الآدَابا
وبِهـا أضـحَتِ الكـلابُ تُرَجِّيــ   ـني، وبالشِّعرِ كنت أرجو الكِلابا؟

ومن الموضوعات التى طرقها شاعرنا مدح النبى محمد عليه السلام والإشادة بالإسلام وحديثه عن الحج وزيارة قبر النبى، وكان يتمنى بعدما علا به السن أن يكتب الله له ذلك. ومن شعره فى هذا الغرض الأخير :

نـسيمَ الـصَّبا، هـل لي إلى قـبرِ أحمـدٍ   وصـولٌ؟ فـإنَّ البُعـدَ عنـه شَـجَاني
نُزوعـــي إلى ذاكَ الجَنـــاب ولم أقـــم   إليـــه كألفـــاظٍ بغـــير مَعـــاني
نَبَـذْتُ مـن اللـذات مـا كنـتُ حـاملا   إليـــه لأن العجـــز عنـــه نهـــائي
نهايـــة ســـؤلي العفـــو عمـــا جنيتُـــه   بجهلـــي، وربٌّ العـــالمين يَـــراني
نفـى النـومَ عـن عيـنيَّ خـوفُ عـواقبي   فيـــا ربِّ، جُـــدْ لي في غـــدٍ بأمَـــانِ

ويشبه أبا الحسين الجزار فى احترافه الجزاره وتركه إياها ثم عودته إليها كرة أخرى، وإن لم يكن مصريا مثله، ابن الجزار السرقسطى، وهو من أهل القرن السابع الهجرى أيضا. ومن شعره فى التعفف عن مد يده لأحد يمدحه رغم فقره:

إن القَـــوافي لَـــو أَرَدتُ مَلاكَهـــا   مـا صـارَتِ الَّا تَحـتَ ظـلّ لِـوائي
لَكِنَّـني أَرضـى الكَفـاف فَـلا أُرَى   مـــستجديَ الأمـــراء والـــوزراءِ
لَـيسَ الغِـنى بِالمـال يَجمَعـهُ الفـتى   خـير الغِـنَى عِنـدي غِـنَى الحَـوْباءِ
إن كُنـت أُعْـوِزْت الثَّـراء فَـإِن لي   نَفْـــساً قَناعتهـــا أَجـــلُّ ثَـــراءِ
مـالي سِـوى أَدَبي غِـنًى وَحَزامَـةٍ   تَرمـي الخطـوب بِفَيْلَـقٍ شَـهباءِ
أَصْـدَى فَـلا أُبْـدِي لِمَـرءٍ حاجَـةً   والنـار تَنبـع مِـن حِمـى المَعْـزَاء
إِني أَعـــاف غِـــنًى يَجـــرّ مَذَلَّـــةً   وأحـــب فَقـــراً جالـــبَ العَليـــاء

وَأَرى مَوارِدَ لَو أَشاءُ وَرَدْتُها   لَكِنَّ نَفْس الحُرّ ذاتُ ظِماء

ومن الشعراء الحرفيين أيضا ابن أبي الربيع الخياط، وهو مصرى، وكان معاصرا للجزار، وكانت بينهما مهاجيات. وقد تعرض له ابن تغرى بردى فى وفيات ٦٧٢هـ، فوصفه بـ"الشاعر المشهور". وأشاد به اليونينى فى "ذيل مرآة الزمان" فقال: "كان فاضلا أديبا". ومن شعره في أبي الحسين الجزار:

إن تاه جزاركم عليكم   بفطنة عنده وكَيْسِ

فليس يرجوه غير كلب   وليس يخشاه غير تَيْسِ

ومن الشعراء الحرفيين المصريين كذلك فى القرن السابع الهجرى السِّرَاج الوراق، الذى وصفه ابن تغرى بردي في "النجوم الزاهرة" بأنه "شاعر مصر في زمانه بلا مدافعة". وله ديوان يسمى: "لمع السراج". ومن شعره في حرفته :

وا خجلتي وصحائفي سوداً غدت   وصحائف الأبرار في إشراقِ

وموبّخ لي في القيامة قائل   أكذا تكون صحائف الوراق؟

وكان بينه وبين الجزار مداعبات. ومن ذلك قول الجزار فيه:

إن السراج نسيم الريح يوقظه   إلى فوائد كالإبريز تَتَّقِدُ

تزيده الريح إيقاداً لفكرته   وما رأينا سراجاً في الهوى يَقِدُ

وقد خصص له ابن شاكر فى "فوات الوفيات" ترجمة لطيفة جاء فيها: "عمر بن مُحَمَّد بن حسن، سِرَاج الدين الوراق الشاعر المشهور والأديب المذكور. ملكت ديوان شعره، وهو في سبعة أجزاء كبار ضخمة بخطه إلى الغاية. هذا الذي اختاره لنفسه وأثبته، فلعل الأصل كان من حساب خمسة عشر مجلداً، وكل مجلد يكون مجلدين، فهذا الرجل أقل ما يكون ديوانه لو ترك جيده ورديئه في ثلاثين مجلداً، وخطه في غاية الحسن والقوة والأصالة. وكان حسن التخيل جيد المقاصد صحيح المعاني عذب التركيب، قاعد التورية والاستخدام، عارفا بالبديع وأنواعه. وكان أشقر أزرق العين. وفي ذلك يقول:

ومن رآني والحمار مركبي   وزرقتي للروم عرقٌ قد ضربْ

قــال، وقــد أبــصر وجهــي مقــبلاً: لا فــارس الخيــل ولا وجــه العــربْ

وكان يكتب الدرج للأمير سيف الدين أبي بكر ابن أسباسلار والي مصر، وتوفي في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين وستمائة، رحمه الله تعالى، وقد قارب التسعين أو جاوزها بقليل. وأكثر شعره في اسمه، فمن ذلك:

وكنـــت حبيبـــاً إلى الغانيـــات فألبـسني الـشيب بغـض الرقيـب

وكنــت ســراجاً بليــل الــشباب فأطفــأ نــوري نهــار المــشيب

... إلخ."

ومن الشعراء الحرفيين فى القرن السابع الهجري بمصر ابن الرعاد. قال عنه الصفدى فى "أعيان العصر وأعوان النصر": "أخبرني شيخنا العلامة أثير الدين قال: كان المذكور خياطاً بالمحلة من الغربية، وله مشاركة في العربية وأدب لا بأس به. وكان في غاية الصيانة والترفع عن أهل الدنيا والتردد إليهم، واقتنى من صناعة الخياطة من الكتب كثيراً، وابتنى بها داراً حسنة. ورأيته بالمحلة مراراً، وأنشدني لنفسه قال:

نار قلـــبي، لا تقـــرّي لهبـــاً وامنعــي أجفــان عيــني أن تنامــا

فـــإذا نحـــن اعتنقنـــا فـــارجعي نار إبــــراهيم بــــرداً وســــلاما

وأنشدني قال: أنشدني لنفسه:

قـــالوا وقـــد عـــاينوا نحـــولي إلام في ذا الغـــــرام تـــــشقى؟

ضَـــنِيتَ أو كـــدت فيـــه تفـــنى وأنــــت لا تـــستفيق عـــشقا

فقلـــت: لا تعجبـــوا لهـــذا مـــا كـــان لله فهـــو يبقـــى

قلت: شعر عذب منسجم. وتوفي رحمه الله تعالى بالمحلة سنة سبعمائة. وكان قد أخذ النحو عن العلامة أبي عمرو ابن الحاجب... إلخ".

وقال عنه ابن شاكر الكتبي في "فوات الوفيات": "كان ابن الرعاد خياطاً بالمحلة من الغربية، وله شعر لا بأس به. وكان في غاية الصيانة والترفع عن أهل الدنيا. واقتنى من صناعة الخياطة كتباً نفيسة، وابتنى داراً حسنة بالمحلة. ومن أشعاره ما يدل على إدراكه للاصطلاحات العروضية والنحوية وإلمامه باللغة وأساطينها".

ومن أولئك الشعراء أيضا عين بصل، واسمه الحقيقي إبراهيم بن علي بن خليل الحراني. كتب الصفدى ترجمة لطيفة له فى كتابه: "أعيان العصر وأعوان النصر" جاء فيها: "كان على ما اشتهر من أمره عامياً حائكاً أمياً، وله الشعر المقبول، والطبعُ الذي هو على القريض مجبول. أناف على الثمانين من عمره، ولم يخمد توقد جمره. نظر يوماً بعض أصحابه إلى امرأة برزت بصفحة بدر في حندس، وغرست فوق خدها زهرة نرجس، فسأله أن ينظم في ذلك شعراً، وينفسَ به كرب قلبه المُغْرَى، فقال بديهاً، وأنشد الحاضرين فيها:

غرســـتْ في الخـــد نرجـــسة   فحكـــت في أحـــسن الـــصورِ

كوكبـــاً في الجـــو متقـــداً   قـــد بـــدا في جانـــب القمـــرِ

... وكان عين بصل فقيراً يهبه الناسُ قماشاً، وما يكلفونه معاشاً، وكان يلبس القطعة مدة، وإذا أفلس باعها، ومد إليها كف نفقته وباعها، فلامه بعضُ الناس على هذا الاعتماد، وقال: هذا موجب لأن يسوء منهم فيك الاعتقاد. فأنشده ارتجالاً، وقال له لا تمتلي مني ملالاً:

وقائـــل قـــال: إبـــراهيمُ عـــينُ بـــصل   أضـــحى يبيـــعُ قَبـــاً للنـــاس بعـــد قبـــا

فقلـــت: مَـــهْ يا عـــذولي. كـــم تعنِّفـــني!   لو جعت قدت، ولو أفلست بعت قَبَا

... ولم يزل في اكتسابه، وتعاطيه للشعر وانتسابه، وتوكله على بر الناس له واحتسابه، يخبط بين الحياكة والحكاية، وينقلب من الشكر إلى الشكاية، إلى أن رقد فما انتبه، وعتب صاحبه الموتَ فيه فما أعتبه".

ومن أشهر الشعراء الحرفيين في العصر المملوكي ابن دانيال الموصلي الكَحَّال، وهو الطبيب الذى يعالج العيون ويصف لها الدواء. وقد ترجم له ابن حجر العسقلاني في "الدرر الكامنة"، وابن تغرى بردي فى "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة"، والصفدى فى "أعيان العصر وأعوان النصر"، وقال فيه: "صاحب النظم الحلو، والقريض الذي ليس فيه بيت من النكت خلو، والنثر العذب الرائق، والكلام الذي أصبح وهو على زهر الرياض فائق، والطباع الداخلة، والمخيلة التي هي بالصواب غير باخلة. كان ابن حجاج عصره، وابن سُكَّرة مِصْره. لو كانا حيين لقلداه المجون. وعلما أن نكته تفعل بالألباب ما لا تفعله ابنة الزرجون. قد لطف

كلامه، وظرف نظامه، يأتي بمضحكات تعجب منها الثكالى، وتنشط الكسالى... وكان لا يبالي بما يقول من سخفه، ولا يستحي في المجون إذا رفع مُرْخَى سجفه:

لـو عابـه سـيبويه قـال لـه: خـرا الكـسائي في لحيـة الفـرَّاء

ولم يزل على حاله إلى أن استجن حشا ضريحه، وأوحش الزمان وأهله خفة روحه. وتوفي رحمه الله تعالى بالقاهرة ليلة الأحد ثاني عشري جمادى الآخرة سنة عشر وسبع مئة. وكان ابن دانيال رحمه الله تعالى طبيباً كحالاً، أديباً شاعراً مطبوعاً على الدخول في أقواله وأفعاله... وله نوادر كثيرة... يقال إن الملك الأشرف أعطاه قبل أن يلي فرساً، وقال له: "هذا اركبه إذا طلعت القلعة أو سافرت معنا إلى الصيد" لأنه كان في خدمته، فلما كان بعد أيام رآه وهو راكب على حمار مكسح، فقال له: يا حكيم، أين الفرس الذي أعطيناك؟ فقال: بعتها وزدت عليها واشتريت هذا الحمار. فضحك منه... وله من التصانيف كتاب "طيف الخيال" أبدع فيه. وقيل: إنه أخرجه من القوة إلى الفعل، ولبس ثيابه ورقص بآلاته جميعها، وله أيضاً أرجوزة سماها: "عقود النظام في من وَلِيَ مصر من الحكام". ومن شعره في صنعته:

يا سـائلي عـن حـرفتي في الـورى وضـيعتي فـيهم وإفلاسـي

مـا حـالُ مَـنْ درهـم إنفاقـه يأخـذه مـن أعـين النـاس؟

ومن شعره أيضا:

لا تَلُمـني إذا خلَعْـتُ عـذَاري حـينَ أمـسيتُ ضـائعاً كالحمـارِ

ضائعاً أبتَغي، وَقَد غَرَّني القَمْحُ، شَـعيراً يُبَـاعُ بالأشـعَارِ

أنا إنْ ضِـعْتُ بالنّهـارِ فَمِـسْكٌ فـاطلُبوني في دكّـةِ العَطـارِ

أنا جَحْشٌ منَ الصّعيدِ فإن شِئ تُ يُنـاديّ عَلَـيَّ بالإجهـارِ

غـيرَ أنيّ لِقِلّـةِ القـضمِ قَلـبي في انقبـاضٍ كأنّـه في زَيارِ

وإذا مـا ذكـرتُ أهلـي أُدَلِّي مـن لَـواعجِ التّـذكار"

ومن أشهر شعراء الحرف في العصر المملوكي النَّصِير الحَمَّامِيّ المتوفى سنة ٧١٢هـ. وكان شاعراً ماهراً، عاصر الوراق والجزار وابن دنيال. ومن قول الحمامي في صنعته:

لي منــــــزلٌ معروفُــــــه　　ينهــلّ غيثــاً كالــسحبْ
أَقْبَــل ذا العــذر بــه　　وأُكْــرِم الجــار الجُنُــبْ

وقال صلاح الدين الصفدى ف" أعيان العصر وأعوان النصر": "كان عامياً إلا في النظم الذي يأتي بسحره، ويدير على الألباب كؤوس خمره، وكان في تلك الحلبة في جيادها المعدودة، وسوابقها التي تذر الرياح الهوج وأنفاسها مكدوده، قعدت معه التورية وجادت، ورأست على كلام غيره وسادت، معانيه بليغة وألفاظه فصيحة، وأبكاره برزت حاسرة ولم تخش فضيحة، وتراكيب كلماته في كل ما يأتي به في غاية الانسجام، ومقاصده مليحة تطوف على النفوس منها بالأنس جام، جاراه فحول عصره وجاراهم، وكتبوا إليه فأجابهم وباراهم وما ماراهم، وربما أربى في اللطف على مجاريه، ولو لم يكن حمامياً لما عرف حرّ الأشياء وباردها وأخذ الماء من مجاريه، كم ألغز فألغى ذكر من تقدم، وأوجز فأوجب أن الذي أداره على الأسماع كأس السلاف المقدم، وأعجز من أعجب السامعين، فقالوا: ما غادر هذا الشاعر بعده من متردم... وكان في مصر يرتزق بضمان الحمامات، ويقيم بلاغة من فضالة تلك القمامات، عادة جرى الدهر على قاعدتها مع الأدباء، وغادة لم تغن الأيام من كان كفؤها من الألبّاء. ولم يزل على حاله حتى أصبح للأعداء رحمة، وبكته معانيه الجمة. وتوفي رحمه الله تعالى في سنة أربع وسبع مئة. ومولده بمنية بني خصيب سنة تسع وست مئة. أخبرني شيخنا العلامة أبو حيان، قال: كان المذكور أديباً بمصر كيّس الأخلاق يتحرّف باكتراء الحمامات، وأسنّ وضعف عن ذلك، وكان يستجدي بالشعر. وكتبت عنه قديماً وحديثاً. وأنشدني قال: أنشدني المذكور من لفظه لنفسه:

لا تَفُــه مــا حَييــتَ إلا بخــيرٍ　　ليكــونَ الجــوابُ خــيراً لَــدَيْكَا
قــد سمعــتَ الــصَّدَى، وذاك جَمــادٌ　　كــلّ شــيءٍ تقــول رَدَّ عليكــا"

ومن شعر الحمامى بالعامية يصف حمامه:

حمَّـــامُ الأديـــبِ العــارِف　　مــا يجــري وحــالُو واقِــف
بهــا اســـطول ومــا فيهــا اســـطالْ

والمــــــــــا يتّـــــــــــزِن بالقَـــــــــــسطالْ

والعُمـــــال رأَيتـــــو بَطــــالْ والإســــــــكندراني ناشِــــــــف

ومـــــا ريـــــت فيهـــا بَـــــلانْ يــــــسرّح لَحَـــــدْ بالإحــــساانْ

... وكتب النصير إلى السِّراج الوراق:

أهــوَى رَشـاً في مُهْجــتي مَرْتَعُــه أَفديـــــــــه رَبيــــــــــبْ

لا بــل قمــراً في ناظــري مَطلَعُــه لم يَــــــــدرِ مَغِيــــــــبْ

حِقــفٌ وهِــلالٌ وغــزالٌ وغُــصُنْ إن قـــــام وإن رنا وإن لاح وإن

والمــؤمنُ كــيّسٌ كمــا قيــل فَطِــنٌ قلـــبي أبـــداً إلى مُحيّـــاه يَحِـــنّ

مــا أبعــدهُ، وفي الحــشا موضِــعُهُ ناءٍ وقريــــــــــــــــــب

قــد راق بــه شــعري لمــن يــسمعه إذ كــــــــان حبيـــــــــب"

وتجد أيضا ترجمة له فى "فوات الوفيات" لصلاح الدين الصفدى و"عقد الجمان فى أنباء أهل الزمان" لبدر الدين العينى.

ومن الحرفيين أيضاً غلام النوري المتوفى ٧٤٩ هـ. وهو من أشهر كتاب الموال في العصر المملوكي. وكان له إنتاج جيد في الأزجال، وكتب الشعر أيضا. وترجمه الصفدى فى كتابه: "أعيان العصر وأعوان النصر"، فقال: "إبراهيم الحايك، وقيل: المعمار، وقيل الحجار. غلام النوري، عامي ظريف، وشاعر عري من حلل النحو والتصريف، لكنّ قريحته نظَّامة، وطباعه لبرود الشعر رقَّامة، له ذوق قد شب عمره فيه عن الطوق، وتوريات تسير الثريا من تحتها وهي من فوق، واستخدام له إلى تحريك الأعطاف وهَزّها شوق، ونكت أدبيه ما يبلّ الفاضل منها غلة الشوق، ومقاصدُ غريبة أحسنُ من رَوْق الشباب وما أحسنه من روق، إلا أن اللحنّ الخفي يخونه في بعض الأماكن وهو قليل، وتصريف الأفعال يعرض عنه بلا دليل، أما إذا تُرِك وعامّيته في الأزجال والبلاليق، ونفض يده من القريض لم يكن له فيه تعاليق، فإنه يأتي بالعجائب، ويركب في طريق الإعجاب والإعجاز متون الصَّبَا والجنائب، فما يلحقه في ذلك مُجَار، ولا يرهقه مُبَار، ولا يطمع لاحق له في شق غبار، ولا أعلم له في ذلك نظيراً، ولا

استجليت في سماء فنه مثله قمراً منيراً. وكان فقيراً متخلياً، وأميراً في نفسه بالخمول متحلياً، يُعْرِض عن الأكابر، ويَعُدّ أهل الدنيا عنده في أهل المقابر، قد لزم القناعة، وأرخى على وجه الصبر قناعه، فهو في باب اللُّوق سابق غير مسبوق، وفي ساحات المناشر سلطان من ينادم أو يعاشر، قد هذبه زمانُه، وأُطْلِق في الراحة عنانُه، يكتفي بالبلاغ، ويجتزئ بما له في الحلق مساغ. ولم يزل على عالم إطلاقه ووميض برقه وابتلاقه، إلى أن خرب من المعمار رَبْع الحياة، وعَفَّر التراب محيّاه. وتوفي رحمه الله تعالى في طاعون مصر سنة تسع وأربعين وسبعمائة بعدما نظم في الطاعون قبل موته، وأنشد قبل فوته:

يا من تمنى الموت، قم واغتنم   هذا أوان الموت. ما فاتا

قد رخُص الموت على أهله   ومات من لا عمرَهُ ماتا"

ومن أصحاب الحرفة كذلك، ولكن من الكتاب الناثرين، أبو حيان التوحيدى. وكان يشتغل ناسخا عند ابن العميد والصاحب بن عباد، وكان يشعر بالغبن والإحباط جراء المعاملة الرديئة التى كان يلقاها من كليهما رغم أنه أديب مثلهما بل يفوقهما أسلوبا وفكرا وثقافة، مما دفعه إلى تأليف كتاب هام فى هذا الموضوع سماه: "مثالب الوزيرين" جاء آية فى تحليل النفوس والتوغل وراء منابع المشاعر والعواطف والتصرفات، وألبسهما ملابس خزى وعار، وأضحك العالمين عليهما جراء ما نعتهما به من سخف ورقاعة وشعور بالنقص. وله كتب أخرى رائعة سلمت من عوادى الزمان، فقد أزمع أن يحرق كل ما صنف، إلا أنه لم يقدَّر له أن يتخلص من جميع ما كتب بل بعضه لا غير.

كتب فى أول كتابه: "الإمتاع والمؤانسة": "نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين، ووصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظفر بالفوز والنعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين... وأنا أعوذ بالله الملك الحق الجبار العزيز الكريم الماجد أن أجهل حظي، وأعمى عن رشدي، وألقي بيدي إلى التهلكة، وأتجانف إلى ما يسوؤني أولاً ولا يسرني آخراً. هذا وأنا في ذيل الكهولة وبادئة الشيخوخة، وفي حال من إن لم تَهْدِه التجارب فيما سلف من أيامه، في حالَيْ سفره ومُقَامه، وفقره وغنائه، وشدته ورخائه، وسرائه وضرائه، وخيفته ورجائه، فقد انقطع الطمع من فلاحه،

ووقع اليأس من تداركه واستصلاحه. فإلى الله أفزع من كل ريثٍ وعجل، وعليه أتوكل في كل سؤل وأمل، وإياه أستعين في كل قول وعمل". والغريب العجيب أن يُرْمَى كاتب هذا الكلام الذى يسيل إيمانا وعرفانا بعظمة الله بالزندقة عند بعض الكتاب.

ويروى غرس النعمة فى كتابه: "الهفوات النادرة" عنه ما يلى: "حكى أبو حيان التوحيدي قال: حضرت مائدة الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد، فقُدِّمَتْ مَضِيرةٌ رائقة، فأمعنت فيها، فقال لي: يا أبا حيان، إنها تضر بالمشايخ. فقلت: إنْ رأى الصاحب أن يدع التطبُّبَ على طعامه فعل. فكأنني ألقمته حجراً، وخجل واستحيا، ولم ينطق إلى أن فرغنا".

ومما صوره به تصويرا ساخرا قاتلا ما قاله عن مناظرته لكبير اليهود فى إعجاز القرآن. قال الصفدى فى "الوافى بالوفيات" ناقلا عن كتابه: "مثالب الوزيرين": "وأما أبو حيان التوحيدي فإنه أملي في ذمه وذم ابن العميد مجلدةً سماها: "ثلب الوزيرين" أتى فيها بقبائح. فمن ذلك ما ذكره في حق الصاحب أنه ناظر بالري يهودياً هو رأس الجالوت في إعجاز القرآن، فراجعه اليهودي فيه طويلاً، وماتنه قليلاً، وتنكد عليه حتى احتدّ وكاد ينقدّ. فلما علما أنه سجر تنوره وأسعط أنفه قال: أيها الصاحب، فلم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط؟ كيف يكون القرآن عندي آيةً ودلالةً ومعجزةً من جهة نظمه وتأليفه؟ فإن كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء، فيما يُدَّعَى، عنه عاجزين وله مذعنين، وها أنا أَصْدُق عن نفسي وأقول: ما عندي أن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتُبَادِه به نظماً ونثراً هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه. وعلى حالٍ ليس يظهر لي أنه دونه وأن ذلك سيستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة! فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد وسكن عن حركته وانخمص وَرَمُه به وقال: ولا هكذا يا شيخ! كلامنا حسن وبليغ، وقد أخذ من الجزالة حظًّا وافراً، ومن البيان نصيباً ظاهراً، ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي لا يخمل. وأين ما خلقه الله على أتم حُسْنٍ وبهاء مما يخلقه العبد بطلبٍ وتكلف؟ هذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رماداً مع إعجاب شديدٍ قد شاع في أعطافه وفرح غالبٍ قد دب في أسارير وجهه لأنه رأى كلامه شبهةً لليهود وأهل الملل.

وقال: كان ينشد شعره وهو يلوي رقبته ويُجْحِظ حدقته وينزي أطراف منكبيه ويتشايل ويتمايل كأنه "الذي يتخبَّطه الشيّطان من المسِّ". وقال: دخل يوماً دار الإمارة الفيرزان المجوسي في شيء خاطبه به، فقال: إنما أنت مجش محش مخش لا تمش ولا تبش ولا تمتش! قال الفيرزان: أيها الصاحب، برئت من النار إن كنت أدري ما تقول! إن كان رأيك أن تشتمني فقل ما شئت بعد أن أعلم، فإن العِرْض لك، والنفس لك فداء: لست من الزنج ولا من البربر. كلمنا على العادة التي عليها العمل! والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد، وقد خالطْنا الناس فما سمعنا منهم هذا النمط! فقام الصاحب مغضباً".

وأما ياقوت فكان وراقا، أى يبيع الكتب، ومع هذا كان من أكابر المؤلفين. وله أسلوب سلس بديع. وقد كتبت عنه فصلا مطولا فى كتابى: "من ذخائر المكتبة العربية" رددت فيه على المستشرق الروسى كراتشكوفسكى، الذى كتب فى "تاريخ الأدب الجغرافى العربى" يتنقص من أسلوبه، وهو ما أثار استغرابى وحفيظتى، فكان ردى على هذا السخف شديدا، وأتيت بكلام لياقوت مترسل ومسجوع، وبينت ما فيه من جمال وروعة، وقلت: ليس لكراتشكوفسكى وأمثاله الحق ولا القوة على تمييز الأساليب العربية ولا تذوقها كما ينبغى.

وكتب اليافعى عنه فى "مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان" فى أحداث سنة ٦٢٦هـ: "وفيها توفي ياقوت الرومي الحموي ثم البغدادي التاجر شهاب الدين الأديب الإخباري صاحب التصانيف الأدبية في التاريخ والأنساب والبلدان وغير ذلك، أُسِرَ من بلاده صغيرًا، فابتاعه ببغداد رجل تاجر، ولما كبر ياقوت المذكور قرأ شيئًا من النحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار في متاجره، ثم جرت بينه وبين مولاه قضية أوجبت عتقه، فأبعده عنه، فاشتغل بالنسخ، وحصلت له بالمطالعة فوائد. وصنف كتابًا سماه: "إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء" في أربع مجلدات، وكتابًا في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء، وكتبًا أخرى عديدة. وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف...".

ومن المهمشين أيضا الشعراء المجانين أو الموسوسون، وهؤلاء قد اعتنى بهم تاريخ الأدب العربى ونقاده ومترجمو مشاهيره اعتناء شديدا. وتجد فى كل من "طبقات ابن المعتز" لابن المعتز

و"عقلاء المجانين" للنيسابورى ترجمة لعدد منهم واستشهادا بشعرهم وتحليلا له، ومنهم مانى الموسوس وجعيفران الموسوس وأبو حيان الموسوس ومصعب الموسوس وعفان الموسوس ولقيط المصرى وجساس الموسوس وأوفى البدوى وأبو الشريك وهبنَّقة وريحانة وآسية وحيونة وميمونة، وإن كان النيسابورى يتفوق على ابن المعتز فى عدد من ترجم لهم تفوقا كبيرا، وبخاصة من لم يعرف لهم اسما مكتفيا بالإشارة إلى أنه مجنون وأنها مجنونة، وهم كثيرون. كما خصص لهم الإربلى بابا فى كتابه: "المذاكرة فى ألقاب الشعراء". وفى "الأغانى" ترجمة لبعضهم، ومثل ذلك موجود فى كتاب "الأذكياء" لابن الجوزى، و"الوافى بالوفيات" لصلاح الدين الصفدى، و"فوات الوفيات" لابن شاكر. ولم يمر أمرهم على الجاحظ بل عد منهم فى باب "النَّوْكَى" من "البيان والتبيين" جعيفران وأبا حية النمرى، وأورد شيئا من أشعار كل منهما. ونفسَ الشىء قل فى ابن عبد ربه، فقد تحدث عن بعضهم فى "العقد الفريد" مع الاستشهاد بأشعار من ذكرهم. وهذه مجرد أمثلة، وإلا فالكتب التى تهتم بهم كثيرة، وتلك التى تورد شواهد من أشعارهم أكثر وأكثر. وكثيرا ما أبرز المتحدثون عنهم تعقلهم بل ومجاوزتهم للعقلاء فى نظم الشعر وفهم الحياة وتحليل النفوس وصدق الحكم ونجاعة النصيحة.

وننقل ما كتبه ابن المعتز فى "طبقات الشعراء" عن جعيفران الموسوس. قال: "حدثني أحمد بن إبراهيم القُمّي عن أحمد بن يوسف الكاتب قال: كنت عند أبي دُلَف إذ دخل آذِنُه فقال: جعيفران الموسوس بالباب. فقال أبو دلف: وما لنا وللمجانين؟ أَوَقَدْ فرغنا من الأصحاء؟ قال أحمد: فقلت: هو والله ظريف حلو الشعر. قال: فليدخل إذن. فدخل، ولما وقف بين يديه أنشأ يقول:

يا أكـــرم الأمـــة موجـــودا	وأفجـــع الأمـــة مفقـــودا
لمـا سـألتُ النـاسَ عـن واحـدٍ	أصـــبح في العـــالم محمـــودا
قـــالوا جميعـــاً: إنـــه قاســـمٌ	أشـــبهَ آباءً لـــه صِـــيدا

قال أحمد: فنظر إليَّ أبو دلف وقال: صدقت والله. ليت أصحاب الشعر قالوا مثل هذا. فأمر له بألف درهم وخلعة. قال جعيفران: أما الخلعة فأخرج بها، وأما الألف فتأمر القهرمان أن يعطيني كلما جئت خمسة، فإني أخاف أن يُسْرَق مني أو أطرحه. قال: يا فلان،

اقبِض من الخازن ألفاً، وادفع إليه كلما جاءك خمسة، فإذا نَفِد الألفُ فاقبض مثله وأَجْرِه على الرسم في الخمسة التي يأخذها كلما جاءك، لا تقطعها عنه حتى يقطع بيننا وبينه الموت، فنظر إلى أحمد فقال:

يمــوت هـــذا الفـــتى تـــراه وكـــل شـــيء لـــه نفـــادُ
لـــو كـــان شـــيء لـــه خلـــود خُلِّـــدَ ذا المُفْـــضِل الجـــواد

قال: فأُعجب أبو دلف بقوله وقال لأحمد بن يوسف: أنت كنت أعرفَ بصاحبك.
قال: ووقف جعيفران يوماً بالكوفة ونادى: أضيفونا. فلم يُجِبْه أحد، قال: فأخرج خمسة دراهم وقال لرجل: ابتع لي تمراً وهات لي جرة ماء وباريَّة. ففعل الرجل، فقال له: ابسط البارية واطرح عليها التمر وضع الماء. ونادى جعيفران يقول: يا أهل الكوفة، سألتكم القِرى فلم تَقْرُوني. فهلموا الآن فاطْعَموا.، وأنشأ جعيفران يقول:

لـــو نازل الله خلقـــاً في بريتـــه نازلـــت ربيَ في الخلـــق الـــذين أرى
وقلـــت مـــن عجـــبي ممـــا أرى بهمُـــو: لأي شـــيء، إلهـــي، يـــصلحون أُولَا؟"

ومن "عقلاء المجانين" للنيسابورى نقتبس هذه السطور، وهى عن بكار العريان: "قال أبو يعقوب السوسي: رأيت ببلد مجنوناً يقال له: بكار العريان، على سوأته خرقة، وبيده قصبة على رأسها كالعلم، وهو يعدو ويقول :

كفـــى حـــزناً أني مقـــيم ببلـــدة أحبـــاي عنهـــا نازحـــون بعيـــدُ
أقلـــب طـــرفي في الـــبلاد ولا أرى وجـــوه أحبـــائي الـــذين أُريـــدُ

قال: قلت: ومن أحباؤك؟ فأخذ بيدي وأدخلني المقابر وأشار إليها، وقال: هؤلاء".

وعندنا الخارجون المتمردون على الدين ومواضعات الناس. ومنهم أبو دلامة، الذى كتب عنه صاحب "الأغانى": "هو مولى لبني أسد، وكان فاسد الدين متهتكاً... وهو كوفي أسود... كان أبوه عبداً لرجل منهم يقال له: فضافض، فأعتقه. وأدرك آخر أيام بني أمية، ولم يكن له في أيامهم نباهة، ونبغ في أيام بني العباس، وانقطع إلى أبي عباس وأبي جعفر المنصور والمهديّ، فكانوا يقدمونه ويَصِلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره. وقد كان انقطع إلى رَوْح بن حاتم المهلبي أيضاً في بعض أيامه. ولم يصل إلى أحدٍ من الشعراء ما وصل إلى أبي دلامة من المنصور

خاصةً. وكان فاسد الدين، رديء المذهب، مرتكباً للمحارم، مضيعاً للفروض، مجاهراً بذلك، وكان يعلم هذا منه ويعرف به، فيتجافى عنه للطف محله".

وروى أبو الفرج عنه أيضا "أن أبا جعفر كان يحب العبث بأبي دلامة. وقال الآخر: إن أبا العباس السفاح كان يحب ذلك، فكان يسأل عنه، فيوجد في بيوت الخمارين لا فضل فيه. فعاتبه على انقطاعه عنه، فقال: إنما أفعل ذلك خوفاً أن تملَّني. فعلم أنه يحاجزه، فأمر الربيع أن يوكِّل به من يُحْضِره الصلوات معه في جماعةٍ في الدار. فلما طال ذلك عليه قال:

ألم تـــريا أن الخليفـــة لَـــزَّني | بمـسجده والقـصر؟ مـا لي وللقـصرِ؟
فقـد صـدني عـن مـسجدٍ أسـتلذّه | أُعَلَّـل فيـه بالـسماع وبالخمـرِ
وكلَّفـني الأولى جميعـاً وعَـصْرَها | فـوَيْلي مـن الأول، وعَـوْلي مـن العـصرِ
أصـلّيهما بالكَـرْه في غـير مـسجدي | فما لي من الأولى ولا العصر من أجرِ
يكلفـني مـن بعـد مـا شـبتُ توبـةً | يحـط بهـا عـني المثاقيـل مـن وزري
لقـد كـان في قـومي مـساجد جمـةٌ | ولم ينـشرح يومـاً لغـشيانها صـدري
ووالله مـا لي نيـةٌ في صـلاته | ولا البر والإحسان والخير من أمري
ومـا ضَـرَّه، والله يغفـر ذنبـه، | لَـوَ انَّ ذنـوب العـالمين علـى ظهـري

... وأُهْدِيَ للمهدي فيلٌ، فرآه أبو دلامة فولى هارباً وقال:

يا قـوم، إني رأيـت الفيـل بعـدكمو | لا بارك الله لي في رؤيـة الفيـلِ
أبـصرت قـصراً لـه عـينٌ يقلبهـا | فكـدت أرمـي بـسَلْحِي في سـراويلي"

ولأبى الشمقمق أشعار بذيئة شديدة البذاءة كهجائه لبشار. وفى وصف بيته وفقره المدقع يقول:

أخـذ الفـأرُ برجلـي | جفلـوا منهـا خِفَـافِي
وسـراويلاتِ سـوء | وتبـابينَ ضـعافِ
درجـوا حـولي بـزفن | وبـضربٍ بالـدفافِ
سـاعةً ثمـتَ جـازوا | عـن هـوايَ في خـلافِ

نقـــــروا اســـــتي وباتـــــوا دون أهلـــــي في لحـــــافِي

لعقـــــوا اســـــتي وقـــــالوا ريـــــحُ مِـــــسك بـــــسلاَفِ

صـــــفعوا نازويـــــه حـــــتى إســـــتهلَّت بالرُّعـــــافِ

حتى الشعراء الكبار، حين يهجون من لا يعطيهم من ممدوحيهم ما يريدون أو يتهاجون فيما بينهم، لا يوقرون شيئا، بل ينقضّون على أعراضهم يَفْرُونها فَرْيًا. ويمكن القارئ الرجوع إلى أهاجى بشار وأبى نواس وابن الرومى مثلا، ولسوف يجد نتنا ساطعا لا يطاق. وقال صلاح الدين الصفدى فى "الوفيات" فى ترجمة ابن سكرة: "ابن سكرة الهاشمي مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد أبو الحسن الهاشمي ابن سكرة الأديب، بغدادي من ذرية المنصور، كان متسع الباع في أنواع الأدب فائق الشعر لا سيما في المجون والسخف. كان يقال ببغداد: إن زماناً جاد بمثل ابن حجاج وابن سكرة لسخيٌّ جدا، وقد شُبِّها بالفرزدق وجرير. وقيل إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت شعر. كتب إلى ابن العصب الأشناني البغدادي:

يا صـــــديقاً أفادنيـــــه زمـــــان فيـــه ضـــيقٌ بالأصـــدقاء وشُـــحُّ

بين شخصي وبين شخصك بعد غـــير أن الخيـــال بالوصـــل سمـــح

إنمـــا أوجـــب التباعـــد منـــا أنـــني ســـكرٌ وأنـــك ملـــحُ

... وقال:

قيـــل: مـــا أعـــددت للـــبر د، فقـــد جـــاء بـــشدهْ؟

قلـــت: دراعـــة عـــري تحتهـــا جبـــة رعـــدهْ

وينسب إليه وهو لطيف جداً:

نـــــــــــزلتي، بالله زولي وانـــــزلي غـــــير لهـــــاتي

واتركـــــي حلقـــــي بحقـــــي فهـــــو دهليـــــز حيـــــاتي

... وقد اشتهر كثيراً، ونظم الناس على هذا الأسلوب كثيراً... توفي ابن سكرة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة".

وهناك ابن حجاج، الذى وُصِف فى "الإمتاع والمؤانسة" بأنه "سخيف الطريقة بعيدٌ من الجد، قريبٌ في الهزل، ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال، على أنه قويم اللفظ، سهل الكلام، وشمائله نائيةٌ بالوقار عن عادته الجارية في الخسار. وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة. وإذا جد أقعى، وإذا هزل حكى الأفعى. وله مع ذي الكفايتين مناظرة طيبة. قال: ما هي؟ قلت: لما ورد ذو الكفايتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أفتكين، وكان من الحديث ما هو مشهور، سأل عن ابن حجاج، وكان متشوقاً له لما كان يُقْرَأ عليه من قوافيه، فأحب أن يلقاه، لأنه ليس الخبر كالمعاينة، والمسموع والْمُبْصَر كالأنثى والذكر: ينزع كل واحد منهما إلى تمامه. فلما حضره أبو عبد الله احتبسه للطعام، وسمع كلامه، وشاهد سَمْتَه، واستحلى شمائله، فقام من مجلسه. فلما خلا به قال: يا أبا عبد الله، لقد والله تمت عجباً منك، فأما عجبي بك فقد تقدم. لقد كنت أفلي ديوانك، فأتمنى لقاءك، وأقول: من صاحب هذا الكلام، أطيش طائش، وأخفّ خفيف، وأغرم غارم. وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب؟ حتى شاهدتك الآن، فتهالكت على وقارك وسكون أطرافك، وسكوت لفظك، وتناسب حركاتك، وفرط حيائك وناضر ماء وجهك، وتعادل كلك وبعضك؛ وإنك لمن عجائب خلق الله وطرف عباده. والله ما يصدِّق واحد أنك صاحب ديوانك، وأن ذلك الديوان لك، مع هذا التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدك. فقال أبو عبد الله: أيها الأستاذ، وكان عجبي منك دون عجبك مني، لو تقارعنا على هذا لفلجتُ عليك بالتعجب منك. قال: لأني قلت: إذا ورد الأستاذ فسألقى منه خلقاً جافياً وفظاً غليظاً وصاحب رواسير وآكل كوامخ وجبلياً ديلمياً متكائباً متعاظماً، حتى رأيتك الآن وأنت ألطف من الهواء، وأرق من الماء، وأغزل من جميل بن معمر، وأعذب من الحيا، وأرزن من الطود، وأغزر من البحر، وأبهى من القمر، وأندى من الغيث، وأشجع من الليث، وأنطق من سَحْبان، وأندى من الغمام، وأنفذ من السهام، وأكبر من جميع الأنام. فقال أبو الفتح وتبسم: هذا أيضاً من ودائع فضلك، وبواعث تفضلك. ووصله وصرفه".

ومن شعره يهدد العالم اللغوى الشهير ثعلبا:

إن عـــاب ثعلـــب شـــعري أو عـــاب خفـــة روحـــي
خريـــــت في باب "أفعـــــل ت" مـــن كتـــاب الفـــصيحِ

ومنه:

فأصـــبح الـــدهر بـــه هيـــضة فـنحن غرقـى في خـرا الـدهر

... وله:

بالله يا أحمـــــد بـــــن عمـــــرو أتعـــرف النـــاس مثـــل شـــعري؟
شـــعرٌ يفـــيض الكنيـــف منـــه مـــن جـــانبيّ خـــاطري ونحـــري
نـــــسيمه منـــــتن المعـــــاني كأنـــــه فلتـــــة بجحـــــر
لـــو جـــد شـــعري رأيـــتَ فيـــه كواكـــب الليـــل كيـــف تـــسري
وإنمـــــا هزلـــــه مجـــــونٌ يمـــشي بـــه في المعـــاش أمـــري

... وقال:

وشـــعري ســـخفه لا بـــد منـــه فقـــد طبنـــا وزال الإحتـــشامُ
وهـــل دارٌ تكـــون بـــلا كنيـــفٍ فـــيمكن عـــاقلاً فيهـــا المقـــام؟

وقال الصفدى فى ترجمة شاعرنا بـ"الوافى بالوفيات": "جمع أخبارَه أبو بكر محمَّد بن عبد الله بن حمدون في مجلدة ذكر في أولها قال: حدثني صديقٌ لي قال: رأيت عند بعض الوراقين جزءاً من هذا الشعر، فيه خمسون ورقة، فسألته أن يبيعنيه بما شاء، فامتنع، وقال لي: هذا الجزء في دكاني بمنزلة جارية طيبة الغناء، مليحة الوجه في القيان، يكتريه حرفاء لي مُجّانٌ طيابٌ، إذا اجتمعوا للشرب، بأجرة قد اتفقنا عليها، فأستثني عليهم بعد الأجرة أن يتنقصوا لي من مأكلهم ومشروبهم وفاكهتهم بما يُحْمَل إليَّ مع الجزء إذا ردوه...

ومن معاني ابن حجاج الغريبة:

ورقيـــعٍ أراد أن يعـــرف الـــنح و بـــزي العيَّـــار لا المـــستفتي
قال لي: لست تعرف النحو مثلي قلت: سلني عنه أُجِبْ في الوقتِ
قـال: مـا المبتـدا؟ ومـا الخـبر المجـ رور؟ أخبر. فقلت: ذقنك في استي

... ومنه:

شـعري الـذي أصـبحت مـن   هـ فـضيحةً بـين المـلا
لا يـستجيب لخـاطري   إلا إذا دخـل الخـلا

ومنه:

قيـل إن الـوزير قـد قـال شـعراً   يجمـع الجهـل شملـه ويعمُّـه
ثم أخفـاه، فهـو كـالهرِّ يخـرا   في زوايا البيـوت ثم يَطُمُّـه"

ومن شعراء السخف الضاحك المضحك أبو الرَّقَعْمَق. ومن شعره:

كتـبَ الحـصيرُ إلى الـسريرِ   أن الفـصيلَ ابـنُ البعـيرِ
فلأمـنعنَّ حِمَـارَتي   سـنتين مـن أكـل الـشعيرِ
لاهُـمَّ إلا أنْ تَطِـي   رَ مـن الهُـزَال مـع الطيـور
ولأخبرَنَّـكَ قـصتي   فلقـدْ سـقطتَ علـى الخبـيرِ
إنّ الـذين تـصافَعُوا   بالقـرعِ في زَمـن القـشُورِ
أسِـفوا عَلَـيَّ لأنهـمْ   حـضروا ولم أكُ في الحـضورِ
لَـوْ كنـتُ ثمّ لقيـل: هَـلْ   مـنْ آخـذٍ بيـدِ الـضريرِ؟
ولقـد دخلـت علـى الـصدي   ق البيـت في اليـوم المطـيرِ
متـشمراً متبخـتراً   للـصفع بالـدَّلوِ الكبـيرِ
فـأدرت حـين تبـادروا   دلـوي فكـان علـى المـديرِ
يا للرجـالِ! تَـصَافعوا   فالـصفعُ مفتـاحُ الـسرورِ
هـو في المجـالس كـالبَخُو   ر وكالقلائـدِ في النحـورِ

... وكانت وفاته سنة تسع وتسعين وثلثمائة".

وممن جرى على نهجه فى نظم الشعر ابن مكنسة. قال فى وصف بيته الضيق:

لِيَ بَيْـتٌ كأنَّـهُ بيـتُ شِـعْرٍ   لابـن حجَّـاجَ مـن قـصيدٍ سـخيفِ

ضـــايقتني بنـــاتُ وِرْدان حـــتى | أنا فيـــه كفَـــارةٍ في كنيـــفِ
أيـــن للعنكبـــوتِ بَيْـــتٌ ضـــعيفٌ | مثلـه، وهـو مثـلُ عقلـي الـضعيف؟
وإذا هـــبَّ فيـــه ريـــحُ الـــسراويلِ | فَـــسَلِّمْ علـــى اللِّحَـــى والأنـــوف
بُقْعَـــةٌ صَـــدَّ مطلـــعُ الـــشمس عنهـــا | فـــأنا مُـــذْ سَـــكَنْتُهَا في الكـــسوف
وهْـو لـو كـان بـين حجِّـي وَنُـسْكِي | صـــدَّ في بغـــضهِ عـــن التَّطْوِيـــف

وقال يهجو شخصا:

تـــشابها: سُـــرْمُه وفُـــوه | فى الوُسْـع والنـتن والـبرودة

وهناك ابن دانيال، وشعره يسير هذا المسير:

لـــك أشـــكو مـــن زوجـــة صـــيرتني | غائبًـــا بـــين ســـائر الحـــضّارِ
غيبتْـــني عـــني بمـــا أطعمتـــني | فـــأنا الـــدهرَ مُفْكِـــرٌ في انتظـــارِ
غبـــت حـــتى لَـــوَ انَّهـــم صـــفعوني | قلـت: كُفُّـوا بالله عـن صـفع جـاري!

... وله كذلك :

أصـبحت أفقـر مـن يـروح ويغتـدي | مـا في يـدي مـن فاقـة إلا يـدي
في منـــزل لم يحـــوِ غـــيري قاعـــدًا | فـإذا رقـدتُ رقـدت غـير ممـدَّدِ
لم يبـق فيـه سـوى رسـومِ حـصيرة | ومخـــدة كانـــت لأم المهتـــدي
ملقـــى علـــى طرَّاحـــة في حـــشوها | قمـــلٌ كمثـــل السمـــسم المتبـــددِ
والفـــار يـــركض كـــالخيول تـــسابقت | مـــن كـــل جـــرداء الأديم وأَجـــردِ
هـــذا، ولي ثـــوب تـــراه مرقعًـــا | مـن كـل لـون مثـل ريـش الهدهـدِ"

ومن الشعر الخالى من المضمون إرادة الإضحاك قولُ ابن سودون:

كأنّنـــا، والمـــاءُ مِـــن حَولِنـــا، | قَـــومٌ جُلـــوسٌ حَـــولهم مـــاءُ
الأرضُ أرضٌ، والـــسَّماءُ سمـــاءٌ | والمـــاءُ مـــاءٌ، والهَـــواءُ هـــواءُ
ويقـــال إنَّ النـــاسَ تَنطِـــقُ مِثلَنـــا | أمـــا الخِـــرافُ فَقَولُهـــا مأمـــاءُ
كُـلُّ الرجـالِ علـى العُمـومِ مُـذَكَّرٌ | أمـــا النِـــساءُ فَكُلّهـــن نِـــساءُ

المـيمُ غَـيرُ الجـيمِ جـاءَ مُـصَحَفّا وإذا كَتَبْـتَ الحـاءَ فهـي الحـاءُ
مـالي أرى الـثُقَلاء تُكـرَهُ دائمـاً؟ لا شَـكَّ عِنـدي أَنَّهـم ثُقـلاءُ

وله أيضا:

البحـر بحـرٌ، والنخيـل نخيـلُ والفيـل فيـلٌ، والـزراف طويـلُ
والأرض أرض، والـسماء خلافهـا والطـير فيمـا بـين بـين يجـولُ
وإذا تعاصـفت الـرياح بروضـة فـالأرض تثبـت، والغـصون تميـلُ
والمـاء يمـشي فـوق رمـل قاعـدٍ ويُـرَى لـه مهمـا مـشى سـيلولُ
مَـن ظـنّ أن المـاء يُـشبع جوعـه هـذا، لَعَمْـرِي، ذاهـل بهلـولُ
لكـنّ مَـن قـد عـام فيـه بثوبـه تلقـاه بُـلَّ، وثوبـه مبلـول

وله أيضا:

إذا مـا الفـتى في النـاس بالعقـل قـد سمـا تـيقّن أن الأرض مـن فوقهـا الـسما
وأن الـسما مـن تحتهـا الأرض لم تـزل وبينهمـا أشـيا مـتى ظهـرت تُـرى
وإني سـأبدي بعـضَ مـا قـد علمتـه لـيعلم أني مـن ذوي العلـم والحِجَـى
فمـن ذاك أن النـاس مـن نـسل آدم ومـنهم أبي سـودونُ أيـضاً ولـو مـضى
وأن أبي زوْجٌ لأمـي وأنـني أنا ابنهمـا، والنـاس هـم يعرفـون ذا
وكـم عجـب عنـدي بمـصر وغيرهـا فمـصر بها نيـل علـى الطـين قـد جـرى
وفى نيلهـا مـن نام في الليـل بَلَّـهُ وليست تبلّ الشمس من نام في الضحى
وفي الـشام أقـوام إذا مـا رأيـتهم تـرى ظهـر كـل مـنهم وهـو مـن ورا
وتـسخن فيهـا النـار في الـصيف دائمـاً ويـبرد فيهـا المـاء في زمـن الـشتا

وقد نعته ابن العماد بـ"الإمام العلامة"، وقال ابن حجر: شارك مشاركة جيدة فى فنون، وحج مرارا، وسافر فى بعض الغزوات، وأَمَّ ببعض المساجد، ولكنه سلك فى شعره طريقة هى غاية فى المجون والهزل والخلاعة، فراج أمره فيها جدا. ورحل إلى دمشق فتعاطى بها "خيال

الظل" ومات بها. له كتبٌ منها "نزهة النفوس ومضحك العبوس"، و"قرة الناظر ونزهة الخاطر" ومقامتان".

ومن نثره الهازل كشعره قوله: "كنت وأنا صغير بليداً لا أصيب في مقال، ولا أفهم ما يقال. فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بامرأة كانت أبعد منى ذهناً، إلا أنها أكبر منى سنّا. وما مضت مدة طويلة حتى ولدتْ والتمستْ منى طعاماً حارًّا. فتناولت الصحفة مكشوفة. ورجعت إلى المنزل آخذ المكبَّة، والمكبة هى غطاء الصحفة، فنسيت الصحفة. فلما كنت في السوق تذكرت ذلك فرجعت وأخذت الصحفة، ونسيت المكبة. وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى. ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس، فقلت: لا أشترى لها في هذه الليلة شيئاً وأدعها تموت جوعاً. ثم رجعت إليها وهى تئن، وإذا ولدها يستغيث جوعاً. فتفكرت كيف أربيه، وتحيرت في ذلك. ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب، ثم يأتى ويقذفه في فم ابنه، وتكون حياته بذلك. فقلت: لا والله لا أكون أعجز من الحَمَام، ولا أدع ولدى يذوق كأس الحِمَام. ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز فجعلته في فمى، ونفخته في فمه فرادى وأزواجاً، أفواجاً أفواجاً، حتى امتلأ جوفه وصار فمه لا يسع شيئاً، وصار الجوز واللوز يتناثران من أشداقه حتى امتلأ، فسررت بذلك وقلت: لعله قد استراح. ثم نظرت إليه، وإذا به هو قد مات. فحسدته على ذلك وقلت: يا بنى، إنه قد انحط سعد أمك، وسعدك قد ارتفع، لأنها ماتت جوعاً، وأنت متَّ من الشبع! وتركتهما ميتين ومضيت آتيهما بالكفن والحَنُوط. ولما رجعتُ لم أعرف طريق المنزل. وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا".

وأما بالنسبة إلى النكت، وكانوا يسمونها: "النادرة"، فيقول الجاحظ عنها واصفا مشاعره تجاهها، وموضحا الأسلوب الذى ينبغى التزامه فى روايتها حتى تكون مضحكة: "إنّه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتَعُ ولا آنَق ولا ألذُّ في الأسماع ولا أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفَتَقُ لِلّسان ولا أجودُ تقويماً للبيان مِن طول استماعِ حديثِ الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماءِ البلغاء. وقد أصابَ القومُ في عَامَّة ما وَصَفوا، إلاّ أَنيّ أزعمُ أنّ سخيفَ الألفاظ مشاكلٌ لسخيف المعاني. وقد يُحْتَاج إلى السَّخيف في بعض المواضع، ورُبّما أمتَعَ بأكثَرَ من إمتاع الجزْلِ الفخم من الألفاظ، والشريفِ الكريم من المعاني. كما أنّ النادرةَ الباردة جِدّاً قد

تكون أطيَبَ من النادرة الحارَّة جدّاً، وإنما الكَرْبُ الذي يَخْتِم على القلوب ويأخذُ بالأنفاس، النادرةُ الفاترة التي لا هي حارّةٌ ولا باردة، وكذلك الشِّعر الوسَط والغِناء الوسط. وإنّما الشّأن في الحارّ جدّاً والباردِ جدّاً. وكان محمّد بن عبّاد بن كاسب يقول: واللهِ لَفلانٌ أثقل من مُغنٍّ وسط، وأبغضُ من ظريفٍ وسَط. ومتى سمعتَ، حفِظك اللّه، بنادرةٍ من كلام الأعراب فإيّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارجِ ألفاظها. فإنَّك إنْ غيَّرتَها بأن تلحَنَ في إعرابها وأخرجْتَها مخارجَ كلام المولّدين والبلديّين خرجْتَ من تلك الحكايةِ وعليك فضلٌ كبير. وكذلك إذا سمِعتَ بنادرةٍ من نوادر العوامّ، ومُلْحة من مُلَح الحُشْوَة والطَّغام، فإيَّاكَ وأن تستعمِلَ فيها الإعراب أو تتخيَّرَ لها لفظاً حسناً أو تجعل لها مِن فيك مخرجاً سَرِيًّا، فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها، ويُخرجها من صورتها ومِن الذي أُرِيدَت له، ويُذهب استطابَتهم إياها واستملاحَهم لها".

كما أورد أبو عثمان فى كتبه طائفة من النكت أو النوادر. ومما التقطناه من "البيان والتبيين" ما يلى: "قال رجلٌ من النُّسَّاك لصاحبٍ له: ما لي أراك حزيناً؟ قال: كان عندي يَتِيمٌ أربّيه لأُوجَر فيه، فمات وانقطع عنا أجْرُه، إذْ بطَلَ قيامُنا بمؤُونته. فقال له صاحبُه: فاجتلِبْ يتيماً آخر يَقوم لك مَقام الأوّل. قال: أخاف ألاّ أصيبَ يتيماً في سوء خُلُقه. قال له صاحبه: أمّا أنا فلو كنتُ في موضعك منه لما ذكرت سوءَ خُلُقه. وقال آخر، وسمعه أبو هريرة النحويّ وهو يقول: ما يمنعُني مِن تعلُّم القرآن إلاّ أني أخاف أَنْ أُضَيّعه. قال: أمّا أنت فقد عجّلت له التَّضييع. ولعلّك إذا تعلّمْتَه لم تضيّعه... قال أبو الحسن: أراد رجلٌ أن يكذِّب بلالاً، فقال له يوماً: يا بلالُ، ما سِنُّ فرسك؟ قال: عَظْم. قال: فكيف جَرْيُه؟ قال: يُحْضِر ما استطاع. قال: فأين تنزِل؟ قال: موضعاً أضَعُ فيه رِجْلي. فقال له الرّجل: لا أتعنَّتُك أبداً. قال: ودخل رجلٌ على شُرَيْحٍ القاضي يخاصم امرأةً له، فقال: السّلامُ عليكم. قال: وعليكم. قال: إنِّي رجلٌ من أهل الشام. قال: بعيد سَحيق. قال: وإنِّي قدِمت إلى بلدكم هذا. قال: خَيْر مَقْدَم. قال: وإنِّي تزوجت امرأة. قال: بالرِّفاء والبنين. قال: وإنّها ولدَتْ غلاماً. قال: ليَهْنِئْك الفارس. قال: وقد كنتُ شَرَطتُ لها صَداقَها. قال: الشرط أمْلَك. قال: وقد أردت الخروجَ بها إلى بلدي. قال: الرجل أحقُّ بأهله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت".

ونقلا عن "محاضرات الأدباء"، والكلام للجاحظ: "استأجر رجل حمّالا يحمل له قفصا فيه قوارير على أن يعلمه ثلاث خصال ينتفع بها. فحمل الحمال القفص، فلما بلغ ثلث الطريق قال: هات الخصلة الأولى. فقال: من قال لك إن الجوع خيرٌ من الشبع فلا تصدقه. فقال: نعم. فلما بلغ ثلثي الطريق قال: هات الثانية. فقال: من قال لك إن المشي خير من الركوب فلا تصدقه. فقال: نعم. فلما انتهى إلى باب الدار قال: هات الثالثة. فقال:من قال لك إنه وجد حمّالا أرخص منك فلا تصدقه. فرمى الحمّال القفصَ على الارض وقال: من قال لك: في هذا القفص قارورة صحيحة فلا تصدّقه.

قال الجاحظ: كنتُ جالساً عند أحد الورّاقين ببغدادَ، فاقترب منّي أبو العبّاس أحمد بن يحيى، وكان من أئمة النحو في عصره، فسألني: الظبي معرفة أم نكرة؟ فقلتُ: إن كان مشويّاً على المائدة فهو معرفة، وإن كان في الصحراء فهو نكرة. فقال أبو العبّاس: ما في الدنيا أعرَفَ منك بالنحْو.

ومن "البخلاء": بينما الشيخ الخراسانيُّ يأكل في بعض المواضعِ إذ مرَّ بهِ رجل فسلَّم، فردَّ عليه السلام، فقال: هلمَّ عافاك الله. فلمّا نظر إلى الرجلِ قد انثنى راجعا يريدُ أن يطفرَ الجدولَ أو يُعدِّي النهرَ قال له: مكانَكَ! فإنَّ العجلةَ من عملِ الشيطان. فوقف الرجلُ، فأقبل عليه الخرَسانيُّ وقال: تريدُ ماذا؟ قال: أريدُ أن أتغدّى. قال: ولِمَ ذاك؟ وكيف طَمِعْتَ في هذا؟ ومنْ أباحَ لكَ مالي؟ قال الرجل: أو ليسَ قدْ دعوتَني؟ قال: ويلكَ! لو ظننْتُ أنك أحمقُ هكذا ما رددْتُ عليكَ السلام. الآيينُ فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالسَ وأنتَ المارَّ أنْ تبدأ أنتَ فتُسلِّم، فأقول أنا حينئذٍ مُجيباً لكَ: وعليكم السلامُ. فإن كنتَ لا آكلُ شيئا سكتُّ أنا وسكتَّ أنتَ، ومضيتَ أنتَ وقعدتُ أنا على حالي. وإن كنتُ آكلُ فها هنا آيينٌ آخَرُ هو أن أبدأُ أنا فأقول: "هلُمَّ"، وتُجيبُ أنتَ فتقول: "هنيئاً"، فيكونُ كلامُ بكلامٍ، فأما كلامُ بفِعالٍ وقولٌ بأَكْلٍ فهذا ليسَ من الإنصافِ. وهذا يُخرجُ علينا فضلا كبيرا. قال: فَوَرَدَ على الرجلِ شيْءٌ لم يكن في حسابه. فشُهِرَ بذلك في تلك الناحية، وقيل لهُ: قد أُعْفِينا من السلامِ ومن تكلُّفِ الرد. قال: ما بي إلى ذلك حاجةٌ. إنما هو أن أُعفي أنا نفسي من "هلُمَّ"، وقد استقام الأمرُ.

وقال الجاحظ: جاءني يوماً بعض الثقلاء فقال: سمعت أن لك ألف جواب مسكت، فعلمني منها. فقلت: نعم. فقال: إذا قال لي شخص: يا جاهل! يا ثقيل الروح، أي شيء أقول له؟ فقلت: قل له: صدقت!... قال بعضهم: رأيت معلما وهو يصلي العصر، فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون وقال: يا ابن البقال، قد رأيتُ الذي عملتَ، وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة".

ومن "محاضرات الأدباء" للراغب الأصفهاني من نوادر من سُرِق منه شيء: "سُرِق لرجل درهم، فقيل له: إنه في ميزانك. فقال: قد سُرِق مع الميزان... وسئل بعضهم: إلى أين؟ فقال: إلى الكناسة لأشتري حماراً. فقال له رجل: قل إن شاء الله. فقال: وما وجه الاستثناء؟ الدراهم في كمي، والحمير في الكناسة. فلما ذهب سُرِقَتْ منه الدراهم، فعاد فقيل له: ما الذي فعلت؟ قال: سُرِقت الدراهم إن شاء الله!

... وسرق بعضهم حماراً وذهب ليبيعه فسرق منه. فقيل: بكم بعته؟ فقال: برأس المال".

ومن "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزى: "فمنهم هَبَنَّقَة... ومن حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف وقال: أخشى أن أضل نفسي ففعلت ذلك لأعرفها به. فحُوِّلَت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه، فلما أصبح قال: يا أخي، أنت أنا. فمن أنا؟

... قال رجل لجحا: سمعت من داركم صراخاً. قال: سقط قميصي من فوق. قال: وإذا سقط من فوق؟ قال: يا أحمق، لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه؟

... ومات جار له، فأرسل إلى الحفار ليحفر له، فجرى بينهما لجاج في أجرة الحفر، فمضى جحا إلى السوق واشترى خشبة بدرهمين وجاء بها، فسئل عنها فقال: إن الحفار لا يحفر بأقل من خمسة دراهم، وقد اشترينا هذه الخشبة بدرهمين لنصلبه عليها ونربح ثلاثة دراهم ويستريح من ضغطة القبر ومسألة منكر ونكير.

وحكي أن جحا تبخر يوماً، فاحترقت ثيابه، فغضب وقال: والله لا تبخرت إلا عرياناً.

وهبت يوماً ريحٌ شديدةٌ فأقبل الناس يدعون الله ويتوبون، فصاح جحا: يا قوم، لا تعجلوا بالتوبة، وإنما هي زوبعة وتسكن.

واشترى يوماً دقيقاً وحمله على حمال، فهرب بالدقيق، فلما كان بعد أيام رآه جحا فاستتر منه، فقيل له: ما لك فعلت هكذا؟ فقال: أخاف أن يطلب مني كراه.

ومات أبوه فقيل له: اذهب واشتر الكفن. فقال: أخاف أن أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.

قال بعض الولاة لكاتبه: اكتب إلى فلان وعَنِّفْه وقل له: بئس ما صنعت يا خرا! فقال الكاتب: أعزك الله لا يحسن هذا في المكاتبة. قال: صدقت. الحس موضع الخرا بلسانك.

طلّق رجلٌ امرأته، فقالت له: أبعد صحبة خمسين سنةً؟ قال: ما لك عندنا ذنبٌ غيره!".

ومن "التذكرة الحمدونية" لابن حمدون: "رفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغي الفرقة، وزعمت أنه كل ليلة يبول في الفراش، فقال الرجل: أصلحك الله! لا تعجل حتى أقص عليك قصتي: إني أرى في منامي كأني بجزيرة في البحر، وفيها قصر، وفوق القصر عِلِّيَّة، وفوق العلية قبة، وفوق القبة جمل، وأنا على ظهر الجمل، وإن الجمل يتطأطأ ليشرب من البحر. فإذا رأيت ذلك بُلْتُ فَرَقَاً. فبال القاضي وقال: يا هذه، أنا قد أخذني البول من هول حديثه، فكيف بمن رأى الأمر عياناً؟".

وقال ابن حمدون فى الباب الثامن والأربعين من نفس الكتاب عن النوادر وأهميتها فى حياة الإنسان: "النوادر رواحة، وبها للمكدود استراحة، لا سيما إذا أثقله عبء الجد، وعاد باحتماله كليل الحد. وهي صادرة عن مزح قد رُخِّص فيه، ودعابة لم يخل منها كل شريف ونبيه. ولا بأس بها ما لم تكن سفهاً، ولا غرو والله عز وجل قد وعد في اللمم بالتجاوز والعفو. كان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً. وقيل لسفيان: المزاح هُجْنَة؟ فقال: بل سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: إني لأمزح ولا أقول إلا الحق... ووجد ﷺ صُهَيْباً يوما وعينه تشتكي، فقال: يا صهيب، تأكل التمر على علة عينك؟ فقال يا رسول الله، إنما آكله من شقي الصحيح. فضحك ﷺ حتى بدت نواجذه. وأصبح ﷺ يوماً متغير الوجه، فقال بعض أصحابه: لأضحكنه. فقال: بأبي أنت وأمي بلغني أن الدجال يخرج، والناس جياع، فيدعوهم إلى الطعام. أفترى إن أدركته أن أضرب في ثريدته حتى إذا تضلعت آمنت بالله وكفرت به أم أتنزه عن

طعامه؟ فضحك ﷺ، وكان ضحكه التبسم، وقال: بل يغنيك الله تعالى يومئذ بما يغني المؤمنين. وقال ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقي زوجك، ففي عينه بياض. فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبةً، فقال لها: ما دهاك؟ قالت: إن النبي ﷺ قال لي إن في عينك بياضاً. قال الرجل: إن في عيني بياضاً لا لسوء. وأتته عجوز أنصارية فقالت يا رسول الله: ادع لي بالجنة، فقال لها: أما علمتِ أن الجنة لا يدخلها العُجُز؟ فصرخت، فتبسم ﷺ وقال لها: أما قرأت: "إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً * عُرُباً أتراباً"؟

... وكان نعيمان أحد الصحابة البدريين مَزَّاحاً. روي أنه خرج مع أبي بكر ﷺ فضحك، وكان في الجملة سويبط، وهو بدري أيضاً، وكان سويبط على الزاد، فقال نعيمان: أطعمني. فقال لا حتى يأتي أبو بكر. فقال نعيمان: والله لأغيظنك. وجاء إلى ناس جلبوا ظهراً، فقال: ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً، وهو دعَّاء له لسان لعله يقول: أنا حر. فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه. لا تفسدوا عليَّ غلامي. قالوا: بل نبتاعه منك بعشر قلائص. فأقبل بها يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال لهم: دونكم! هو هذا. فجاء القوم فقالوا: قد اشتريناك. فقال سويبط: هو كاذب. أنا رجل حر. قالوا: قد أخبرَنا خبرك. فوضعوا الحبل في عنقه وذهبوا به. فجاء أبو بكر ﷺ، فأُخْبِر بذلك، فذهب هو وأصحاب له فردوا القلائص، وأخبروا بذلك رسول الله ﷺ، فضحك منه حولاً. وأهدى نعيمان إلى النبي ﷺ جرة عسل اشتراها من أعرابي بدينار، وأتى بالأعرابي باب النبي ﷺ وقال: خذ الثمن من ههنا. فلما فتحها النبي ﷺ نادى الأعرابي: ألا أُعْطَى ثمن عسلي؟ فقال رسول الله ﷺ: إحدى هنات نعيمان. وسأله: لم فعلت هذا؟ قال: أردتُ بِرَّك، ولم يكن معي شيء. فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وأعطى الأعرابي حقه... ومر نعيمان يوماً بمخرمة بن نوفل الزبيري، وهو ضرير، فقال له: قدني حتى أبول. فأخذ بيده حتى إذا كان في مؤخر المسجد قال: اجلس، فجلس يبول. وصاح به الناس: يا أبا المسور، إنك في المسجد. فقال: من قادني؟ قيل: نعيمان. قال: لله عليَّ أن أضربه ضربةً بعصاي إن وجدته. فبلغ ذلك نعيمان، فجاء يوماً فقال: يا أبا المسور، هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: هو ذا يصلي. وجاء بيده وأتى به إلى عثمان وهو يصلي، فقال: هذا نعيمان. فعلاه بعصاه، وصاح به الناس: ضربت أمير المؤمنين. فقال: من

قادني؟ قال: نعيمان. قال: لا جَرَمَ لا عرضتُ له بشرٍّ أبداً... سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية فقال: خللها بأصابعك. فقال: أخاف ألا تبلها. قال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل. وسأله آخر: هل يجوز للمحرم أن يحك بدنه؟ قال: نعم. قال: مقدار كم؟ قال: حتى يبدو العظم... وجاء رجل إلى أبي حنيفة ﷺ فقال له: إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر لأغتسل فإلى القبلة أفضل أتوجه أم إلى غيرها؟ فقال له: الأفضل أن يكون وجهك إلى ثيابك التي تنزعها لئلا تسرق...".

ومن "المستطرف فى كل فن مستظرف" للأبشيهى: "حضر أعرابي مجلس قوم، فتذاكروا قيام الليل، فقيل له: يا أبا أمامة، أتقوم الليل؟ فقال: نعم، قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام... وصلى أعرابي مع قوم، فقرأ الإمام: "قل: أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا؟" فقال الأعرابي: أهلكك الله وحدك. إيش كان ذنب الذين معك؟ فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك.

وصلى أعرابي خلف إمام، فقرأ الإمام: "ألم نُهْلِك الأوَّلين؟" وكان في الصف الأول، فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: "ثم نُتْبِعهم الآخِرين؟" فتأخر، فقرأ: "كذلك نفعل بالمجرمين". وكان اسم البدوي مجرماً، فترك الصلاة وخرج هارباً، وهو يقول: والله ما المطلوب غيري. فوجده بعض الأعراب، فقال له: ما لك يا مجرم. فقال: إن الإمام أهلك الأولين والآخرين وأراد أن يهلكني في الجملة. والله لا رأيتُه بعد اليوم...

وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك! قال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصَيِّرْه في قشر بيض الذَّرّ واكتحل به ينفعك. فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية وقال: خذ هذه في لحيتك أجرةَ وصفتِك، وإن زدت زدناك".

ومن "نثر الدر" للآبى: "دعا بعضهم واحداً فأقعده إلى نصف النهار، وهو يتوقع المائدة ويتلظى جوعاً، فأخذ صاحب المنزل العود وقال: بحياتي أيَّ صوتٍ تشتهي؟ قال: صوت المقلى".

ومن "نوادر قراقوش"، وهى من صياغة السيوطى، الذى وصف قراقوش نائب صلاح الدين الأيوبى فى مصر بأنه رجل خيِّر، لكنه كان لا يستشير فيما يحكم به أحدا من العلماء، بل يصدر عن عقله كما يتراءى له: "كان قراقوش فى كل سنة يتصدق على الفقراء بمال جزيل، ففى بعض السنين جاءته امرأة وقالت له: إن زوجى قد مات، ولا كفن له، ولا مال عندى أكفِّنه منه، فأعطنى كفنه أو ثمنه. فقال لها: مال الصدقة السنوية قد فرغ. فلو جئتِ قبل فراغه كنتِ أخذتِ كفنه. فإذا جاء ميعاد الصدقة فى السنة الآتية فتعالَىْ نعطك كفنه أو ثمنه إن شاء الله تعالى. فقالت: وهل يقعد الميت سنة من غير تكفين ولا تلقين؟ فقال لها: الميت زوجك، والأمر لك. فإن شئت فادفنيه، وإن شئت فى بيتك خليه. فإن دفنتيه ريحتيه، وإن خليتيه تؤذيه. فقالت له: هذا شيء لا يجوز. فقال لها: وأنا ما كلفنى الله بإعطاء صدقة الزكاة لسنة جديدة لم يأت ميعادها، ولم يوجد عندى مالها. يا غلمان، أخرجوا هذه المرأة، فإنها قبيحة، وتحب الفضيحة، ولا تقبل النصيحة. قولوا لها: تدفنه بثيابه، وعند مجيء الوقت الذى نصرف فيه الصدقة تأخذ كفنه وتكفنه به فى قبره أو تلبسه هى بدلا عنه. وهذا آخر الكلام، والسلام".

وهذا ما قاله عن قراقوش صلاح الدين الصفدى فى ترجمته بكتابه: "أعيان العصر وأعوان النصر": "الأمير بهاء الدين. كان يقال إنه ظاهري، أتى إلى صفد أميراً على طبلخاناه، وكان عنده مماليك وخدام طواشية وأولاد ناس أتباع له ملاح. وأقام في صفد مدة مديدة... وكان فيه معرفة، وعنده مجلدات، ويستنسخ الكتب الأدبية وغيرها...". وذكر ابن كثير له فى "البداية والنهاية" إنجازات إدارية وعمرانية وسياسية وحربية عظيمة وأثنى عليه ثناء كبيرا. وقال عنه ابن خلكان: "وقد نُسِب إليه أحكام عجيبة حتى صنف بعضهم (يقصد ابن مماتى) جزءاً لطيفاً سماه كتاب "الفاشوش في أحكام قراقوش"، فذكر أشياء كثيرة جداً، وأظنها موضوعة عليه، فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه، فكيف يعتمد على من بهذه المثابة؟ والله أعلم". وهو نفس ما قاله ابن تغرى بردى عند الحديث عن وفاته فى كتاب "النجوم الزاهرة"، وصلاح الدين الصفدى فى ترجمته بـ"الوافى بالوفيات"، وابن العماد فى "شذرات الذهب" فى حوادث العام الذى توفى فيه.

وأنا أيضا أرى أن ما قيل فى حقه لا يدخل العقل إلا إذا كان صاحب العقل مجنونا رسميا. ثم إن رجلا له كل تلك الإنجازات العظيمة من عمرانية وسياسية وعسكرية وخيرية وغيرها لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه تلك الأقوال المنسوبة إليه ولا تلك الأعمال المعزوّة له مما أرى أن ابن مماتّى قد اخترعها اختراعا وقصد بها قصدا أن تضحك الناس منه وعليه حتى تنحط صورته فى أذهانهم، وهو ما كان. وهذا عجيب. بيد أن غايتنا هنا هى دراسة النكتة فى أدبنا وكيف كان لها شأنها حتى ليؤلف فيها كبار العلماء، ومنهم ابن مماتى، الذى لا أملك، وأنا أكتب هذه السطور، نفسى من الضحك إعجابا بحذقه وخبثه وبراعته فى تصوير الرجل على غير ما فيه ونجاحه الساحق فى نشر هذه الصورة المشوهة عبر الأزمان حتى ضُرِبَ به المثل فقيل فى كل حكم ظالم مدابر للمنطق والعقل: "ولا حكم قراقوش"! إنها نكت سياسية بامتياز.

وكما نرى فإن الأدب العربى القديم مملوء بالنوادر، التى نسميها نحن الآن: "نكتا"، وما سقناه هنا ليس إلا عينة صغيرة جدا مما يحويه أدبنا من كنوز فى هذا المجال. وقد وضع الكتبَ فيها بعضُ كبار العلماء كالجاحظ وابن الجوزى والآبى دون أن يجد أى منهم أى تحرج من إيراد أية نادرة مهما كان شأنها، ومهما كان موضوعها، ومهما كان ما تثيره من حساسية اجتماعية أو سياسية أو دينية، ومهما كان عريها، ومهما كان فحشها، ومهما كانت بذاءة ألفاظها. وفوق هذا فأدبنا القديم لم يكتف بذلك بل كان علماؤنا يفلسفون النادرة ويكتبون فى أهميتها وفى الطريقة التى ينبغى أن تُرْوَى بها، ويقسمونها أصنافا، ويناقشون موقف الدين منها وحاجة النفس إليها والمنبع الذى تأتى منه والأشخاص الذين يرونها شيئا لا يليق بذوى الوقار، وهو ما يدل على أن النوادر (أى "النكت" باصطلاح عصرنا) لم تكن شيئا هينا يُتَنَاوَل باستحقار واستصغار، بل كان العلماء يكتبون عنها بعلم وتحليل وتعمق وفلسفة كأى علم أو فن جادٍّ بل مُرّ الجِدّ.

ومن هذا ما فعله مثلا ابن الجوزى، وهو من هو، فى مقدمة كتابه: "أخبار الحمقى والمغفلين"، إذ قال: "لما شرعتُ في جمع أخبار الأذكياء وذكرت بعض المنقول عنهم ليكون مثالاً يُحْتَذَى لأن أخبار الشجعان تعلّم الشجاعة آثرتُ أن أجمع أخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة

أشياء: الأول أن العاقل إذا سمع أخبارهم عرف قدر ما وُهِب له مما حُرِموه، فحَثَّه ذلك على الشكر... والثاني أن ذكر المغفلين يحث المتيقظ على اتقاء أسباب الغفلة إذا كان ذلك داخلاً تحت الكَسْب، وعامله فيه الرياضة. وأما إذا كانت الغفلة مجبولةً في الطباع فإنها لا تكاد تقبل التغيير. والثالث أن يروّح الإنسان قلبَه بالنظر في سير هؤلاء المبخوسين حظوظاً يوم القسمة، فإن النفس قد تمل من الدُّؤوب في الجد، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو... فإن قائل قائل: ذِكْر حكايات الحمقى والمغفلين يوجب الضحك، وقد رويتم عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة يُضْحِك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا"، فالجواب أنه محمول على أنه يضحكهم بالكذب. وقد روي هذا في الحديث مفسراً: "ويل للذي يحدث الناس فيكذب ليضحك الناس"...

وقد قسمت هذا الكتاب أربعة وعشرين باباً، وهذه تراجمها: الباب الأول في ذكر الحماقة ومعناها. الباب الثاني في بيان أن الحمق غريزة. الباب الثالث في ذكر اختلاف الناس في الحمق. الباب الرابع في ذكر أسماء الأحمق. الباب الخامس في ذكر صفات الأحمق. الباب السادس في التحذير من صحبة الأحمق. الباب السابع في ضرب العرب المثل بمن عُرِف حُمْقُه. الباب الثامن في ذكر أخبار من ضُرِب المثل بحمقه وتغفيله. الباب التاسع في ذكر جماعة من العقلاء صَدَر عنهم فِعْل الحمقى. الباب العاشر في ذكر المغفلين من القراء. الباب الحادي عشر في المغفلين من رواة الحديث وتصحيفه. الباب الثاني عشر في ذكر المغفلين من القضاة. الباب الثالث عشر في ذكر المغفلين من الأمراء والولاة. الباب الرابع عشر في ذكر المغفلين من الكتّاب والحُجّاب. الباب الخامس عشر في المغفلين من المؤذنين. الباب السادس عشر في المغفلين من الأئمة. الباب السابع عشر في المغفلين من الأعراب. الباب الثامن عشر في من قصد الفصاحة والإعراب من المغفلين. الباب التاسع عشر في من قال شعراً من المغفلين. الباب العشرون في المغفلين من القُصَّاص. الباب الحادي والعشرون في المغفلين من المتزهدين. الباب الثاني والعشرون في ذكر المغفلين من المعلمين. الباب الثالث والعشرون في ذكر المغفلين من الحاكَة. الباب الرابع والعشرون في ذكر المغفلين على الإطلاق".

وننتقل الآن إلى اللصوص والصعاليك. ولو كان تاريخ أدبنا يعرف التهميش ويمارسه ضد أحد لكان قد حجب ما كتبه أو نظمه أى واحد من هذين الفريقين. ونبدأ بوصية خالد بن يزيد اللص والمكدى لابنه، وهى متاحة فى ترجمته بـ"معجم الأدباء" لياقوت الحموى. قال: "خالد بن يزيد مولى بني المهلب، ويقال له: خالويه المكدي. كان أديباً ظريفاً بلغ في البخل والتكدية وكثرة المال المبلغ الذي لم يبلغه أحد. وكان متكلماً بليغاً قاصًّا داهياً، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيدٍ المدائني القاصان من غلمانه. وله أخبار حسان، ومن لطائفه وصيَّته لابنه عند موته، وفيها لطائف وغرائب. قال فيها: إني قد تركت لك ما تأكله إن حفظتَه، وما لا تأكله إن ضيعتَه. ولَمَا أورثتك من العرف الصالح وأشهدتك من صواب التدبير، وعوَّدتك من عيش المقتصدين خير لك من هذا المال. وقد دفعت إليك آلةً لحفظ المال عليك بكل حيلةٍ. ثم إن لم يكن لك معين من نفسك فما انتفعتَ بشيء من ذلك، بل يعود ذلك النهي كله اعتزالاً لك، وذلك المنع تهجيناً لطاعتك. وقد بلغتُ في البَرّ منقطع العمران، وفي البحر أقصى مبلغ السفن، فلا عليك إذ رأيتني ألا ترى ذا القرنين، ودع عنك مذاهب ابن شرية، فإنه لا يعرف إلا ظاهر الخبر. ولو رآني تميم الداري لأخذ عني صفة الروم. ولأنا أهدى من القَطَا ومن دعيميص ومن رافعٍ المخش. إني قد بت في القفر مع الغول، وتزوجت السعلاة، وجاوبت الهاتف، ورغت عن الجن إلى الجن، واصطدت الشق، وجاورت النسناس، وصحبني الرَّئِيّ، وعرفت خدع الكاهن وتدسيس العراف، وإلام يذهب الخطاط والعيَّاف، وما يقول أصحاب الأكناف، وعرفت التنجيم والزجر، والطرق والفكر.

إن هذا المال لم أجمعه إلا من القَصّ والتَّكْدِيَة ومن احتيال النهار ومكابدة الليل، ولا يُجْمَع مثلُه أبداً إلا من معاناة ركوب البحر ومن عمل السلطان أو من كيمياء الذهب والفضة. قد عرفت الأس حق معرفته، وفهمت سر الإكسير على حقيقته. ولولا علمي بضيق صدرك، ولولا أن أكون سبباً لتلف نفسك، لعلَّمْتُك الساعة الشيء الذي بلغ به قارون ما بلغ، وبه تَبَنَّكَتْ خاتون. والله ما يتسع صدرك عندي لسر صديقٍ، فكيف ما لا يحتمله عزم ولا يتسع له صدر؟ وخَزْنُ سر الحديث وحَبْسُ كنوز الجواهر أهون من خزن العلم. ولو كنت عندي مأموناً على نفسك لأجريت الأرواح في الأجساد، وأنت تبصر ما كنت لا تفهمه بالوصف ولا

تحققه بالذكر. ولكني سألقي عليك علم الإدراك وسَبْك الرخام وصنعة الفسيفساء وأسرار السيوف القلعية وعقاقير السيوف اليمانية وعمل الفرعوني وصنعة التلطيف على وجهه إن أقامني الله من صرعتي هذه. ولست أرضاك وإن كنت فوق البنين، ولا أثق بك وإن كنت لاحقاً بالآباء لأني لم أبالغ في محبتك...". ويعقب ياقوت قائلا: "والوصية كلها على هذا النمط، وفيها غرائب. وهي طويلة تقع في كراسةٍ".

وفى "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" للراغب الأصفهانى نصوص شعرية لصعاليك الجاهلية، وهم فئة من قطاع الطرق لها شعرها وأخبارها ومبادئها وفلسفتها فى الحياة. ولو كان تاريخ أدبنا كاتما شيئا لكتم ما تركه هؤلاء لأنهم خارجون على المجتمع ويهددون أمنه، وينشرون الرعب حيثما حلوا، ومعيشتهم كلها قائمة على النهب والغارات والقتل غدرا. ومعروف أمر الصعاليك فى الجاهلية، وهم طوائف من الفتاك والخلعاء واللصوص تجمعوا معا فى شعاف الجبال والكهوف، وخرجوا يقطعون الطريق ويسرقون الإبل وما إلى ذلك، ومنهم عروة بن أذينة، وكان رئيسا فيهم، والشَّنْفَرَى وتأبَّط شرا والسُّلَيْك بن سُلَكَة، وهو مشهور بالعدو السريع الذى لا يلحقه فيه لاحق. وهم شعراء مشهورون ومُجِيدون. ومن شعر عروة فى الزراية على الصعلوك العديم الطموح الراضى بعيشة الفقر والذل، والثناء على الصعلوك الذى يضرب فى البلاد يهاجم الآخرين ويحصل منهم بقوة ذراعه وشجاعته على ما يريد، ومن ثم يعيش عيشة هنيئة:

لَحَى اللهُ صُعلوكاً إذا جَنَّ لَيْلُهُ ... مُصَافِي المُشَاشِ آلِفاً كُلَّ مَجزَرِ
يَعُدُّ الغِنى مِن نَفْسِهِ كُلَّ لَيلَةٍ ... أَصابَ قِراها مِن صَديقٍ مُيَسَّرِ
يَنامُ عِشاءً ثُمَّ يُصبِحُ ناعِساً ... يَحُتُّ الحَصى عَن جَنبِهِ المُتَعَفِّرِ
قَليلُ التِماسِ الزادِ إلا لِنَفْسِهِ ... إذا هُوَ أَمسى كَالعَريشِ المُجَوَّرِ
يُعينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَستَعِنُّهُ ... وَيُمْسِي طَليحاً كَالبَعيرِ المُحَسَّرِ
وَلَكِنَّ صُعلوكاً صَحيفةُ وَجهِهِ ... كَضَوءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلّاً عَلى أعدائِهِ يَزجُرونَهُ ... بِساحَتِهِم زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ
إذا بَعُدوا لا يَأمَنونَ اقتِرابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهلِ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ

فَــــذلِكَ إن يَلـــقَ المَنِيَّـــةَ يَلْقَهـــا حَميـــداً، وَإِن يَــستَغْنِ يَومــاً فَأَجْــدِرِ

وخطب تأبط شراً امرأة من هذيل من بني سهم فقال لها قائل: لا تنكحيه، فإنه لأول نصل غداً يفقد. فقال تأبط شراً مدافعا عن نفسه ومفاخرا بإغارته على الآخرين وأملاكهم واستعداده للموت فى أية لحظة فى سبيل هذه الغاية:

وقـــالوا لهـــا: لا تنكحيـــه فإنـــه لأول نـــــصل أن يلاقـــي مجمعـــا
فلــم تــر مــن رأي فتــيلاً وحــاذرت تأيُّمهــا مــن لابــس الليــل أروعــا
قليـــل غـــرارِ النـــوم أكـــبرُ همِّـــه دم الثـــأر أو يلقـــى كميًّـــا مقنعـــا
قليـــل ادخـــار الـــزاد إلا تعلـــةً وقـد نـشز الـشرسوف والتـصق المِعَـى
تناضـــله كـــل يـــشجع نفـــسه ومـــا طبـــه في طرقـــه أن يـــشجعا
يبيــت بمغــنى الــوحش حــتى أَلِفْنَــه ويـصبح لا يحمِـى لهـا الـدهر مرتعـا
رأيــن فــتى لا صــيد وحــش يهمــه فلـو صـافحتْ إنـساً لـصافحنه معـا
ولكـــن أرباب المخـــاض يـــشقهم إذا افتقـــــدوه أو رأَوْه مـــــشيعاً
وإني، ولا علـــمٌ، لأعلـــم أنـــني سـألقى سـنان المـوت يرشـق أضـلعا
علــى غــرة أو جهــرة مــن مكــاثر أطـال نـزال المـوت حـتى تسعـسعا
وكنـت أظـن المـوت في الحـي أو أرى ألـــذ وأكـــرى أو أمـــوت مقنعـــا
ولـست أبيـت الـدهر إلا علـى فـتى أســـلِّبه أو أذعـــر الـــسرب أجمعـــا
ومــن يــضرب الأبطــال لابــد أنــه سيلقى بهـم مـن مـصرع المـوت مـصرعا

ومن شعراء الصعاليك أيضا أبو خراش الهذلى، وهو من الصعاليك المخضرمين، ويزيد بن الصَّقيل العُقيليُّ، وكان يسرق الإبل، ثم تاب بعد الإسلام فقال :

ألا قُـــل لأرباب المخـــائضِ: أهمِلـــوا فقـــد تابَ عمَّـــا تعلمـــونَ يزيـــدُ
وإنَّ امــرَأً ينجــو مــن النــار بعــدَما تَـــــزوَّد مـــــن أعمالهـــا لـــــسعيدُ
إذا مــا المنــايا أخطأتْــكَ وصــادفتْ حَمِيمَــــكَ فــــاعلمْ أنهــــا ســــتعودُ

وفى "أنساب الأشراف" للبلاذرى و"البيان والتبيين" للجاحظ وغيرهما ذِكْرٌ للصٍّ آخر لم يتب بل ظل يحترف اللصوصية إلى زمان على بن أبى طالب هو شبيب بن كريب الطائيّ. ومن صعاليك العصر الأموى مالك بن الريب المازنى وعرقل السعدى وأبو حردبة المازنى ومسعود بن خرشة وعبد الله بن الأحدب السعدى وعبيد بن أيوب العنبرى وأبو النشناش والأحيمر السعدى والهيزبان بن خطار والقتّال الباهلى وبهدل الطائى والسمهرى بن بشر والخطيم العكلى وشظاظ الضبى. وفى "المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء" للبكرى نقرأ هذه السطور عن القتّال الباهلى: "الحسن بن علي القتال الباهلي... وكان القتّال شاعراً فارساً، وأحدث حدثاً فهرب وصعد يذبل فأقام به وألفه النمر، وكان يرد معه في الشريعة، وخبره في كتاب باهلة. وله أشعار منها قوله:

تقــول ابنــة البكــري لمــا بــدا لنــا ... لــدى الــستر منهــا لِمَّــةٌ وبَنَــانُ:

أراك ظللــت اليــوم أســود شــاحباً ... طريــد دم يــروى بــك الرجــوان

أخــا ســفر يــشكو الكــلال ركابــه ... تبــدل مــر العــيش بعــد ليــان"

وفى "الشعر والشعراء" لابن قتيبة عن الأحيمر السعدى وحياته القلقة الخائفة فى القفار والبوادى: "كان الأحيمر لصاً كثير الجنايات، فخلعه قومه، وخاف السلطانَ فخرج في الفَلَوَات وقِفَار الأرض. قال: فظننت أني قد جزتُ نخل وبار أو قد قربتُ منها، وذلك لأني كنت أرى في رجيع الظباء النوى، وصرت إلى مواضع لم يصل أحد إليها قط قبلي. وكنت أغشى الظباء وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر مني لأنها لم تر غيري قطُّ، وكنت آخذ منها لطعامي ما شئت إلا النعام، فإني لم أره قط إلا شارداً فزعاً. وهو القائل:

عَوَى الذئبُ، فاسْتَأْنَسْتُ بالذِّئْب إذْ عَوَى ... وصَــوَّتَ إنــسانٌ، فكِــدْتُ أَطِــيرُ

رَأَى الله إنِّ للأَنِــيسِ لَــشَانِئٌ ... وتُبْغِــضُهم لي مُقْلَــةٌ وضَــمِيرُ

فلِلَّيْــلِ، إذْ واراِنَ اللَّيْــلُ، حُكْمُــهُ ... وللــشَّمْسِ، إنْ غابَــتْ عَلَــيَّ، نُــذُورُ

وإنِّ لأَسْــتَحِيي لنَفْــسِيَ أَنْ أُرَى ... أَمُــرُّ بحَبْــلٍ لَــيْسَ فيــه بَعِــيرُ

وأَنْ أَسْــأَلَ العَبْــدَ اللَّئِــيمَ بَعِــيرَهُ ... وبُعْــرانُ رَبِّي في الــبِلادِ كَثِــيرُ"

أما شظاظ فيقول عنه الحمدونى فى "التذكرة الحمدونية" موردا بعض حيله العجيبة فى اللصوصية: "قال شظاظ: أعجب ما رأيت في لصوصيتي أن رجلاً من أهل البصرة كان له بنت عم ذات مال كثير، وهو وليها، وكانت له نسوة فأبت أن تتزوجه. فحلف ألا يزوجها من أحد إضرارًا بها. وكان يخطبها رجل غني من أهل البصرة، فحرصت عليه، وأبى الآخر أن يزوجها منه. ثم إن ولي الأمر حج حتى إذا كان بالدو على مرحلة من البصرة، وهو منزل الرفاق إذا صدرت أو وردت، مات الولي فدُفِن برابية وشيد على قبره، فتزوجت الرجل الذي كان يخطبها. قال شظاظ: ويخرج رفقة من البصرة معهم بز ومتاع، فتبصرتهم وما معهم، واتبعتهم من البصرة حتى نزلوا. فلما ناموا بَيَّتُّهم فأخذت متاعهم. ثم إن القوم أخذوني وضربوني ضرباً مبرحاً وجرحوني. قال: وذلك في ليلة قرة، وسلبوني كل كثير وقليل فتركوني عرياناً. قال: وتماوتُّ لهم، وارتحل القوم، فقلت: كيف أصنع؟ ثم ذكرت قبر الرجل فأتيت فنزعت لوحه، ثم احتفرت فيه سرباً فدخلت فيه، ثم سددت علي باللوح وقلت: لعلي الآن أفيق فأتبعهم. قال: ومر الرجل الذي تزوج بالمرأة بالرفقة، فمر بالقبر الذي أنا فيه فوقف عليه وقال لرفقته: والله لأنزلن إلى قبر فلان حتى أنظر هل يَحْمِي بُضْعَ فلانة؟ قال شظاظ: وعرفت صوته فقلعت اللوح ثم خرجت عليه بالسيف من القبر وقلت: بلى ورب الكعبة لأحمينَّها. قال: فوقع والله على وجهه مغشيا عليه ما يتحرك ولا يعقل، وسقط من يده خطام الراحلة. فأخذت وعهد الله بخطامها، فجلست عليها وعلى كل أداة وثياب ونقد كان معه، ووجهتها قصد مطلع الشمس هارباً من الناس فنجوت بها. وكنت بعد ذلك أسمعه يحدث الناس بالقصة ويحلف لهم أن الميت الذي كان منعه من تزوج المرأة خرج عليه من قبره فسلبه وكتفه، فبقي يومه ثم هرب. والناس يعجبون منه: فعاقلهم يكذِّبه، والأحمق منهم يصدِّقه، وأنا أعرف القصة وأضحك معهم كالمتعجب".

وفى العصر العباسى وجدنا الشعراء الصعاليك فرقا وألوانا: فمنهم شعراء الصعلكة المسلحون كبكر بن النطاح وأبى النداء. ومنهم من يهجون الناس كى يفوزوا بشىء من أموالهم كالحمدونى والعمانى وأبى الشمقمق وأبى فرعون الساسى وأبى المخفف والعباس بن طرخان وعمرو بن الهدير. ومنهم اللصوص، ومن أشهرهم عثمان الخياط. ومنهم الطفيليون كطفيل بن

زلال وعثمان بن دراج. ومنهم العيارون والمكدون، ومنهم إسماعيل بن حنف والأحنف العكبرى ومسعر بن مهلهل وأبي دلف الخزرجى وابن كبرويه وأبو الدود وأبو الذباب وأسود الزبد وأبو الأرضة وأبو النوابح.

ونقف عند ابن النطاح، وفيه يقول صاحب "الأغاني": "كان بكر بن النطاح صعلوكاً يصيب الطريق، ثم أقصر عن ذلك، فجعله أبو دلف من الجند، وجعل له رزقاً سلطانيًّا. وكان شجاعاً بطلاً فارساً شاعراً حسن الشعر والتصرف فيه، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام... قال بكر بن النطاح الحنفي قصيدته التي يقول فيها:

هنيئـــاً لإخـــواني ببغـــداد عيـــدهم   وعيـــدي بحلـــوانٍ قـــراعُ الكتائـــبِ

وأنشدها أبا دلف فقال له: إنك لتكثر الوصف لنفسك بالشجاعة، وما رأيت لذلك عندك أثراً قط ولا فيك. فقال له: أيها الأمير، وأي غناء يكون عند الرجل الحاسر الأعزل؟ فقال: أعطوه فرساً وسيفاً وترساً ودرعاً ورمحاً. فأعطوه ذلك أجمع، فأخذه وركب الفرس وخرج على وجهه، فلقيه مال لأبي دلف يُحْمَل من بعض ضياعه، فأخذه وخرج جماعة من غلمانه فمانعوه عنه، فجرحهم جميعاً وقطعهم وانهزموا. وسار بالمال فلم ينزل إلا على عشرين فرسخاً، فلما اتصل خبره بأبي دلف قال: نحن جنينا على أنفسنا، وقد كنا أغنياء عن إهاجة أبي وائل. ثم كتب إليه بالأمان، وسَوَّغه المال، وكتب إليه: صر إلينا، فلا ذنب لك لأنا نحن كنا سبب فعلك بتحريكنا إياك وتحريضنا. فرجع ولم يزل معه يمتدحه حتى مات...".

وفى "الورقة" لابن الجراح عن أبي المخفف عاذر بن شاكر: "كان في أيام المأمون وبعد ذلك ببغداد، وله أشعار في وصف الخبز... وكان ظريفاً طيباً شاعراً، وكان يركب حِماراً، وتركب جارية له حماراً آخر. وتحتها خُرجٌ ويدور ببغداد. ولا يمرُّ بذي سلطان ولا تاجر ولا صانع إلا أخذ منه شيئاً يسيراً مثل قطعة أو رغيف أو كسرة، قال: وكنت وغيري ممن يستطيبه ويُحِبُّ محادثته نحتبسه فلا يقيم عندنا ويقول: لا أخالف رسمي واسمي. وأنشدني له شعراً كثيراً من ذلك قوله:

دَعْ عنـــكَ رســـمَ الـــديارِ   ودَعْ صِـــــفات القِفَـــــارِ
وعَـــدِّ عـــنْ ذِكْـــرِ قـــومٍ   قـــدْ أكثـــروا في العُقَـــارِ

ودع صِـــــفاتِ الــــزنانِي ... رِ فِي خُــــصُورِ العـــذارِى
وصـــفْ رغيفـــاً ســـرِيًّا ... حَكَتْـــه شمـــسُ النهـــارِ
أو صـــورةُ البـــدرِ لمـــا اسْ ... تـــــتمّ فِي الاســــتِدارِ
فلـــــيس يحـــــسن إلا ... فِي وصـــــفه أشـــــعارِي
وذاكَ أنِي قــــــــديماً ... خلعـــتُ فيـــه عِـــذاري"

وهذا كلام جديد فى الأطلال والوقوف بها. لقد وقف الشعراء من قبل على الأطلال وسخر أبو نواس من ذلك التقليد ودعا إلى البدء بالخمر. وإلى جانب البدء بالوقوف على الأطلال كان هناك شعراء آخرون يبدأون قصائدهم بالشكوى من السهد أو بالنسيب وغير ذلك. أما شاعرنا فدعا إلى البدء بمدح الرغيف بل إلى إدارة القصيدة كلها على الرغيف.

ولدينا عَيَّار اسمه أسود الزبد تناوله أبو حيان فى "الإمتاع والمؤانسة"، وابن الجوزى فى "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم"، وابن تغرى بردى فى "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة". وسوف يكون نقلنا هنا عن أبي حيان. قال: "ومن غريب ما جرى أن أسود الزبد كان عبداً يأوي إلى قنطرة الزبد ويلتقط النوى ويستطعم من حضر ذلك المكان بلهوٍ ولعب، وهو عريان لا يتوارى إلا بخرقة، ولا يؤبَه له ولا يبالَي به. ومضى على هذا دهر. فلما حلت النفرة، أعني لما وقعت الفتنة، وفشا الهرج والمرج، ورأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف وأعمله، طلب سيفاً وشحذه، ونهب وأغار وسلب، وظهر منه شيطانٌ في مَسْك إنسان، وصَبُح وجهه، وعَذُب لفظه، وحَسُن جسمه، وعَشِق وعُشِق، والأيام تأتي بالغرائب والعجائب... فلما دُعِيَ: قائداً، وأطاعه رجالٌ وأعطاهم وفرَّق فيهم، وطلب الرئاسة عليهم، صار جانبه لا يرام، وحِمَاه لا يضام. فمما ظهر من حسن خلقه، مع شره ولعنته، وسفكه للدم، وهتكه للحرمة، وركوبه للفاحشة، وتمرده على ربه القادر، ومالكه القاهر، أنه اشترى جاريةً كانت في النخاسين عند الموصلي بألف دينار، وكانت حسناء جميلة. فلما حصلت عنده حاول منها حاجته، فامتنعت عليه، فقال لها: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كما أنت. فقال لها: فما تحبين؟ قالت: أن تبيعني. قال لها: أو خيرٌ من ذلك؟ أعتقك وأهب لك ألف دينار. قالت: نعم، فأعتقها وأعطاها ألف دينار بحضرة القاضي ابن الدقاق عند مسجد ابن رغبان.

فعجب الناس من نفسه وهمته وسماحته، ومن صبره على كلامها، وترك مكافأتها على كراهتها. فلو قتلها ما كان أتى ما ليس من فعله في مثلها".

وفى نهاية هذه الجولة مع الصعاليك والعيَّارين واللصوص وأشباههم ننقل هذه النصوص النثرية المتعلقة ببعض جوانب موضوعنا. وهى من كتاب الراغب الأصفهانى: "محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء والشعراء": "السرقة: قيل: فلان أسرق من ذبابة ومن عقعق ومن شظاظ. وهو رجل موصوف بالسرقة. وقيل: فلان لو خلا بالكعبة لسرقها. وقيل: لِصٌّ شِصُّ على الإِتْباع. ومن الموصوف بالسرقة شيبان بن شهاب. كان يجمع القُرَاد في دبة فيأتي بها عطنَ الإبل إذا استقرت فيه فيفتحها ثم يرسلها، فتتبدد الإبل، فيسرقها. ومنه قول الشاعر:

وأوصى جحدرٌ قِدْماً بنيه بإرسال القُرَاد على البعيرِ

أصناف اللصوص: قال عثمان الخياط: السارق في الحضر والسفر خمسة: المحتال، وصاحب ليل، وصاحب طريق، والنبّاش، والخنّاق. فالمحتال اسم لمن لا يعمل إلا بحيلة ولا يقتل، فهو لا يُعْرَف بالصبر والنجدة، واللصوص يبهرجونهم ولا يستصحبونهم. وأما صاحب الليل فالنقّاب والمتسلق والمكابر وأشباه ذلك. والنباش معروف. وأما الخناق فما منهم واحد إلا وهو صاحب بعج ورضخ، والرضخ إنما يكون في الأسفار. ويصحب الرجل المنفرد من الرفقة، ومعه حجران أملسان ململمان قدر ملء الكف، فإن قدر عليه ساجداً أو نائماً، وإلا فقائماً، فيعمد إلى صماخه ولا يخطئ. وأكثرهم لا يرضى بالقتل مخافة المطالبة. وتعين ناس منهم شيخاً معه مال، وكان لا ينزل إلا بين القوم، فلما أعياهم أمره وكادوا يبلغون المنزل وخافوا الفوت وجدوا تشاغلاً من القوم، فألقى أحدهم الوتر في عنقه وغطاه بثوبه، وأذن في أذنه فأخذ المخنوق يخور، فاجتمع القوم فقالوا: ما لكم والرجل؟ خلوا عنه. فقالوا: سلوا ربكم العافية وتباعدوا عنه، فإنه إذا أفاق ورآكم استحيا. فلما رأوه قد برد قالوا: دعوه قد نام، وفي النوم راحته. ولما تفرق القوم أخذوا المال وتركوه. ومن الخناقين من يحمل الرجل إلى داره بحيلته، فإذا ألقى الوتر في عنقه ضرب أصحابه الطبل والصنج وتصايحوا كما يفعل النساء في البيوت ليخفى صوته.

عَوَنَة اللصوص: العين والمؤتي والشاغل والطرّار. فالعين الذي يلزم الصيارف يتأمل كل مال محمول يأتي السفن فيتعرف موضع الحِرْز، ويأتي دار قوم يتطلب أنه يتوضأ، فيتعرف خزائنهم والموضع الذي يقصدون منه. والمؤتي الذي يتولى البيع والابتياع لهم، ويجعل عند ذلك كأنه أمير قرية أو زعيم محلة. والشاغل هو الذي يشغل القوم عن اللص. والطرار إذا ظفروا به يجيء اللص فيضربه ما لا يضربه السلطان. ويقول: هذا والله صاحبي. هو الذي ذهب بمالي. ويضربه ويحتال بذلك حتى يتشاغل عنه القوم، فإذا تشاغلوا عنه أفلته وتأسف مع القوم...

تحسين التلصص والتبجح به: قال عثمان الخياط: لم تزل الأمم يسبي بعضهم بعضاً ويسمون ذلك: غزواً، وما يأخذونه: غنيمة، وذلك من أطيب الكسب، وأنتم في أخذ مال الغدر والفجرة أعذر، فسموا أنفسكم: "غُزَاة" كما سمى الخوارج أنفسهم: "شُرَاة". وأنشد:

سأبغي الفتى إما جليسَ خليفةٍ … يقوم سواءً أو مخيفَ سبيلِ

وأسرق مال الله من كل فاجرٍ … وذي بِطْنَةٍ للطيبات أكولِ

وقالوا: اللص أحسن حالاً من الحاكم المرتشي والقاضي الذي يأكل أموال اليتامى.

التجسير على التلصص:

عثمان الخياط: جَسِّروا صبيانكم على المخارجات وعلموهم الثقافة، وأحضروهم ضرب الأمراء أصحابَ الجرائم لئلا يجزعوا إذا ابْتُلُوا بذلك، وخذوهم برواية الأشعار من الفرسان، وحدثوهم بمناقب الفتيان وحال أهل السجون. وإياكم والنبيذ، فإنها تورث الكِظَّة وتحدث الثقل، وتدعو إلى البول والنوم ولا سيما بالليل. ولا بد لصاحب هذه الصناعة من جراءة وحركة وفطنة وطمع، وينبغي أن يخالط أهل الصلاح ولا يتزيا بغير زيه.

استعمال الظرف في التلصص: حُكِيَ عن عثمان الخياط أنه إنما سُمِّيَ: "خياطاً" لأنه نقب على أحذق الناس وأبعدهم في صناعة التلصص، وأخذ ما في بيته وخرج وسد النقب كأنه خاطه، فسمي بذلك. وحكى أنه قال: ما سرقت جاراً وإن كان عدواً، ولا كريماً، ولا كافأت غادراً بغدره. وقال لأصحابه: اضمنوا لي ثلاثاً أضمن لكم السلامة: لا تسرقوا الجيران، واتقوا الحُرَم، ولا تكونوا أكثر من شريك مناصف، وإن كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم إخراج الزكاة وجحودهم الودائع. وخرج سليمان، وكان من أجلد هذه

العصابة، ليلة بأصحابه إلى دار بعض الصيارفة فاختفوا، فلما أرادوا الانصراف قال بعض أصحابه: دعنا نقم على مفارق الطرق لنأخذ من بعض المارة نفقة يومنا، فقال: على أن لا تبطشوا بهم. فقالوا: وهل يفعل ذلك إلا الجبان؟ فبينما هم كذلك إذ مر شاب ذو هيئة، فلما قرب سلم عليهم، فرد عليه بعضهم السلام، فقام إليه بعضهم، فقال رئيسهم: دعه، فإنه سَلَّمَ لِيَسْلَم، وأجابه بعضكم، فصار له ذمة بذلك. قالوا: فنخلي سبيله؟ قال: أخاف عليه غيركم. ليذهبْ معه ثلاثة يوصلونه إلى منزله. ففعلوا، فلما بلغ دفع لهم مالاً وقال: لأحوطَنَّكم بمالي وجاهي لما عاملتموني به. فلما عادوا بالدراهم قال رئيسهم: هذا أقبح من الأول. تأخذون مالاً على قضاء الذمام والوفاء بالعهد؟ لا أبرح أو تردوا إليه المال! فقالوا: قد افتضحنا بالصبح. فقال: لأن نفتضح بالصبح خير من تضييع الذمام. وقال: ما خنت ولا كذبت منذ تَفَتَّيْت...

فعل الطرارين: أتى بعضهم بزازاً في غدوة، وهو فارس مع غلام، فقال: ائتني بجراب بلخي وجراب مروي وعَجِّلْ، وخذ الثمن. فأخرج ذلك وساومه وأطمع التاجر وقال: ائتني بآخر. فلما دخل الحانوت قال: ما أضيع متاعكم وأنتم تسخرون بالناس! لو أن إنساناً أخذ متاعك هذا وقفل الباب هكذا ما كنت تفعل؟ فحرك التاجر الباب يظن أنه يلعب، فإذا هو قد مر إلى الساعة. ودخل آخر على قوم فقال أحدهم: ما في الدنيا أعجب من فلان! ترمي بخاتمك في الهواء: فإن شئت أتاك به، وإن شئت بغيره. فقال: أنا أريكم ما هو أعجب من هذا. هاتوا خواتيمكم. فأخذها كلها فجعلها في أصابعه وجعل يمشي القهقرى ويصفر، وينظر إلى عين الشمس حتى غاب عن أعينهم، فطلبوه فلم يجدوه، فقالوا: هذا والله أعجب!".

وبعد فهذا غيض من فيض مما قاله علماؤنا ونقادنا ومؤرخونا عن الصعاليك واللصوص وما أشبه. لم يتقهقروا عن الكلام فيهم ولا قللوا من شأن شعرهم وأحاديثهم بل أَثْنَوْا عليه ومدحوهم وأَبْدَوْا انبهارهم بحيلهم ومهاراتهم، وكلما وجدوا حسنة فى أحد منهم أبرزوها ورفعوا من شأنها وشأن صاحبها. وإذن فهم لم يهمِّشوهم ولا كتموا أمرهم ولا أنزلوا الستار عليهم بل بالعكس شهروهم على أحسن ما تكون الشهرة. بل لقد وضع عدد من كبار كتابنا القدامى كتبا عن اللصوص: فقد ألف أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى "لصوص العرب"، وألف الجاحظ

"أخلاق الشطار"، وألف السكرى "أخبار اللصوص"، وألف الأسود الغندجانى "السَّلّ والسرقة"، وألف لقيط بن بكير المحاربى "الخراب واللصوص"، وألف ابن ميمون "منتهى الطلب" فى شعر اللصوص. وهذا غير الكتب الكثيرة التى تحدثت عنهم ضمن موضوعات أخرى. وهذا الاهتمام باللصوص وأشباههم ممن يُسَمَّوْن فى رطانة هذه الأيام بـ"المهمشين" وبإبداعهم الأدبى هو مما ينادى به النقد الثقافى. ومعنى هذا أن نقدنا وأدبنا عرف هذا اللون من النقد قبل الزمان بزمان كما كررتُ مرارا فى هذه الدراسة، إذ ما من مبدإ من مبادئ النقد الثقافى إلا وعرفه تراثنا النقدى والأدبى، وعلى أوسع نطاق، حسبما رأينا وتحققنا معا.

وبقى الإبداع بالعامية. ويرى ممارسو النقد الثقافى أنه لا ينبغى أن يهمَّش بل لا بد أن يأخذ فرصته مثل الكتابة باللغة الفصحى سواء بسواء. وهنا أيضا نرى أن علماءنا ونقادنا القدماء لم يهملوا هذا اللون من الإبداع سواء كان شعرا أو نثرا بل رَوَوْه وأثنَوْا على الجيد منه ولم يَثْنُوا عِطْفَهم عنه. ولقد كانت هناك لهجات فى بلاد العرب قبل الإسلام، ووجدت هذه اللهجات طريقها إلى الشعر العربى، مثل استعمل "ذو" بمعنى "الذى"، ونصب اسم "إن" وخبرها جميعا، ورفع خبر "ما" النافية على لغة بنى تميم، وفتح نون المثنى وكسر نون جمع المذكر السالم، وحذف نون الأفعال الخمسة دون ناصب أو جازم، واستعمال "متى" حرف جر، وقول "أنطاه" بدلا من "أعطاه"، وقول"كتابُكِس أو كتابُكِش" بدلا من "كتابُكِ"، "و"بَقَى ولَقَى" عوضا عن "بَقِىَ ولَقِىَ"، و"النات" بدل "الناس" و"امْصِيام" بدلا من "الصيام"، وكسر حرف المضارعة بدلا من فتحه، فيقال: "نِعْلَم" عوضا عن "نَعْلَم"، واستخدام ما يسمى بلغة "أكلونى البراغيث" بدل "أكلنى البراغيث"، والوقوف على التاء المربوطة بنطقها تاء لا هاء... إلخ. إلا أن هذا كله وغيره لم يلغ الإعراب، فكانت القبائل فى شعرها ونثرها تراعى الرفع والنصب والجر والجزم والبناء وعلامات كل حالة من هذه الحالات .

وإلى جانب استخدام الفصحى فى الأدب كان هناك من يستخدم العامية كناظمى الأزجال، ومنهم ابن قزمان فى الأندلس. وله ديون زجلى كبير مشهور، ولم يفكر أحد فى تجاهله قط. وقد تناول ابن خلدون فى "مقدمته" الحديث عن الأزجال فى الأندلس وكتب بالتفصيل فى ذلك الموضوع، واختصره المقرى فى "أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض"

فقال: "لمّا شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا على طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعرابا واستحدثوا فنا سموه بـ"الزجل" والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس، لكن لم تظهر حِلَاها ولا انسبكت معانيها ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق. قال ابن سعيد: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال: أبو الحسن بن جحدر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة. وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر، فقال :

وعريش قد قام على دكان	بحال رواق
وأسد قد ابتلع الثعبان	في غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان	به الفواق
وانطلق يجري على الصفاح	وألقى الصياح

و كان ابن قزمان، مع أنه قرطبي الدار، كثيرا ما يتردد إلى أشبيلية وينتاب نهرها. ثم ذكر ابن خلدون عنه وعن جماعة حكاية وكلاما إلى أن قال: وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس. وقعت له العجائب في هذه الطريقة. فمن قوله في زجله المشهور:

ورذاذ دق ينزل	وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض	وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر	والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجئ إلينا	ثم تستحي وتهرب

ومن محاسن أزجاله قوله: "لاح الضياء والنجوم حيارى". ثم قال ابن خلدون: وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحدر، الذي فُضِّل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل المشهور الذي أوله:

من عاند التوحيد بالسيف يمحق أنا بـريء ممـن يعانـد الحـق

قال ابن سعيد: لقيته ولقيت تلميذه البعج صاحب الزجل المشهور الذي أوله:

يا ليتني إن رأيت حبيبي أفتل اذنو بالرسيلا

ليش أخذ عنق الغزيل وسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الآداب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع. فمن محاسنه في هذه الطريقة:

امزج الأكواس واملا لي نجدد ما خلق المال إلا أن يبدد

... وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمّد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وكان إماما في هذه الطريقة. وله من زجل يعارض به مدغليس في قوله: "لاح الضياء والنجوم حيارى" بقوله:

حل المجون يا أهل الشطارا مذ حلت الشمس بالحمل

ثم ذكر ابن خلدون جملة من هذا الزجل وقال بعد ذلك: وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالأندلس من الشعر، وفيها نظْمهم حتى إنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر، لكن بلغتهم العامية ويسمونه: الشعر الزجلي، إلى أن قال: وكان من المجيدين في هذه الطريقة لأول هذه المائة الأديب أبو عبد الله اللوشي. وله من قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر :

طل الصباح قم يا نديم نشربو ونضحكو من بعد ما نطربو

ثم سردها ابن خلدون. وهي طويلة جدا".

وأفاض المقرى أيضا فى "نفح الطيب" فى الكلام عن ابن قزمان وأزجاله وما يقوله كبار الأدباء والنقاد فيه.

ومن القرن السابع والثامن الهجريين نقف أمام شرف الدين بن أسد المصرى، ويقول فيه صلاح الدين الصفدى فى "أعيان العصر وأعوان النصر": "شرف بن أسد المصري شيخٌ ما جُنَّ ماجِنٌ كما جُنّ، ولا غسل ما حمل في ردنه من السخف ماء النيل ولا الأردن، خليع أربى على الجديد والخليع، وأنسى الناس ذكر صريع الدلاء بما له من الصنيع، ومتهتك ليس بعار من العار، ولا بمبال أي ثوبيه لبس: أنَقِيٌّ من التقوى أو إزارٌ من الأوزار، ظريف يصحب الكتاب، ويعاشر الشعراء وأهل الآداب، ويشبب في المجالس على القينات، ويسبب الفتيان للفتيات، لو رآه ابن حجاج ما حجه، أو ابن الهبارية لكان هباءً في تلك المحجه. وكان يمدح الأكابر والأصاغر، ولا يزال ذا كيس فارغ وفم فاغر. وله عدة مصنفات مملوءة بالخرافات والتُّرَّهات، من مشاشات الخليج وزوائد المصريين التي كالروض البهيج، وهي موجودة بالديار المصرية بين عوامِّهم وخواصِّهم، وفي رفوف ذخائرهم ومناصهم. ولم يزل على حاله إلى أن مجه المجون وابتلعته الحفرة، ولقي من الله تعالى عفوه وغَفْرَه. وتُوُفِّيَ رحمه الله تعالى بعد مرض مزمن في سنة ثمان وثلاثين أو سبع وثلاثين وسبع مئة، وكان في عَشْر السبعين.

ورأيته غير مرة، وأنشدني شيئاً كثيراً من أشعاره ومن بلاليقه وأزجاله وموشحاته. ووضع كتاباً في مادة كتاب ابن مولاهم في الصنائع، إلا أن الذي لابن مولاهم في خمسين صنعة، والذي لابن أسد في ألف ومائتي صنعة، ومنها مائتا صنعة تختص بالنساء، وهذا عمل كثير واستقراء عتيد. وكان عامي العلم، فاضلي الطباع، يقع في شعره الجناس والتورية والاستخدام وسائر أنواع البديع، وإن لم يكن ذلك في بعض المواضع قاعداً من حيث العلم. وأنشدني من لفظه لنفسه قطعةً من تَغَزُّلٍ شذت عني، ولم أحفظ منها إلا قوله :

الظبي يسلح في أرجاء لحيته   والغصن يصفعه إن ماس بالقدم

وأنشدني من لفظه لنفسه بالقاهرة في سنة ثمان وعشرين وسبع مائة بلّيقة، وهي:

رمضانْ كلّك فتوّه   وصحيح دَيْنك عليّه
وأنا في ذا الوقت معسر   واشتهي الإرفاق بيّه
حتّى تُرْوَى الأرض بالنيل   ويباع القرط بدري
واعطك الدرهمْ ثلاثه   وأصوم شهرين وما ادري

وإن طلبتني في ذا الوقت   فأنا أثبتّ عسري

فامتهل واربح ثوابي   لا تربحني خطيّه

وتخلّيني أسقّف   طول نهاري لا عشيّه

لك ثلاثين يوم عندي   اصبر اعطي المثل مثلين

ون عسّفتني ذا الأيام   ما اعترف لك قطّ بالدّين

وانكرك واحلف واقل لك: أنت من اين وانا من اين؟

واهرب اقعد في قمامه   أو قلالي بولشيّه

وآجي في عيد شوّال   واستريح من ذي القضيّه

ولّا خذ منّي نُقَيْدَه   في المعجّل نصف رحلك

صومي من بكره إلى الظهر   واقاسي الموت لأجلك

واصوم لك شهر طوبه   ويكون من بعض فضلك

إيش أنا في رحمة الله   مِنْ أنا بين البريّه

أنا إلاّ عبد مقهور   تحت أحكام المشيّه

من زبونٍ نحس مثلي   رمضان خذ ما تيسّر

أنت جيت في وقت لو كان   الجنيد في مثلو أفطر

هوّن الأمور ومشّي   بِعَلِي ولا تعسّر

وخذ ايش ما سهّل الله   ما الزبونات بالسويّه

المَلِي خذ منّو عاجل   وامهل المعسر شويّه

ذي حرور تذوّب القلب   ونهار أطول من العام

وانا عندي أيّ من صام   رمضان في هذي الأيام

ذا يكون الله في عونو   ويكفّر عنّو الآثام

وجميع كلامي هذا   بطريق المضحكيّة

والله يعلم ما بقلبي   والذي لي في الطويّه"

فهذا دليل على اهتمام الصفدى، وهو ناقد ومؤرخ أدب وكاتب تراجم كبير، بشرف بن الأسد وشعره العامى. وقد عاد فترجم له فى "الوافى بالوفيات"، وهو نفس ما نجده فى "أعيان العصر". وترجم له ابن حجر العسقلانى فى "الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة"، وابن تغرى بردى فى "المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى"، ونقل ابن شاكر الكتبى فى "فوات الوفيات" ما كتبه الصفدى فى كتابيه الآنِفَيِ الذِّكْر.

ولابن سودون أيضا أشعار عامية كما فى قوله:

يا مُسلمين أنا الهائمْ. أنا المفتون ... أنا الذي صرت لا عاقلْ ولا مجنون

أمري تحيّر ومَنْ أمره بكافْ مع نون ... في مصر جسمي وعقلي ضاع في صهيون

وقوله:

حبيب القلب كم في ... سويدا القلب حَلّيت

وعقد الصبر مني ... بطول الهجر حليت

أيا ظبياً شروداً ... به نومي تشرّد

لقد أطلقت دمعي ... وقلبي فيك تقيّد

ألا فاكتب حبيبي ... على قيدي "مُخَلّد"

ولا تسمع لِمَن قال ... بأني عنك ملّيت

فإن ملّيت ودادك ... بوصلك لا تملّيت

ألا رفقا حبيبي ... بقلبي فيك رفقا

وإن أرضاك قتلي ... تعيش رأسك وتبقى

يعظم ربي أجرك ... فعبدك مات عشقا

ولكن يا مُناي ... متى بالوصل حيّيت

تكون يا نور عيني ... لمن أفنيت أحييت

ولا ينبغى أن ننسى الشاعر الملقب بـ"النوشاذر". وقد ترجم له صلاح الدين الصفدى فى "الوافى بالوفيات" فقال: "عبد القوي المعروف بـ"النوشاذر"، صاحب أبي الحسن علي الحصري المعروف بـ"القوسان" ... كانا يتجاريان في ميدان الخلاعة، ويتجاذبان أعنَّة المجون، وينظمان البلاليق المطبوعة الظريفة، الحلوة الرشيقة، ولهما أمداح كثيرة في العزيز ابن صلاح الدين وأولاد العادل". ثم أورد له الصفدى بليقة له كلها فحش عار وألفاظ تخدش الحياء دون أدنى تحشم، يقول ذلك فى سلاسة وانسجام.

وهناك أيضا ابن مكانس المتوفى عام ٧٩٤هـ. وله ترجمة جيدة فى "المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى" لابن تغرى بردى. وقال المقريزي بعد أن أثنى على أدبه وفضله: إلا أنه كان لعراقة آبائه في النصرانية يستخف بالإسلام وأهله ويخرج ذلك في أساليب من سخفه وهزله. أخبرني البدر مُحَّد بن إبراهيم البشتكي، وكان قد عاشره دهراً طويلاً، أنه سمع المؤذن وهو يقول في أذانه: "أشهد أن مُحَّداً رسول الله"، فقال: هذا محضر له ثمانمائة سنة نودي فيه الشهادة وما ثبت، ومات عنده عدة بنات نصارى، عامله الله بما يستحقه. انتهى كلام المقريزي. قلت: وهذا شأن سائر أقباط مصر قديماً وحديثاً، إلا أن فخر الدين هذا كان قد انسلخ من أبناء جنسه بما استعمل عليه من الفضيلة والأدب والشعر الرائق".

وبعد أن أورد ابن تغرى بردى له أشعارا فصيحة فى أغراض شتى أضاف قائلا: "وله زجل، وهو من أحسن ما قيل:

يوم وهو جاني سكيرين	بقوام يميل من الراح
وبقى يحجل مسيكين	ويقول لي كلت تفاح
قلت: تكذب يا مليعين	هات فيمك لي وقل: آح
جاب فيمه مسكو بعبق	ريحِتُه عنبر وقرقف
قلت: دي ريحة رحيق	وإلا تفاح يا مقيصف
فغضب غضبة مدلل	ونفر عني نفور ريم
ورأيتو قد تعلل	وتدلت لو خراطيم
صرت أعبد صدغو المبلبل	والميم منو يحاميم

واعتـــــــذر وراس مطـــــــرق ونا نحلـــف بَلْـــف مـــصحف

...

والنـــــبي زاد بـــــو هيـــــامى ولا تـــــسمع لـــــوم لائـــــم

وظهـــــر للنـــــاس ســـــقامى وبقيـــــت في دمعـــــي عـــــائم

ونفـــــر عـــــني منـــــامي ولا تنفعـــــني التمـــــائم

قـــال لي حـــبي: أنـــت بـــك رق حـــتى حالـــك مـــا بيعـــرف

قـــم نجيـــب طبيـــب حويـــدق ويبـــان ضـــرك ويكـــشف

جـــب لي طبيـــب ملاطـــف جـــس نـــبض جـــس حـــاذق

والطبيـــب في طبـــو عـــارف والتقـــى فيـــه عـــرق خـــافق

التفـــت لمـــن هـــو واقـــف قـــال: لـــو هـــذا الـــشب عاشـــق

ودواه نومـــــو مطبـــــق مـــــع حبيبـــــو في لحيـــــف

ويبـــــات ليلـــــة ويعـــــرق لا نقـــــوع ولا ســـــفيف

وقال في حسن خواتمه:

وا ســـوأتاه إذا وقفـــت بموقـــف مـــا تخجـــل فيـــه ســـوى الأقـــدار

وسواد وجهي عند أخذ صحيفتي وتطلعـــي فيهـــا شـــبيه القـــار"

والشاهد هنا هو أن ابن مكانس ذو أصل نصرانى، ورُوِىَ عنه تهكم بالإسلام ونبوة مُحَمَّد، ومع هذا نرى مؤرخى أدبنا ونقاده يهتمون به ويشيدون بشعره حتى لو كان فى موضوعات تمجها النفس النظيفة. كما رأينا كيف أورد ابن تغرى بردى بيتين شعريين له يتأسف فيهما على تقصيره فى ذات الدين ويعبر عن خشيته مما يمكن أن يحدث له فى الآخرة عند الحساب. ولابن حِجَّة الحموى (ق٨- ٩هـ) كتاب كامل فى صناعة الزجل اسمه "بلوغ الأمل فى فن الزجل". وهو ما يدل على العدل الشامل والحياد المطلق الذى يعامل به علماؤنا القدامى الشعراء والأدباء بما فيهم مستعملو العامية وناظمو الأشعار العارية المفحشة. فماذا يريد النقد الثقافى أبعد من هذا؟ إن هذا يدل على أن الضجة التى قوبل به هذا النقد من قِبَل

طائفة من نقادنا الحاليين ضجة فاشوش تبرهن على تسرعهم وشعورهم بالنقص تجاه كل ما هو غربى ورغبة غبية فى الظهور بمظهر المتابع والمعتنق لأحدث صرعات النقد الغربى.

الإبداع النسوى فى مرآة النقد العربى القديم

يقتضى النقد الثقافى أن يهتم نقاده بالإبداع النسوى فيتناولوه بالنظر والتحليل والحكم كما يصنعون مع الإبداع الرجالى سواء بسواء دون أى فرق. ونظرة إلى نقدنا القديم تطلعنا على أنه لم يكن يميز بين الرجال والنساء فى هذا الصدد بل كان يوزع اهتمامه على الجنسين. لا بل كان يبدى تجاه أدب المرأة ترحيبا أكبر وأشد، ويكاد لا يعيبه فى شىء على عكس ما فعل مع إبداعات الرجال بما فيهم كبار الشعراء والأدباء. لقد كانت المرأة العربية على الدوام حاضرة فى مشهد الإبداع الشعرى منذ الجاهلية وطوال العصور التى يزعم البعض أنها كانت عصور ظلم للمرأة وسحق لشخصيتها وطمس لمواهبها وإنكار لإبداعاتها حسبما نسمع من بعض من يدعون أنهم من أنصار المرأة والعاملين على نيل حقوقها المهدرة فى عالم الإبداع.

وكان هناك عدد كبير من النساء الشاعرات فى الجاهلية على خلاف ما هو شائع ومتوقع. ومنهن ابنة أبى الجدعاء وابنة حذاق الحنفى وابنة حكيم بن عمرو العبدية وأخت الأسود بن غفار وأروى بنت الحباب وأسماء المرية وأسماء بنت ربيعة التغلبية والجيداء بنت زاهر الزبيدية والخِرْنق بنت بدر والخنساء بنت التيجان والخنساء بنت زهير بن أبى سلمى والدحداحة الفقيمية والدعجاء بنت وهب والدهناء بنت مسحل والعوراء الذبيانية والعوراء اليربوعية والفارعة بنت معاوية القشيرية والنوار بنت جِلّ بن عدى والهيفاء بنت صبيح القضاعية وأم أبى جداية وأم الأغَرّ بنت ربيعة التغلبية وأم الضحاك المحاربية وأم النحيف وأم بسطام بن قيس الشيبانى وأم ثواب الهزانية وأم حكيم بنت عبد المطلب وأم خلف الكلابية وأم سنان وأم صريع الكندية وأم عمرو بنت مكدم وأم غيلان بنت جرير وأم قيس الضبية وأم موسى الكلابية وأم ناشب الحارثية وأم ناشزة التغلبية وأم ندبة وأمامة العَدْوانية وأمامة بنت كلب التغلبية وآمنة بنت وهب وآمنة بنت عتيبة وأميمة أم تأبط شرا وأميمة بنت عبد المطلب وأميمة بنت عبد شمس وبرة بنت عبد المطلب وتماضر بنت الرشيد السلمية وجليلة بنت مرة الشيبانية وجنوب الهُذَلِيّة وحفصة بنت المغيرة وخالدة بنت هاشم بن عبد مناف وخمعة بنت الخس وخولة بنت ثابت وخويلة الرئامية ودختنوس بنت لقيط وذيبة بنت بيشة الفهمية ورفيقة بنت نباتة ورقاش أخت جذيمة الوضاح ورياء الهمدانية وريطة بنت العباس السلمى وريطة بنت الجذل الطعان ورَيْطة بنت عاصم الهوازنية وريطة بنت عاصية وزرقاء اليمامة وزرقاء بنت زهير وزهراء الكلابية وزوجة أبى العاج الكلبى وزوجة قُرَاد بن أجدع وزينب اليشكرية وزينب أم حسّانة الضبية وزينب بنت فروة التميمية وزينب بنت فروة الشيبانية وزينب بنت مالك وسارة القُرَظِية وسارة بنت معاذ بن عفراء وسبيعة بنت الأحب وسبيعة بنت عبد شمس وسعدى بنت

الشمردل الجُهَنِيّة وسلمى بنت حريث النَّضْرية وسليمى بنت المهلهل وسمية زوجة شداد العبسى وصفية الباهلية وصفية بنت الخرع التيمية وصفية بنت ثعلبة الشيبانية وضاحية الهلالية وظمياء الهمدانية وعاتكة المرية وعادية بنت قرعة الدينارية وعاصية البولانية وعبلة بنت خالد التميمية وعرفجة الخزاعية وعشرقة المحاربية وعصيمة بنت زيد النهدية وعفيرة بنت عفان الجديسية وعمرة الخثعمية وعمرة بنت الحباب التغلبية وعمرة بنت الحمارس وغنية بنت عفيف وفاطمة بنت مُرّ الخثعمية وفكيهة الفزارية وكرمة بنت ضلع وكسرة بنت دوشن وليلى العفيفة وليلى بنت سلمى وليلى بنت مرداس ومارية بنت الديان ومنفوسة بنت زيد الخيل ومية بنت ضرار الضبية وميثاء المجاشعية وناجية بنت ضمضم وهزيلة الجديسية وهند بنت أسد الضبابية وهند بنت الخس وهند بنت ابن عامر الأسلمى وهند بنت بياضة الإيادية وهند بنت حذيفة الفزارية وهند بنت عصم السدوسية وهند بنت معبد ووجيهة بنت أوس الضبية ووهيبة بنت عبد العزى، بالإضافة إلى الأشعار التى لا يعرف اسم صاحباتها، وما أكثرها!

وهى، كما نرى، قائمة طويلة تضم عشرات الأسماء، وبعضها أسماء شاعرات من بيت شعراء: ابنة أو أختا أو زوجة لشاعر معروف. وكثير منها مجهول، وصاحبة الشعر فى الغالب ربة بيت لم يسمع بها أحد أو مجرد راعية فى الجبال والبادية، ومع هذا لم يهملها التاريخ العربى. ولو كانت المرأة بلا قيمة إبداعية ما بالى أحد بما تقول ولا حرص على نقل ما نظمته من شعر بما فى ذلك البيت الواحد والبيتان والثلاثة. وهذا دليل على أن المرأة العربية فى الجاهلية لم تكن ممنوعة ولا مشلولة إبداعيا، وإلا ما بلغتنا كل تلك الأسماء الكثيرة. ويزيد الأمر أهمية وقيمة أن العرب فى الجاهلية كانوا فى غالبهم أمة أمية. فلا شك أن ظهور كل هؤلاء الشاعرات علامة على السماحة التى كان المجتمع الجاهلى الأمى يتقبل بها الإبداع النسوى. نعم إن حرص مؤرخى الأدب على ذكر أسماء أولئك الشواعر يبرهن على أنه لم تكن هناك أية حساسية تجاه النساء من حيث إنهن شاعرات، وبخاصة أن بعضهن لم يصلنا من شعرهن سوى البيت أو البيتين أو الثلاثة كما قلت، ومع هذا لم يهمل جامعو الشعر هذه النصوص الضئيلة بل حافظوا عليها نفس حفاظهم على قصائد الرجال الشعراء سواء بسواء. كذلك فإن كثيرا من تلك النصوص الشعرية تدور حول أمور ساذجة أو بيتية، ورغم ذلك لم يهمل مؤرخو الأدب شيئا منها، بل عاملوها باهتمام وكأنها قصائد طوال.

ولنلق نظرة على بعض هؤلاء الشاعرات حتى نقترب منهن ومن إبداعاتهن: فالشاعرة جيداء بنت زاهر الزبيدية قُتِل زوجها خالد بن محارب الزبيدى على يد عنترة، فقالت ترثيه:

يا لقومي! قد قرّح الدمعُ خدّي ۝ وَجَفَاني الرّقادُ مِن عُظْمِ وَجْدي

كــانَ لي فــارسٌ ســقاهُ المنــايا عَبْــدُ عــبسٍ بجَــوْرِهِ والتعــدّي

بَــدْرُ تمٍّ هَــوى إلى الأرضِ لمّــا رَشَــقَتْه الــسهامُ مِــن كــفّ عبــدِ

ورمــاني مــن بعــدِ أنــصار جنــدي في همــومٍ أكابــدُ الوجــدَ وحــدي

يا قتــيلاً بكــت عليــهِ البَــواكي في جبــالِ الفَــلا وفي أرض نجــدِ

كــانَ مثــلَ القَــضيبِ قــدّاً، ولكــن قَــدَّهُ صــرفُ دهــرِهِ أيَّ قــدِّ

يا لَقـومي! مـن يكـشفُ الـضيمَ عـنّي ويراعــي مِــنْ بعــد خالــدَ عهــدي؟

وهناك العوراء اليربوعية، وهى ذات شهرة بالهجاء:

قَعيــدُكَ يا يزيــدُ أبا قبــيسٍ أَتَنْــذِر كــي تلاقيَنــا النــذورا

وتُوضِــع تخــبر الرُّكْبــان أنّا وُجِــدنا في مِــراسِ الحــربِ خُــورا؟

أَلَمْ تعلــم، قعيــدك، يا يزيــدٌ، بأنّا نَقْمــع الــشيخَ الفَجُــورا

وَنفْقَــأ ناظريْــه ولا نبــالي وَنَجْعــلُ فــوقَ هامتــهِ الــذَّرُورا؟

فَــأَبلغ، إن عرضْــتَ، بــني كــلابٍ فَــإنّا نحــنُ أَقمعنــا بجــيرا

وَضــرَّجْنا عبيــدةَ بِالعــوالي فَأَصْــبَحَ مُوثَقــاً فينــا أَســيرا

أَفَخْــراً في الخــلاءِ بغــيرِ فخــرٍ وعنــد الحــربِ خــوّاراً ضَــجُورا؟

أما زرقاء اليمامة فقد اشتهرت بحدة البصر حتى ليقال إنها كانت ترى الأشياء والأشخاص من مسيرة ثلاثة أيام. وكان حسان بن تُبَّع قد عزم على مداهمة قومها، فأمر جنده أن يحمل كل منهم غصن شجرة حتى إذا رأتهم الزرقاء من بعيد ونبهت قومها بأنها ترى شجرا يسير لم يصدقوها، ومن ثم يمكنه أن يباغت قومها ويكتسحهم، وهو ما وقع فعلا. وفى الأبيات التالية نراها تحذر قومها مما ترى، ولكنهم للأسف لم يصدقوها كما توقع وخَطَّط حسان بن تبع. تقول:

خُــذوا حِــذاركمو يا قــومُ يَــنْفَعْكم فلــيس مــا قَــدْ أرى بالأمــرِ يُحْتَقَــرُ

إنيّ أَرى شَــجراً مِــن خلفهــا بــشرٌ وكيــفَ تجتمــعُ الأشــجار والبــشرُ؟

ثُــوروا بأجمعكــم في وجــهِ أوّلهــم فَــإنّ ذلــكَ مِــنكم، فــاعلموا، ظَفَــرُ

ضــمّوا طــوائفكم مِــن قبــل داهيــةٍ مِــنَ الأمــورِ الــتي تُخْــشَى وتُنْتَظَــرُ

فغَــوِّروا كـــلّ مـــاءٍ قبـــل ثالثـــةٍ فلـــيس مِـــن بعـــده وِرْدٌ ولا صَـــدَرُ

وعـاجِلوا القـومَ عنـدَ الليـلِ إذْ رقـدوا وَلا تخــافوا لهــم حَــرْباً، وإن كَثُــروا

وأما سارة القُرَظِيّة فيهودية من بنى قريظة. ونرى هنا كيف أن يهوديتها وأنثويتها لم تمنعا أن يصلنا شعرها. وكان أبو جبيلة الغسانى قد قتل كبارَ قومها جَرَّاءَ فحشهم، فقالت فى ذلك:

بنفـــسيَ رِمَّـــةٌ لم تُغْـــنِ شَـــيئاً بِـــذِي حُـــرُضٍ تُعَفّيهـــا الـــرِّياحُ

كُهُـــولٌ مـــن قُرَيْظَـــةَ أتلفـــتهم سُـــيُوفُ الخزرجيـــةِ والرِّمـــاحُ

رُزِئْنـــا، والرَّزِيّـــةُ ذاتُ ثِقْـــلٍ يمـــرُّ لأجلِهـــا المـــاءُ القَـــرَاحُ

ولـــو أذنـــوا بحَرْبِهمـــو لحالـــتْ هنالـــك دُونَهـــم حـــربٌ رَدَاحُ

وكانت ظمياء بنت المحيا الهمدانية بنتا لأحد الشعراء، كما كانت لها أخت شاعرة أيضا. ووصلنا عنها بيت شعر واحد. ولدينا ليلى العفيفة، التى أسرها أمير عجمى ثم أراد أن يتزوجها، لكنها امتنعت عليه وقالت شعرا فى أَسْرها تستنهض به خطيبَها البراق وقومها كى يأتوا ويستنقذوها من الأسر، وقد كان. وقد تغنت ببعض تلك الأبيات أسمهان الأطرش بصوتها البديع، وها هى ذى القصيدة المذكورة شبه كاملة:

ليـــتَ لِلْبَـــرّاقِ عينـــاً فَـــتَرى مـــا أُقَاسِـــي مِـــن بَـــلاءٍ وَعَنَـــا

يا كُلَيْبـــاً يا عُقَـــيْلاً، وَيْلَكُـــم يا جُنَيْـــداً، ســـاعِدوني بِالبُكـــا

عُـــذِّبَت أُختُكُمُـــو يا وَيْلَكُـــم بعـــذابِ النُّكـــرِ صُـــبْحاً وَمَـــسَا

يَكـــذِبُ الأَعجَـــمُ! مـــا يَقْـــرُبُني وَمَعـــي بَعْـــضُ حُـــشاشاتِ الحَيَـــا

قَيِّـــدُوني غَلِّلُـــوني وَافعلـــوا كُـــلَّ مـــا شـــئتُم جميعـــاً مِـــن بَـــلَا

فَـــأَنا كارِهَـــةٌ بُغْيَـــتَكُم وَمَريـــرُ المـــوتِ عنـــدي قَـــد حَـــلا

فَاصـــطِباراً وَعَـــزاءً حَـــسَناً كُـــلُّ نَـــصْرٍ بَعـــدَ ضُـــرٍّ يُرْتَجَـــى

قُـــل لِعَـــدْنانٍ: فُـــدِيتُم! شَمِّـــروا لِبَـــني الأَعْجـــامِ تَـــشميرَ الـــوَحَى

وَاعْقِـــدوا الـــراياتِ فِي أَقطارِهـــا وَاشْـهَروا البِـيضَ وَسِـيروا فِي الـضُّحَى

يا بَـــنِي تَغْلِـــبَ، ســـيروا وانـــصُروا وَذَرُوا الغَفْلَـــةَ عَـــنكُم والكَـــرَى

وَاحـــذَروا العـــارَ علـــى أعقـــابِكُم وَعَلَـــيْكُم مـــا بَقِيـــتُم فِي الـــوَرَى

ولعشرقة المحاربية أُبَيَّاتٌ ثلاثة فى الافتخار بسبقها فى الهوى لا تنفح بروح الشعر الجاهلى، ولا نكهتُها نكهة تقاليد الجاهليين. وهى منسوبة، فى "طبقات شعراء" ابن المعتز، للعطوى الشاعر العباسى. ومع ذلك فإنى أثبتها هنا، ليس لصحتها، بل لدلالتها على أن العرب لم تكن تستنكف أن تَنْحَل إحدى نسائهم فى الجاهلية أبياتا صريحة بل جريئة كالأبيات التالية التى لو كانت صحيحة لسمعنا على نطاق واسع بعشرقة هذه التى لا تبالى فى عشقها بشىء أو بأحد ولأتانا من أخبارها حكايات كثيرة. ومع هذا فقد جاء فى "الأمالى" للقالى و"المُزْهِر فى علوم اللغة" للسيوطى عن الأبيات المذكورة وصف صاحبتها بأنها عجوزٌ حيزبونٌ زَوْلَة:

جَرَيْتُ مع العشّاق في حلبةِ الهوى   فَفُقْتُهمو سَبْقاً وجئت على رِسْلي

فَما لَبِسَ العشّاقُ مِن حُلَلِ الهَوى   ولا خَلعوا إلا الثيابَ الّتي أُبْلِي

وَلا شَرِبوا كَأساً مِنَ الحبّ مُرّةً   وَلا حُلْوةً إلا شرابُهُمو فَضْلي

ولا ينبغى أن ننسى فُكَيْهة الفَزَارية، التى أجارت الصعلوك العدَّاء سُلَيْك بن السُّلَكَة الشاعر الجاهلى المعروف حين هجم على ديار بنى بكر، فشعروا به، فدخل خباءها واستجار بها، فأجارته، وشهرت السيف تدافع عنه، إلا أن مطارديه تكاثروا عليها ونزعوا خمارها، فصاحت تستغيث برجالها، فخفوا إليها وحَمَوُا الرجل، الذى لم ينس لها هذا الموقف وقال فيه شعرا. وقد بلغنا عن فكيهة البيتان التاليان اللذان تفاخر فيهما بشجاعتها فى الحرب وحسن بلائها فيها:

فَلَم أَجبُن وَلَمَ أَنكُل، وَلَكِن   شَدَدتُ عَلى أَبي عَمرِو بنِ عَمرِو

تَرَكتُ الرُمحَ يَبرُقُ فِي صَلاهُ   كَأَنَّ سِنانَهُ خُرطومُ نَسرِ

أما شعر السُلَيْك فى تلك المرأة الشجاعة ففيه غزل بها ووصف لأردافها أضحكنى، إذ الموقف ليس موقف غزل وأرداف، كما أن مِنَّتَها التى طوقت بها عنقه كان ينبغى أن تمنعه من التشهير بها على هذا النحو. ولكن ماذا نفعل مع صعلوك كل عمله فى الحياة الإغارة على القوافل والخيام وسلب ما فيها؟ أفتراه يكف عن مثل ذلك الغزل؟ ومع هذا فالأبيات تدل على أنه صعلوك ظريف. قال خَيَّبَه الله:

لَعَمْرُ أبيك، والأنباء تَنْمِى،   لَنِعْمَ الجارُ أختُ بني عوارا!

من الخَفِرات لم تفضح أباها   ولم ترفع لإخوتها شَنَارا

كأن مجامع الأرداف منها   نَقاً درجتْ عليه الريح هارا

يعـــافُ وصـــالَ ذات البـــذل قلـــبي ويَتَّبِــــــع المُمَنَّعــــــةَ النَّـــــوَارا

ومـــا عجـــزتْ فكيهـــة يـــوم قامـــت بنـــصل الـــسيف، واســـتلبوا الخمـــارا

وقـد أورد الجـاحظ قـصتها فى "المحاسـن والأضـداد"، وإبـراهيم البيهقـى فى "المحاسـن والمساوئ"، والزمخشرى فى "المستقصى من أمثال العرب"، وأبو هلال العسكرى فى "جمهرة الأمثال"، و الميدانى فى "مجمع الأمثال"، وذكروا المثل الذى ضربه العرب بها. وأشار أبو هلال والزمخشرى والميدانى إلى أن منقذة صعلوكنا الظريف كانت خالة لطَرَفة. وهذا نص ما قاله الجاحظ، وفيه كلام للسُّلَيْك عن تلك المرأة الكريمة يؤكد أنه كان شيطانا رجيما ظريفا إن صحت الرواية بكل تفاصيلها: "قيل في المثل: "أوفى من فكيهة"، وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة كان من وفائها أن السُّلَيْك بن سُلَكَة غزا بكر بن وائل، فلم يجد غفلة يلتمسها، فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا: "إن هذا لأثر قدم ورد الماء"، فقعدوا له، فلما وافى حملوا عليه، فعدا حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها، فأدخلته تحت درعها، فانتزعوا خمارها، فنادت إخوتها فجاءوا عشرة، فمنعوهم منها. قال: وكان سليك يقول: كأني أجد خشونة شعر استها على ظهري حين أدخلتني تحت درعها...".

ولا ريب فى أن اهتمام العرب بضرب المثل بإنجازات النساء على هذا النحو دليل على علو شأن المرأة بينهم. وثم أمثال عربية كثيرة بطولتها بطولات نسوية. ليس ذلك فحسب، بل هناك أمثال كثيرة قالتها نساء، مثل "أغيرةً وجبنًا؟"، "بيتى يبخل لا أنا"، "ترى الفتيان كالنخل، وما يُدْرِيك ما الدَّخْل؟"، "لا تأمنى الأحمق وفى يده سكين"، "رمتنى بدائها وانسلَّتِ"، "صارت الفتيان حُمَما"، "لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا"، "لا عتاب على الجندل"، "تَرَك الخداع مَنْ كَشَفَ القِناع"، "كل فتاة بأبيها معجَبة"، "لو تُرِك القَطَا ليلًا لنام"، "مرعًى ولا كالسعدان"، "ماءٌ ولا كصَدَّاء"...

وكانت عُتبة بنت عفيف أم حاتم الطائي موفورة الثروة فياضة اليد، فكانت لا تبقى على شيء إذا قصدها سائل أو هبط بفنائها نزيل. فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها مالها حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها طائفة من إبلها. فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه الإبل، فخذيها. فوالله لقد عضني الجوع ما لا أضيّع معه سائلاً. وأنشأت تقول:

لَعَمْـرُك قِـدْماً عـضنى الجـوع عـضةً فآليـــت ألاّ أمنـــع الـــدهرَ جائعـــا

فقـولا لهـذا اللائمـي اليـوم: أعفـني وإن أنـت لم تفعـل فَعـضَّ الأصـابعا

فمــاذا عــساكم أن تقولــوا لأخــتكم سوى عَذْلكم أو عذل من كان مانعاً؟

ومـــاذا تـــرَوْن اليـــوم إلا طبيعـــة؟ فكيــف بتركــي، يا ابــن أُمِّ، الطبائعــا؟

على أن المرأة العربية القديمة لم تقل الشعر فقط بل كانت لها مشاركات نقدية، ومنها الحكاية التالية التى رواها أبو الفرج فى "الأغانى": "كانت تحت امرئ القيس امرأة من طيئ تزوجها حين جاور فيهم، فنزل به علقمة الفحل بن عبدة التميمي، فقال كل واحد منهما لصاحبه: "أنا أشعر منك"، فتحاكما إليها، فأنشد امرؤ القيس قوله: "خليليَّ، مُرَّا بي على أم جُنْدُبِ" حتى مر بقوله:

فللــسوط أُلْهُــوبٌ، وللــساق دِرَّةٌ وللزَّجْـر منـه وَقْـعُ أخـرجَ مهـذبِ

... فأنشدها علقمة قوله: "ذهبت من الهجران في غير مذهبِ" حتى انتهى إلى قوله:

فأدركــه حــتى ثَــنَى مــن عِنَانــه يمــرّ كغيــثٍ رائــحٍ متحلِّــبِ

فقالت له: علقمة أشعر منك. قال: وكيف؟ قالت: لأنك زجرت فرسك، وحركته بساقك، وضربته بسوطك، وأنه جاء هذا الصيد ثم أدركه ثانياً من عنانه. فغضب امرؤ القيس وقال: ليس كما قلت، ولكنكِ هَوِيتِه. فطلقها، فتزوجها علقمة بعد ذلك، وبهذا لقب: علقمة الفحل".

وفى "الأغانى" أيضا "أن نابغة بني ذبيان كان تُضْرَب له قبة من أَدَم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل إليه حسان بن ثابت، وعنده الأعشى، وقد أنشده شعره، وأنشدته الخنساء قولها: "قَذًى بعينكِ أم بالعين عُوَّارُ؟" حتى انتهت إلى قولها:

وإن صـــخراً لَتَـــأْتَمُّ الهُـــدَاةُ بـــه كأنــــه عَلَــــمٌ في رأســــه نارُ

وإن صـــخراً لَمَـــوْلانا وســـيدُنا وإن صـــخراً، إذا نَـــشْتُو، لَنَحَّـــارُ

فقال: لولا أن أبا بصيرٍ أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر الناس! أنت والله أشعر من كل ذات مثانة. قالت: والله، ومن كل ذي خُصْيَتَيْن".

وتهتم كتب الأدب بالوصية التى وصت بها أعرابيةٌ جاهليةٌ ابنتَها عشية انتقالها إلى بيت زوجها، وهو اهتمام له مغزاه الكبير. وقد وردت تلك الوصية البديعة فى "الفاخر" للمفضل بن سلمة، وفى "نهج البلاغة" لابن أبي الحديد، وفى "مجمع الأمثال" للميدانى" وفى "التذكرة الحمدونية" لابن حمدون، وفى "محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء والشعراء" للراغب الأصفهانى... وعندنا أيضا وصف العروس نفسها على لسان امرأة كلفها الخاطب أن تذهب فتعاينها وتنقل له خبرها حتى يطمئن إلى أن ما سمعه عن جمالها وكمالها صحيح، فيتزوجها. ومن

الممكن أن تكون الوصية والوصف قد أعيد صوغهما، فلم يبقيا على حالهما الأول، إذ هما مفعمان بالمحسنات البديعية من سجع وجناس وموازنة وحسن تقسيم وما إلى ذلك مما لم يكن معروفا فى العصر الجاهلى على هذا النحو المتسع، إضافة إلى أن عبارات مثل "تبارك الله" و"لولا رحمة الله لـ..."، و"الله عز وجل" هى عبارات إسلامية لم يكن يعرفها أهل الجاهلية ولا كانت تدور على ألسنتهم. وهذه الصياغة الجديدة تدل، فيما تدل، على أن الرجال الذين قاموا بها يعلمون أن فضلها سوف ينسب إلى المرأتين صاحبتى النصين. ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا متعصبين ضد النساء، بل كانوا أقرب إلى النسوية.

وقد أخذتُ برواية "الفاخر" للقصة لأنه أقدم الكتب التى أوردتْها. وقد جاءت فى شرح المثل القائل: "ما وراءكِ عصام؟": "أول من قال ذلك، فيما ذكر، عَوَانة بن الحكم الحارث بن عمر ملك كندة. وذلك أنه لما بلغه جمال بنت عوف بن مُحلِّم وكمالها وشِدّة عقلها دعا عند ذلك امرأة من كندة يقال لها: "عصام" ذات عقل ولسانٍ وأدبٍ فقال لها: إنه قد بلغني جمال ابنة عوف وكمالها، فاذهبي حتى تعلمي لي علمها. فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهي أمامةُ بنت الحارث، فأعلمتْها ما قَدِمَتْ له. فأرسلت إلى ابنتها: أَيْ بُنَيَّة! هذه خالتك أتتك لتنظر إليك، فلا تستتري عنها بشيءٍ إن أرادت النظر من وجهٍ أو خُلُق، وناطِقيها إن استَنطَقَتْكِ. فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم يُرَ مثله قط. فخرجت من عندها وهي تقول: "تَرَكَ الخداع من كَشَفَ القناع". فأرسلتها مثلاً. ثم انطلقت إلى الحارث، فلما رآها مُقبلة قال: ما وراءك يا عصام؟ قالت: صرَّح المَخْضُ عن الزُّبْدة. رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يَزِيُنها شعرٌ حالِكٌ كأذناب الخيل، إن أرسلتْه خلتَه سلاسل، وإن مشطتْه قلتَ: عناقيدُ جلاها الوابِل. وحاجبين كأنهما خُطَّا بقلم، أو سُوِّدا بحُمَم، تقوَّسا على مثل عين الظبيَةِ العَبْهَرة. بينهما أنفٌ كَحدِّ السيْفِ المصقُول، حَفَّتْ به وجنتان كالأرجوان في بياضٍ كالجُمان، شُقَّ فيه كالخاتم لذيذ المَبْسِم، فيه ثنايا غُرٌّ، ذاتُ أُشُر. تُقَلِّبُ فيه لِساناً بفصاحة وبيانٍ بعقلٍ وافرٍ، وجوابٍ حاضرٍ، تلتقي دونه شفتان حَمّاوان تحْلُبان رِيقاً كالشّهد إذا دلك، في رقبة بيضاء كالفضة، رُكِّبَت في صدرٍ كصدر تمثال دُمية، وعضدان مُدْمجَانِ، يتصل بهما ذراعان، ليس فيهما عظْمٌ يُمَسُّ ولا عِرقٌ يُجَسُّ، رُكِّبَت فيهما كَفَّان دقيقٌ قصبهما، ليّنٌ عصبهُما. يُعْقَد إن شئت منهما الأنامل. نَتأَ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها. تحت ذلك بطن طُوِي كطَيِّ القَباطيّ المُدْمجة، كُسِيَ عُكَناً كالقراطيس المُدْرَجة، تحيطُ تلك العُكَن بِسُرَّةٍ كالمُدْهُن المَجْلُوّ. خلف ذلك ظهرٌ فيه كالجداول، ينتهي ذلك إلى خصرٍ لولا رحمة الله لانْبَتَر. لها كَفَلٌ يُقْعِدها إذا قامت، ويُقيمها إذا قعدت، كأنه دِعْصُ الرمل لبَّدَه سقوط الطَّلّ. تحملها فخذان لَفَّاوان كأنهما قُفِلَتا

على نَضَدِ جُمان، تحتهما ساقان خَدْلتان كالبرْدِيَّتين شِيبَتَا بشعرٍ أسود كأنَّه حَلَقُ الزَّرَد، يحملهما قَدَمان كحذو اللِّسان. فتبارك الله مع صِغَرِهما كيف يطيقان ما فوقَهما؟!

فأرسل الملك إلى أبيها، فزوَّجه إيَّاها، وبعث بصداقها فجُهِّزت. فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها: أي بنيَّة، إن الوصية لو تُرِكَتْ لَفضْلٍ في أدبٍ تركتُ ذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونةٌ للعاقل. ولو أن امرأةً استغنت عن الزوج لغِنَى أبَوَيها وشدة حاجتهما إليها كُنتِ أغنى الناس عنه. ولكنْ للرجال خُلِقنا، ولنا خُلِقوا. أي بنيَّة، إنك فارقتِ الجو الذي منه خرجتِ، وخَلَّفتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجتِ، إلى وَكْرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكه إياك عليكِ رقيبا ومليكا، فكوني له أَمَةً يكُنْ لك عبداً وشيكا. يا بُنيَّة، احملي عني عشر خصال تكن لك ذُخْراً وذِكْراً: الصُحْبة بالقناعة، والمعاشرة بحُسْن السمع والطاعة، والتعاهُد لموقع عينيه، والتفقُّد لموضع أنفه، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشمُّ منك إلا طيِّب الريح. والكُحْل أحسن الحُسْن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود. والتعاهد لوقت طعامه، والهُدُوُّ عنه حين منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حُسنُ التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حُسنُ التدبير. ولا تُفْشِي له سراً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيتِ أمره أوغرتِ صدره. ثم اتَّقِي مع ذلك الفَرَحَ إن كان تَرِحاً، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظاماً يكن أشدَّ ما يكونُ لك إكراماً، وأشد ما تكونين له موافَقة أطول ما يكون لك مُرافَقة. واعلمي أنَّكِ لا تَصِلين إلى ما تُحِبِّين حتى تُؤْثِري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ. والله جلَّ وعزَّ يَخِير لك. فحُمِلَتْ إليه، فعظُم موقعها منه، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده أمرَ اليَمَن".

ومن الكلام البديع الذى حفظته لنا الذاكرة العربية من بلاغة النساء ما قالته ماويَّة امرأة حاتم الطائى تصف به أَرْيَحِيَّتَه العالية: "أصابتنا سنَةٌ اقشعرَّتْ لها الأرض، واغْبَرَّ أُفق السماءِ، وراحت الإبل حُدْباً حدابير، وضَنَّت المَرَاضِعُ على أولادها فما تَبِضُّ بقطرة، وحَلَقَت السنة المال، وأيقَنّا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلةٍ صِنَّبْرٍ بعيدة ما بين الطرفين إذ تضاغى صِبْيَتُنا جوعا: عبد الله وعَدِيّ وسَفّانة، فقام حاتم إلى الصبيين، وقمت أنا إلى الصبية، وأقبل يعلّلني بالحديث، فعرفت ما يريد، فتناومتُ، فلما تهوَّرت النجوم إذا شيءٌ قد رفع كِسْرَ البيت ثم عاد. فقال حاتم: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة. أتيتك من عند صبْية يتعاوَوْن عُواءَ الذئاب، فما وجدتُ معوَّلاً إلا عليك يا أبا عديّ. فقال: أعجليهم، فقد أشبعك الله وإياهم! فأقبلت

المرأة تحمل اثنين وتمشي جنائبها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها، فقام حاتم إلى فرسه فوَجَأَ لَبَّتَه بمُدْيَةٍ فَخَرّ، ثم كشطه عن جلده ودفع المدية إلى المرأة، فقال لها: شأنك! فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحي يأتيهم بيتاً بيتا فيقول: هُبُّوا أيها القوم. عليكم بالنار. فاجتمعوا، والتفع في ناحية ينظر إلينا. فوالله إنْ ذاق منه مُزْعَة، وإنه لأحوج إليه منا. فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر".

ومن متكلمات العرب فى الجاهلية زرقاء اليمامة، واسمها هند بنت الخُسّ، وكانت شاعرة أيضا، وكذلك جمعة بنت حابس. وقال الجاحظ عنهما فى "البيان والتبيين": "ومن أهل الدَّهاء والنَّكْراءِ، ومن أهل اللَّسَن واللَّقَن، والجوابِ العجيب، والكلام الفصيح، والأمثال السائرة، والمخارجِ العجيبة هندُ بنتُ الخُسّ، وهي الزرقاء، وجُمْعَةُ بنتُ حابسٍ، ويقال إن حابساً من إياد، وقال عامر بن عبد اللّه الفزاريّ: جُمِعَ بين هند وجُمعة، فقيل لجُمعة: أيُّ الرِّجال أحبُّ إليك؟ فقالت: الشّنِقِ الكَتَد، الظاهر الجَلَد، الشديدُ الجذْب بالمسَدِ. وقيل لهند: أيُّ الرّجال أحب إليك؟ قالت: القريب الأمَد، الواسع البلَد، الذي يُوفَد إليه ولا يَفِد. وقد سئلت هند عن حَرّ الصيف وبرد الشتاء، فقالت: من جعل بُؤساً كأَذًى؟ وقد ضُرِب بها المثل، فمن ذلك قول ليلى بنتِ النَّضْر الشاعرة:

وكنـــزُ بـــنُ جُـــدْعانٍ دَلالـــةُ أُمُّـــه   وكانـت كِبْنْـت الخُـسّ أو هـي أكـبرُ

... وقال أبو عمرو بن العلاء: داهيتا نساءِ العرب هند الزرقاءُ، وعنزٌ الزرقاء، وهي زرقاءُ اليمامة". وفى "المزهر فى علوم اللغة" أمثلة من كلامها وفصاحتها ومقدرتها اللغوية وحضور بديهتها، فيرجع إليه. وفى "سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون" لابن نباتة ترجمة لها جاء فيها: "ابنة الخس هذه هي هند بنت الخس... قديمة في الجاهلية، أدركت القَلَمَّس أحد حكام العرب الذي يقال إنه أول من وصل الوصيلة، وسيَّب السائبة، وتحاكمت هي وأختها جمعة إليه في كلام لهما، ومدحته بأبيات حسنة منها:

إذا الله جـــازى محـــسناً بوفائـــه   فجـــازاك عـــني يا قَلَمَّـــسُ بالكـــرمْ

... وكانت ابنة الخس قد زنت بعبد لها، فلِيمَتْ، وقيل لها: ما حملك على الزنا؟ فقالت: "قُرْب الوساد، وطول السواد (والسواد: السرار)... وحب الفساد" لأن أباها كان قد منعها من الزواج. ولها أسجاع كثيرة وشعر قليل. وكانت تحاجي الرجال إلى أن مر بها رجل، فسألته المحاجاة، فقال لها: كاد. فقالت: كاد العروس يكون أميراً. فقال: كاد. فقالت: كاد المنتعل يكون راكباً. فقال: كاد. فقالت: كاد البخيل أن يكون كلباً. وانصرف، فقالت له: أحاجيك. فقال: قولي. فقالت: عجبتُ. فقال: عجبت للسبخة لا يجف ثراها ولا ينبت

مرعاها. فقالت: عجبتُ. فقال: عجبت للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها. فقالت: عجبتُ. فقال: عجبت لحُفَيْرَةٍ بين... لا يُمَلّ حفرها ولا يُدْرَك قعرها. فخجلت وتركت المحاجاة.

ومن أسجاعها: قيل لها: أي الخيل أحب إليك؟ فقالت: ذو الميعة الصنيع، السليط التليع، الآبد الضليع، الملهب السريع. فقيل لها: أي الغيوث أحب إليك؟ قالت: ذو الهيدب المنبعق، الأضخم المؤتلق، الصخب المنبثق. فقيل لها: أي الأمور أحب إليك؟ فقالت: الذي إذا حفز حفر وإذا خرج عقر. وقيل لها: ما مائة من المعز؟ قالت: مُوَيْل يشف الفقر من ورائه، مال الضعيف وحرفة العاجز. وقيل: فما مائة من الضأن؟ قالت: قرية لا حمى لها. قيل: فما مائة من الإبل؟ قالت: بَخٍ! جمال ومال، ومُنَى الرجال. قيل: فما مائة من الخيل؟ قالت: طَغَى من كانت له، ولا يوجد. قيل فما مائة من الحمير؟ قالت: عارية الليل، وخزي المجلس، لا لبن فيُحْلَب، ولا صوف فيُجَزّ. إن رُبِط عَيْرها أَدْلَى، وإن تُرِك وَلَّى. وقيل لها: من أعظم الناس في عينك؟ قالت: من كانت لي إليه حاجة.

ومن شعرها:

أشمّ كنصل السيف جَعْدٌ مُرَجَّلٌ   شغفتُ به لو كان شيءٌ مدانياً

وأُقْسِم لو خُيِّرْتُ بين لقائه   وبين أبي لاخترت ألا أبا ليا"

وفى "مجمع الأمثال" للميدانى، و"أنوار الربيع فى أنواع البديع" لابن معصوم أن "حكيمات العرب صخر بنت لقمان، وهند بنت الخُسّ، وجمعة بنت حابس، وابنة عامر بن الظَّرِب، الذي يقال له: ذو الحلم".

وكانت الغالبية الساحقة من العرب فى الجاهلية وثنيين، وكانت معابد الأوثان منتشرة فى طول البلاد وعرضها، وكان لكل معبد كاهن أو كاهنة يقصدهما الناس للاستقسام بالأزلام أو لمعرفة بعض أمور الغيب أو للذبح عند الأصنام أو لتقديم القرابين وما إلى ذلك. وكان الكهنة والكاهنات يمارسون سجعهم المعروف. ومن الكاهنات من اشتهرن باللسن والكلام. وأنا، وإن أوردت هنا بعضا من كلامهن، لا أرى أبدا أنهن كن يعلمن الغيب كما يقول الخبر التالى وأمثاله، وإنما أرجح أنهن كن يبثثن بين قصادهن من يعملن معهن دون علم أولئك القصاد، فيتجسسن عليهم ويتحسسن ما أتوا من أجله دون أن يشعروا كما يفعل الآن مساعدو العرافين وفاتحى المندل وضاربى الودْع من النصابين، ويخبرنها به مسبقا، فتستعد بالكلام المناسب توهم به أنها تعرف الغيب، وما هى للغيب بعارفة. أو ربما نحلهن المؤرخون هذه الأسجاع نحلا: فإن كانت الأولى فهى دليل على لَسَنهن وفصاحتهن. وإن كانت الثانية فهى

دليل على أن العرب كانوا حريصين على الإكبار من شأن النساء فيوردون أخبارا عنهن تعلى من أمرهن رغم أنها ليست بالأخبار الصحيحة. أى أن العرب حتى بعد الإسلام لم يكونوا يخفون احتياز الكواهن للبلاغة والكلام الجميل، بل يبدونه ويسلطون الضوء عليه رغم ممارستهن أمورا منافية للإسلام. فالمرزوقى وأشباهه ممن أوردوا لنا أخبار الكهان والكاهنات علماء مسلمون أوفياء لدين الله، ومع هذا لم يمنعهم هذا الوفاء لدينهم من الإشادة ببلاغةِ شهيرةَ الآتى ذكرها ومن على شاكلتها من الكاهنات ممن ينظر الإسلام لهن نظرة مقت وغضب.

فمن كاهنات العرب الكاهنة شهيرة السبئية، التى أومأنا إليها توا، والتى يقول المرزوقى عنها فى "الأزمنة والأمكنة": "حكى الهيثم بن عدي عن شيوخه قال: انطلقَتْ أمُ مالكٍ وطيئ ابنى سبإ، وهما ابنا أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، حين ترعرعا إلى كاهنة يقال لها: "شهيرة" بأرض سبإ بموضع يقال له: "بلخع" لتنظر إليهما وتقول فيهما، وساقَتْ معها إبلاً، فوجدت في طريقها سحق نعل، فجعلتها في كرية نخل، ثم دفعتها إلى رجل معها من قومها يقال له: "صعل"، فقالت: أَخْبِئْ هذا معك حتى نثور الكاهنة بشيء قبل المسألة. فلمّا انتهتْ إليها عقلتْ ببابها ثم قالت: يا شهيرة، إني قد خبأت لك خَبْئاً، فأخبريني به قبل المسألة. فقالت: أُقْسِم بالشمس والقمر، والكثكث والحجر، والرياح والمطر، لقد خبأتِ لي جلد بقر أشعر، وما به شعر محضر، أو ما به حضر. قالت: أحلفُ بالسهل والجبل، والجدي والحمل، والقمر إذا أفَل، وما حَنَّ بنجدٍ مِنْ جمل، أنْ قد خبأتِ لي فردَ نعل، في كرنافة نخل، مع رجل يدعى: صَعْل، رَبّ شاةٍ وحقل. قالت: صدقتِ، فأخبريني عما جئت أسألكِ عنه. قالت: تسألين عن غلامين ولدا في يومين في بطن توأمين أحدهما رَبْعَةٌ جَعْدٌ (تعني طيًّا)، والآخر سَبْطٌ نَهْدٌ (تعني مالكاً). قالت: صدقتِ، فأخبريني عنهما. قالت: أهما معك فأراهما أم نسجَعُ نبقت عنهما؟ قالت: هما معي. فنظرت إليهما ثم أقبلتْ على مالكٍ فقالت: يكون من ولده قبائل وعدد، ومصاليت نجد، ورأس وكتد، وحق وفند، يصيبون ويصابون، ويلحم عليهم ويلحمون. الحقّ لا المَيْن. ثم نظرتْ إلى طيئ فقالت: يكون في ولده سماح وجَلَد، وإباء ونكد، وعُرَام وسدد. يأكلون ولا يؤكلون، شديدو الكَلَب، قليلو السَّلَب. الحق لا الكذب".

وإذا كان هذا هو وضع المرأة المبدعة فى الجاهلية فإن وضعها فيما تلا ذلك من عصور كان أفضل. فالخنساء مثلا، وهى شاعرة مخضرمة، قد طبقت شهرتها الآفاق، ولها ديوان معظمه مراثٍ فى أخيها صخر قرأتُ بعض ما فيه من شعر الآن فأعدتنى لوعة الشاعرة الملتهبة

على أخيها ومسنى من حزنها ما مسنى وتعاطفت معها كأنها جالسة حيالى تبكى أخاها بدموعها الغزار وعينيها المقرحتين. وكان الرسول عليه السلام يحب الاستماع إلى شعرها ويشجعها ويستزيدها وهى تنشده، قائلا كلما فرغت من شىء منه: هيه يا خناس!

ومن الشاعرات المخضرمات أرطأة بنت سُهَيَّة وأروى بنت عبد المطلب وأسماء بنت أبى بكر والجُعْفِيّة زوجة عمرو بن مَعْدِيكَرِب والشيماء بنت الحارث السعدية وأم الفضل بنت الحارث الهلالية وأم جميل بنت أمية وأم قِرْفة وأم كلثوم بنت عبد ود وأمامة الربذية وخَوْلة بنت الأزور الكِنْدِيّة ودرة الهاشمية وزينب بنت العوام وسعدى بنت كريز وسلمى بنت بدر مالك وصفية بنت عبد المطلب وضباعة بنت عامر القشيرية وعاتكة بنت عبد المطلب وعفراء بنت عقال العذرية وعمرة بنت دريد بن الصمة وفارعة المُرِّيَّة وفاطمة بنت الأحجم الخزاعية وقُتَيْلَة بنت النضر وكبشة الزبيدية وهند بنت أُثَاثَة بن عباد وهند بنت النعمان بن المنذر وهند بنت عتبة.

ولم يحدث أن شطب المسلمون من سجل الشعر العربى أية من الشاعرات المعاديات للإسلام كأم جميل بنت أمية حمالة الحطب مثلا، أو أم قرفة، التى كانت تحرض على النبى مُحَمَّد ﷺ وتسبه، وأعدَّتْ ذات مرة أربعين من أولادها وأحفادها ليهجموا على المدينة المنورة ويقتلوا النبى عليه السلام. بل لقد أبقَوْا رغم ذلك على الأمثال التالية: "أمنع من أم قرفة" و"أعزّ من أم قرفة" و"عِزَّة أم قرفة"، التى تدل على عزتها وصعوبة الوصول بالأذى إليها، ولم يحذفوها. "قال الأصمعي: إذا أرادوا العز والمنعة قالوا: إنه لأمنع من أم قرفة. وهي امرأة مالك بن حذيفة بن بدر. كان يعلق في بيتها خمسون سيفاً كلهم محرم".

وما من شىء بليغ تقوله المرأة أو موقف كريم تقفه إلا حفظته الذاكرة العربية وأشاد به العلماء الرجال ونشروه فى الخافقين وضمنوه كتبهم: فمن ذلك مثلا الموقف التالى لأسماء بنت أبى بكر أمام النبى عليه السلام وما قالته من كلام تعبر به عما يجيش فى صدور النساء المسلمات وتتحدث بلسانهن جميعا، فقد أتت رضى الله عنها النبي عليه السلام وهو بين أصحابه فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله! أنا وافدة النساء إليك. إنّ الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنَّا بك وبإلهك. إنا معشرَ النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشرَ الرجال فُضِّلْتم علينا بالجُمَع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل. وإنّ أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظْنا لكم أموالكم، وغزلْنا أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنُشارككم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: أَعْلِمي مَنْ

خلفك من النساء أنّ حسن تبعُّل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتِّباعها موافقته، يعدل ذلك كله. فانصرفت المرأة وهي تُهَلِّل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله ﷺ، ففرحن أيما فرح.

وكانت عائشة خطيبة مفوهة، وقد حفظ التاريخ عددا من خطبها، ومنها خطبتها فى الدفاع عن أبيها حين بلغها أن قوما يحاولون أن ينالوا منه: "إن أبي لا تَعْطُوه الأيدي. هيهات! والله ذلك طَوْدٌ مُنِيف وظل مديد. أنجح والله إذ أكذبتم، وسبق إذ وَنَيْتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد. فتى قريش ناشئا، وكهفها كهلا. يفك عانيَها، ويريش مُمْلِقها، ويَرْأب صدعها، ويلمّ شعثها حتى أحلته قلوبها، ثم استشرى في دينه فما برحت شكيمته في ذات الله حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون. وكان، رحمة الله عليه، غزير الدمعة وَقِيد الجوانح شجيّ النشيج، فاصطفقت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به، والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، فأكثرت ذلك رجالات قريش، فحنت قسيَّها وفوّقت سهامها، وامتثلوه غرضا فما فَلُّوا له صفاة ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه، حتى إذ ضرب الدِّينُ بجِرَانه، وألقى بَرْكه ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا، اختار الله لنبيه ما عنده. فلما قبضه الله عز وجل ضربَ الشيطانُ رواقَه، ونصب حبائله، ومدَّ طُنُبه، وأجلب بخَيْله ورَجِله، فاضطرب حبل الإسلام، ومَرَج عهده، وماج أهله، وعاد مُبْرَمُه أنكاثا، وبُغِيَ الغوائل، وظنت الرجال أن قد أكثبت أطماعهم، ولات حين التي يرجعون، والصديق بين أظهرهم، فقام حاسرا مشمرا، فرفع حاشيته، وجمع قطرته، فردَّ نشر الإسلام على غَرّه، ولَمَّ شعثه بِطِيِّه، وأقام أَوَدَه بثِقَافه، فانذعر النفاق بوطأته، وانتاش الدين بنعشه. فلما أراح الحقَّ على أهله، وأقر الرؤوسَ على كواهلها، وحقن الدماءَ في أُهُبِها، حضرتْ منيته، فسَدّ ثُلْمَته بشقيقه في المرحمة ونظيره في السيرة والمَعْدَلَة. ذاك ابن الخطاب. لله أم حملتْ به، ودَرَّتْ عليه! لقد أوحدت به فبيح الكفرة وذيخها، وشرَّد الشرك شَذَرَ مَذَرَ، ونعج الأرض ونخها، فقاءت أكلها ولفظت خبيثها برأسه، وتصدق عنها وتصدى لها، وتأباها، ثم ورع فيها، ثم تركها كما صحبها. فأروني ما تقولون، وأيَّ يَوْمَيْ أبي تنقمون: أيوم إقامته إذ عدل فيكم أو يوم ظعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وحفظ التاريخ كلمة الخنساء الخالدة يوم القادسية وهى تحض أبناءها الأربعة على الجهاد والموت فى سبيل الله قائلة لهم: "يا بَنِيَّ، أنتم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين. ووالله الذي لا إله غيره إنكم لَبَنُو رجلٍ واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة. ما خنتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجَّنْتُ حسبكم، ولا غيَّرتُ نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين

من الثواب العظيم في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. يقول الله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ". فإذا أصبحتم غدًا فاغْدُوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، ولله على أعدائه مستنصرين". فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، فتقدموا واحدًا بعد واحد ينشدون الأراجيز، فقاتلوا حتى اسْتُشْهِدوا جميعًا. فلما بلغها الخبر قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

وبالمثل حفظ لنا التاريخ (الذكورى طبعا، والمتهم بأنه ضد النساء) أسماء طائفة من النساء اللاتى وقفن إلى جانب علىّ فى صراعه مع معاوية، ومنهن زرقاء بنت عدى وعكرشة بنت الأطرش وأم الخير بنت حُرَيْش. ولأولاهن قصة مع معاوية أبدت فيها رباطة جأش وشجاعة وحكمة وفصاحة فى الرد. جاء فى "التذكرة الحمدونية" لابن حمدون مثلا: "أوفد معاوية إلى الزرقاء بنت عدي بن غالب فقال لها: ألستِ راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصَّفَّيْن توقدين الحرب، وتحضين على القتال؟ فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنه قد مات فيَّ الرأس، وبقي فيَّ الذَّنَب. والدهر ذو غِيَر. ومن تفكر أبصر. والأمر يحدث بعده الأمر. قال لها: صدقت. فهل تحفظين كلامك يوم صفين؟ قالت: ما أحفظه. قال: لكني والله أحفظه. لله أبوك! لقد سمعتك تقولين: أيها الناس، إنكم في فتنة، غَشِيَتْكم جلابيبُ الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة. فيا لها من فتنة عمياء صماء لا يُسْمَع لقائلها، ولا يُنْقَاد لسائقها! أيها الناس، إن المصباح لا يضيء الشمس، وإن الكواكب لا تَقِد في القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد. ألا من استرشدَنا أرشدناه، ومن استخبرَنا أخبرناه. إن الحق يطلب ضالَّته، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنْ قد اندمل شِعْب الشتات، والتأمت كلمة العدل، وغلب الحق باطله. فلا يعجلن أحد فيقول: كيف؟ وأنى؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ألا إن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء. والصبر خير في الأمور وأحمد في عواقبها. إيهاً إلى الحرب قُدُماً غير ناكصين، فهذا يومٌ له ما بعده.

ثم قال معاوية: والله يا زرقاء لقد شَرِكْتِ علياً في كل دمٍ سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك من بشَّر بخير وسَرَّ جليسه. قال لها: وقد سرك ذلك؟ قالت: نعم والله سرني قولك. فأَنَّى لي بتصديق الفعل؟ فقال: معاوية: والله لَوَفاؤُكم له بعد موته أعجبُ إليَّ من حبكم له في حياته".

وعلى ذات الشاكلة احتفظت كتب الأدب والتاريخ بخطب الخطيبات من النساء فى المناسبات المختلفة. ومنها الخطبة الصاعقة لأم كلثوم بنت علىّ حين قُتِل أخوها الحسين فى

كربلاء، فوجهت حديثها إلى أهل العراق، الذين مَنَّوْه الأماني وأوهموه أنهم واقفون إلى جانبه ضد يزيد، لكنهم عندما جد الجد تركوه يواجه جيش الدولة وحده هو ونساء بيته وأطفاله. جاء في كتاب "جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة" لأحمد زكى صفوت: "لما قُتِل الحسين بن عليّ عليهما السلام، وأُدْخِل النسوة من كربلاء إلى الكوفة... رفع علي بن الحسين عليهما السلام رأسه، وقال بصوت ضئيل، وقد نحل من المرض: يا أهل الكوفة، إنكم تبكون علينا، فمن قتَلَنا غيركم؟ وأومأت أم كلثوم بنت عليٍّ عليهما السلام إلى الناس أَنِ: اسكتوا. فلما سكنت الأنفاس، وهدأت الأجراس، قالت: "أبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على نَبِيّه. أما بعد، يا أهل الكوفة، يا أهل الخَتْر والخَذْل. لا فلا رَقَأَتِ العَبْرة، ولا هدأت الرّنَّة. إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دَخَلًا بينكم. ألا وهل فيكم إلا الصَّلَف والشنف وملق الإماء وغمز الأعداء؟ وهل أنتم إلا كمَرْعًى على دِمْنَة، وكفضة على ملحودة؟ ألا ساء ما قدمتْ أنفسكم أَنْ سَخِط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون؟ إي والله فابكوا. وإنكم والله أحرياء بالبكاء. فابكوا كثيرا، واضحكوا قليلا، فلقد فزتم بعارها وشنارها، ولن تَرْحَضوها بِغسْلٍ بعدها أبدًا. وأَنَّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شبان أهل الجنة، ومنار محجتكم، ومِدْرَه حجتكم، ومفرخ نازلتكم؟ فتعسًا ونكْسًا! لقد خاب السعي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضُرِبَتْ عليكم الذلة والمسكنة. لقد جئتم شيئًا إدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أتدرون أيّ كبد لرسول الله فَرَيْتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم؟ لقد جئتم بها شوهاء خرقاء، شرُّها طِلاعُ الأرض والسماء. أفعجبتم أنْ قطرت السماء دمًا؟ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا تحفزه المبادرة، ولا يخاف عليه فوت الثأر. كلا، إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد". ثم وَلَّتْ عنهم، فظل الناس حيارى، وقد ردوا أيديهم إلى أفواههم، وقال شيخ كبير من بني جُعْفِيّ، وقد اخْضَلَّتْ لحيته من دموع عينيه:

كهولهمو خير الكهول، ونسلهم،   إذا عُدَّ نسل، لا يبور ولا يَخْزَى"

وحين تغلبت ليلى الأخيلية فى شِعْرها على النابغة الجعدى احتفت بتلك الغلبة كتب الأدب، التى كتبها الرجال بطبيعة الحال، أيما احتفاء، فضلا عن أنها لم تتحرج من إيراد أى شيء مما تهاجيا به مهما كان عاريا ينبغى الاحتشام منه. جاء فى كتاب "الأغانى" للأصفهانى: "كان سبب المهاجاة بين ليلى الأخيلية وبين الجعدي أن رجلاً من قُشَيْر يقال له: ابن الحيا، وهي أمه، واسمه سوار بن أوفى بن سبرة، هجاه وسب أخواله من أزد في أمر كان بين قشير وبين بني جعدة، وهم بأصبهان متجاورون، فأجابه النابغة بقصيدته التي يقال لها: "الفاضحة".

سميت بذلك لأنه ذكر فيها مساوئ قشير وعَقِيل وكل ما كانوا يُسَبُّون به، وفَخَر بمآثر قومه وبما كان لسائر بطون بني عامر سوى هذين الحيين من قُشَيْر وعَقِيل:

جَهِلْــتَ علــيَّ ابــنَ الحيــا وظلمتَــني   وجمعــتَ قــولاً جــاء بيتــاً مــضلّلا

وقال في هذه القصة أيضاً قصيدته التي أولها:

إمّــا تَــرَىْ ظُلَــل الأيام قــد حــسرتْ   عــني، وشَمَّــرْتُ ذيــلاً كــان ذيَّالا

... وقال في هذه القصة أيضاً قصيدته التي أولها:

أبلــغ قــشيراً والحــريش، فمــا   ذا رَدَّ في أيــديكمو شــتمي؟

وفخر عليهم بقتْل علقمة الجعفي يوم وادي نساح وقَتْل شراحيل بن الأصهب الجُعْفِيّ، وبيوم رحرحان أيضاً، فقال فيه:

هلا سألت بيَوْمَيْ رحرحانَ، وقد   ظنت هوازنُ أن العز قد زالا

فلما ذكر ذلك النابغة قال:

تلــك المكــارم لا قَعْبَــان مــن لــبنٍ   شِــيبَا بمــاء فعــادا بعــدُ أبــوالا

ففخر بما لَهُ وغَضَّ مما لهم. ودخلت ليلى الأخيلية بينهما فقالت:

وما كنتُ لو قاذفت جل عشيرتي   لأذكــر قَعْــبَيْ حــازرٍ قــد تــثمَّلا

وهي كلمة. فلما بلغ النابغة قولها قال:

ألا حيِّيــا ليلــى وقــولا لهــا: هــلا   فقــد ركبــت أيــراً أغــرَّ محجَّــلا

وقــد أكلــت بقــلا وَخِيمــاً نباتــه   وقد شربت من آخر الصيف أيّلا

(يعني ألبان الإبل)

...

فردت عليه ليلى الأخيلية فقالت:

أنابــــغُ، لم تنبــــغ ولم تــــك أولا   وكنــت صــنيا بــين صــدين مجهــلا

(الصنيّ: شِعْب صغير يسيل منه الماء. وصدَّان: جبلان)

أنابــغ، إن تنبــغ بلؤمــك لا تجــد   للؤمــك إلا وســط جعــدة مجعــلا

تعــــيّرني داءً بأمِّــــك مِثْلُــــه   وأيّ حَــصَانٍ لا يقــال لهــا: هــلا؟

فغلبتْه".

وعلى نفس الشاكلة احتفت كتب الأدب والنقد بقصتها أيضا مع عبد الملك بن مروان وردها المفحم عليه، وهو الخليفة صاحب الحول والسلطان، حتى اضطرته اضطرارا إلى السكوت والاستغراب فى الضحك تسليما بأنها فلجتْ عليه فيما دار بينهما من حوار أورده صاحب "الأغانى" على النحو التالى: "عن ابن قتيبة قال: بلغني أن ليلى الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنَّتْ وعجزتْ، فقال لها: ما رَأَى توبةُ فيك حين هَوِيَكِ؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين وَلَّوْكَ. فضحك عبد الملك حتى بدت له سِنٌّ سوداء كان يخفيها".

كذلك احتفظت كتب الأدب بشعرها فبقى لنا منه طائفة جيدة ما بين أبيات فردة ونتف ومقطوعات وقصائد، وصُنِع لها ديوان فى العصر الحديث، ومنه هذه القصيدة الرائعة فى رثاء توبة بن الحُمَيِّر، وكان توبة قد قتل فى إحدى المعارك القبلية، وكانت تحبه ويحبها مع حفاظ على العفاف، وإن لم يتزوجا. والقصيدة يغشيها الشجن من كل جانب وتفيض بالحكمة والوفاء والتعمق فى فهم الحياة وتقبُّل مكارهها لأنه لا محيص لأحد مهما كان شأنه من تلك المكاره:

أَقْسَمْتُ أَرْثِي بَعْدَ تَوْبَةَ هالكاً ... وأَحْفِلُ مَنْ دارَتْ عَلَيْهِ الدَّوائِرُ
لَعَمْرُكَ ما بالمَوْتِ عارٌ على الفَتى ... إذا لَمْ تُصِبْهُ في الحياةِ المَعايِرُ
ومَا أَحَدٌ حيٌّ، وإنْ عاشَ سالِماً، ... بأخْلَدَ ممَّنْ غَيَّبَتْهُ المقابِرُ
ومَنْ كان ممّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جازِعاً ... فلا بُدَّ يَوْماً أنْ يُرَى وهو صابِرُ
ولَيْسَ لذِي عَيْشٍ عنِ المَوْتِ مَقْصَرٌ ... ولَيْسَ عَلى الأيّامِ والدهر غابِرُ
ولا الحيُّ ممّا يحْدِثُ الدَّهْرُ مُعْتَبٌ ... ولا المَيْتُ إنْ لَمْ يَصْبِرِ الحيُّ ناشِرُ
وكُلُّ شبابٍ أو جَدِيدٍ إلى بِلًى ... وكُلُّ امرِىءٍ يَوْماً إلى اللهِ صائِرُ
وكُلُّ قَرِينَيْ إلْفَةٍ لِتَفَرُّقٍ ... شَتاتاً، وإنْ ضَنَّا وطالَ التَّعاشُرُ
فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ حيّاً ومَيّتاً ... أَخا الحَربِ إنْ دارَتْ عَلَيْكَ الدَّوائِرُ
فآلَيْتُ لا أَنْفَكُّ أَبْكِيكَ ما دَعَتْ ... على فَنَنٍ وَرْقاءُ أَوْ طار طائِرُ
قَتِيلُ بَنِي عَوْفٍ، فيا لَهْفَتا لَهُ ... وما كُنْتُ إيَّاهُمْ عَلَيْهِ أُحاذِرُ
ولكِنَّما أَخْشى عَلَيْهِ قَبِيلَةً ... لَها بِدُرُوبِ الرُّومِ بَادٍ وحاضِرُ

ولا ينبغى أن ننسى الصفحات الطوال التى خصصها صاحب "الأغانى" مثلا لسُكَيْنة بنت الحسين، وأورد أحداثا وأقاويل كثيرة أستبعد وقوعها استبعادا شديدا لما فيها من إساءة لها، ولم يمنعه من نسبتها إليها أنها حفيدة النبى عليه السلام، وكان المتوقع أن يكون الكلام عنها حذرا ملتصقا بالحقائق لا ذاهبا مع الخيالات. وهذا دليل على أنه من الممكن أن يكون قد أضيف إلى هذه أو تلك من النساء أشياء لم تفعلها أو لم تقلها، لكن لا يمكن البتة الزعم بأن العرب القدماء قد ضيقوا على النساء الشاعرات أو الخطيبات أو الناقدات. ولنقرأ النص التالى على سبيل المثال، وهو "أن الفرزدق خرج حاجاً، فلما قصى حجه عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينة بنت الحسين عليهما السلام فسلم، فقالت له: يا فرزدق، من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت! أشعر منك الذي قال:

بنفسي مَنْ تجنُّبه عزيزٌ　　　عليَّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ
ومن أُمْسِي وأُصْبِح لا أراه　　　ويَطْرُقني إذا هَجَعَ النِّيامُ

فقال: والله لو أذنتِ لي لأُسْمِعَنّك أحسن منه. قالت: أقيموه. فأُخْرِج ثم عاد إليها من الغد فدخل عليها، فقالت: يا فرزدق، من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت! صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول:

لولا الحياء لعادني استعبارُ　　　ولزرتُ قبركِ، والحبيب يزارُ
كانت إذا هجر الضجيعُ فِراشَها　　　كُتِم الحديث وعَفَّت الأسرارُ
لا يلبثُ القرناءُ أن يتفرقوا　　　ليلٌ يكرُّ عليهمو ونهارُ

فقال: والله لئن أذنتِ لي لأسْمِعنّك أحسن منه. فأمرت به فأخرج، ثم عاد إليها في اليوم الثالث وحولها مولَّداتٌ لها كأنهن التماثيل، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهن فأُعْجِب بها وبُهِت ينظر إليها. فقالت له سكينة: يا فرزدق، من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت! صاحبك أشعر منك حيث يقول:

إن العيون التي في طَرْفها مرضٌ　　　قتلْننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرَعْن ذا اللبِّ حتى لا حَراك به　　　وهنَّ أضعف خلق الله أركانا
أتبعتُهم مقلةً إنسانُها غَرِقٌ　　　هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا؟

فقال: والله لئن تركتِني لأسمعنك أحسن منه. فأمرت بإخراجه، فالتفت إليها وقال: يا بنت رسول الله ﷺ، إن لي عليك حقاً عظيماً. قالت: وما هو؟ قال: ضربتُ إليك آباط الإبل

من مكة إرادة التسليم عليك، فكان جزائي من ذلك تكذيبي وطردي وتفضيل جرير عليَّ ومنعك إياي أن أنشدك شيئاً من شعري، وبي ما قد عِيلَ منه صبري، وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت. فإذا أنا متُّ فمُرِي بي أن أُدْرَج في كفني وأُدْفَن في... هذه (يعني الجارية التي أعجبته). فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية، فخرج بها آخذاً بِرَيْطَتها، وأمرت الجواري، فدفعن في أقفيتهما، ونادته: يا فرزدق، احتفظ بها وأَحْسِنْ صحبتها، فإني آثرتك بها على نفسي". ولا أحسب أن هناك حرية فى الحديث عن النساء أوسع من هذه حتى بمقاييس زماننا. ولا يمكن بتاتا القول بأنه كان هناك تضييق على النساء الشاعرات أو المتكلمات أو الناقدات بأى سبيل كان. ومع هذا ففى "الأغانى" عن سكينة وغيرها من النساء ما لا يمكن أن يصدقه عقل. فصاحب "الأغانى" واسع البرجل، خياله شيطانى عجيب، وهو لا يبالى بصدق أو كذب، ولا احتشام عنده لشىء ولا مبالاة لديه بأى شىء. وأسلوبه البسيط السلس المنساب الساحر وروحه الفكهة العذبة وعلمه الغزير ونقده العميق يحلِّى كل ما يقول ويخدِّر العقل تخديرا شهيا.

ولدينا الحوار العجيب الذى دار بين عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر عند احتدام الحرب بينه فى مكة وبين جيش عبد الملك بن مروان والكلمة الخالدة التى قالتها له تحثه على الصبر والقتال وعدم التسليم لأعدائه مهما أكرموه لقاء ذلك التسليم واحتفَوْا به، وقد نقلتُ الحوار من كتاب "الفخرى فى الآداب السلطانية" لابن الطِّقْطِقَى. قال: "فأما عبد الله بن الزبير فإنه كان قد اعتصم بمكة، وبايعه أهل الحجاز وأهل العراق... فأرسل الحجاج إليه فحاصره بمكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وحاربه، وخذله أهله وأصحابه، فدخل على أمه وقال لها: يا أمت، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي غير نفرٍ يسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت له: أنت أعلم بنفسك: إن كنت تعلم أنك على حق فامض لشأنك ولا تمكِّن من رقبتك غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك ومن معك! وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فقال: يا أمت، إني أخاف إن قتلوني أن يمثِّلوا بي. قالت: يا بني، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها. وما زالت تحرضه بهذا وأشباهه حتى خرج فصمم على المناجزة، فقُتِل".

ومن نساء الخوارج تقابلنا أم حكيم، التى كانت زاهدة زهدا عجيبا فى متاع الدنيا بما فى ذلك الزواج نفسه، وتتحرق شوقا إلى القتال لعلها أن تُقْتَل وتستريح، وعبرت عن ذلك شعرا. وهو ما لا أذكر أنى وجدت شبيها له بين أشعار النساء:

أَلا إِنَّ وَجْهاً حَسَّنَ اللهُ خَلقَهُ ... لأَجدَرُ أَن يُلْفَى بِهِ الحُسنُ جامِعا

وَأُكْرِمُ هذا الجِرْمَ عَن أَن يَنالَهُ ... تَوَرُّكُ فَحلٍ هَمُّهُ أَن يُجامِعا

* * *

أَحمِلُ رَأساً قَد سَئِمتُ حَمْلَه

وَقَد مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَه

ألا فَتًى يَحْمِلُ عَنّي ثِقْلَه؟

ومن نساء الخوارج ذوات العزيمة الصلبة والجأش الرابط واللامبالاة بالمخاطر والعواقب أم علقمة الخارجية، التى أُتِيَ بها إلى الحجاج، فقيل لها: وافقيه في المذاهب، فقد يذهب الشر بالمكر. فقالت: قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدين. فقال لها الحجاج: قد خبطتِ الناس بسيفك يا عدوة الله خَبْطَ عَشْوَاء. فقالت: لقد خفتُ الله خوفاً صيَّرك في عيني أصغر من ذباب. وكانت منكَّسة، فقال: ارفعي رأسك وانظري إليَّ. فقالت: أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه. فقال: يا أهل الشام، ما تقولون في دم هذه؟ قالوا: حلال! فقالت: لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حيث استشارهم في أمر موسى، فقالوا: أَرْجِهْ وأخاه. فقتلها.

أما ابنة أسلم بن عبد البكرى، وهو من الخوارج، فكان لها أسلوب آخر فى مواجهة الحجاج واستلال سخيمته، ونجحت وأنقذت أباها بشِعْرها وحسن تلطفها وذكائها هى والنسوة اللاتى حضرن معها لقاء الحجاج. يقول ابن كثير فى "البداية والنهاية": "قال الهيثم بن عدي عن ابن عباس: كتب عبد الملك إلى الحجاج أن: ابعثْ إليَّ برأس أسلم بن عبد البكري لِمَا بلغني عنه. فأحضره الحجاج، فقال: أيها الأمير، أنت الشاهد، وأمير المؤمنين الغائب، وقال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنْ جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"، وما بلغه باطل. وإني أَعُول أربعا وعشرين امرأة ما لهنّ كاسبٌ غيري، وهنَّ بالباب. فأمر الحجاج بإحضارهن، فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته، وهذه: أنا عمته، وهذه: أنا أخته، وهذه: أنا زوجته، وهذه: أنا بنته، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العَشْر، فقال لها الحجاج: من أنت؟ فقالت: أنا ابنته. ثم قالت: أصلح الله الأمير. وجثتْ على ركبتيها وقالت:

أحجاجُ، لم تشهد مقام بناته ... وعماته يندبنه الليل أجمعا

أحجاج، كم تقتل به إن قتلتَه؟ ... ثماناً وعشراً واثنتين وأربعاً

أحجـاج، مـن هـذا يقـوم مقامـه علينـا؟ فمهـلاً، لا تـزدنا تضعـضعا

أحجـاج، إمـا أن تجـود بنعمـة علينـا وإمـا أن تقتّلنـا معـا

قال: فبكى الحجاج وقال: والله لا أعَنْتُ عليكن ولا زدتُكن تضعضعا. ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل، وبما قالت ابنته هذه، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته، وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقُّدها في كل وقت".

وقد خصص علماؤنا القدامى كتبا لإبداعات النساء وأخبارهن وأحاديثهن لم يتوقفوا عن إيراد شيء مما قيل أو حدث مهما كان من حساسيته. وكانوا دائمي الثناء عليهن والاحتفاء والإعجاب بما يقلنه من شعر أو نثر ووضعه موضعا عاليا. فمن ذلك "الإماء الشواعر" لأبي الفرج الأصفهاني، و"بلاغات النساء" لابن طيفور، و"أشعار النساء" للمرزباني، و"نساء الخلفاء" لابن الساعي، و"كتاب النساء الشواعر" لابن الطراح، و"نزهة الجلساء فى أشعار النساء" للسيوطى، و"الترقيص" لمحمد بن المعلى الأزدى، بالإضافة إلى الفصول التى خُصِّصَتْ لهن فى كتب كثيرة، وذلك غير كتب التراجم وكتب الأدب التى تستشهد بأشعارهن وخطبهن وحواراتهن وأحاديثهن فيما تستشهد به، بالإضافة إلى الكتب التى تتناول تراجم النساء بوجه عام لا الشواعر فقط كـ"كتاب النساء" للجاحظ، و"المعروفات من نساء قريش" لابن الكلبى، و"كتاب النساء" للهيثم بن عَدِيّ، و"طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار" لابن عبد ربه الأندلسى، و"كتاب النساء" لحفص بن عمرو العنبرى، و"كتاب أخبار النساء" لهارون بن علي المنجم، و"كتاب النساء" لأحمد بن عبد الله الرقي، و"أخبار النساء" لابن الجوزى، و"كتاب أخبار النساء" لابن حاجب النعمان، وكتاب "النساء والغزل" لعبد الله بن مُسْلم بن قتيبة...

ويصور الدقيقى فى كتابه: "اتفاق المبانى وافتراق المعانى " موقف العرب من إبداعات النساء الشعرية وإكبارهم إياها وشدة اهتمامهم بها وحرصهم على الإشارة إلى تفوقها على كثير من أشعار الرجال. قال: "ولم تزل العرب تصف النساء بحسن المنطق وتستملح منهن قَرْض الشعر والقدرة عليه. فمن ذلك عمات النبي ﷺ وأشعارهن في رثاء عبد المطلب، ومنهن قتيلة بنت النضر. قتل رسول الله ﷺ أباها صبرا يوم بدر. ولما انصرف من بدر كتبت إليه في أبيها قبل إسلامها:

مـا كـان ضَـرَّكَ لـو مننـتَ؟ وربمـا مَـنَّ الفـتى وهـو المَغِـيظ المُحْنَـقُ

النـضر أقـربُ مَـنْ أَسَـرْتَ قرابـةً وأحقُّهـم إن كـان عتـقٌ يُعْتَـقُ

أمحمـــدٌ، ياضِـــنْءَ كـــل نجيبـــةٍ　　في قومهـــا، والفحـــل فحـــلٌ مُعْـــرِقُ

فلما بلغ رسول الله بكى حتى أَخْضَلَت الدموع لحيته وقال: لو بلغني شِعْرُها قبل أن أقتله لعفوت عنه".

ومن شاعرات العصر الإسلامى أسماءُ صاحبةُ جعدٍ والربابُ بنت امرئ القيس والعيوق بنت مسعود وأم الأسود الكلابية وأم البراء بنت صفوان وأم الجراح العدوية وأم الحكيم بنت قارظ وأم حكيم بنت يحيى وأم حمادة الهمدانية وأم خالد النميرية وأم ظبية وأم عقبة وأمامة بنت خزرج وحفصة بنت عمر بن الخطاب ودرة بنت أبى لهب وسالمة الكلبية وسنيرة العصيبية وسعدى الكلبية وسلوة الهمدانية وعاتكة بنت زيد وعائشة بنت أبى بكر وعفراء بنت الأحمر الخزاعية وعمرة بنت مرداس وفاطمة الزهراء وفريعة بنت همام الزلفاء ومزروعة بنت عملوق الحميرية وميسون بنت بحدل ونائلة بنت الفرافصة ونعم امرأة شماس بن عثمان وهند الجلاحية وهند الهمدانية...

ومن شعر فاطمة الزهراء هذه الأبيات التى ترثى بها أباها عليه الصلاة والسلام، فتبكى عليه وتبكى على نفسها:

وكنـــتَ بـــدراً ونـــوراً يُستـــضاء بـــه　　عليـك تنـزلُ مـن ذي العـزّة الكتـبُ

وَكـــانَ جبريـــلُ روحُ القـــدسِ زائـــرَنا　　فَغـابَ عنّـا، وكـلُّ الخـير محتجِـبُ

فَلَيْــتَ قبلــكَ كـان المـوتُ صـادَفَنا　　لَمّـا مـضيتَ وحالَـت دونـك الحجـبُ

إنّا رُزِئْنــا بمــا لَمْ يُـــرْزَ ذو شـــجنٍ　　مِـــنَ البريّـــة لا عجـــمٌ ولا عـــربُ

ضــاقَت علــيَّ بــلادٌ بعـدَما رحبـتْ　　وَسِيمَ سِبْطاكَ خـسفاً فيـه لي نَـصَبُ

فأنـــت والله خـــير الخلـــق كلّهمـــو　　وَأصدق الناس حيثُ الصدق والكذبُ

فـسوف نبكيـكَ مـا عـشنا ومـا بَقِيَـتْ　　منّــا العيــونُ بتهمــالٍ لهــا ســكبُ

أما الأبيات التالية فهى لميسون بنت بحدل، وهى بدوية تزوجها معاوية، فانتقلت إلى عيشة القصور فى الشام، لكنها كانت تحن إلى حياة البادية البسيطة الحرة حيث أهلها وحيث مرابع الطفولة والصبا وحيث الذكريات الغالية التى تلح عليها ولا تريد أن تتركها فى حالها الجديدة الفخمة:

لَبَيْـــــتٌ تخفِـــــقُ الأرواحُ فيـــــه　　أحـــبُّ إليَّ مـــن قـــصرٍ مُنيـــفِ

وأصـــواتُ الـــرياحِ بكـــل فَـــجٍّ　　أحـــبُّ إلي مـــن نَقْـــر الـــدُّفوفِ

وبَكْـــرٌ يتْبَـــعُ الأظْعـــانَ صَـــعْبٌ أحـــبُّ إلى مـــن بَغْـــلٍ زَفُـــوفِ
وكلـــبٌ ينـــبح الطُـــرَّاق عـــنّي أحـــبُّ إليَّ مـــن قِـــطٍّ ألـــوفِ
ولُـــبْسُ عبـــاءةٍ وتقَـــرَّ عيْـــني أحـــبُّ إليَّ مـــن لُـــبْسِ الـــشُّفوفِ
وأكْـــلُ كُـــسَيْرَة في كِـــسْرِ بَيْـــتي أحـــبُّ إليَّ مـــن أَكْـــلِ الرَّغيـــفِ
وخَـــرْقٍ مِـــن بـــني عمـــي نحيـــفِ أحـــبُّ إليَّ مـــن عِلْـــجٍ عليـــفِ
خـــشونةُ عِيـــشتي في البـــدْو أشـــهى إلى نفـــسي مـــن العـــيشِ الظَّريـــفِ
فمـــا أبْغـــي ســـوى وطـــني بـــديلا فحـــسبي ذاكَ مـــن وطـــن شَـــرِيفِ

ونصل إلى العصر الأموى، ومن شواعره ابنة عَقِيل بن أبى طالب وأروى بنت الحارث وأم حكيم الخارجية وأم سنان بنت خيثمة وأم عمران بن الحارث وأميمة امرأة ابن الدمينة وبكارة الهلالية وحميدة بنت النعمان بن بشير وزوجة أبى الأسود الدؤلى وسُكَيْنة بنت الحسين وشقراء بنت الحباب وفاطمة بنت الحسين وكنزة أم شملة بنت بُرْد المنقرى وليلى الأخيلية وليلى العامرية وهند بنت يزيد الأنصارية...

وقد وجدتُ لبنت عقيل بن أبى طالب ثلاثة أبيات حزينة بمائة بيت فى إيجازها واكتنازها بالمعانى العميقة والمشاعر الجياشة الملتاعة:

مـــاذا تقولـــون إن قـــال النـــبيّ لَكُـــم: مـــاذا فَعَلـــتم وَأنـــتُم آخـــرُ الأمـــمِ
بِعِتْـــرَتي وَبِأَهْلـــي بعـــدَ مُفْتَقَـــدي مِـنهم أُسَـارَى وَقَتْلَـى ضُـرِّجوا بـدمِ؟
مـا كـان هـذا جزائـي إذْ نـصحتُ لَكـم أَن تَخْلُفُـــوني بِـــسُوءٍ في ذوي رَحِمـــي

ولفاطمة بنت الحسين أبيات ترثى أباها، فيها مع اللوعة فن معجب وأسلوب جديد فى بكاء الميت يتمثل فى حوارها مع الغراب والنهاية العجيبة التى انتهى بها الحوار، ولولا هى لما انتهى:

نعـقَ الغُـرابُ، فَقُلْـتُ: مَـنْ تَنعَـاهُ، وَيْحَـكَ، يا غُـرابْ؟
قـالَ: الإمـامَ. فقلـتُ: مَـنْ؟ قـــالَ: الموفـــق للـــصوابْ
قُلـت: الحُـسينَ؟ فقـال لي بِمَقَـــالِ مَحـــزونٍ أَجـــابْ:
إنَّ الحـــــسينَ بكــــــربلا بـــين الأســـنَّةِ والحِـــرَابْ
أَبْكِـــي الحـــسينَ بِعَبْـــرَةٍ تُرْضِـــي الإلـــهَ مـــع الثـــوابْ

ثمَّ اســـتقلَّ بـــهِ الجَنَـــا ... حُ، فَلَــم يُطِــقْ رَدَّ الجَــوابْ

فبكيـــتُ مِمَّـــا حَـــلّ بِي ... بَعــدَ الرَّضِـــيِّ المــستجابْ

ومن شواعر مخضرمى الدولتين رابعة العدوية وزينب بنت الطثرية... وقد ذكر أبو عبد الله مُحَّد بن المعلى بن عبد الله الأزدي في كتاب "الترقيص" كل امرأة من العرب رقَّصت ابنها وهو صغير بشعرها. وذكر الصولي أشعار خلفاء بني العباس وبعض نسائهم، وقد عمل ابن المغربي أيضا مثل ذلك. ولأبي الفرج الأصبهاني كتاب جمع فيه ما للإماء والشواعر، وذكر ابن المعتز في كتاب "طبقات الشعراء" أسامي الجواري ممن نُسِبْن إلى الشعر وشُهِرْن به وعُرِفْن: "منهن عريب جارية المأمون، وكانت ماجنة ظريفة فائقة الجمال صبيحة مليحة لم يكن في عصرها أحدٌ آدبُ منها ولا أشعر ولا أعلم بأخبار الناس وأيامهم ولا أحفظ للسير والنوادر والملح منها. وكانت راوية لأشعار الجاهلية الجهلاء وأشعار المخضرمين والإسلاميين وأشعار المحدثين، تهذُّها هَذًّا وتفسرها بغرائبها ومعانيها، وكانت مطبوعة ظريفة حافظة لفنون الآداب. وكان المأمون قد شغف بحبها لبراعتها في الأدب وغيره، فكان لا يصبر عنها.

ومنهن خنساء جارية هشام المكفوف، وكانت بارعة الأدب فصيحة مفوهة شاعرة مفلقة ماجنة ظريفة عالمة بالأخبار والأسمار ظريفة نبيلة في نفسها كثيرة النوادر، ولم يقاومها أحد في الكلام. كانت من أعلم الناس بالكلام، تضع لسانها حيث شاءت وتقطع جميع من يكلمها. وكانت مشهورة معروفة، وأُعْطِيَ هشام بها الرغائب فامتنع من بيعها لحسن أدبها وفصاحتها وبيانها وحسن شعرها ولطفها. وكان أصحاب الكلام يجتمعون عندها ويتناظرون فلا يختلفون في شيء إلا تحاكموا فيه إليها، وتحكم وتقضي، فيَنْفُذ حكمها ويُقْبَل قضاؤها. كانت تمدح الخلفاء والوزراء والأشراف والملوك، فكان هشام يأخذ صلات الملوك وجوائزهم حتى جمع من ذلك مالا كثيرا.

ومن مُحْدَثي الشعراء من النساء عنان جارية الناطفي، وكانت من ألطف الناس وأظرفهم وأشعرهم، مطبوعة. وكانت من معرفة الغريب والنحو بمحلٍّ رفيع، عالمة بالأنساب عارفة بأيام الناس كثيرة النوادر والأخبار. وذكر عمرو بن عبد الله الكوفي أنه قال: شهدتها وقد اجتمع عندها أدباء الناس وشعراؤهم وأصحاب النحو والغريب وأهل الأخبار والأنساب، فما جرى في ذلك المجلس من هذه الصنوف التي ذكرتها إلا وجدتها أكثر منهم وأحفظ. قال: ولقد سمعتها تقول: حفظت من سير الناس ألف مجلد ولا أدع بيتا لجاهلي ولا مخضرمي ولا إسلامي سمعته إلا حفظته. وكان أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وأشجع السلمي وسَلْم الخاسر وغيرهم من نظرائهم يجتمعون عندها، فكانت تناقضهم ويناقضونها.

ونوادرهم باجتماعهم عندها كثير. وكانت تمدح آل برمك فتجيد. وأُعْطِيَ الناطفي بها مالا كثيرا، فامتنع من بيعها. قال: وما علمنا أن جارية بلغت في الأدب والمعرفة والبيان والفصاحة وقول الشعر مع ما جمعت إلى هذه الخلال من الذكاء والظرف مبلغها. وذُكِرَتْ في الشرق والغرب عند الملوك والأشراف، وتحدثوا عندهم بنوادرها وشعرها، فكُتِب من شعرها ونوادرها في البلدان ما لا يحصى.

ومن النساء سَكَن جارية محمود الوراق. وكانت من أعذب الناس ألفاظا وأشعر الناس وأجودهم معاني وأحكمهم رصفا وأحسنهم وصفا، عالمة بالأخبار والأنساب، عارفة بأيام الناس مناظِرة في الكلام فائقة فيه، لا يكلمها أحد إلا قَطَعَتْه. وكان محمود مع براعة أدبه وحسن شعره ومعرفته بفنون الآداب وبصره بجيد الشعر ورديئه وما كان رُزِق من الحكمة يقول: ربما والله تتقاصر إليَّ نفسي في مناظرتها لأنها تأتي من بدائع الكلام ومن الاحتجاج بشيء لم يُسْمَع بمثله من أحد من العلماء الذين نُسِبوا إلى الكلام وعُرِفوا به، فأقول: يا سبحان الله! من أين هذه الفطنة النقية الخالصة؟ فأبقى مبهوتا. وكانت تمدح الملوك والأشراف. وكان محمود ضعيف الحال لا يكاد يقوم بمؤونتها، فكان يقول لها: يا سكن، أنت في جمالك ونبلك وأدبك وأخلاقك على هذه الحالة، وأنا مقتور عليَّ، ولست أقوم بواجبك. ووالله ما شيء من عَرَض هذه الدنيا آثَرَ عندي من النظر إليك ومن القرب منك. فتقول سكن: يا مولاي، أما إذا كان الأمر على ما تقول فإنني أصبر معك وأتجزأ بقليلك ولا أكلفك مالا تطيقه. قال: فغبرا بذلك زمانا في ضيق وضنك بعيشهما يقاسيان الأَمَرَّيْن من ضيق العيش وسوء الحال حتى كادا يشرفان على الفضيحة. وكان قد أُعْطِيَ بها عشرة آلاف دينار. وحديثهما في أحوالهما وأخبارهما مشهور.

ومن النساء عائشة بنت عبد الله العثمانية. وكانت خرجت على السلطان، وكانت من أهل مكة، ولم يكن في زمانها أحد أشعر ولا أحسن أدبا ولا أكثر علما منها. وكانت من أنبل النساء وأعفهن، ورعةً يابسةَ الورع دَيِّنة. وعمدت إلى رجل من آل أبي طالب فأخرجت إليه مالا وأمرته أن يجمع الرجال ومحاربة بني العباس، فجمعت جموعا كثيرة وفرقت أموالا جليلة وخرجت تحارب بنفسها. وكانت من أشعر أهل زمانها، وأشعارها مدونة مرفوعة، فحاربت مرة بعد أخرى، وقتلت جماعة وقُتِلَتْ. وكانت عائشة بن عبد الله هذه تصفّ قدميها من أول الليل إلى الصباح تصلي، وربما جمعت في الليلة الواحدة القرآن ولم يُرَ أحد إلى يوم الناس هذا أشد اجتهادا منها.

ومن الجواري فضل الشاعرة، وكانت شاعرة مفلقة مقتدرة أديبة بارعة الأدب كاملة فصيحة نبيلة لطيفة. وكانت تعشق سعيد بن حميد الكاتب وأنفقت عليه أكثر من ثلاثين ألف دينار. وكانت من الأدب بمنزلة رفيعة ودرجة سنية عارفة بأخبار الناس وأيامهم، تنشد أشعار الشعراء في الجاهلية والإسلام، وتعلم تفسير ذلك، وتسوق أيام العرب سَوْقًا بأشعارها وحروبها وما جرى فيها. وكانت تشعر وتقول في الغزل والعشق. وكانت قد حُبِّب إليها اللهو والشراب، ولها في الغزل والشراب أشعار كثيرة مدونة. وقد كتبنا قصتها وقصة سعيد بن حميد الكاتب وما جرى بينهما في موضعه من هذا الكتاب وسنأتي عليه إن شاء الله.

قال: حدثني القاسم بن عبد الله الحراني قال: كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يوم وقد فُصِد وأتته هدايا فضل الشاعرة: ألف جدي وألف دجاجة وألف طبق رياحين وطيب وغير ذلك، فكتب إليها: إن هذا اليوم يوم لا يطيب سروري إلا بحضورك. وكانت من أحسن النساء ضربا بالعود وأملحهن صوتا، فأتته، فضرب بينها وبينه حجابا وأحضر ندماءه في ذلك اليوم، ووُضِعت الموائد وجِيءَ بالشراب. فلما شربنا أقداحا أخذت عودَها فغنت بهذا الشعر، والشعر لها والصوت والأبيات هذه:

يا مـــن أطلـــتُ تفرســـي ... في وجهــــه وتنفُّــــسي

أفــــديك مـــــن متـــــدللٍ ... يُزْهَـــى بقتـــل الأنفـــسِ

هبـــني أســـأتُ، ومـــا أســـأ ... ت، بلـــى أُقِـــرّ: أنا المُـــسِي

أَحْلَفْتَـــــــني ألا أســـــــا ... رق نظـــــرة في مجلـــــسِ

فنظـــرتُ نظـــرة عاشـــق ... أتبعتهـــــــا بتفـــــــرُّسِ

ونـــسيتُ أني قـــد حلـــف ... ت، فمـا يقـال لمـن نَـسِي؟

قال: فما أتى يوم كان أقرَّ لعيني من ذلك اليوم.

قال أبو الحسن علي بن عيسى: حضرت ليلة مع جماعة من إخواني، فأنشد أحدهم لامرأة، فاستحسناه، وتحرر بيننا أن نعمر ليلتنا بأشعار النساء، فلم ننشد تلك الليلة إلا شعر امرأة. وهذا يدل على كثرتهن ووفور عدتهن وتعذر حصرهن وعدم الإحاطة بشعرهن. وإنما اعتمدنا في هذا الفصل الإشارة إلى شائعه وإيراد اليسير من مشهوره وذائعه".

ومن أخبار خنساء جارية هشام المكفوف يقول ابن المعتز في "طبقات الشعراء": "كانت خنساء جارية هشام المكفوف جليلة نبيلة أديبة شاعرة حسنة العقل، فائقة الجمال، من حواذق المغنيات المحسنات. وقد نازعت الشعراء، ومدحت الخلفاء. وأُعْطِيَ بها هشام مالاً

جليلاً فقال: والله لو أُعْطِيتُ بها خَرَاج السواد ما بعتها. وما أصنع بالمال، ومتعتي بها يوماً واحداً أجلّ من كل ذخر، وأمتع من كل فائدة؟ ومما رويناه من شعرها قولها في أبي الشبل الشاعر تهجوه:

ما ينقضي عجبي ولا فكري ... من نعجة تُكْنَى: أبا الشبلِ

لعب الفحول بثَفْرها وعجانها ... فتجردتْ لتجرُّد الفحلِ

لما اكتنيتَ لنا: أبا الشبلِ ... ووَصَفْتَ ذا النقصانَ بالفضلِ

كادت تميد الأرض من جزعٍ ... وتُرَى السماء تذوب كالمُهْلِ"

وواضح ما فى الأبيات من عرى وبذاءة، ولكن هذا لم يمنع الأدباء والنقاد من روايتها ورواية أمثالها من شعر النساء. وأشد من هذا فى باب العرى الجرىء رد عريب المأمونية على بيتين لإسحاق الموصلى حسبما روى الزجاجى فى "أخباره": "كتب إسحاق الموصلي إلى عريب المأمونية:

تَقِي الله فيمن قد تَبَلْتِ فؤاده ... وغَيَّبْتِه حتى كأن به سحرا

دعي البخل. لا أسمعْ به منكِ. إنما ... سألتُكِ شيئا ليس يُعْرِى لكم ظهرا

قال: فوَقَّعَتْ في الرقعة: صدقتَ، جُعِلْتُ فِداك. ليس يُعْرِى لنا ظهرا، ولكنه يملأ منّا بطنا".

ومن هذا الوادى ما نقرؤه فى كتاب الاصفهانى: "الإماء الشواعر" عن الجارية: "صاحب": "كان لابن طرخان النخاس هذه الجارية، وكان ابن أبي أمية الشاعر يهواها، فكتب إليها:

إني رأيتُكِ في المنام كأنما ... عاطيتِني من رِيق فيكِ البارِدِ

وكأن كفك في يدي، وكأنما ... بتنا جميعاً في فراشٍ واحدِ

ثم انتبهتُ، ومعصماك كلاهما ... بيدي اليمين، وفي يمينك ساعدي

فأجابته:

خيراً رأيتَ، وكُلّ ما أبصرتَه ... ستناله مني برغم الحاسدِ

إني لأرجو أن تكون معانقي ... وتظل مني فوق ثديٍ ناهدِ

ونبيت أنعم عاشقين تفاوضَا ... طرَف الحديث بلا مخافةِ راصدِ"

ومن شاعرات العصر العباسى أيضا الحجناء بنت نصيب والفارعة بنت طريف وخديجة بنت المأمون. وعلى لسان خديجة هذه يقول صاحب "الأغانى": "غنت شاريةُ يوماً بين يدي المتوكل، وأنا واقفة مع الجواري:

بالله قولـــوا لي: لمـــن ذا الرشـــا المثقـــل الـــردف الهـــضيم الحـــشا؟

أظـــرف مـــا كـــان إذا مـــا صـــحا وأملـــح النـــاس إذا مـــا انتـــشى

وقـــد بـــنى بـــرج حمـــام لـــه أرســـل فيـــه طـــائراً مرعـــشا

يا ليتـــني كنـــت حمامـــاً لـــه أو باشـــقاً يفعـــل بي مـــا يـــشا

لـــو لـــبس القُـــوهِيَّ مـــن رقـــةٍ أوجعـــه القـــوهيُّ أو خدَّشـــا

وهو هزج، فطرب المتوكل وقال لشارية: لمن هذا الغناء؟ فقالت: أخذته من دار المأمون، ولا أدري لمن هو. فقلت له: أنا أعلم لمن هو. فقال: لمن هو يا ملح؟ فقلت: أقوله لك سرًّا. قال: أنا في دار النساء، وليس يحضرني إلا حرمي، فقوليه. فقلت: الشعر والغناء جميعاً لخديجة بنت المأمون. قالته في خادم لأبيها كانت تهواه وغنت فيه هذا اللحن. فأطرق طويلاً ثم قال: لا يسمعْ هذا منك أحد".

ومنهن خيرة بنت ضيغم البلوية، التى تقول فى حبيب لها:

فَمـــا نُطفـــةٌ مِـــن مـــاءِ بهمـــين عذبـــةٌ تمَتّـــع مِـــن أَيـــدي الـــسقاةِ أرومهـــا

بِأطيـــبَ مِـــنْ فيـــهِ لـــو انّـــك ذقتَـــهُ إذا ليلـــةٌ أَسْمَـــتْ وغـــابَ نُجومهـــا

فَهَـــلْ ليلـــة البطحـــاءِ عائـــدة لنـــا فَـــدَتْها اللّيـــالي: خَيرُهـــا وَذَميمُهـــا؟

فَـــإِن هـــيَ عـــادَت مثلهـــا فأَلِيّـــةٌ عَلـــيَّ، وأيّام الحَـــرُورِ أصـــومها

ومنهن دنانير جارية مُحَّد بن كناسة. ومن شعرها هذه الأبيات الرقيقة العجيبة التى تخاطب بها أبا الشعثاء، وكان رجلا عفيفا مزاحا، وكان مغرما بسماع غنائها ويعرِّض لها بأنه يهواها:

لأبي الـــشعثاء حـــب كـــامن لـــيس فيـــه نبـــضة للمـــتهِمْ

يا فـــؤادي، فـــازدجرْ عنـــه، ويا عبـــث الحـــب بـــه فاقعـــدْ وقُـــمْ

زارني منـــــه كـــــلامٌ صـــــائبٌ ووســـــيلاتُ المحبـــــين الكَلِـــــمْ

صـــــائد تأمنـــــه غزلانـــــه مثـــل مـــا تأمـــن غـــزلانُ الحـــرمْ

صَـلِّ إن أحببـت أن تُعْطَـى المـنى　　يا أبا الـشعثاء لله وصُـمْ

ثم ميعـادك يـوم الحـشر في　　جنـة الخلـد إنِ اللهُ رَحِـمْ

حيـث ألقـاك غلامـا يافعـا　　ناشـئا قـد كملـتْ فيـك الـنِّعَمْ

ومنهن زوجة أبى حمزة الضبى. ولها أبيات شجية جميلة قالتها تعتب على زوجها لهجره لها أن ولدت بنتا لا ولدا. قال الجاحظ فى "البيان والتبيين": "ولبُغْضِ البناتِ هجَر أبو حمزةَ الضبيُّ خَيْمةَ امرأتِه، وكان يَقِيلُ ويَبيتُ عند جيرانٍ له، حينَ ولدت امرأتُه بنتاً. فمرّ يوماً بخبائها، وإذا هي ترقّصُها وتقول:

مـا لأبي حمـزةَ لا يأتِينـا؟　　يظـلُّ في البيـت الـذي يَلِينـا

غَـضْبانَ ألاّ نلـد البَنِينـا　　تاللَّه مـا ذلـك في أيـدينا

وإنّمـا نأخُـذُ مـا أُعْطِينـا　　ونحـن كـالأرض لزارعينـا

نُنْبِـتُ مـا قـد زرَعُـوه فينـا

فغَدَا الشّيخُ حتّى ولَجَ البيتَ فقبَّلَ رأسَ امرأتِه وابنتها".

ومن شاعرات العصر العباسى بما فيه الفاطمى والأيوبى وغيرهما سلمى بنت القراطيسى. وهذه أبيات لها تتغزل فيها بنفسها فى عُجْبٍ ظريف طريف:

عُيونُ مَها الصريمِ فِداءُ عَيني　　وَأَجيادُ الظِباءِ فِداءُ جِيدي

أُزَيَّـن بِالعقـودِ، وإنّ نَحْـري　　لأَزْيَـنُ لِلعقـودِ مـن العقـودِ

وَلا أَشكو منَ الأوصاب ثقلاً　　وَتَـشكو قـامَتي ثقـل النهـودِ

وعريب المأمونية وعنان الناطفية، وقد مر الكلام عنهما، ولبانة بنت ريطة بن على زوجة الأمين، ولها شعر فى رثائه، وعُلَيَّة بنت المهدى أخت هارون الرشيد، وكانت مغنية أيضا ومتدينة تعرف لربها حقه. ومن شعرها هذا الكلام العذب الجميل:

تَحَبَّـبْ، فَـإِنَّ الحُـبَّ داعِيَـةُ الحُـبِّ　　وَكَمْ من بعيدِ الدارِ مُستَوْجِبُ القُرْبِ

تَبَـصَّرْ، فَـإِن حُـدِّثتَ أَنَّ أَخـا هَـوًى　　نجـا سـالِماً فـارْجُ النجـاةَ مِـنَ الحُـبِّ

وَأَطيَـبُ أَيّامِ الفَـتى يَومُـهُ الـذي　　يُـرَوَّعُ بِالهِجـرانِ فيـهِ وَبِالعَتْـبِ

إِذا لَم يَكُـن فِي الحُـبِّ سـخطٌ وَلا رِضًـا　　فَـأَينَ حَـلاواتُ الرسـائِلِ وَالكُتْـبِ؟

ولطيفة الحدانية، وكانت قد تزوجت ابن عم لها تحبه حبا شديدا، لكنه مرض ومات، فرثته بالأبيات التالية التى لا أذكر أنى رأيت مثالا لها من قبل:

يا صاحبَ القبرِ، يا مَن كانَ يَنْعَم بي عَيْشاً، ويُكْثِرُ في الدنيا مواساتي

قَد زرتُ قبركَ في حَلْيٍ وفي حُلَلٍ كأنّني لستُ من أهلِ المصيباتِ

لمّا علمتُكَ تَهْوَى أن تراني في حَلْيٍ وَتَهْواه مِنْ ترجيعِ أصواتي

أَرَدْتُ آتِيكَ فيما كنت أعرفه أَنْ قد تُسَرّ بهِ من بعض هيئاتي

فَمَن رآني رَأَى عَبْرَى مُوَلَّهةً عَجيبةَ الزّيّ تبكي بين أمواتِ

وليلى بنت طريف الشيبانية، وهى من الخوارج مثل أخيها الوليد بن طريف، الذى رثته حين قتل فى عهد الرشيد، ومحبوبة جارية المتوكل، وكانت شاعرة وملحنة ومغنية، وتقية بنت الغيث الصورية، وشهدة الكاتبة، وكانت خطاطة إلى جانب كونها شاعرة رقيقة الحس أنيقة التناول.

ومن شاعرات الأندلس والمغرب ابنة ابن السكان المالقية، وابنة محمد بن فيرو التطيلى، وأسماء العامرية، والبليشية، ومن شعرها هذه الأبيات الرقيقة:

لي حبيبٌ خدّه كالـ ورد حسناً في بياضِ

هو بينَ الناسِ غضبا نٌ، وفي الخلوةِ راضِ

فَمتى ينصفني المظـ لوم، والظالم قاضي؟

والشّلْبِيّة، ولها أبيات تنتقد حكام مدينة شلْب وإهمالهم لمصالح الرعية، وهو لون غير منتشر بين أشعار النساء:

قد آنَ أَن تَبكي العيون الآبيةْ ولقد أرى أنّ الحجارةَ باكيَةْ

يا قاصد المصر الّذي يُرْجَى به إنْ قدّر الرحمنُ رَفْعَ كراهيَةْ

نادِ الأمير إذا وقفتَ ببابهِ: يا راعياً، إنّ الرعيّة فانِيَةْ

أَرسلتَها هَمَلاً ولا مَرْعَى لها وتَرَكْتَها نَهْبَ السباع العادِيَةْ

شلبٌ كلاشلبٍ وكانت جنّةً فأعادها الطاغون ناراً حامِيَه

حافوا وما خافوا عقوبةَ ربّهم والله لا تَخْفَى عليه خافِيَةْ

ومن شاعرات الأندلس والمغرب أيضا العبادية والغسانية وأم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالى وأم السعد بنت عصام الحميرى وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وأم العلاء الحجارية البربرية وأمة العزيز الشريفة الحسينية وأنس القلوب وبثينة بنت المعتمد وتميمة بنت يوسف بن تاشفين وحسانة التميمية وحفصة الركونية. وفى حفصة هذه يقول صلاح الدين الصفدى فى "الوافى بالوَفَيَات": "حفصة بنت الحاجّ الرَّكونيّ من أهل غرناطة. أورد لها ابن الأبار في "تحفة القادم":

يا سيّد النَّاس يا من ... يؤمّل النَّاسُ رِفْدَهْ
أُمْنُنْ عليَّ بصكٍّ ... يكون للدَّهر عُدَّهْ
تخطّ يمناك فيه: ... والحمد لله وَحْدَهْ

ونقلتُ من خطّ ابن سعيد المغربي في كتاب "الغراميات"، قال: كانت أديبة شاعرة جميلة مشهورة بالحسب والمال. فاتّفق أن بات أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد هو وإياها في جنَّة من جنَّات غرناطة التي على نهر شنيل، فقال أبو جعفر:

رعى الله ليلاً لم يرح بمذمَّمِ ... عشيَّة وارانا بحور مؤمِّلِ
وقد خفقتْ من نحو نجد أريجةٌ ... إذا نفحتْ هبَّتْ بريَّا القرنفلِ
وغرَّد قمريٌّ على الدَّوْح وانثنى ... قضيبٌ من الرَّيحان من فوق جدولِ
ترى الرَّوض مسروراً بما قد بدا له: ... عناقٌ وضمٌّ وارتشاف مقبَّلِ

فقالت حفصة:

لعمرك ما سُرَّ الرياض بوَصْلنا ... ولكنه أبدى لنا الغلَّ والحسدْ
ولا صفَّق النهر ارتياحاً لقربنا ... ولا صدح القمريُّ إلا لما وجدْ
فلا تحسن الظَّنَّ الذي أنت أهله ... فما هو في كلِّ المواطن بالرَّشَدْ
فما خلتُ هذا الأفق أبدى نجومه ... لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رَصَدْ

قلت: أبوجعفر هذا هو عم والد علي بن سعيد، وكان يهوى حفصة هذه".

وكتب المقرى فى "نفح الطيب" عنها. وقال ابن سعيد فى ترجمتها بـ"المغرب فى حلى المغرب": "وقد تقدم شعرها مع أبي جعفر بن سعيد، الذي كان يهواها ويتغزل فيها وبسببها قُتِل. قتله عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة، وكان مشاركاً له في هواها".

ومن الشواعر الأندلسيات أيضا حفصة الحجارية وحمدة بنت زياد وخدوج وزينب بنت إسحاق النصرانى وزينب بنت فروة المرية وسارة الحلبية وصفية بنت عبد الله وعائشة بنت أحمد القرطبية وغاية المنى وقسمونة بنت إسماعيل اليهودى وقمر الإشبيلية ومتعة الأندلسية ومريم الشلبية ومريم بنت يعقوب الأنصارى ومهجة بنت التيانى القرطبية ونزهون الغرناطية. وكانت نزهون برزة سليطة اللسان لا تبالى ما تقول أو يقال لها. وذكر لسان الدين بن الخطيب فى كتابه: "الإحاطة فى أخبار غرناطة" عند ترجمته للشاعر الهجاء الخبيث اللسان أبى بكر بن المخزومى الأعمى موقفا جمعها بذلك الشاعر المفحش حيث جرى بينهما حوار مقذع تبادلا فيه الكلام البذىء دون أدنى تحرج إلى أن تدخل بعض الحاضرين ورجاهما ألا يمضيا فيما كانا منغمسين فيه من الرفث المهين.

وعن نزهون هذه كتب لسان الدين ابن الخطيب فى ترجمته لها بـ"الإحاطة فى أخبار غرناطة": "كانت أديبة شاعرة سريعة الجواب، صاحبة فكاهة ودعابة". ويقول السيوطى فى "نزهة الجلساء فى أخبار النساء": "نزهون بنت القلاعي الغرناطية. قال في "المغرب": من أهل المائة الخامسة. ذكرها الحجاري في "المسهب"، ووصفها بخفة الروح، وانطباع النادرة، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بتصريف الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق". وهو نفسه ما كتبه المقرى فى "نفح الطيب".

ومن شاعرات الأندلس كذلك هند جارية الشاطبى، وكانت مغنية وعازفة عود، وولادة بنت المستكفى، وهى بنت آخر خلفاء بنى أمية. ومن شعر ولادة هذان البيتان الجريئان اللذان يقال إنها كتبتهما على ذيل ثوبها:

أنا والله أصـلح للمعـالي ... وأمـشي مـشيتي وأتيـهُ تِيهـا
وَأُمْكِـنُ عاشـقي مـن صـحن خـدّي ... وأعطـي قُبْلَـتي مَـنْ يـشتهيها

ومن شعرها بيتاها التاليان فى ابن زيدون قبل وقوع المخاصمة القاطعة بينهما:

ترقّـبْ، إذا جـنّ الظـلام، زيارتي ... فـإنّي رأيـت الليـلَ أَكْـتَمَ للـسِّرِّ
وَبِي منك ما لو كـانَ بالشمسِ لم تَلُحْ ... وبالبـدر لم يطلـع، وبالـنجم لم يَـسْرِ

ومنه:

أَلا هَـل لنـا مـن بعـد هـذا التفـرّقِ ... سـبيلٌ فيـشكو كـلّ صـبّ بمـا لَقِـي؟
وَقـد كنـتُ أوقـاتَ التـزاورِ في الـشّتا ... أبيـتُ علـى جمـرٍ مـن الـشوق محـرقِ
فكيـف، وقـد أمـسيتُ في حـال قطعـة ... لقـد عجّـل المقـدور مـا كنـتُ أتّقـي

تمــرُّ الليــالي لا أرى البَــيْنَ ينقــضي ... ولا الــصبرَ مــن رقّ التــشوّق معتقــي

سَقى اللهُ أرضاً قـد غـدتْ لـك منـزلاً ... بكــلّ سَـكُوبٍ هاطـلِ الوَبْـلِ مُغْـدِقِ

ومنه تلك الأبيات التى قالتها بعدما ظنت أنه يهتم بجارية لها وينشغل بها عنها:

لـو كنـتَ تنـصفُ في الهـوى مـا بيننـا ... لم تَهْـــــوَ جــــــاريتي ولم تتخــــــيّرِ

وتركـــــتَ غــــصناً مثمـــراً بجمالــــه ... وجَنَحْــتَ للغــصنِ الــذي لم يثمــرِ

ولقــد علمــتَ بأنّــني بــدر الــسما ... لكــنْ دُهِيــتُ لــشِقْوَتِي بالمــشترِي

وهذه ترجمتها بقلم ابن دحية الكلبى فى كتابه: "المطرب من أشعار أهل المغرب"، وهى تبرهن بأجلى بيان على أن نقادنا ومؤرخى أدبنا القدامى كانوا يستقبلون إبداع المرأة أحسن استقبال حتى إنى لا أذكر قط أنى قرأت لأحد منهم يتنقص من أية شاعرة أو خطيبة كما يصنعون مع كثير من الشعراء الرجال. قال: "حدثني القاضي العدل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصاري بقراءتي عليه بقرطبة أم بلاد الأندلس في العشر الآخر من صفر سنة أربع وسبعين وخمسمائة، قال في كتاب "الصلة" له: ولادة بنت المستكفي بالله أمير المؤمنين مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن مُحَمَّد المرواني من بني أمية بأندلس أديبة شاعرة جزلة القول، حسنة الشعر. وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء. سمعت شيخنا أبا عبد الله جعفر بن مُحَمَّد بن مكي رحمة الله يصف نباهتها وفصاحتها وحرارة نادرتها وجزالة منطقها وقال لي: لم يكن لها تصاون يطابق شرفها. وذكر لي أنها أتته معزية له في أبيه إذ توفي رحمه الله سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وتوفيت رحمها الله يوم مقتل الفتح بن مُحَمَّد بن عباد يوم الأربعاء لليلتين خلتا من صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة. ولم تتزوج قط، وعُمِّرَتْ عمراً طويلاً إلى أيام المعتمد.

قال ذو النسبين ﷺ: كانت الحسيبة ولادة في زمانها واحدة أوانها حُسْنَ منظرٍ ومخبرٍ، وحلاوةَ مَوْرِدٍ ومَصْدَر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى أحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفذاذ الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها. تخلط ذلك بعلو نصاب، وسمو أحساب. على أنها، سمح الله لي ولها، وتغمَّد زللي وزللها، اطَّرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها للذاتها. كتبت، زعموا، على عاتقَيْ ثوبها:

أَنَا واللهِ أصــــــــلُحُ للمعـــــــالِي ... وأمــــشى مِــــشْيَتِي وأتيــــهُ تِيهَــــا

وأُمْكِــن عاشــقي مــن صَـحْن خَـدّي ... وأُعْطِـــى قُبْلــــتِي مــــن يَــــشْتَهيها

وكتبت إلى ذي الوزارتين أبي الوليد أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي القرطبي:

ترقَّبْ إذا جنَّ الظَّلامُ زِيارتي ... فإني رأيتُ اللّيلَ أكتَم للسِّرِّ

وبِي مِنك ما لو كان بالبَدْر ما بَدا ... وبالليل ما أدْجَى، وبالنَّجم لم يَسْرِ

إلى أن يقول ابن زيدون: وبتنا بليلة نجتني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحا، أنشدتها ارتياحا:

ودَّع الصَّبْرَ محبٌّ ودَّعَكْ ... ذائِعاً من سرّه ما استودَعكْ

يَقْرَع السِّنَّ على أنْ لم يكن ... زادَ في تلك الخُطَا إذ شَيَّعَكْ

يا أخَا البدر سَنَاءً وسَنًى ... حَفِظَ الله زَمَاناً أطلَعكْ

إن يطُل بَعْدَك لَيْلِى فلَكَمْ ... بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليلِ مَعَكْ"

وإذا كان ابن دحية قد أشار إلى قلة تصاونها فقد وجدت كل من كتب عنها سواه تقريبا يؤكد حرصها على شرفها وسمعتها رغم بروزها لمجالسة الرجال فى ندواتها الأدبية فى قصرها. وهذا المقرى يكتب عنها فى "نفح الطيب" ما يدل على صحة ما قلت: "ومن أشهرهن بالأندلس ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن ابن عبيد الله بن الناصر لدين الله، وكانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة، كتبت بالذهب على طرازها الأيمن:

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الطراز الأيسر:

وأُمْكِنُ عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف، وفيها خلع ابن زيدون عِذَارَه، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات، وكانت لها جارية سوداء بديعة المعنى، فظهر لولادة أن ابن زيدون مال إليها، فكتبت إليه:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا ... لم تهو جاريتي ولم تتخيرِ

وتركتَ غصناً مثمراً بجماله ... وجنحتَ للغصن الذي لم يثمرِ

ولقد علمتَ بأنني بدر السما ... لكنْ وَلِعْتَ، لشِقْوَتي، بالمشتري

ولقَّبت ابن زيدون بـ"المسدس"، وفيه تقول:

ولُقِّبْتَ: "المسدَّس"، وهو نعتٌ   تفارقك الحياة ولا يفارقْ
فلوطيٌّ ومأبونٌ وزانٍ   وديوثٌ وقرنانٌ وسارقْ"

ولنلاحظ أيضا أن المقرى رغم هذا كله لم يتحرج من إيراد شعرها البذىء العارى، وهو ما يدل على أنه لم يكن هناك سقف لنشر أى شىء تقوله المرأة فى عصورنا السابقة على عكس ما هو مظنون عند كثير جدا من معاصرينا.

ومن شاعرات العصر المملوكى عائشة الباعونية، الشاعرة الفقيهة المتصوفة. ولها أشعار غير قليلة، ومنها مقصورتها المشربة بروح التصوف فى مديح سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ونجتزئ منها بالأبيات التالية:

نبيٌّ براهُ اللَّه مِن نُورِهِ الأَسْمَى   وَلا عَرْشَ موجودٌ وَلا حادثٌ يُسْمَى
وَأبدع كل الكائنات لأَجلِهِ   ليَجْلُو عليها مظهر الرحمة العظمى
وَخصَّصَه مِنْهُ بِما شاءَ مِنّةً   وَأَوْدَعَهُ سِرّاً وَوسَّعَه عِلْما
وَأشهده ذاتاً وَعرَّفه حلًى   وَمَكَّنهُ قُرباً وَصَرَّمه حكما
وَنبّأه قدماً، فَأَعْظِمْ بِفاتحٍ   نبوته لِلأَنبياء غَدَت خَتْما
وأرسله فَضلاً إلى الخَلْق كلهم   وَأسبغ في إرسالِهِ الفَضْل وَالنَّعْما
وَأفرده بِالأَوَّلية مُطلقاً   بِكُلِّ كَمالٍ لا يرامُ لَهُ مَرْمَى
وَفي العَهْد يوم الذَّرِّ تقديمه جَلا   علاه على الأَعيانِ قاطِبةً حتما
وَفي قَسَم المَوْلَى لَهُ بِحياتِهِ   أَجِلْ نَظَراً تَلقاهُ أَوْفرَهم قَسْما
وَأَعلاهُمُو قَدراً وَأَشرَفَهُم عُلًا   وَأَكرَمَهُم جاهاً وَأَثبَتَهُم عزما
وَأَرفَعهُم ذِكرا وَأَعظَمهُم تُقًى   وَأَوْسَعَهُم عِلماً وَأَجْوَدَهُم فهما
وَأَعدَلهُم حكما وَأَرجَحَهُم نُهًى   وَأَحسَنَهُم خلقاً وَأَكثَرهُم حِلْما
وَأَكمَلَهُم ذاتاً وَأَطهَرهُم حِلًى   وَأَجمَلهُم وَجْهاً وَأَشرَفهُم جِسما
وَأَعظَمَهُم بَأساً وَأَمنَعَهُم حِمًى   وَأَصدَقهُم قِيلا وَأَحْمَدَهُم إسما

ومنهن فاطمة بنت الخشاب. ومن شعرها أن أحدهم كتب يمتحنها حين سمع أنها شاعرة، فأراد أن يتحقق مما سمع:

هــل ينفــع المــشتاقَ قُــرْبُ الــدار　　والوصــلُ ممتنــعٌ علــى الــزوَّارِ؟

فكتبتْ ترد عليه ردا يدل على حِسٍّ نقديّ:

إن كــان غركمــو جمــال إزاري　　فــالقبح في تلــك المحاســن وارِي

لا تحــسبوا أني أماثــل شــعركم　　أَنَّى تقــاسُ جــداولٌ ببحــارِ؟

لــو عاصــر الكنــديُّ عــصركمو رمــى　　لكمــو عــواليَ رايــة الأشــعارِ

أقصى اجتهادي فَهْمُ ظاهر نَظْمكم　　لا أنــني أُدْعَــى دعــاء مُجَــارِ

مــن قَــصَّرَتْ عنــه الفحــول فحَقُّــه　　أنْ لــيس يبلغــه لحــاق جــواري

ولربمــا اسْتُحْــسِنْتُ غــير حقيقــةٍ　　فــإذا سَــفَرْتُ أشــحتَ بالأبــصارِ

لــستُ الطَّمُــوح إلى الــصِّبا مــن بعــدما　　وَضَــحَ المــشيبُ بلِمَّــتِي كنهــاري

ومن شاعرات العصر العثمانى بديعة الرفاعية، التى تذكِّر بعائشة الباعونية فى اتجاهها الشعرى، وإن لم يصلنا من شعرها إلا أبيات شحيحة. ومنهن أيضا بنت الشحنة قاضى القضاة. ومن شعرها الشجىّ قولها فى البكاء على أخيها:

دعُــوا دمعــي بيــوم البــين يجــري　　فقــد ذهــب الأســى بجميــل صــبري

وكيــف تــصبُّري، وأخــي رهــينٌ　　بأرض الــشام في ظلمــات قــبرِ؟

فقــدت أخــي، وكــان أخــي وظهــري　　علــى الحــدثان سمّاعــاً لأمــري

فــإن عجــزتْ عــن النــدب الغــواني　　بعثــتُ الــدمع نَظْمــاً غــير نَثْــرِ

ومنهن زينب الشهارية، وهى يمنية، وكان لها يد فى سياسة بلدها. ومنهن كذلك زينب الغزية، ولها قصيدة قصيرة سمحة الأسلوب والروح والمعانى تجرى على النحو التالى:

إنمــا العــالِم الــذي　　جمــع العلــم واكتمــلْ

قــام فيــه بحقــه　　يُتْبِــع العلــم بالعمــلْ

ســهر الليــل كلــه　　بنــشاط بــلا كــسلْ

فهــو في الله دأبُــهُ　　أبــد الــدهر لم يَــزَلْ

حــاز علمــاً بخــشيةٍ　　وبــدنياه مــا اشــتغلْ

حاســديه، تعجبــوا　　لــيس ذا الفــضلُ بالحِيَــلْ

ذاك مـــــولاه خَـــــصَّهُ بكمـــــالٍ مـــــن الأزلْ
مـــن يَـــرُمْ مُـــشْبِهاً لـــه في الـــوَرَى عقلُـــه اختبـــلْ
أو بلوغـــــاً لفـــــضله فلـــه قَـــطّ مـــا وَصَـــلْ
فَهْـــوَ شـــيخي وســـيّدي وبـــه النفـــعُ لي حَـــصَلْ

وبهذا نصل إلى العصر الحديث فنتوقف عن الكلام لأن ما يهمنا هو الأدب العربى القديم. ونخرج مما سبق بأن ذلك الأدب العربى القديم لم يعرف التجاهل البتة لإبداعات النساء، بل كان دائما ما يحتفى به وبهن ويثنى عليهن ويرفع من قدرهن. كذلك لم يحدث أن تحرج من رواية أى شىء قلنه مهما كان عاريا أو خارجا عما تعود الناس فى حياتهم العامة التزامه، وبغض النظر عن قائلته سواء كانت ابنة خليفة أو امرأة من عامّة الرعية. وإذا كان النقاد الثقافيون يقولون إن من عناصر النقد الذى يدعون إليه ويرونه شيئا جديدا الاهتمامَ بإبداعات النساء فمن الواضح أن هذا العنصر موجود بكل قوة وأريحية فى تاريخنا الأدبى منذ القديم رغم قلة عدد الشاعرات بالنسبة لعدد الشعراء وضآلة المحصول الشعرى لهن بالقياس إلى نظيره لدى الرجال. وبذلك يكون قد تحقق فى تاريخنا الأدبى أهم عناصر النقد الثقافى، وهى الأنساق الثقافية والاهتمام بالأدب النسائى وأدب المهمشين.

وأخيرا نختم بإيراد ما كتبه بعض علمائنا القدامى فى مقدماتِ أو دَرْجِ كتبهم التى وضعوها فى إبداع المرأة: قال أبو الفرج الأصفهانى فى مقدمة كتابه: "الإماء الشواعر": "كان الوزير، أطال الله بقاءه، ذاكرني منذ أيام فيمن قال الشعر من الإماء المماليك، وأمرني أن أجمع له ما وقع إليَّ من أخبارهن في الدولتين: الأموية والعباسية. ولم أجد في الدولة الأموية منهن شاعرة مذكورة ولا خاملة لأن القوم لم يكونوا يختارون مَنْ في شعره لينٌ ولا يرضَوْن إلا بما يجري مجرى الشعر الجزل المختار الفصيح، وإنما شاع هذا في دولة بني هاشم، فذكرتُ منهن ما وقع إليَّ من خبرٍ مستحسَن أو شعرٍ صالح، ورسمتُ ذلك على قدر مراتبهن في أشعارهن وأزمانهن. وبدأت منهن بعنان جارية النِّطَافِيّ، فإنها كانت أشعرهن وأقدمهن، وبالله التوفيق".

وقال جلال الدين السيوطى فى مقدمة كتابه: "نزهة الجلساء فى أخبار النساء": "هذا جزء لطيف في النساء الشاعرات المحدَثات دون المتقدمات من العرب العرباء من الجاهليات والصحابيات والمخضرمات، فإن أولئك لا يُحْصَيْن كثرة بحيث إن ابن الطراح جمع كتاباً في أخبار النساء الشواعر من العربيات اللاتي يُسْتَشْهَد بشعرهن في العربية، فجاء في عدة

مجلدات، رأيت منه المجلد السادس، وليس بآخره. وقد سميت هذا الجزء: "نزهة الجلساء في أشعار النساء"...".

وقال ابن طيفور في مقدمة كتابه: "هذا كتاب "بلاغات النساء وجواباتهن وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن" على حسب ما بلغته الطاقة واقتضته الرواية واقتصرتْ عليه النهاية مع ما جمعْنا من أشعارهن في كل فن مما وجدناه يجاوز كثيراً من بلاغات الرجال المحسنين والشعراء المختارين. وبالله ثقتنا، وعليه توكلنا".

وقال مُحَمَّد بن المعلى الأزدي في كتاب "الترقيص"، وهو كتاب يتحدث عما أُثِر عن العرب من الشعر والنشيد لملاعبة الطفل وتهدئته أو تنويمه: "وقالت الشيماء ترقِّص النبيَّ ﷺ وهو صغير:

يا ربَّنـــــــا، أَبْـــــــقِ لنـــــــــا مُحَمَّدا

حـــــــتى أراه يافعًـــــــا وأمـــــــردَا

ثم أراه ســـــــــيدا مـــــــــسوَّدَا

واكْبِـــــتْ أعادِيـــــه معـــــا والحُـــــسَّدَا

وأَعْطِـــــه عِـــــزًّا يـــــدوم أبـــــدَا

قال: فكان أبو عروة الأزدي إذا أنشد هذا يقول: ما أحسن ما أجاب الله دعاءها!".

وقال الإربلى (ت٦٣٢هـ) فى "المذاكرة فى ألقاب الشعراء" عن شعر الإماء: "الإماء من شواعر النساء، وهن عنان، والذلفاء، وريم، وفضل، وملك، وخنساء، وصرف، ومخنثة، ومدام، وخشف، وعلم، وريا، وسكن. وسكن أغزرهن وأشهرهن ذكراً، وإنما أكثرهن افتناناً عنان، جارية الناطفي.

عنان جارية الناطفي: وهي صاحبة أبي نواس، وبينهما معاتبات ومضاحكات، وتهاجيا في آخر أمرهما. وكان لها ظَرْف بارع، وأدب كامل، في سرعة جواب. وكان لها مجلس ينتابه السراة والشعراء وأهل الأدب يطارحونها الأشعار ويناشدونها. فمن شعرها ترثي مولاها:

يا مـوتُ، أفنيـتَ القـرونَ، ولم تـزلْ   حـتى سـقيتَ، بكأسـكَ، النطَّافـا

يا ناطفـيُّ، وأنـتَ عنـا نازحٌ   مـا كنـتَ أولَ مـنْ دَعَـوْهُ فـوافى

وقالت:

نفـسي علـى زفراتهـا موقوفـةٌ   فوددتُ لو خرجتْ من الزفراتِ

لا خـيرَ بعـدكَ في الحيـاة، وإنمـا ... أبكـي مخافـةَ أنْ تطـولَ حيـاتي

قال مُحَّد بن سليمان الكاتب: افتصد الرشيد يوماً، فأهدى له يحيى بن خالد جارية عوف الخياط. فأقامت عنده شهراً، ثم وهبها لخزيمة بن خازم. ففي ذلك تقول عنان تمدح يحيى، وتطلب أن يبتاعها:

نفـى النـومَ عـن عيـنيَّ حَـوْكُ القـصائدِ ... وآمـالُ نفـسٍ همُّهـا غـيرُ واحـدِ

إذا مـا نفـى عـني الكـرى طـولُ ليلـتي ... تعـوذتُ منـهُ باسـمِ يحيـى بـن خالـدِ

وزيـرِ أمـيرِ المـؤمنينَ ومـنْ لـه ... فعـالانِ مـن جـودٍ: طريـفٍ وتالـدِ

علـى وجـهِ يحيـى غـرةٌ يهتـدي بهـا ... كمـا يهتـدي سـاري الـدجى بالفراقـدِ

بلغـتَ الـذي لم يبلـغِ النـاسُ مثلـهُ ... فأنـتَ مكـانُ الكـفِّ مـن كـلِّ سـاعدِ

تعـوَّدَ إحـساناً، فأصـلحَ فاسـداً ... ومـا زال يحيـى مـصلحاً كـلَّ فاسـدِ

وكانـتْ رقـابٌ مـن رجـالٍ تعطلـتْ ... فقلَّـدها يحيـى كـرامَ القلائـدِ

علـى كـلِّ حـيٍّ مـن أياديـهِ نعمـةٌ ... وآثارهُ محمـودةٌ في المـشاهدِ

ففعلـكَ محمـودٌ، وكفُّـكَ رحمـةٌ ... ووجهـكَ بـدرٌ، نـورهُ غـيرُ خامـدِ

مننـتَ علـى أخـتيَّ منـكَ بنعمـةٍ ... صـفتْ لهمـا منهـا عِـذابُ المـواردِ

فمُـنَّ بمـا أنعمـتَ منهـا عليهمـا ... علـيَّ، وقـاكَ اللهُ كيـدَ المكائـدِ

أعـوذُ مـن الحرمـانِ منـك بخالـدٍ ... وطيـبِ تـرابٍ فيـه أعظـمُ خالـدِ

وذكرها يحيى لهارون الرشيد، فأمر بشرائها، فاشتراها بثلاثمائة ألف درهم، وأمر صاحب بيت المال برفع المال إلى مولاها. فقال لمولاها: اجعل لي من هذا المال عشرة آلاف درهم، فأبى أن يفعل. فأمر صاحب بيت المال بثلاثين حمالاً، فحملت البدر، وأدخلها على الرشيد، فقال: ما هذا؟ قال: هذا ثمن عنان. قال: ويلك! هذا كله سَرَفٌ، رُدَّه إلى بيت المال. وأبطل شراءها. ثم بعد ذلك عزم يحيى على معاودة الرشيد في أمرها، فعاق عن ذاك حادثُهم.

وقال أحمد بن إبراهيم: هَوِيَتْ عنانُ فتى من أهل بغداد لا نبات له بعارضيه، في غاية من الحسن، وكان يدَّعي النسك والعفاف، فطلبت وصاله فأبى. ثم إن الفتى بعد ذلك نبتت لحيته، وضجر من طول الزهد، فأتاها يلتمس منها ما كانت تلتمس منه، فأنشأت تقول:

هَـلَّا، وأنـتَ بمـاءِ وجهـكَ تـشتهي ... رؤدَ الـشابِ، قليـل شـعرِ العـارضِ؟

ألآن إذْ نبتـــتْ بخـــدكَ لحيـــةٌ ذهبت بملحكَ، ملءُ كفِّ القابضِ

مثل السُّلافةِ عادَ خمرُ عصيرها بعدَ اللذاذة خلَّ خمرٍ حامضِ؟

وقالت:

إلى الله أشكو طارقاتٍ من الهوى لها في فؤادي جمرةٌ تتضرمُ

فلا مشتكى إلا إليهِ، فإنه أرقُّ، وأحفى بالعبادِ، وأرحمُ

وحكى عنها أبو ثابت قال: خطر بقلبي بيت شعر قلته، وتعسَّر علي ثانيه، وطلبت من يجيزه. فتذكرت عنان جارية الناطفي، فأتيتها وأوردت عليها الشعر، فقلت:

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعتهُ تنفسَ في أحشائهِ أو تكلما

فأطرقت ساعة، ثم قالت:

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائهِ إذا ما بكى دمعاً بكيتُ له دما

... وقالت تمدح جعفر بن يحيى:

يا لائمي جهلاً، ألا تقصرُ مَنْ ذا على حَرِّ الهوى يصبِرُ؟

لا تَلْحَني أني شربتُ الهوى صرفاً، وممزوجُ الهوى يُسْكِرُ

أحاطَ بي الحبُّ، فخلفي له بحرٌ، وقدامي له أبحرُ

تخفقُ راياتُ الهوى بالردى فوقي، وحولي للردى عسكرُ

سيان عندي، في الهوى، لائمٌ أَقَلَّ فيهِ والذي يُكْثِرُ

أنتَ المصفَّى من بني برمكٍ يا جعفرَ الخيراتِ، يا جعفرُ

لا يبلغُ الواصفُ في وصفهِ ما فيهِ من فضلٍ ولا يحصرُ

ما عصرتْ عوداً يدٌ لامرئٍ أطيبَ من عودكَ إذ يعصرُ

مَنْ وَفَّرَ العِرْضَ بأموالهِ فجعفرٌ أعراضهُ أوفرُ

ديباجةُ الملك على وجههِ وفي يديهِ العارضُ الأحمرُ

سَحَّتْ علينا منهُمُو ديمةٌ ينهلُّ منها الذهبُ الأحمرُ

لو مسحتْ كفاه جلمودةً نضّرَ فيها الورقُ الأخضرُ

لا يستتمُّ الحمد إلا فتىً يصبرُ للبذلِ كما يصبرُ

يهتـــزُّ تاجُ الملـــكِ مـــن فوقـــهِ فخـــراً، ويزهـــر تحتـــهُ المنـــبرُ
يـــشبههُ البـــدرُ إذا مـــا بـــدا أو غـــرةٌ في وجهـــهِ تزهـــرُ
والله مـــا نـــدري أبـــدرُ الـــدجى مـــن وجهـــهِ أم وجهـــهُ أنـــورُ
يـــستمطرُ الـــزوارُ منـــكَ الغـــنى وأنـــتَ بالـــزوارِ تستبـــشرُ
عـــودتَ طـــلابَ النـــدى عـــادةً إن قـــصَّروا عنـــكَ فمـــا تَقْـــصُرُ

قال جامع الكتاب: لقد طربت لهذه الأبيات، حتى كررتها فحفظتها.

وأما الذلفاء فكانت أمة لابن الطرخان، وكان الشعراء أيضاً يأتونها ويطارحونها، وكانت حسنة الجواب. ودخل عليها مروان بن أبي حفصة، وعندها أبو نواس وغيره من الشعراء، فقال مولاها لمروان: يا أبا يحيى، اختر لها بيتاً لتجيزه. فقال: قول جرير:

غَيَّـــضْنَ مـــن عـــبراتهنَّ، وقلـــنَ لي: مـــاذا لقيـــتَ مـــن الهـــوى ولقينـــا؟

فقالت، وكانت تشبِّب بالرشيد:

هيجـــتَ بالبيـــتِ الـــذي أنـــشدتني حبـــا بقلـــبي للإمـــامِ دفينـــا

...

ويقال إن العباس بن الأحنف دخل على الذلفاء يوماً، فقال: أجيزي:

أهـــدى لـــه أحبابـــهُ أترجـــةً فبكـــى، وأشـــفقَ مـــن عيافـــةِ زاجـــرِ

فقالت:

أهـــدى لـــه أحبابـــهُ أترجـــةً فبكـــى، وأشـــفقَ مـــن عيافـــةِ زاجـــرِ

وأما ريم فكانت جارية إسحق بن عمرو السلمي. وكانت شاعرة مجيدة، فامتحنها أبو اليدين عبد الرحمن، وكتب إليها:

ألا مَـنْ لعـينٍ لا تـرى أسـودَ الحِمَـى ولا ناضـــرَ الـــريانِ إلا اســـتهلتِ
طـروبٍ إذا حَنَّـتْ، لجـوجٍ إذا بكـتْ بكـتْ فأَدَقَّـتْ في الهـوى وأَجَلَّـتِ؟

فكتبت الجواب في ظهر الرقعة:

فلـيسَ مُدْنيـهِ البكـاءُ مـن الحمـى وإنْ كثـرتْ منـه الـدموعُ وقَلَّـتِ
يحـــنُّ إلى أهـــلِ الحمـــى، فدموعـــهُ تـــسحُّ كمـا سَـحَّتْ سمـاءٌ تَـدَلَّتِ

فلم يصدق أن الشعر لها، فكتب إليها شعراً لجحاف لا يعرفه أحد، وهو:

كيــف المُقَــام بأرض لا أشـــد بهـــا صـوتي إذا مـا اعترتـني سورة الغـضب؟

فكتبت في الجواب:

مــا إن يطيــبُ مُقَــامُ المــرءِ في بلــدٍ فيــه يخــافُ ملمــاتٍ مــن العطــبِ

فاحْلُــلْ بــلادَ أناسٍ لا رقيــبَ بهــا فمــا يطيــبُ لمــرٍّ عــيشُ مرتقــبِ

وأما فضل الشاعرة فقد قال أحمد بن أبي طاهر: كنا نجتمع معها كثيراً. فجلسنا يوماً: أنا وهي وسعيد بن حميد الكاتب، فكتب إليها سعيد:

ما إن يطيبُ مُقَامُ المرءِ في بلدٍ فيه يخافُ ملماتٍ من العطبِ

فاحْلُلْ بلادَ أناسٍ لا رقيبَ بها فما يطيبُ لمرٍّ عيشُ مرتقبِ

فأجابته:

وتـــــركتَني يا ســـــيدي غـــرضَ العـــواذلِ والـــتُّهَمْ

صـــلةُ المحـــبِّ حبيبَـــهُ، الله يعلمهـــــا، كـــــرمْ

وكتبت إلى سعيد بن حميد، وقد رأته يكثر العبث بقينة:

يا حسنَ الوجهِ، سيئ الأدبِ شِبْتَ، وأنتَ الغلامُ في اللعبِ

ويحكَ! إنَّ القيانَ كالشَّرَكِ ال منصوبِ بين الغرورِ والعطبِ

بينا تـشكَّى إليكَ إذ خرجتْ بعدَ التشكي منها إلى الطلبِ

لا يتـــصدينَ للفقـــير ولا يطلــبنَ إلا معــادنَ الــذهبِ

تلحــظُ هــذا وذا، وذاكَ وذا لحـظَ محـبٍّ، ولحـظَ مكتسبِ

وكتبت إلى آخر كانت تودُّه:

يا مـنْ تزينـت العلـومُ بفـضلهِ وعـلا، ففـاتَ مراتـبَ الأدباءِ

ما هكـذا يجفـو الأديـبُ أديبـةً حَلَّـتْ وحـلَّ مراتـبَ العلمـاءِ

صرفَ الإلـهُ عـن المـودةِ بيننـا وعـن الإخـاءِ شماتـةَ الأعـداءِ

وقالت فضل: استدعاني يوماً أمير المؤمنين المتوكل، فلما دخلت عليه قال: إن بعض الجواري قالت بيتاً فما يجيزه سواك. فقلت: ما هو؟ فقال:

أقــامَ الإمــامُ منــارَ الهــدى وأخـــرسَ ناقـــوسَ عموريـــهْ

فقلت:

فأضحى بهِ الدينُ مستبشراً　　وأضحتْ زنادُ التقى مُورِيَهْ

وأما خنساء فكانت جارية للفضل بن يحيى بن خالد. قال أبو عمرو: كتبتُ إلى خنساء:

خنساءُ، يا خنساءُ حتى متى　　يرفعُ ذو الحبِّ وينحطُّ؟

وكيف منجاتي، وبحرُ الهوى　　قد حفَّ بي، ليس له شطُّ؟

فكتبت:

يدركَكَ الوصلُ فتنجو بهِ　　أو يقعُ الهجرُ فتنغطُّ

وأما ملك فكانت جارية لأم جعفر. وروى أبو زيد مر بن شبة قال: كتب بعض الشعراء إلى ملك، وكان يهواها:

يا ملكُ، قد صرتُ إلى خطةٍ　　رضيتُ فيها منكِ بالضَّيْمِ

يلومني الناسُ على حبكم　　والناسُ أولى منكِ باللومِ

أشكو إليكِ الشوقَ يا منيتي　　والموتُ من نفسي على سَوْمِ

فكتبت إليه:

إن كانتِ الغُلْمةُ هاجتْ فقمْ　　وعالجِ الغلمةَ بالصومِ

ليس بكَ الشوقُ، ولكنما　　تدورُ من هذا على كومِ

وأما صرف فكانت مملوكة لابن عمرو، وكانت شاعرة مصافية لعبد الصمد بن المعذّل. قال أبو زيد: كتب إليها عبد الصمد يوماً:

حبوتُ صرفاً بهوًى صرفِ　　لأنها في غايةِ الظرفِ

يا صرفُ، ما تقضينَ في عاشقٍ　　بكاؤه يبدي الذي يخفي؟

فكتبت له:

لبيكَ من داعٍ، أبا قاسمٍ　　يا غايةَ الآدابِ واللطفِ

صرفُ التي أصفتكَ محضَ الهوى　　يقصرُ عن حبكمُ وصفي

وأما خشف فكانت جارية للعباس بن الفضل. وهي القائلة في رجل كانت تهواه:

لو كنتَ رزقي ما أردتُ زيادةً　　ولقلتُ: أحسنَ رازقي وأصابا

وأما عَلَمَ فكانت جارية لأحمد بن يزداد. ومن شعرها، وروى عنها المبرّد، قولها :

شكى صاحبي إتعابهُ العِيسَ في السُّرَى   فلمْ يُلْفِ في الشكوى عليَّ مُعَوَّلا

وأتعب عندي من مطايا بقفرةٍ   وأبعدها منها شقًا وترحُّلا

حشاً يمتطيها الشوقُ في كلِّ ساعةٍ   تقربها البلوى إلى الحتفِ منزلا

...

وأما رَيَّا فكانت جارية لابن القراطيسي، وكانت شاعرة. أنشد السيد بن أنس التليدي:

شكى صاحبي إتعابهُ العِيسَ في السُّرَى   فلمْ يُلْفِ في الشكوى عليَّ مُعَوَّلا

وأتعب عندي من مطايا بقفرةٍ   وأبعدها منها شقًا وترحُّلا

حشاً يمتطيها الشوقُ في كلِّ ساعةٍ   تقربها البلوى إلى الحتفِ منزلا

فكتبت:

قومٌ لهم شرفٌ وعزٌّ تالدٌ   يفنى الزمانُ، وعزهم لم يَنْفَدِ

الله خصَّ قديمهم وحديثهم   دون البريةِ بالعلا والسؤددِ

أضحى يُقِرّهمُو بكلِّ فضيلةٍ   منْ كان يجحدهمْ ومن لم يجحدِ

وتمامُ فخرهمُو إذا ما فاخروا   يومَ التناضلِ بالنجيبِ السيدِ

وأما مخنثة فكانت جارية لزهير. وقال ابن أبي خلصة: بعث يوماً زهير إلى أبي نواس فأحضره، وعرض عليه مخنثة، وكانت من أظرف الناس. فلما رآها قال:

قومٌ لهم شرفٌ وعزٌّ تالدٌ   يفنى الزمانُ، وعزهم لم يَنْفَدِ

الله خصَّ قديمهم وحديثهم   دون البريةِ بالعلا والسؤددِ

أضحى يُقِرّهمُو بكلِّ فضيلةٍ   منْ كان يجحدهمْ ومن لم يجحدِ

وتمامُ فخرهمُو إذا ما فاخروا   يومَ التناضلِ بالنجيبِ السيدِ

فقالت في وقتها:

أبو نواسٍ خليعٌ   له الكلامُ البديعُ

وواحدُ الناسِ طرًّا   له أقرَّ الجميعُ

وقالت ترثي ابن مولاها، وقُتِل ببغداد مع الأمين:

أسـأَلُ ناعيـهِ، والـذي شـهدَ الـ ـليثَ عليـهِ الكـلابُ تقتتـلُ
تـنهشُ شـلواً، أعـززْ علـيَّ بـهِ يـسحبُ طـوراً، والمـتنُ منخـذلُ
أأنـتَ أبـصرتهُ يـلابُ بـهِ في أرضِ بغـدادَ أيهـا الرجـلُ؟
إنْ كنـتَ أبـصرتهُ كـذاكَ فمـا ينجـو شـديدُ القـوى ولا فَـشِلُ
فلـو تـراهُ عليـهِ شِـكَّتُهُ والمـوتُ دانٍ، والحـربُ تـشتعلُ
لخِلْـتَ أنَّ القـضاءَ في يـدهِ أو المنـايا في كفـهِ رسـلُ
كأنـهُ آمـنٌ منيتَـه في الـرَّوْعِ لمـا تـشاجرَ الأَسَـلُ

فانظر، بالله، أيها المتصفح هذا الكتاب ما أحسن هذه المعاني العجيبة، والألفاظ المرققة العذاب! فما الذي أبقت هذه المرأة العبدة للرجال الأحرار؟

وأما سكن فكانت جارية لمحمود بن الحسن الوراق الشاعر. وكانت شاعرة مجيدة، حسنة النظر في العلوم. وهي القائلة تمدح أبا عدنان دُلَف بن أبي دلف:

أهـدتْ لقلبـكَ غـصةَ التلـفِ ودعـتْ إليـكَ دواعـيَ الأسـفِ
عـاداتُ مقلتهـا إذا نظـرت رشْـقُ القلـوبِ بأسـهمِ الـشَّغَفِ
كـم مـن أسـيرِ هـوًى لمقلتهـا بادي الـصبابةِ، ظـاهر الكَلَـفِ
وقْـفٌ علـى الأسـقامِ مهجتـهُ سمـحُ المقـادةِ، غـيرُ منتـصفِ
إنَّ المكـارمَ بعـدَ قاسِمِهـا ألقـتْ أعنتهـا إلى دُلَـفِ
مـا مـن أبي دلـفٍ سـوى دلـفٍ في البـأسِ والأفـضالِ مـن خَلَـفِ
جـادتْ يـداهُ بفـضل نائلـةٍ حـتى رمـاهُ النـاسُ بالـسَّرَفِ
يُمْـضِي عزيمَتَـهُ، وراحتُـه تقـضي علـى الأمـوالِ بالتلـفِ
أوفـتْ علـى قُلَـلِ العـلاءِ بـهِ هِمّـاتُ ذي همـمٍ وذي شـرفِ
أبلـغْ أبا عـدنانَ عـن سـكنٍ شـعراً قريـبَ العهـدِ بالـصحفِ
لكنـهُ سـتطولُ مدتـهُ ويـسيرُ سـيرَ الراكـبِ العنـفِ
إن كنـتَ تمتـدحُ المـديحَ كمـا قـد كـانَ يمدحـهُ أبـو دلـفِ

فمديحـــــهُ إعطـــــاءُ نائلِـــــه   عفـــواً بـــلا مـــنٍّ ولا سَـــرَفِ

ومن أشعار الإماء وأخبارهم مما لا يُعْرَف كثير. وقد بلغني أن بعض الجواري كانت تهوى سيدها، فباعها، فاشتد وجدها عليه، فقالت :

نأتْ دارُ من أهوى فما أنا صانعُ؟   أمـــصطبرٌ للبـــينِ أم أنا جـــازعُ؟

كفـــى حـــزناً أني تحينـــتُ عامـــداً   ولم أخشَ فجعَ البينِ، والبَيْنُ فاجعُ

فـــإن تمنعـــوني أنْ أبـــوحَ بحبـــهِ   فليسَ لقلبي من جوى البين مانعُ

فلما سمع المشتري شعرها ردها إلى مولاها. وبلغ ذلك عبد الله بن طاهر، فكتب إلى نائبه أبي القاسم يأمره أن يتعرف خبرها ويمتحنها. فركب أبو القاسم إلى مولاها، فأقرأه الكتاب، فأخرج إليه الجارية، فامتحنها عنتاً، وقال:

بـــديعُ صـــدٍّ، قريـــبُ هجـــرٍ   جعلتـــــهُ منـــــه لي مـــــلاذا

فقالت:

فعـــــاتبوهُ، فقـــــال كـــــبراً:   إنْ مـــاتَ عـــشقاً يكـــونُ مـــاذا؟

فقال:

قـــد مـــاتَ مـــن قبلـــهِ جميـــلٌ   وعـــــروةٌ مـــــاتَ قبـــــلَ هـــــذا

فقالت:

فكلهـــــمْ ذاقَ كـــــأسَ حتـــــفٍ   والحـــبُّ، يا عـــاذلي، علـــى ذا

فكتب نائب عبد الله بن طاهر بما شاهد، فأمره أن يشتريها. فورد الكتاب، وقد ماتت الجارية".

فانظر كيف يحتفى أحد كبار العلماء والنقاد بالشعراء العبيد والشاعرات الإماء، ويترجم لكل منهم ويذكر أخباره ويورد أشعاره ويقيّمها ويهتم بها غاية الاهتمام. وهو ما يطنطن النقد الثقافى بالاهتمام به وأنه يظهره ويخرجه من حال التهميش والظلام إلى حال النور والاهتمام مع أن الاهتمام بذلك هو أمر مشهور متعارف فى تاريخ أدبنا غاية الشهرة والتعارف. فماذا نريد أكثر من ذلك؟

ومما يكثر فى الأدب العربى، وكان المظنون ألا يكون، الأخبار والحكايات والأقاويل العارية والبذيئة. ونبدأ هذا الباب بقصة امرئ القيس مع عُنَيْزة ابنة عمه. قال الفرزدق: "حدثني جدي، وأنا يومئذ غلامٌ حافظٌ، أن امرأ القيس كان عاشقاً لابنة عم له يقال لها:

عُنَيْزَة، وأنه طلبها زماناً فلم يصل إليها حتى كان يومُ الغدير، وهو يوم دارة جلجل. وذلك أن الحي احتملوا، فتقدم الرجال وتخلَّف النساء والخدم والثقل، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعدما سار مع رجالة قومه غَلْوةً فكَمَنَ في غَيَابَةٍ من الأرض حتى مر به النساء، وفيهن عنيزة. فلما وردن الغدير قلن: لو نزلنا فاغتسلنا في هذا الغدير، فذهب عنا بعض الكلال. فنَـزَلْن في الغدير ونَحَّيْن العبيد، ثم تجردن فوقعن فيه. فأتاهن امرؤ القيس وهن غوافل، فأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها، وقال: والله لا أعطى جاريةً منكن ثوبها ولو ظلت في الغدير يومها حتى تخرج متجردةً فتأخذ ثوبها! فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار، وخشين أن يقصرن عن المنزل الذي يردنه، فخرجن جميعاً غير عنيزة، فناشدته الله أن يطرح إليها ثوبها، فأبى، فخرجت فنظر إليها مقبلةً ومدبرةً، وأقبلن عليه فقلن له: إنك قد عذبتنا وحبستنا وأجعتنا! قال: فإن نحرتُ لكنَّ ناقتي تأكلن منها؟ قلن: نعم فخرط سيفه فعرقبها ونحرها ثم كشطها، وجمع الخدمُ حطباً كثيراً فأججن ناراً عظيمة، فجعل يقطع لهن من أطايبها ويلقيه على الجمر، ويأكلن ويأكل معهن، ويشرب من فضلة خمرٍ كانت معه ويغنيهن، وينبذ إلى العبيد من الكباب. فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن: أنا أحمل طنفسته. وقالت الأخرى: أنا أحمل رَحْله وأنساعه. فتَقَسَّمْن متاع راحلته وزاده، وبقيت عنيزة لم يحملها شيئاً، فقال لها: يا ابنة الكرام، لا بد أن تحمليني معك، فإني لا أطيق المشي. فحملته على غارب بعيرها، وكان يجنح إليها فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها، فإذا امتنعت مالَ حِدْجُها، فتقول: عقرتَ بعيري فانزل، ففي ذلك يقول :

ويَــوْمَ عَقَــرْتُ لِلْعَــذَارَى مَطِيَّــتي	فَيَـا عَجَبـاً مِـنْ رَحْلِهـا المُتَحَمَّـلِ
يظَــلُّ العَــذَارَى يَــرْتَمِينَ بلَحْمِهــا	وشَـحْمٍ كهُـدَّابِ الـدِّمَقْسِ المُفَتَّـلِ
ويَـوْمَ دَخَلْـتُ الخِـدْرَ خِـدْرَ عُنَيْـزَةٍ	فقالَتْ: لَكَ الوَيْلاتُ! إنَّكَ مُرْجِلِى
تَقُـولُ وقَـدْ مـال الغَبِـيطُ بنَـا مَعـاً:	عَقَرتَ بعيري يا امْرَأَ القيْسِ، فانْزِلِ
فقُلْـتُ لهـا: سِـيرِي وأَرْخِـى زِمَامَـهُ	ولا تُبْعِـدِيني مـن جَنَـاكِ المُعَلَّـلِ

فهأنت ذا أيها القارئ الكريم ترى الرواية تورد كل شيء دون أن تعرف التردد أمام أى شيء. على أنْ ليس هذا كل ما فى الأمر، إذ نجد الشاعر يفاخر فى بعض أبيات هذه القصيدة بأنه اعتدى على عرض امرأة فى وجود رضيعها بل وهى ترضعه دون أدنى إحساس إنسانى من جانبه أو من جانبها بالرضيع المسكين وحقه على أمه وعلى الوغد الذى اقتحم عليها خيمتها فى الظلام وشغلها عن فلذة كبدها. ومع هذا كله لم يفكر علماؤنا فى إهمال تلك القصيدة أو على الأقل: تنقيتها من الأبيات الفاجرة.

وهناك قصيدة أخرى للنابغة الذبيانى يصف فيها جسد المتجردة زوجة النعمان بن المنذر عضوا عضوا. ويقول الرواة إنه، لما علم بغضب النعمان بما قاله فى زوجته وتوعُّده إياه بالعقاب الرادع، أنشأ عدة قصائد يعتذر فيها عما وقع منه. أما قصة تلك القصيدة العنيفة الجرأة فيحكيها صاحب "الأغانى" قائلا: "إن النابغة كان كبيراً عند النعمان خاصاً به، وكان من ندمائه وأهل أنسه. فرأى زوجته المتجردة يوماً وغشيها تشبيهاً بالفجاءة، فسقط نصيفها واستترت بيدها وذراعها، فكادت ذراعها تستر وجهها لعبالتها وغلظها، فقال قصيدته التي أولها:

أمــن آل ميــة رائــح أو مغتــدي   عجـــلان ذا زادٍ وغـــير مـــزوَّد؟

... فأنشدها النابغة مرة بن سعد القريعي، فأنشدها مرةُ النعمانَ، فامتلأ غضباً فأوعد النابغةَ وتهدده، فهرب منه فأتى قومه، ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام فامتدحهم. وقيل: إن عصام بن شهبرٍ الجرمي حاجب النعمان أنذره وعرَّفه ما يريده النعمان، وكان صديقه، فهرب". ومما روى أيضا فى هذا الموضوع أنه "كان والمنخَّل بن عبيد بن عامر اليشكري جالسين عنده، وكان النعمان دميماً أبرش قبيح المنظر، وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب، وكان يُرْمَى بالمتجردة زوجة النعمان، ويتحدث العرب أن ابني النعمان منها كانا من المنخل. فقال النعمان للنابغة: يا أبا أمامة، صف المتجردة في شعرك. فقال قصيدته التي وصفها فيها ووصف... فلحقت المنخلَ من ذلك غيرةٌ، فقال للنعمان: ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا مَنْ جرَّبه. فوَقَرَ ذلك في نفس النعمان، وبلغ النابغةَ، فخافه فهرب فصار في غسان".

هذا ما قاله الأصفهانى. والقصة مشهورة فى كتب الأدب والتاريخ. وأيا ما يكن الأمر فالذى يعنينا من هذا كله هو أن تاريخنا الأدبى لم يعرف التهميش لأحد أو لشىء حتى ولا فى موضوعات الجنس رغم حساسيتها فى مجتمعاتنا عموما. ولو كان تاريخ الأدب العربى يحذف شيئا لحذف هذه القصيدة فى حينها مراعاة لمكانة النعمان أو خوفا منه أو للأمرين جميعا، وهما ليسا بالشىء القليل أبدا. لكنه لم يفعل. ولم تترك الأبيات المأخوذة من الدالية المشهورة شيئا فى المتجردة دون أن تقف حياله بعين فاحصة متشهية، وإن تظاهر الشاعر الشيطان بكل جهده بإعطاء زوجها الملك حقه من الاحترام والتبجيل، إن كان هناك بعد كل ما قال موضعٌ أو معنًى للاحترام والتبجيل.

وعندنا من هذا اللون من الأدب رائية بشار، وإن لم تصل إلى هذا المدى من الشنع، بيد أنها ليست فى مجرد الوصف بل فى تصوير مناوشاته لفتاة ساذجة وسخره منها ومن براءتها

وخوفها من العواقب. وكل ذلك رغم تحذير المهدىّ الشديد له من نظم أى شعر فى النسيب عموما. وتبدأ القصيدة بقوله:

قـــد لامـــني في خليلـــتي عُمَـــرُ   واللـــوم في غـــير كنهـــه ضـــجَرُ

ولأبى العتاهية العتاهية أبيات بذيئة فى "السَّحْق". وفى "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" للراغب الأصفهانى صفحاتٌ عن ذلك الموضوع وبعض ما قيل فيه وعنه من شعر ونثر. وفى كتاب "ديوان الصبابة" أيضا لابن أبى حجلة صفحات فى هذا اللون من الأشعار. والكلام فى كتب التراث كثير فى ذلك الغرض.

فإذا انتقلنا إلى الناحية الأخرى ألفينا أبا نواس مثلا يخصص كثيرا جدا من شعره للغلمان بغض النظر عن صدق كل ما يقول أو صدق بعضه وكذب بعضه. وليس أبو نواس بالذى يحتاج إلى الاستشهاد على غلمانياته، فهو معروف ومشهور أشهر من نار على علم. والشعر الشاذّ فى الأدب العربى كثير، والحكايات المتعلقة به مثله كثرة، لكن أبا نواس واضح الصراحة فى ذلك، ومغرم بالدخول فى التفاصيل المقززة، والأشعار التى تتناول هذا الموضوع عنده من الكثرة بمكان كما قلنا.

وللجاحظ رسالة فى "القيان" كتب عنها موقع "الوراق" ما يلى: "كتاب دعا فيه الجاحظ إلى الخروج عن الأعراف والتقاليد في معاشرة النساء. واستشهد لذلك بنوادر النصوص والأخبار، وعثر وتعثر، وأخطأ وأصاب. وهو الكتاب الذي ذكره ياقوت باسم "كتاب المقيّنين والغناء والصنعة". وافتتحه بمقدمة شذ فيها عن جميع مقدمات كتبه، إذ جعل المقدمة رسالة من جماعة المستمتعين بالنعمة والمؤثرين للذة، المتمتعين بالقيان. واستمر نص الرسالة حتى آخر الكتاب. نقتطف منها قولهم: أما بعد فإنه ليس كل صامت عن حجته مبطلاً في اعتقاده، ولا كل ناطق بها لا برهان له محقًّا في انتحاله. وقد كنا ممسكين عن القول بحجتنا فيما تضمنه كتابنا هذا، اقتصاراً على أن الحق مكتفٍ بظهوره إلى أن تفاقم الأمر وعِيلَ الصبر، وخفنا أن يظن جاهل أن إمساكنا عن الإجابة إقرار بصدق العَضِيهة، فوضعنا في كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان. ولولا المحنة والبلوى لم يكن واحد أحق بواحدة منهن من الآخر. ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة. وإنما هن بمنزلة المشامّ والتفاح الذي يتهاداه الناس بينهم. ثم كانت الشرائف يقعدن للرجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ولا حراماً في الإسلام. والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المعنّسة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك، فلو كان حراماً وهي شابة لم يحلّ إذا عَنَّسَتْ، ولكنه أمر أفرط فيه المتعدُّون حد الغيرة إلى سوء الخلق وضيق العَطَن، فصار عندهم كالحق الواجب".

وله رسالة أخرى تسمى: "مفاخرة الجوارى والغلمان" تناول فيها هذا الموضوع على عادته فى سياق المقارنة بين الشذوذ وبين الحب الطبيعى المستقيم النظيف وأدار الكلام فيها على حوار بين رجل طبيعى ورجل شاذ يستعرض فيه كل منهما مزايا اللذة التى يحب ممارستها. والجاحظ فى هذه الرسالة لا يعرف التستر ولا الاحتشام بل يؤدى الأمر وكأنه عالم فى مختبر تحليلى، فهو لا يبالى أكان ما يحلله عطرا من عطور الورد أو فضلات مريض يريد التعرف على ما يعانى منه من أمراض. إنه اجتهاد علمى فى الحالتين ليس إلا. وهل يعرف العلم التنطس والتوجس؟ بطبيعة الحال لا. هكذا يؤدى الجاحظ الأمر.

قال فى مقدمة الرسالة المذكورة: "بسم الله الرحمن الرحيم. بالله نستعين، وإياه نستهدي، وعليه نتوكل. إن لكل نوع من العلم أهلا يقصدونه ويؤثرونه، وأصناف العلم لا تحصى: منها الجزل، ومنها السخيف. وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحكٌ ومُلْهٍ، وداخل في باب حد المزح، فأبدلت السخافة بالجزالة انقلب عن جهته، وصار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها ويغمها.

ومن كان صاحب علم ممرَّنا موقَّحا، إلف تفكير وتنقيب ودراسة، وحِلْف تبيُّن، وكان ذلك عادة له، لم يضره النظر في كل فن من الجد والهزل، ليخرج بذلك من شكل إلى شكل. فإن الأسماع قد تمل الأصوات المطربة، والأوتار الفصيحة، والأغاني الحسنة، إذا طال ذلك عليها. وقد روي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: "إني لأستجمّ نفسي ببعض الباطل مخافة أن أحمل عليها من الحق ما يُمِلّها". وقد روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: "العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه". وروي عن الشعبي أنه قال: "إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة".

وبعض من يظهر النسك والتقشف إذا ذُكِر... تقزَّز وانقبض. وأكثرُ من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم، والنبل والوقار إلا بقدر هذا التصنع... وإنما وُضِعَتْ هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة، ولو كان الرأي ألا يُلْفَظ بها ما كان لأول كونها معنى، ولكان في التحريم والصون للغة العرب أن تُرْفَع هذه الأسماء والألفاظ منها. وقد أصاب كل الصواب من قال: لكل مقام مقال...".

وفى "الأغانى" كثير من الحكايات العارية التى ما إن تَعْرِض إحداها لأبى الفرج حتى يشمّر فى الحال عن ساعد الهزل وينطلق فى الوصف والاختراع والتلفيق والزعم بأن هذا حدث من فلان، وذاك من علانة وترتانة، آتيا بكل مبدع فى هذا الميدان لا يستحى من لفظ ولا معنى ولا يوقر شيئا ولا إنسانا. فقلمه ذرب، وأسلوبه ساحر، وخياله واسع شاسع لا يخذله

أبدا. وهو يأتى بأشياء لا يمكن بتاتا أن تكون قد وقعت، لكنها رغم ذلك حلوة منه ممتعة رغم معرفتنا أنها مستحيلة كما شرحت ذلك فى ترجمتى له بكتابى: "تاريخ الأدب العربى– العصر العباسى". وكانت الملوك وكبار رجال الدول الإسلامية تبذل الغالى والنفيس لحيازة نسخة من ذلك الكتاب، ويرى بعضهم أنه يُغْنِى عن كل ما عنده من آلاف الكتب.

ومما اشتهر فى هذا المجال الديوان الذى نظمه فى رثاء نفسه والتباكى على عجزه أبو حُكَيْمة راشد بن إسحاق الكاتب. والديوان متاح لكل من يريده لا يلقى تعبا ولا مشقة فى الحصول عليه، فهو مباح لكل وارد لا يُحَلَّأ عنه أبدا مهما تكن الظروف والأحوال. وبالمثل يحتفى به النقاد والأدباء وأصحاب القصص ويستشهدون به ويثنون على صاحبه لانتهاجه هذه السبيل الطريفة التى لم ينتهجها أحد من قبله، على الأقل بهذا الاتساع والعكوف. وتكلم عنه السرىّ الرفاء فى "المحب والمحبوب والمشموم والمشروب" بوصفه أحد الشعراء الذين اشتهر كل منهم بشىء متفرد. وترجم له كل من صلاح الدين الصفدى فى كتابه: "الوافى بالوَفَيَات"، وابن شاكر فى "فوات الوفيات"، واستشهد ببعض أشعاره. وخصص له ابن المعتز فى كتابه الممتع: "طبقات الشعراء" صفحات ضمنها ترجمته وبعض أشعاره. وابن المعتز هو من هو شعرا ونقدا وتذوقا للإبداع!

وفى "ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب" للثعالبى، وتحت عنوان "فيما يضاف وينسب إلى طبقات الشعراء"، أى ما ضُرِب به المثلُ عن كل شاعر: "حُلَّة امرئ القيس، يوم عَبِيد، حِكَم لَبِيد، حوليّات زُهَيْر، صحيفة المتلمّس، قدح ابن مقبل، منديل عبدة، لسان حسان، سيف الفرزدق، بنات نُصَيْب، غزل ابن أبي ربيعة، عين بشار، طبع البحتري، ... أبي حُكَيْمَة، تشبيهات ابن المعتز، عتاب جَحْظَة، غلام الخالدي". وفى هذا الموضوع يقول الثعالبى فى الكتاب المومإ إليه: "ذِكْر الأعضاء لا يؤثِّم، وإنما الإثم في ذكرها عند شتم الأعراض، وقذف المحصنات". ثم أورد الثعالبى بعضا من أشعار أبى حكيمة فى هذا المجال، ثم علق قائلا على محاولة كشاجم النسج على منوالها: "وأراد كشاجم أن يتعاطى فن أبي حكيمة، فما شق غباره على ارتفاع مقداره في الشعر".

وعلى نفس الشاكلة سار ابن منظور فى كتابه: "نثار الأزهار فى الليل والنهار" فقال استطرادا لحديثه عما امتاز به ابن طباطبا العلوى عن الشعراء من أنسه بالليل على عكس شكواهم منه وضيقهم به وتبرمهم بطوله: "هذا الذي أبدع فيه وخالف الشعراء في أنسه بالليل والكواكب وبكائه عليها وتوجعه لفقدها، وجميع الشعراء مَهْيَعُهم شكوى الليل وطوله والتوجع لرَعْى النجوم ووصف الليل والنجوم كما انفرد ابن طباطبا بالإجادة فيه كأبي نواس في الخمر،

وابن المعتز في التشبيه، والصنوبري في صفات الربيع، والبحتري في طيف الخيال، وأبي تمام في البديع والرثاء، وابن حازم في القناعة، وأبي العتاهية في الزهد، وابن الرومي في الهجو، ومحمود الوراق في الحِكَم، والمتنبي في المدح والأمثال، والحمدوي في طيلسان ابن حرب، والمعري في الدرع، وعمر بن أبي ربيعة في النسيب، وكشاجم في الأوصاف النادرة، ومُحَمَّد بن هانئ في وصف الحرب وأدواتها، والسَّرِيّ الموصلي في وصف شعره، وأبي العباس الخازن في الاعتذار والاستعطاف، وطياب في الخمار، وابن الحجاج في المجون، وأبي حُكَيْمة راشد بن عبد القدوس في رثاء ...، ومن المتقدمين امرؤ القيس في وصف الخيل، والنابغة في الاعتذار، والأعشى في الخمر، وزُهَيْر في المدح، والشَّمَّاخ في وصف الإعسار، وذو الرمة في وصف الفَلَوَات والهواجر، وهُذَيْل في القِسِيّ والنَّبْل، والفرزدق في الفخر".

وهناك رسالة اسمها "جنة الولدان فى الحسان من الغلمان" للشهاب الحجازى جمع فيه شعره فى هذا الموضوع، ومهد لذلك بمقدمة قال فيها: "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم تسليماً. الحمد لله ذي العزة والجلال، مانح من شاء من خَلْقه البهاء والكمال، الذي حَلَّى من اختاره من عباده بحسن الخلق فنحمده على كل حال، ونشكره شكر من حسن حاله في الحال والمآل، ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الكبير المتعال، ونشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله القائل: إن الله جميل يحب الجمال، صلى الله عليه وعلى الصحب والآل.

وبعد فقد سألني بعض الأصحاب اللطفاء، والأصدقاء الظرفاء، أن أجمع شيئاً من الأشعار، وإن كانت في هذا الزمان قليلة الأسعار، مقترحاً عليَّ في ذلك ألا يكون من كَلِمٍ شَتَّى رواها مَنْ روى، بل من نظمي خاصة لا غير ولا سوى، مقيداً في ذلك أن تكون من المقاطع في الحسان من الغلمان، حسبما يطلبه أبناء الزمان. فكلَّفْتُ طباعي الطاعة، على حسب الاستطاعة، وقلة البضاعة، معتذراً عن ذلك بما قلته، ومن قديمٍ نظمته... ووضعت هذا التأليف، حسبما اقترح عليّ تجربة الفكر الضعيف، وجعلت فيه شيئاً رثى ذوي الحُسْن والبها، لأنه أحق ما إليه يُنْتَهَى، وسميته: "جنة الولدان، في الحسان من الغلمان"، ونعوذ بالله من نزغات الشيطان الرجيم، ونتبرك باسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... إلخ". والمضحك أنه يبدأ رسالته فى هذا الرجس باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله والتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وطلب الحول والقوة من الله العلى العظيم، وكأننا نحن الذى ألفنا الكتاب، بينما هو مجرد قارئ وقع الكتاب فى يديه بالمصادفة فتنطَّس وتفزز! والله إنه لأعجب العجب!

حتى الحور العين لم يسلمن من نظم الاشعار فيهن. وممن؟ من ابن قيم الجوزية لا سواه. وهو فى وصفه لهن إنما يصف كل شيء لا يورّى ولا يكنّى بل يضرب ضربته فى الصميم دون أية مبالاة، ويمضى خفيف الضمير غير متأثم ولا متحرج، فهو إنما يصف إحدى نساء الجنة، ومن حقه أن يخوض فى وصفها بكل حرية، فليس لها أهل يمتعضون لوصف جسدها ولا منافسون له يغارون منه ويهددون حياته لكى يفوزوا هم بها من دونه، إذ الحور العين ليس لأعدادهن انتهاء. والقصيدة تعبر عن شهوة لاعجة يستتر صاحبها تحت مظلة التظاهر بأنها فى تعليم العقيدة الصحيحة فى أمور الحور العين. والمهم فى هذا كله أن أحدا لم يفكر فى محو هذه القصيدة من تاريخ أدبنا رغم كل ما فيها من عرى تام وامتلائها بروائح الشهوة النفاذة التى تدع الوقور الراسخ المشاعر متوفزا كأنه جالس على صفيح مشتعل.

ولا يتوقف الأمر عند هذا، بل هناك كتب تقتصر على موضوع الجنس وتتناول كل شيء فيه بحرية تامة وصراحة شاملة. ومنها كتاب شهاب الدين التيفاشى: "نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب"، ومنها كتاب "نواضر الأيك" لجلال الدين السيوطي المتوفَّى سنة ٩١١ هـ. وهو من الكتب الذائعة الصيت فى هذا الموضوع ولا تتورع من استعمال أى من ألفاظ العورات والشهوات. ومثله فى ذلك كتاب "الروض العاطر في نزهة الخاطر"، ومؤلفه مُحَمَّد بن مُحَمَّد النفزاوي من أهل القرن الخامس عشر الميلادى. وهناك "رجوع الشيخ الى صباه" لأحمد بن سليمان، ويقال إنه ألف هذا الكتاب بإشارة من السلطان سليم خان الأول سنة ٩٠٣هـ. وفى هذا السياق لا يصح أن نهمل كتابا ككتاب "الطبقات الكبرى" للشعرانى، ففيه من هذا الضرب هوائل من أفاعيل الصوفية الذين يعتقد فيهم العامة الولاية والتقوى.

ولا بد أن يكون القارئ قد لحظ أن الكلام فى هذا الموضوع بصراحة وتفصيل لم يقتصر على الشعراء والنقاد بل شَرِكَهم فى ذلك بعض علماء الدين، وأن أولئك العلماء قد أوضحوا أن هذا لا يدخل فى الرفث، إذ هو مجرد كلام، والكلام جزء من اللغة، ولو كان هذا الكلام عيبا يؤخذ على مستعمليه لكان ينبغى ألا تحتوى اللغة من الأساس على شيء من هذه الألفاظ والتعبيرات. وكيف يكون استعمال تلك الألفاظ والتعبيرات شيئا معيبا، وهى تؤدى حاجة حيوية فى حياة الإنسان لا يمكن الاستغناء عنها؟ ذلك أن الإثم هو مقارفة الزنا لا استخدام الكلمات المتصلة بموضوعنا. لكل هذا نقول إن تاريخنا ونقدنا الأدبى القديم لم يعرفا المصادرة لشيء من الأشعار أو الكتب والرسائل التى تتناول الحب والغرام والجنس البتة. نعم رأينا المهدى العباسى ينهى بشارا عن التشبيب بالنساء، لكننا رأينا أيضا بشارا لا يستطيع الانتهاء عما نُهِيَ عنه، وكان يتحايل على ذلك تحايلا ظريفا فى كل مرة، إذ يقول ما معناه أن

الخليفة قد نهاه عن التشبيب، وأنه سوف يلتزم بذلك النهى ولن يقول كذا وكذا، ثم ينطلق فى التشبيب، الذى نهاه الخليفة عنه كمثال على ما لا يصح له الكلام فيه. وبذلك يخرج "بصنعة لطافة" على ما يقوله المهدى.

نسق الفحل عند د. عبد الله الغذامى

يرى د. عبد الله الغذامى الكاتب السعودى أن النقد الأدبى يقوم على إظهار ما فى النصوص الأدبية من نواح جمالية. وهذا الاهتمام الذى يوليه النقد الأدبى للنواحى الجمالية الشكلية للأدب قد غطى على ما تتضمنه تلك النصوص من عيوب إنسانية واجتماعية وسياسية قاتلة حسب تأكيده. وهو، من أجل هذا، يهاجم النقد الأدبى هجوما شنيعا ويؤكد بكل قوة أنه ينبغى نبذ ذلك النقد وإحلال النقد الثقافى محله، ذلك النقد الذى يكشف ما هو مختبئ داخل النصوص الأدبية ولا يستطيع المبدع ولا الناقد الأدبى الوصول إليه وتعريته، بل يستطيعه الناقد الثقافى فقط، متمثلا طبعا فى د. الغذامى نفسه، وفيه وحده. والنسق الثقافى الذى وجده د. الغذامى مختفيا فى النصوص الشعرية العربية كلها والنثرية أيضا هو نسق الفحل. فهناك دائما الشاعر الفحل الذى لا يرقى الشعراء الآخرون إلى مكانته أبدا مهما فعلوا ومهما أبدعوا. وذلك الشاعر الفحل هو الشاعر المداح الذى ينظم الشعر الطنان ابتغاء كسب المال من الحاكم الفحل، إذ يعمل الشاعر الفحل بكل ما لديه من قوة وموهبة على تصوير الحاكم الممدوح بوصفه فحلا لا يساويه ولا يدانيه إنسان آخر. ومن هنا ظهر الطغيان فى حكامنا وساستنا، وصارت الشعوب تتقبل هذه الفحولة دون مناقشة أو تردد. فالأساس الذي تقوم عليه بنية الشعر العربي فى نظر الغذامى هو المراوغة والكذب والنفاق وضخامة الأنا مما أفرز شخصية عربية ذات ثقافة غير عقلانية هي ثقافة الزيف والطمع والتفحيل وإلغاء الآخر. ومن كلامه فى هذا الصدد قوله فى كتابه: "النقد الثقافى– قراءة فى الأنساق الثقافية العربية": "فى بحثنا هذا سوف نسعى إلى تشريح الأنساق الثقافية التي نرى أنها هي المكونات الأصلية للشخصية العربية التي صاغها الشعر صياغة سلبية/ طبقية وأنانية، وتخلق من ورائها أنماط سلوكية وثقافية ظلت هي العلاقة الراسخة في قديمنا وحديثنا".

وهو، على طول الكتاب، يؤكد أن شخصية الشاعر الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع من جهة، وشخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخرين من جهة ثانية، هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري، ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى، ومن ثم صارت نموذجاً سلوكياً ثقافياً يعاد إنتاجه بما أنه نسق منغرس في الوجدان الثقافي مما ربى صورة

الطاغية الأوحد فحل الفحول الشعري الذي يمثل رأس الهرم الطبقي، ومكانته لا تتحقق إلا بإلغاء الآخرين عبر الظلم والبغي وسطوة الفرد الواحد، والقدرة على البطش وتضخم الذات كما فى حالة جرير والفرزدق وأبى تمام والمتنبي وغيرهم. والغذامى بهذا "يترك الحمار ويعض فى البرذعة"، فعوضا عن قصر الجريمة على المبدع كان ينبغى أن يدين الغذامى الأمة شعوبا وحكاما بما فى ذلك المبدع بطبيعة الحال، أما المبدع فليس سوى شخص واحد فى أمة كاملة حتى لو كان تأثيره أقوى من كثيرين غيره. ولولا أن الشعوب تقبلت استبداد المستبدين وتركتهم يركبونها براحتهم ما استطاع المستبدون الاستبداد بها بل ولا البقاء فى سلطانهم أصلا. فإذا جاء المبدع ومالأ السلطان فهو واحد ممن أجرموا، وليس هو المجرم الوحيد. أما كلام الغذامى فهو مضلل ويأخذ الشعوب بعيدا عن الهدف الذى يجب أن تصوب الشعوب سهامها إليه بعد تنبيهها إلى مَغَبَّة ما هى فيه من رضا بالاستبداد وهتاف بحياة المستبدين.

هذا موجز شديد لمحور الكتاب الذى ألفه د. الغذامى عن "النقد الثقافى" والذى حاول أن يسرب فيه كثيرا من الأفكار الخاطئة بل والمنحرفة مما سنقف إزاء طائفة منها غير قليلة ونبين للقارئ الكريم ما فيها من انحراف وسطحية ومكر، وبالدليل والنصوص والوثائق والتحليل المنطقى المعتمد على الوقائع التاريخية لا على اللف والدوران ولَيّ الحقائق وتأويل النصوص إلى ما لا يمكن أن تعنيه أبدا والشقشقة باللسان دون محصول صحيح. والآن نشرع فى التحليل والمناقشة. ونبدأ بما قاله فى بداية الفصل الأول من كتاب "نقد أدبى أم نقد ثقافى؟"، الذى كتبه بالاشتراك مع د. عبد النبى سطيف. ففى ذلك الفصل يبدو د. الغذامى متنفجا تنفجا قبيحا فى الحديث عن مشروعه فى "النقد الثقافى"، وكأنه هو الذى قال بهذا النقد الثقافى ولم ينقله نقلا ككل من نقلوه عن الغربيين، ناسيا أنه فى كل مرة تقريبا يظهر فى الغرب منهج جديد فى النقد كان يسارع إلى اعتناقه والمناداة به والمنافحة عنه كأنه هو مبدعه ومخترعه ثم سرعان ما ينساه لحساب شىء جديد يتبناه بنفس التحمس والتعبد وكأنه يمارس شعيرة دينية لا لشىء سوى أن الغربيين قد نسوه وأهملوه. فهو ابن التحولات السريعة والتناقضات العجيبة جريا وراء ما يأتينا من النقد الغربى.

وهذا التنفج بالنقد الثقافى من جانب د. الغذامى هو تجاهل سخيف للواقع الذى يخزق العين، فلا الغذامى هو مكتشف النقد الثقافى ولا هو صاحب مشروع فيه، بل مجرد رجل ينقل عن الغربيين نقلا ويكتب فى تطبيق الكلام النظرى على النصوص كلاما مدابرا للمنطق مصرا عليه فى لدد عجيب. وما من مرة قرأت له فيها شيئا إلا واستغربت متسائلا: هل الرجل يقول هذا من عقله؟ ذلك أنه لا يستطيع أن يقول شيئا عقلانيا، إذ هو والعقل خصمان لا يمكن الصلح بينهما. وهو هنا يضع الأدب فى مواجهة الثقافة ومناقضا لها بينما الأدب جزء من الثقافة، وإن لم يكن النقد الأدبى جزءا من النقد الثقافى بل العكس. ذلك أن الأدب هو طريقة فى التعبير عن فكرة أو شعور تتوسل بالأسلوب الجميل المؤثر وبالتصوير المبدع ولا تلقى الكلام ممسوحا باردا كالكلام الخارج من العقل وحده، مما هو أشبه بالعلوم. وما دام الأدب طريقة فى التعبير على النحو الذى وضحتُه فإنه مجال مترامى الأطراف يدخل فيه كل شىء من الثقافة بشرط أن يكون هناك الشكل والتعبير الجميل الذى يصوغ فيه الأديب إبداعه. فالأدب، كما نرى، مضمون وشكل. والمضمون، حسبما قلنا، مفتوح على مصراعيه. ومن هنا فإذا أردنا أن نفهم ونتعمق المضمون الأدبى فعلينا الاستعانة بكل ألوان المعارف تقريبا. وعليه فإن هناك مناهج متعددة للمساعدة فى هذه المهمة: المنهج اللغوى والبلاغى، والمنهج النفسى، والمنهج الاجتماعى، والتناص، وغير ذلك. ومن هذه المناهج منهج النقد الثقافى، وهو امتداد للمنهج الاجتماعى، ولكن بمصطلحات ومفاهيم مختلفة، وإن كانت الغاية واحدة تقريبا فى المنهجين. لهذا كله لا أدرى لم يصر الغذامى على أن النقد الثقافى بديل عن النقد الأدبى، فى حين أن النقد الثقافى هو جانب واحد من جوانب النقد الأدبى التى تتناول المضمونَ مهمتُه أن يكتشف العادات والتقاليد والقيم والعقائد الدينية والمبادئ الاحتماعية والأخلاقية والسياسية المتضمنة فى النص الأدبى مسميا إياها: "الأنساق الثقافية". ولو قلتَ، بدلا من "الأنساق"، "الأحوال والأوضاع" ما كنتَ مخطئا.

وهو يقول إن النقد الأدبى قد نضج واحترق، فهل احترق التذوق البشرى والهفوّ إلى الجمال التعبيرى والتطلع إلى العيش فى واحة الإبداع الأدبى التى تجرى من تحتها الأنهار وتلفها الظلال الرخية المنعشة وتهب عليها النسائم البليلة؟ الغذامى يخبط كلامه خبطا دون تأنٍّ ودون

مراعاة للوقائع الراسخة والحقائق القاطعة والطبيعة الإنسانية الثابتة. وهو، كما قلت وأقول دائما، بينه وبين المنطق والعقل عداوة قاتلة. ويلاحظ من يقرأ له أنه لا يستطيع أن يتذوق شيئا ولا يحسن قراءة النصوص أدبية كانت أو نقدية، بل يجعل عاليها واطيها متلذذا بهذا الإرباك الذى يحدثه فى المشهد الأدبى والنقدى. والمصيبة بل الكارثة أنه يظن بل يصر أنه صاحب مشروع نقدى وثقافى ولا أدرى ماذا أيضا. وواضح أنه لا يعرف عم يتكلم.

ومثل ذلك دعواه الخاطئة بعد ذلك بقليل فى نفس الفصل المذكور آنفا بأن "الخطاب النقدى الأدبى هو العلم الذى تتجلى فيه الأريحية الذاتية حيث تغيب الذات المتكلمة، ويكون الحديث عن الآخر، وليس عن الذات". ذلك أن فى النقد مجالا رحيبا لحديث الناقد عن ذاته، ويتجلى ذلك على أشده فى النقد الانطباعى حيث ينطلق الناقد معبرا عن آرائه ومشاعره تجاه العمل الأدبى الذى ينقده مسترجعا الذكريات وموردا القصص، بل مستشهدا بما كتب هو نفسه فى الموضوع الذى يتناوله، كما نجد فى نقد المازنى وزكى مبارك ومحمد النويهى ومارون عبود مثلا، وإلى حد ما طه حسين والعقاد ومحمد مندور وسيد قطب. بل إن الغذامى ذاته كثيرا ما يتحدث عن نفسه فيما يكتب من نقد أو ما هو مفترض أنه نقد. ثم ما رأيكم فى الجاحظ من القدماء، وابن شهيد وابن المعتز وأبى حيان التوحيدى وابن رشيق وابن الأثير وصلاح الدين الصفدى مثلا؟ لقد كانوا كثيرا ما يتحدثون أثناء ما يكتبون من نقد عن أنفسهم. ليس ذلك فقط بل إن كل ما يقوله الناقد عن الأديب الذى يتناوله بالنقد إنما هو انعكاس لفكره وذوقه، فكلامه عن الآخر هو فى ذات الوقت تعبير غير مباشر عن الذات.

كذلك يتكلم الغذامى، فى كتابه: "النقد الثقافى"، عما يسميه بـ"المؤسسة الثقافية الرسمية"، وهى المؤسسة التى تصدر الأحكام على هذا الشاعر أو ذاك، وعلى هذا الشعر أو ذاك، وعلى هذا الأسلوب أو ذاك، فيتم الالتزام به "بدون إِحِمْ ولا دستور" طبقا لمزاعمه. فهل كانت هناك فى تاريخنا الأدبى مثل تلك المؤسسة؟ وأين كان مقرها يا ترى؟ سيقال: ليس المقصود مؤسسة مادية لها مبنى ومكاتب وقاعات واجتماعات دورية مثلا بل مؤسسة معنوية يراد بها ما يقرره الكتاب والنقاد. لكن متى أجمع النقاد والكتاب على شىء؟ صحيح أن المتنبى مثلا قد ملأ الدنيا وشغل الناس، لكن ليس هناك إجماع على أنه أكبر الشعراء، أو على

"فحوليته" حتى يرضى عنا د. الغذامى. ودليلنا على ذلك أنه فى بلاط سيف الدولة كان هدفا لانتقادات كثيرة من بعض علماء البلاط الحمدانى وشعرائه. كما ألف المهلبى المعاصر له كتابا فى سرقاته. وهناك شاعران بغداديان معاصران أيضا له أخذا على عاتقهما التهجم عليه والتحقير من شأنه ومن نسبه، وهما ابن حجاج وابن سكرة. وهناك كتاب الجرجانى: "الوساطة بين المتنبى وخصومه"، الذى يقول عنوانه بكل وضوح إن المتنبى كان له خصوم من النقاد والشعراء يحطون من قدر شعره. ومعروفة عيوب شعره التى أُخِذَتْ عليه ولا يستطيع أشد الناس إعجابا به، وأنا بالمناسبة من المعجبين بشعر الرجل بوجه عام إعجابا كبيرا، أن يسوّغها أو يخفف من سوئها، ومنها الغموضُ الذى كان يتعمد سربلة شعره به أحيانا، وقَصْدُه فى أحيان غير قليلة إلى اللفظ الحوشى الجافى والتركيب المعسلط الذى يحتاج إلى جهد مزعج كى يستطيع الإنسانُ فَكَّه والوصولَ إلى ما يريده منه، وتغشمره فى الكلام عن بعض الأنبياء والعقائد على نحو مقلق، وهذا أقل ما يقال فيه، إلى جانب بعض الأشعار التافهة التى قالها عفو الخاطر فى موضوعات سطحية خلال مجالسه الليلية مع ممدوحيه على سبيل التسلية... إلخ. وفى عصرنا هذا ظهر كتاب للمرحوم عباس حسن انتصر فيه لشوقى على المتنبى وعاب هذا الأخيرَ عيوبا غير هينة. كما ظهر كتاب للدكتور مُحَمَّد عبد الرحمن شعيب يتتبع تاريخ الدراسات المتنبئية بين المعجبين بالشاعر والزارين عليه، وعنوانه "المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث". ومعروف كتاب د. طه حسين: "مع المتنبى"، الذى حمل فيه على شاعرنا حملة ثقيلة، ورماه فى نسبه بما لم يرمه به أحد فى القديم والحديث، وعاب كثيرا من استعمالاته الأسلوبية عيبا شديدا... إلخ. وقبل ذلك كله يقول أبو الفرج الأصفهانى فى "أغانيه" بصريح الكلام عن الأعشى فى بداية ترجمته له ما يدل على أنه لا يوجد إجماع على فحولة أحد: "وهو أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم وتقدَّم على سائرهم، وليس ذلك بمجمع عليه لا فيه ولا في غيره".

وإذا كان د. الغذامى قد أشار إلى "كليلة ودمنة" بوصفه من الكتب التى حازت قبول المؤسسة الثقافية فأرى أن الكتاب إبداع متميز بلا شك. ومن الطبيعى أن يكثر المعجبون به. ومع هذا فإن د. طه حسين مثلا قد زعم أن أسلوب ابن المقفع يشبه أسلوب المستشرقين.

يقصد أنه أسلوب خواجاتى. ومع هذا أيضا فقد قُتِل ابن المقفع ولم يشفع له تأليفه أو ترجمته لهذا الكتاب الذى حاز القبول من المؤسسة الثقافية طبقا لرأى د. الغذامى. بل ثمة رأى يقول إن الكتاب كان سببا فى مقتله لأنه، حسب هذا الرأى، قد انتقد فيه على سبيل التورية والرمز الخليفة أبا جعفر المنصور، فأسرَّها فى نفسه واهتبل أول سانحة وقتله أشنع قتلة. وقد قال الغذامى إن الكتاب معمول للملوك. فهل كتبه أو ترجمه ابن المقفع للملوك فعلا؟ إن موضوعاته بعامة هى موضوعات الحياة اليومية، واهتماماته فى الغالب هى اهتمامات الناس العاديين، وإن نقل بيئة الأحداث إلى عالم الحيوان. كذلك فعندنا أشعار بشار، وهى أشعار رضيت عنها "المؤسسة الثقافية الرسمية" بتعبير د. الغذامى، ومع هذا لم يمنع هذا الرضا الخليفة المهدى من عقابه عقابا شنيعا على بعض هذه الأشعار ذاتها، وهى أشعاره فى النساء، أو على الأقل: تَحَجَّجَ بها عليه واتخذها تكأة لضربه ضربا مبرحا أودى به.

أما النساء، اللاتى ادعى د. الغذامى أن المؤسسة الثقافية العربية الرسمية قد أهملت إبداعهن، فقد أوردتُ فى هذا الكتاب نصوصا كثيرة جدا لهن احتفت بها وبصاحباتها "المؤسسة الثقافية الرسمية" حسب تعبير د. الغذامى، أو النقاد والأدباء حسب تعبيرى أنا العبد لله الفقير، احتفاء بالغا بما فى ذلك أبيات الشعر المفردة التى أتتنا من الجاهلية والتى لم تنظمها فى أرجح الرأى إلا راعية أو ربة بيت مسكينة لا يعرف عنها أحد شيئا. وهذا يدل على أن ما قاله د. الغذامى عن إهمال الإبداع النسائى والتقليل من شأنه كلام خاطئ "من ساسه لراسه" كما نقول فى مصر. ونفس الشىء يقال عن الصغار، الذين يدعى د. الغذامى أيضا أن المؤسسة الثقافية الرسمية كانت تزدريهم ولا ترى لهم قيمة، ومن ثم فليس من حقهم أن يفتحوا أفواههم، وبخاصة فيما يتعلق على أى نحو بعالم الإبداع، عالم الكبار والفحول كما يردد ناقدنا العبقرى دائما فى سخرية وسخط على الأدب العربى ومبدعيه ونقاده. ففى "الأغانى" مثلا: "نظر النابغة الذبياني إلى لبيد بن ربيعة، وهو صبي، مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر، فسأل عنه فنُسِب له، فقال له: يا غلام، إن عينيك لعينا شاعرٍ. أفتقرض من الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا عم. قال: فأنشدني شيئاً مما قلته. فأنشده قوله: "ألم تَرْبَع على الدِّمَن الخوالي؟". فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر. زدني يا بنيّ. فأنشده: "طللٌ لخولةَ

بالرسيس قديم". فضرب بيديه إلى جنبيه وقال: اذهب، فأنت أشعر من قيس كلها، أو قال: هوازن كلها".

وكان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت قد لسعه زنبور وهو طفل، فجاء إلى أبيه الشاعر يبكي، فقال له: يا بني، مالك؟ قال: لسعني طُوَيْر كأنه ملتف في بُرْدَيْ حِبَرَة. فضمه إلى صدره وقال له: يا بني، قد قلت الشعر. فانظر كيف اهتم حسان بعبارة ابنه القصيرة ومدح أسلوبه فى الوصف وجعله من الشعراء رغم أن الكلام نثرى. ويروى أن معلم هذا الغلام قد عاقب صبياناً على ذنب، ولما جاء دوره قال معتذرا:

الله يعلـــــم أني كنـــــت منتبـــــذاً في دار حـــــسان أصـــطاد اليعاســـيبا

وأن حسانا حين بلغه قول ابنه هذا البيت أتى يسعى حتى ضمه إلى صدره فرحا به وتشجيعا له. وثم حكاية أخرى تقول إن ابنة لعدى بن الرقاع العاملى الشاعر الأموى وقف بباب أبيها قوم يسألون عنه، فقالت: ما تريدون؟ فقالوا: جئنا لنهاجيه. فقالت وهي صبية صغيرة:

تجمعتمـــو مـــن كـــل أوبٍ ووجهـــة علـى واحـد؟ لا زلتمـو قـرن واحـدِ

فحفظ تاريخ الأدب العربى ذلك لها، وأتت به الروايات إعجابًا بالبيت وبمن قالته.

وفى "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" لعبد القادر البغدادى أن الكميت الشاعر الأموى المتشيع "كان في صغره ذكياً لوذعياً. يقال إنه وقف، وهو صبي، على الفرزدق وهو ينشد، فأعجبه سماعه، فلما فرغ قال: يا غلام، كيف ترى ما تسمع؟ قال: حسن يا عم. قال: أيسرك أني أبوك؟ قال: أما أبي فلا أبغي به بدلاً، ولكن يسرني أنك أمي! فحَصِر الفرزدق وقال: ما مر بنا مثلها".

وفى "البصائر والذخائر" لأبى حيان التوحيدى: "قال أبو عبيدة: ما يمكن أن يكون في الدّنيا مثل النّظّام. سألته، وهو صبيٌّ، عن عيب الزجاج، فقال: سريع الكسر، بطيء الجبر. ومدحوا النّخلة عنده فقال: صعبة المرتقى، وبعيدة المهوى، خشنة المسّ، قليلة الظّلّ. وذُكِرَ الخليل عنده، فقال: توحّد به العُجْبُ فأهلكه، وصوّر له الاستبدادُ صوابَ رأيه فتعاطى ما لا يحسنه ورام ما لا يناله، وفتنتْه دوائره التي لا يحتاج إليها غيره".

وفى "غُرَر الخصائص الواضحة وعُرَر النقائص الفاضحة" للوطواط: "قال أبو عبادة البحتري: دخلت يوماً دار الفتح بن خاقان، فوجدت الشعراء في دهليز داره، وبينهم صبي صغير السن قصير القامة، فقلت: ما أنت يا غلام؟ فقال: شاعر. فتبسمت عجباً منه ثم قلت: أَجِزْ:

ليـــت مـــا بـــين مـــن أحـــبُّ وبيـــني

قال: من البعد أم من القرب؟ قلت: من القرب. فقال:

ليـــت مـــا بـــين مـــن أحـــبُّ وبيـــني

فقلت: فإن أردناه من البعد؟ فقال:

مثـــل مـــا بـــين ملتقـــى الخـــافقينِ

فأخذت بيده وأوصلته إلى الفتح وأخبرته بما دار بيني وبينه، فعجب منه".

وفى "الوافى بالوفيات" لصلاح الدين الصفدى و"أنوار الربيع فى أنواع البديع" لابن معصوم أبيات قالها فى صباه القاضى الخلنجى من قضاة المأمون، وهذا نصها:

برئتُ من الإسلام إن كان ذا الذي ... أتاكِ به الواشون عني كما قالوا

ولكـــنهم لمـــا رأوكِ غَرِيَّـــةً ... بهجري تواصَوْا بالنميمة واحتالوا

فقـــد صـــرتِ أذناً للوشـــاة سميعـــةً ... ينالون من عرضي، ولو شئتِ ما نالوا

وأورد صاحب "الأغانى" ما قاله الشاعر العباسى على بن الجهم من أن أباه حبسه في الكتاب وهو صبي بعدما أطلق الصبيانَ كلهم، فكتب إلى أمه يستغيث بها قائلا:

يا أمتـــا، أفـــديك مـــن أُمِّ! ... أشـــكو إليـــك فظاظـــة الجهـــمِ

قـــد ســـرَّح الـــصبيانَ كلَّهمـــو ... وبقيـــتُ محـــصوراً بـــلا جُـــرْمِ

وأن هذا أول شعر قاله، فأرسلت أمه إلى أبيه تقول له: "والله لئن لم تطلقه لأخرجن حاسرةً حتى أطلقه"، وإن كان ابن المدبّر قد كذَّب ابن الجهم واتهمه بأنه اخترع تلك الرواية ليرفع من شأن نفسه فى صباه. وليس هناك فى الحقيقة ما يجعلنا نكذب تلك الرواية، فلم يأت ابن الجهم أمرا خارقا، وبخاصة أن البيتين عليهما مسحة كلام الصبيان وطريقة شكواهم. ثم ما

المشكلة فى أن يقول ابن الجهم شعرا وهو صغير؟ أليس شاعرا؟ إذن فلا بد أن تكون له بداية فى عالم الشعر، وهذه بدايته. وليس فى الأمر ما يدعو إلى التكذيب كما وضحتُ.

ويحكون عن المتنبى الصبى قصة تشير إلى ذكاء حاد وحافظة لاقطة منذ الصغر. قال ابن حمدون فى "التذكرة الحمدونية": "قال أبو الحسن مُحَمَّد بن عمر بن يحيى العلوي: كان المتنبي وهو صبي ينزل في جوارنا بالكوفة، وكان أبوه يُعْرَف بـ"عيدان السقاء"، يستقي على جمل له ولأهل المحلة. ونشأ له المتنبي، فكان يتبع أهل العلم والأدب ويلازم الوراقين، وكان ذكياً حسن الذكاء. فقال لي وراق كان يجلس إليه: ما رأيت قط أحفظ من هذا الغلام ابن عيدان! فقلت له: كيف ذاك؟ قال: كان جالساً عندي اليوم، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي ليبيعه يكون نحو ثلاثين ورقةً، فأخذه فنظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: أريد بيع هذا الدفتر، وقد قَطَعْتَني عن ذلك. فإن كنت تريد حفظه فهذا إن شاء الله يكون بعد شهر. فقال له ابن عيدان: فإن كان قد حفظته في هذه المدة فما لي عليك؟ قال: إن كنتَ حفظتَه فهو لك. فأخذتُ الدفتر من يده، وأخذ يتلوه إلى آخره، ثم استلبه من يدي فجعله في كمه، وقام. فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل. قد وهبتَه لي. فمنعناه منه وقلنا له: أنت شرطت على نفسك هذا".

وفى "ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب" للثعالبى بيتان قالهما الصاحب بن عباد فى صباه:

كتبتُ وقد سبتْ عقلي المُدَامُ ... وساعدني على الشرب النِّدامُ
وأسرفنا فما ندري لسُكْرٍ ... أَسَعْدُ الله أكثرُ أم جذامُ؟

وأورد الحصرى فى "زهر الآداب وثمر الألباب" الأبيات التالية لأحد صبيان البدو:

إذا سألت الوَرَى عن كل مكرمة ... لم يُعْزَ إكرامها إلاّ إلى الهَوْلِ
فتًى جَوادٌ أذابَ المالَ نَائِلُهُ ... فالنّيلُ يشكرُ منه كثْرَةَ النَّيْلِ
الموتُ يكره أن يلقى مَنِيّتَهُ ... في كَرِّهِ عند لفِّ الخيل بالخيلِ
لو زاحم الشمسَ أبقى الشمسَ كاسِفة ... أو زاحم الصُّمَّ أَلْجَاها إلى المَيْلِ
أمضَى من النجم إن نابَتْه نائبةٌ ... وعند أعدائه أجْرَى من السَّيْلِ

لا يـــستريح إلى الـــدنيا وزينتهـــا   ولا تـــراه إليهـــا ســـاحبَ الـــذَّيْلِ
يقـــصِّرُ المجـــدُ عنـــه في مكارِمِـــهِ   كمـــا يقـــصّر عـــن أفعالـــه قَـــوْلي!

وفى "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقرى أن "ابن أبي الخصال، وهو من شقورة، اجتاز بأبدة وهو صبي صغير يطلب الأدب، فأضافه بها القاضي ابن مالك، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة، فقطف لهما منها عنقوداً أسود، فقال القاضي:

انظـــــــر إليـــــــه في العـــــــصا

فقال ابن أبي الخصال:

انظـــر إليـــه في العـــصاكرأس زنجـــيٍّ عَـــصَى

فعلم أنه سيكون له شأن في البيان".

وفيه أيضا أن "أبا بكر ابن المنخل وأبا بكر الملاح الشلبيين كانا متواخيين متصافيين، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا في الطلب، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء، فركب ابن المنخل في سَحَرٍ من الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتبه على هجاء بني الملاح ويقول له: قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفيي أبي بكر في إقذاعك في ابنه. فقال له ابنه: إنه بدأني، والبادئ أظلم. وإنما يجب أن يُلْحَى مَنْ بالشر تقدَّم. فعذره أبوه. فبينما هما على ذلك إذ أقبلا على وادٍ تنق فيه الضفادع، فقال أبو جعفر لابنه: أَجِزْ:

تنـــــقّ ضـــــفادع الـــــوادي

فقال ابنه:

بـــــصوتٍ غـــــير معتـــــادِ

فقال الشيخ:

كـــــأنّ نقيـــــق مِقْوَلِهـــــا

فقال ابنه:

بنـــــو المـــــلاح في النـــــادي

فلما أحست الضفادع بهما صمتت، فقال أبو بكر:

وتـــــصمت مثـــــل صـــــمتهمو

فقال ابنه:

إذا اجتمعـــــــــوا علـــــــــى زادِ

فقال الشيخ:

فــــــــلا غــــــــوثٌ لملهــــــــوف

فقال الابن:

ولا غيـــــــــــــثٌ لمـــــــــــــرتادِ"

ويعلق المقرى على هذا بقوله: "ولا خفاء أن هذه الإجازة لو كانت من الكبار لحصلت منها الغرابة، فكيف ممن هو في سن الصبا؟".

ولابن العديم كتاب عنوانه: "الدرارى فى ذكر الذرارى" خصص الباب العاشر منه لذكر كلام الصبيان وجوابهم. وها نحن أولاء نقتطف منه بعض ما فيه: "مر عمر بن الخطاب ﷺ على صبيان يلعبون، فتفرقوا من هيبته، ولم يبرح ابن الزبير، فقال له: مالك لم تبرح؟ فقال: ما الطريق ضيقة فأوسِّعها لك ولا لي ذنب فأخاف.

لما ولد للرشيد العباس من واسطة اشمأزت منه نفسه لغلبة السواد عليه، فتنبأ رجل في زمان الرشيد فدعا به، فجعل يذكِّره بالله وينهاه عن قوله، وهو مقيم على دعواه، وأولاد الرشيد مصطفون بين يديه والعباس إذ ذاك لم يجاوز العشر، فلما رأى الرشيد لزوم الرجل ادعاء النبوة أمر بتجريده وضربه، فلما أخذته السياط جعل يضطرب اضطراباً شديداً، فالتفت إليه العباس فقال: اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. فاستطار الرشيد لها فرحاً وقال: ابني والله حقاً.

قال علي بن مُحَمَّد: مر فارس بغلام فقال: يا غلام، أين العُمْران؟ قال: اصعد الرابية تشرف عليهم. فصعد فأشرف على مقبرة، فقال: إن الغلام لجاهل أو حكيم. فرجع فقال: سألتك عن العمران، فدللتني على مقبرة! فقال: إني رأيت أهل الدنيا ينتقلون إلى تلك، ولم أر أحداً انتقل إلى هذه، ولو سألتني عما يواريك ودابتك لدللتك عليه.

قال أعرابي لابنه: اسكت يا ابن الأَمَة. فقال: هي والله أعذر منك لأنها لم ترض إلا حُرًّا.

لما وَلِيَ يحيي بن أكثم القضاءَ بالبصرة، وكان صبيا فاستصغروه، فقال بعضهم: كم سن القاضي أيده الله؟ فقال: سن عتّاب بن أُسَيْد لما ولاه رسول الله ﷺ.

عاتب أعرابي ابنه وذكَّره حقه، فقال: يا أبتِ، إن عظيم حقك عليَّ لا يُبْطِل صغير حقي عليك.

دخل الرشيد دار وزيره فقال لولد له صغير: أيُّما أحسن: دارنا أو داركم؟ قال: دارنا. قال: لِمَ؟ قال: لأنك فيها.

قال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفصِّ (لِفَصٍّ كان في يده)؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. اليد التي هو فيها أحسن منه.

دخل قوم على عمر بن عبد العزيز فجعل فتى منهم يتكلم. فقال عمر: ليتكلم أكبركم، فقال الفتى: إن قريشاً لتجد فيها من هو أسنّ منك. قال: تكلم.

دخل الحسين بن الفضل على بعض الخلفاء، وعنده كثير من أهل العلم، فأحب أن يتكلم، فزَبَرَه وقال: أصبيٌّ يتكلم في هذا المقام؟ فقال: إن كنتُ صبيا فلست أصغرَ من هدهد سليمان ولا أنت أكبر من سليمان حين قال له: أحطتُ بما لم تُحِطْ به. ثم قال: ألا ترى أن الله فَهَّم الحُكْمَ سليمانَ، ولو كان الأمر بالكُبْر لكان داود أولى.

عربد صبي هاشمي على قوم، فأراد عمه أن يسوءه، فقال: يا عم، قد أسأتُ بهم وليس معي عقلي، فلا تسئ بي ومعك عقلك.

قال رجل لابنه: يا ابن الزانية. فقال: الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك.

كان سليمان بن وهب يكتب فدخل عليه أبوه، فقال: يا بني، إن عليّ بن يحيى وعدني بالأمس أن يحضر عندي اليوم، فاكتب وذكِّرْه، فكتب بديهة:

يا مـــن فـــدت أنفـــسُنا نفـــسَهُ　　موعـــدَنا بالأمـــس لا تنـــسَهُ

قال الفراء: أنشدني صبي من الأعراب أرجوزة، فقلت: لمن هي؟ فقال: لي، فزَبَرْتُه، فأدخل رأسه في فروته ثم قال:

إني وإن كنـــت صـــغير الـــسنّ　　وكـــان في العـــين نُبُـــوٌّ عـــنّي
فـــإن شـــيطاني أمـــير الجـــنّ　　يـــذهب بي في الـــشعر كـــل فـــنّ

كان لمحمد بن بشير الشاعر ابنٌ حسيمٌ بعثه في حاجة، فأبطأ وعاد ولم يقضها، فنظر اليه ثم قال:

عقلـــــه عقـــــل طـــــائرٍ   وهـــو في خلقـــة الجمـــلْ

فأجابه:

شَـــــبَهٌ منـــــك نالـــــني   لـــيس لي عنـــه مُنْتَقَـــلْ"

وقبل ذلك هناك القصة التالية، وهى عن ابن عباس الصبى، الذى قدمه عمر بن الخطاب للصحابة الكبار وأجلسه معهم وشجعه على أن يدلى برأيه فى المسألة التى كانوا يتباحثون حولها إلى أن اقتنعوا بجدارته بالمكانة التى بوأه إياها الفاروق رضى الله عنهم جميعا. ففى البخارى عن هذا الصحابى الجليل: "كان عمر يُدْخِلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لِمَ يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناءً مثله؟ فقال عمر: إنه مَنْ عَلِمْتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قول الله تعالى: "إذا جاء نصر الله والفتح"؟ فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَه له، قال: "إذا جاء نصر الله والفتح"، فذلك علامة أجلك، "فسَبِّحْ بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا". فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول". وفيه أيضا: "قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبى ﷺ: فيمن تَرَوْن هذه الآية نزلت: "أيَوَدّ أحدُكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب"؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: فى نفسى منها شيء. فقال: يا ابن أخى، قل ولا تَحْقِرْ نفسك. قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل. فقال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله". وقبل ذلك اهتم به الرسول عليه السلام وهو ولد صغير ودعا له أن يعلمه الله الكِتَاب. ففى "صحيح البخارى" عن ابن عباس: "ضَمَّنِي إِلَيْهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقال: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتابَ".

وفى ضوء سياسة تشجيع الصغار والاحتفاء بإنجازاتهم والثقة بقدراتهم نقرأ الحديث التالى: "لمَّا قدِمَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المدينةَ قال زَيدٌ: ذُهِبَ بي إلى النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأُعجِبَ بي، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا غُلامٌ من بَني النجَّارِ معه ممَّا أنزَلَ اللهُ عليكَ بِضعَ عَشْرةَ سورةً، فأَعجَبَ ذلك النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقال: يا زَيدُ، تَعلَّمْ لي كتابَ يَهودَ، فإنِّي واللهِ ما آمَنُ يَهودَ على كِتابي. قال زَيدٌ: فتعَلَّمْتُ له كِتابَهم. ما مرَّتْ بي خَمْسَ عَشْرةَ ليلةً حتى حَذِقْتُه، وكُنْتُ أقرَأُ له كُتُبَهم إذا كَتَبوا إليه، وأُجيبُ عنه إذا كتَبَ".

وأما "ألف ليلة وليلة"، التى قال د. الغذامى إن المؤسسة الثقافية الرسمية العربية قد وصفتها بأنها لا تصلح إلا للصبيان والنساء وصغار العقول، وإن لم يذكر لنا من قال ذلك، فقد كتب عنها بعض كبار علمائنا قديما ولم يعيبوها بشىء. بل إن تناولهم لها واهتمامهم بالحديث عنها لهو أمر له مغزاه فى الإيماء إلى تقديرهم لها. ولو كانوا ينظرون إليها بتلك العين المقتحمة ما بالوا بها بالةً ولتركوا من ثم الكلام عنها البتة. وعلى كل حال فقد اهتمت "المؤسسة الثقافية الرسمية"، بتعبير د. الغذامى، بما تُعَدّ "ألف ليلة وليلة" بجواره إبداعا كبيرا. أقصد أشعار أبى الشمقمق والعَكَوَّك وابن حجّاج وابن سكرة وابن سَوْدُون وأشعار ابن دانيال وأنثاره. وما هذه سوى عينات سريعة عارضة. أما ما قاله د. الغذامى عن احتقار علمائنا القدامى لـ"ألف ليلة وليلة" فهو كلام مرسل لم يذكر فيه اسم الزارى على الكتاب ولا الظروف الذى تناوله فيه بالتنقص كما قلت. وبالمناسبة فقد جاء أيضا فى كتاب "الشبهات والأخطاء الشائعة" لأنور الجندى أن ابن النديم قد وصف ذلك الكتاب بأنه كتاب الحماقة والسيئات، وأن كل إشارات المؤرخين المسلمين إليه تحمل طابع الرفض والامتهان، وأنه مصدر ساقط في أنظار العلماء والباحثين، على حدِّ عبارة الدكتور سنيتي كمارجترجي في مجلة "ثقافة الهند" (عدد يناير ١٩٦٢م)، لكنه لم يضع أيدينا على أسماء أولئك العلماء والباحثين. علاوة على أن ما كتبه ابن النديم عن ذلك الكتاب فى "فهرسته" هو كلام علمى يعرِّف به ويتتبع أصل مَنْشَئه... إلخ دون أن يعيبه بشىء. ثم لا ينبغى أن ننسى أن النقد العربى كان تركيزه بوجه عام على الشعر أولا، فالخطابة بعد ذلك، أما القَصَص فلم يحظ عموما بهذا الاهتمام. و"ألف ليلة" كان قَصَصا لا شعرا ولا خُطَبا.

ويمضى د. الغذامى فيقول، طبقا لما يبشر به من نقد ثقافى يوهم به الطيبين الذى على نياتهم من قرائه أنه سوف يحل به كل مشاكل العرب والمسلمين ويعيد إليهم حقوقهم وكرامتهم وينشر السلام فى ربوع العالم، إن وظائف اللغة سبع: ذاتية وجدانية حين يكون التركيز على المرسِل، وإخبارية نفعية حين يكون التركيز على المرسَل إليه، ومرجعية حين يكون التركيز على السياق، ومعجمية حين يكون التركيز على الشفرة، وتنبيهية حين يكون التركيز على أداة الاتصال، وشاعرية جمالية حين يكون تركيز الرسالة على نفسها، ونسقية حين يكون التركيز على العنصر النسقى. ونبدأ بآخر وظيفة للغة، وهى من إضافات د. الغذامى وافتخاراته، فهو يظن أنه فتح عكا حين قال ذلك. ولا أدرى كيف يكون تركيز الرسالة على العنصر النسقى، والعنصر النسقى شىء مضمر على الناقد أن يجتهد ويرهق نفسه فى البحث عنه لأنه ليس مذكورا فى النص، بل الحفر عنه بين طبقات المعنى فى "المخزون الثقافى"، حسب اصطلاحهم، وإظهاره للعيون هو مهمة ذلك الناقد. وعلى هذا فلا يمكن أن تركز الرسالة على النسق لأن النسق ليس فى عقل المرسِل ولا يدور له فى خاطر، بل ليس فى وعى المؤلف ولا القارئ كما يقول د. الغذامى بنفسه، بل الناقد هو الذى يبرزه وكأنه ينشئه إنشاء.

وأما الوظائف الست الباقية فلا تدخل لى فى عقل. ذلك أن العبرة ليست فيما تركِّز عليه الرسالة، وإن كنت لا أعرف كيف تركز الرسالة على أى من تلك الوظائف، بل العبرة فيما يريد المبدع من إبداعه، أو فلنقل حتى نكون من أهل الحظوة: إن العبرة فيما يريد المرسِل من وراء رسالته: فقد أصنف دراسة علمية، فتكون وظيفة الرسالة نفعية، أو أحكى حادثة وقعت لى أو لغيرى حكيا مجردا دون أن أتدخل بمشاعرى أو عواطفى فى شىء منها، فتكون وظيفة الرسالة إخبارية، أو أحب تصوير مشاعرى تجاه هذا الأمر أو الشخص أو ذاك، فتكون وظيفة الرسالة وجدانية. وفى كل الحالات لا مناص لنا كنقاد أو قراء (أو "مُرْسَل إليهم" بتعبير نقادنا الجدد الأشاوس)، إذا أردنا أن نفهم الرسالة فهما صحيحا ودقيقا، أن نتنبه للسياق حتى لا نخطئ مقصد المرسل. وكذلك فى كل الحالات لا بد أن نضع المعجم، حقيقة أو مجازا، فى بؤرة اهتمامنا لأن المعجم هو الذى يزودنا بمعانى الكلمات والعبارات. أما الوظيفة الأدبية للرسالة فتتحقق متى كان المرسِل موهوبا ويضع نصب عينيه أن يقدم للمرسَل إليه، لا كلاما

مباشرا غايته توصيل ما لديه من معلومات أو أخبار فى وضعها المجرد، بل أن يقدم رسالة جياشة بالمشاعر والخيالات باذلا مجهوده كى تأتى على أحسن صورة تعبيرا وتصويرا وبناء، مما يكهرب رسالته ويجعلها تهز كل من يتلقاها من الأعماق أو ما هو من هذا بسبيل. وهكذا ترون أن ما قاله د. الغذامى، نقلا عن أساطين النقد الجديد، هو كلام فارغ لا يمكن تصوره فى الواقع. إنه كلام يدغدغ المشاعر لدى المغرمين بترديد المصطلحات الجديدة دون فهم تصورا منهم أن مجرد ترديدها يجعل منهم نقادا آخر طراز ويلحقهم بالغربيين المتحضرين، جاهلين أن مجرد ترديد مثل تلك المصطلحات لا يغير حقيقتهم فى شىء بل لا يغير جلدهم نفسه حتى لو ظلوا فى يقظتهم ومنامهم يتلفظون بتلك المصطلحات وهم يترنحون يمينا وشمالا شغل الدراويش الملتاثين من هنا ليوم النشور. ومع هذا كله فلسوف ينسى د. الغذامى كل ما قاله هنا بعد حين، وكأنه لم يكن.

ويقول د. الغذامى إن المؤلفين فى نصوصهم يقولون شيئا بينما تقول الثقافة فى تلك النصوص شيئا آخر لا يعيه مؤلفوها ولا يتنبهون إليه، إذ الثقافة "منكتبة"، بنص تعبيره هو لا تعبيرى أنا والعياذ بالله، فى النص رغم أنف الجميع ودون أن يلحظها أحد، وتظل هناك كامنة عبر العصور والآماد، إلى أن يأتى الغذامى أو أى إنسان على شاكلته قد رزقه الله موهبة الرفاعية، الذين يزعمون أنهم يستخرجون الثعابين والحيات من شقوق حوائط البيت، فى حين أنهم يكونون قد أحضروا بعضا منها مثرَّم الأسنان وخبأوه فى أكمامهم ليخرجوه بخفة يد وشغل حواة أمام أهل البيت موهمين إياهم أنهم قد خلصوهم وخلصوا البيت من شر الثعابين والحيات وخطرها. ويرى القارئ كيف أننا هنا أمام شغل لأرسين لوبين وهركيول بوارو لا أمام إبداع ونقد أدبى. الحق أن موضع هذا الكلام هو روايات موريس لبلان وأجاثا كريستى لا كتب الأدب والنقد. وهو يقول إن هذه الأنساق تاريخية وأزلية. ولا أدرى كيف تكون الأحداث تاريخية، أى لها بداية فى التاريخ، وفى نفس الوقت أزلية، أى موجودة قبل الزمان وليس لها بداية. وهذا كلام عجيب، فالثقافة نتاج إنسانى، فكيف تكون هناك ثقافة أزلية، أى قبل أن يوجد البشر بل قبل أن يوجد الكون، وحينما كان الله وحده ولا شىء معه؟ ترى كيف يكون ذلك؟ الواقع أن هذه سمة من سمات أسلوب د. الغذامى، وهى اللامبالاة عند الكتابة، إذ هو

يخبطها هكذا دون تفكير أو تدبير ودون أن يبالى أين تذهب أو أين تقع. وهو، فى مكان آخر من كتابه عن "النقد الثقافى" يعود فيلعق هذه الأزلية ويقول إن نسق الفحل قد نشأ مع شعر المديح. يقصد المديح المموَّل لا النابع من إعجاب الشاعر بممدوحه قبل أن يظهر فى تاريخ الشعر العربى التكسب بالقصائد المدحية. ومعروف عن د. الغذامى أنه ذرب اللسان، ولا يبالى أين تقع كلماته. إنه يخبطها فحسب، وعليها هى أن تتكفل بنفسها بعد ذلك. ولما كانت الكلمات مجرد معان لا عقل لديها ولا مقدرة على التصرف، فإن عورات كلام الأستاذ الدكتور تظل لاصقة به لا تزول عنه ولا بماء النار.

والأمر ببساطة، بعيدا عن كلام د. الغذامى، هو أن كثيرا من البشر يكذبون بكل عزم وسبق إصرار، ويقولون كلاما يضللون به الجماهير ليدفعوهم دفعا إلى اتجاه معين لم يكن ممكنا أن يندفعوا إليه لو تبينت لهم الحقيقة. ولو تحضر الشعب وتثقف ثقافة جيدة وقرأ وأنصت للوقائع والحقائق وأعمل عقله واستخدم حاسته النقدية المصقولة المرهفة فلسوف يتنبه إلى هذه الألاعيب ويتصرف التصرف السليم حينئذ. وهذا واضح فى السياسة الدولية والسياسة المحلية وفى وسائل الإعلام وفى كلام كل منافق دينى يريك أنه حريص على التمسك بكل صغيرة وكبيرة من كتاب الله وسنة رسول الله لغرض فى نفس أبى الحصين، وفى كلام كل مخادع يريد أن يستولى على مالك فيطرح أمامك مشروعا اقتصاديا يوهمك أنك ستأكل منه الشهد بينما هو يخطط لسرقتك والاختفاء من أمام عينيك بحيث لا تستطيع أن تطوله أو تنال منه منالا إذ يذوب فى غمضة عين فى الهواء، وكذلك فى كلام الشحاتين الذين يترصصون فى الشوارع على طول الطريق ويضحكون عليك بعبارات متماوتة ليقنعوك أنهم عاجزون لا يستطيعون أن يكسبوا عيشهم بأيديهم، ولا بد لك أن تساعدهم، بينما هم يملكون الآلاف المؤلفة رغم الثياب الممزقة الوسخة المزيتة التى لا يخلعونها أبدا أمام الناس، وأيضا فى كلام النقاد الذين يعملون على إرباك عقلك وإمطارك بالمصطلحات الجديدة المزعجة التى لا تدرى لها رأسا من ذنب وبأسماء النقاد الأجانب وبكثير من الأفكار المعقدة التى لا يفهم نقادنا الماكرون منها شيئا واضحا ومع هذا يذهبون فيكررونها بقوة وثقة وعزيمة طبقا للدور المطلوب

منهم لَعِبُه، زاعمين أنهم يعملون على تنويرك، وهم فى واقع الأمر يبذلون كل جهودهم لتضليلك وإفقادك عقلك النقدى وتمرير أشد الأفكار خطورة عليك.

ومن ذلك الوادى ما تقوله الحكومات فى بعض بلدان العالم الثالث عن ارتفاع الأسعار، إذ صكت مصطلحا جديدا لطيفا خفيفا ظريفا ناعما سلسا منسابا هو "تحريك الأسعار"، وما يتصايح به ساسة الدول الاستعمارية المجرمة هذه الأيام عن "الإرهاب الإسلامى" فى الوقت الذى يُقْتَل فيه المسلمون فى كل مكان رخيصى الدم لا يبكى عليهم أحد وتُدَكّ بلادهم فوق رؤوسهم وتمزق الصواريخ والقنابل أجسادهم وأجساد أطفالهم ويسقطون ضحية الحروب العدوانية الإجرامية الوحشية بمئات الألوف. وللأسف يشارك فى هذا التضليل بعض حكومات العرب والمسلمين وتتعاون بكل أريحية فى هذه الحروب المتوحشة مع أولئك الساسة الغربيين القتلة منزوعى القلوب منخوبى الضمائر. وبمناسبة ما نحن فيه فقد تعرضت فى أكسفورد وأنا هناك فى سبعينات القرن الماضى لعملية نصب صغيرة من جانب ممرضة حرامية تشتغل عند طبيب قام بعملية لإحدى قريبات زوجتى، وفى ذات الوقت كان فى الممرضة اللصة بجاحة جعلتها تكلمنى عن بريطانيا المتحضرة التى لا ينبغى لواحد مثلى يعيش فيها ألا يكون عنده هاتف. فضحكت من هذا الكلام الأخطل الخبيث الذى تقوله لصة صغيرة تظن أنها تخدع به واحدا مثلى غبيا يشعر بالنقص أمامها وأمام كل ما تمثله حسب فهمها الضيق المتخلف، وأفهمت هذه البكاشة ألا علاقة بين التحضر وامتلاك هاتف. فسكتت سكوت شهرزاد حين أدركها الصباح، لكن سكوتها كان سكوتا أبديا، وأعادت لى ما كانت قد سرقته منا ضمن تكاليف العملية، وهى ذليلة خزيانة تزمزم ببعض الكلمات غير المفهومة. فكما يرى القراء الكرام فإن شيئا من الفهم والثقافة والتنبه كفيل بفضح مثل تلك الأخاديع، ولا مخزون ثقافى ولا طبقات متراكبة ولا أزل ولا أبد ولا انكتاب ولا كباب ولا هباب ولا ثعابين ولا أفاع ولا رفاعية ولا يحزنون ولا يفرحون.

ومن ذلك الوادى أيضا ما يردده منذ وقت طويل الاستعماريون الغربيون من أن الجنس الأبيض جنس متفوق على كل الأجناس لا لشىء سوى أن لون بشرته بيضاء، وأن الأقدار قد ألقت عليهم هم المجرمين السفاحين عبء تحضير الشعوب الأخرى. هكذا يقولون، لكن

مقصودهم فى حقيقة الأمر هو استحمار واستعمار الشعوب الأخرى وعصر لحومها وسحق عظامها وانتهاب كل ما تتمتع به من ثروات وإمكانات. ويساعدهم فى ذلك الخداع والعصر والشفط والقتل والنهب طوائف من كل شعب من الشعوب التى تبتلى بهم. ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد، فهم يلقون فى رُوعِ تلك الشعوب المبتلاة بهم أنها شعوب لا أمل لها فى النهوض والتقدم والتحضر بل سوف تظل فى أماكنها لا تخطو خطوة واحدة إلى الأمام حتى صار كثير من أبناء تلك الشعوب يؤمن بهذا ويرى فيه حقيقة راسخة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ونفس الشىء يحدث فى الإعلانات التلفازية، فهم يأتون بفتاة حلوة تزعم أنها استعملت المنتج الذى تعمل له الدعاية وأن حياتها من بعدها صارت نعيما ورفاها وسعادة وصحة دائمة. والمشاهدون البُلْه ينظرون إلى الفتاة الحلوة التى تتلعبط أمامهم من فرط الصحة والحيوية والسعادة وهم يحسبون أن تلك اللعبطة هى ثمرة من ثمار استعمالها لهذا المنتج بينما هى لا تقترب منه ولا تراه خارج الإعلان بتاتا لأنها تعرف أنه منتج ضار فاسد ليس له من فائدة إلا حَلْب وجَلْب ما فى جيوب البله الأغبياء الذين يصدقون إعلاناته. ونفس الشىء أيضا يحدث فى موضوع العقم الذى يعلن بعض الشياطين المُعْرِقين فى الشيطنة ممن يتسمى الواحد منهم بـ"الشيخ الروحانى المغربى" أنهم قادرون على فك عقدته، وينتهى الأمر فى كثير من الأحيان بحمل الست التى كانت عاقرا، ويكون حملها من سيدنا الشيخ الروحانى المغربى المجرم، الذى كثيرا ما تكون المرأة ضالعة معه عن وعى تام بما تصنع كى يكون لها ولد ولا يطلقها زوجها النائم على صماخ أذنه فى العسل الأسود المطيّن. ولا مخزون ثقافى ولا انكتاب ولا هباب. الأمر فقط يحتاج إلى تنبه ووعى للمكر والتخطيط الثعلبى وشىء من الفهم والثقافة مع قدر من الاستقلال والاعتزاز بالنفس فى مواجهة هذا الغش السافل عديم القلب والضمير. أما أن كل نص يتكون من ظاهر وباطن كلاهما يقول شيئا مناقضا بالضرورة لما يقوله الآخر، وأن المهم هو الباطن الذى لا يعيه المرسل ولا يخطر له على بال والذى ينبغى أن يحفر الناقد الطبقات المتراكمة فوقه حتى يصل إليه ويعلنه على الملإ، وأنه ينبغى إلقاء الظاهر فى مقلب الزبالة لأنه ليس بذى جدوى، فهو كلام فارغ كما قلت من قبل. وهذا الكلام يقوم على أن البشر جميعا على بكرة أبيهم ثعالب خبيثة يقولون شيئا، لكن فى أعماق هذا الكلام

شيئا آخر مناقضا لما يقولون، وأن الحياة مؤامرة كبيرة متصلة لا تنتهى أبدا، ولا يكشفها سوى دكتورنا العبقرى.

وقد أعطى د. الغذامى مثالا للنسق المضمر الذى يعاكس ما فى ظاهر الرسالة يتلخص فى أننا جميعا نردد أن المرأة ليست جسدا فقط بل عقلا ووجدانا أيضا، ولكننا أمام جسد المرأة، حين يُذْكَر فى نكتة أو يظهر فى إعلان، سريعا ما ننسى ما كنا نقول إننا نؤمن به، ونجرى وراء شهواتنا. وأكد أن ذلك متجذر منذ القديم، والحمد لله أنه لم يقل هذه المرة إنه موجود منذ الأزل، ولا يمكن أن نتخلص منه إلا بفضح النقد الثقافى له. يعنى سيادته أنه سوف ينجح نجاحا منقطع النظير فيما فشل فيه جميع المصلحين والوعاظ وعلماء الدين والعُبَّاد والزهاد والأساتذة فى المدارس والجامعات والمشايخ على المنابر والقسس فى الكنائس. وطبعا هذا كلامٌ فاضٍ، فالمسألة ليست مخزونا ثقافيا يعاكس ما نظهره من احترام للمراة بل مسألة غريزة مركبة فى طبيعتنا لا يمكننا الفرار منها ولا بالطبل البلدى. وليقل كل منا ما يشاء عن احترامه لعقل المرأة ووجدانها، ولكنه ما إن يشاهد امرأة جميلة مثيرة تتدلل فى كلامها وفى مشيتها وتلبس الملابس الأنيقة الفاتنة حتى ينشغل بجمال جسدها وأناقة ملابسها.

وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه، إذ هو صدى لما غرس فى نفوسنا وأجسادنا من شهوة النساء. وليس فى الشهوة احترام أو احتقار، ومن ثم فلا تعارض بينها وبين احترامنا لعقل المرأة ووجدانها، إذ إن صوت الشهوة أقوى وأفعل وأشد تمكنا وأعلى من أى صوت آخر فى الظروف الاعتيادية. ولتوضيح ذلك نقول إن أول شىء يراه الإنسان فى المرأة هو شكلها ومظهرها وجمالها أو قبحها، وأناقتها أو بهدلتها مثلما أن أول شىء يشدنا فى الطعام هو رائحته ومنظره، فترى الواحد منا إذا كان جوعان وشم رائحة الطعام ورأى جمال منظره يسيل لعابه قبل أن يعرف مم تكوَّن، وهل هو صحى أو لا، وهل هو مسموم أو لا. ومن ثم كان من الطبيعى أن يشدنا مظهر الناس، وبالذات المرأة، إلى حين التعرف إلى شخصيتها الداخلية من عقل ووجدان وذوق وتصرف وما إلى ذلك. وبعد ذلك إن كان هناك امرأتان تحوزان كل الصفات الداخلية الرائعة مثلا، لكن إحداهما تتفوق على الأخرى بجمالها وأناقتها وظرفها وحسن تصرفها، فلا ريب أن قدرها سيكون أعلى من الأخرى لأنها تحوز ما تحوزه الأخرى

وزيادة. لكن د. الغذامى يريد أن يوهمنا أنه قادر على إسكات صوت الشهوة فى نفوس الرجال مرة واحدة وإلى الأبد. وليأت فيقابلنى إن أمكنه ذلك! وهذا ليس مقصورا علينا نحن أبناء العالم الثالث المتخلفين بل يشركنا فيه أبناء العالم الذى ليس بثالث ولا ثان، اللهم إلا من كان منهم شاذا جنسيا، وما أكثرهم الآن فى بلاد أوربا وأمريكا. وحتى هؤلاء الشواذ تظل شهوتهم تسيرهم وتوجههم وتستولى عليهم، وإن كانت فى هذه الحالة شهوة الذكران، لكنها شهوة على كل حال. قال تعالى: "زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا"، وقال ﷺ: "ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أضَرَّ علَى الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ". وليس المقصود اتهام النساء فى أخلاقهن، إذ إنهن قد خُلِقْنَ هكذا، فهن هنا أداة فى يد النظام الكونى، بل الكلام على المجاز. والمراد أن غريزة الجنس غريزة قاهرة غلابة، ولهذا يحسّن الرسول للشبان المسلمين، متى استطاعوا الزواج، أن يتزوجوا، وإلا فليصوموا حتى تنكسر حدة شهوتهم ولا تغلبهم على أنفسهم فيقعوا فى الحرام. كما حذرنا من الانفراد بالمرأة بعيدا عن العيون، وألا يقدم المسلم على الاحتكاك بها حتى لا يكون ذلك مقدمة لوقوعه فى الزنا.

ولا أدرى كيف فات د. الغذامى أن شهوة الجنس فى الفكر الغربى شهوة جبارة لا تعرف لها حدودا تقف عندها لا تتجاوزها حتى إن فرويد يجعل منها محور الحياة البشرية والدافع الأساسى لتصرفات البشر جميعا بما فى ذلك الطفل الرضيع، ومن ثم رأينا انطلاق الحرية الجنسية عند الغربيين دون كابح ولا مانع ما دام الشخص يريد ذلك حتى لقد قننوا الشذوذ بنوعيه من لواط وسحاق وصار للوطيين والسحاقيات مكانة خطيرة فى مواسم الانتخابات، وصار كل مرشح يتهافت عليهم ويعمل على إرضائهم بكل سبيل كى ينال أصواتهم. ويا ويلك ويا سواد ليلك إذا عيرت أحدا منهم بشذوذه! تكون إذن قد حفرت قبرك بيديك، وعليك أن تتشهد على روحك وتقرأ الفاتحة أيضا. بل إن فى بعض البلاد الأوربية دعوات لتقنين ممارسة الجنس مع الحيوانات. أما مع الآلات فذلك أمر مفروغ منه منذ وقت طويل. وبالمناسبة فالغربيون هم الذين حولوا المرأة سلعة واستغلوها أبشع استغلال فى الإعلانات، التى ضربها د. الغذامى مثالا على دور النسق الثقافى فى كشف المستور من ميولنا

ورغباتنا، وكأن الغريزة الجنسية محتاجة إلى نقده الثقافى لتُعْرَف خطورتها وأهميتها البالغة. وأخيرا فنحن، وإن كنا ندرك خطورة الشهوة الجنسية وتأثيرها الشديد على أفكارنا وسلوكنا، لا نذهب مذهب الغربيين فى تطرفهم، بل نرى أن الإنسان المؤمن يستطيع التحكم فيها والاستعفاف عنها مهما كان الأمر صعبا حتى يأذن الله له بالتزوج، وبخاصة أن الإسلام يؤثر أن يبكر الإنسان ما استطاع بالزواج ما دام ناضجا ويمكنه أن يتحمل أعباءه ومسؤولياته.

وبالمثل يزعم الغذامى أن اهتمام النقد الأدبى كان منحصرا فى الناحية الجمالية من الإبداع الأدبى، ولم يكن يهتم بالمضمون حتى جاء النقد الثقافى وأخذ القارئ إلى أغوار مضمون النص وكشف الطبقات التحتية المخفاة منه، فظهر كل شىء على حقيقته. ومن ثم دعا د. الغذامى إلى إهمال النقد الأدبى والاستعاضة عنه بالنقد الثقافى، الذى سيعدل الحال المائل فى بلاد العرب، ويحول أمتنا من أمة ترزح تحت الاستبداد إلى أمة شورية مائة فى المائة، إذ هو يرى أن انشغال الذهن العربى بمعنى الفحولة، أو كما يقال فى النقد الثقافى: بـ"نسق" الفحل، هو السبب فى رزوح العرب جميعا تحت نير العسف والاستبداد والاستعباد. وهو كلام ساذج وسطحى ولا يفهم أمور الحياة، فالنقد الأدبى كان موجودا طول التاريخ فى بلاد الغرب، وشهد الغربيون فى ظله أنظمة استبدادية لا تعد أنظمتنا الاستبدادية الحالية شيئا إزاءها، مثلما شهدوا فى ظله هو أيضا أنظمة شورية وتقدما حضاريا وثقافيا عظيما ولا يزالون حتى الآن. وواضح أن كلام الرجل كلام نيئ ككل ما قرأته وأقرؤه له. إن كتابه يعادى العقل والمنطق والتاريخ وحقائقه، ويتناقض بعضه مع بعض، ولا يورد فكرة واحدة تصمد للنظر، فضلا عن المناقشة.

وما قاله الدكتور الغذامى عن إهمال النقد الأدبى لمضمون الإبداع قبل ظهور النقد الثقافى هو دعوى غير صحيحة، فقد كان النقد الأدبى يقسم العمل المنقود إلى شكل ومضمون، أو لفظ ومعنى أو بناء ومحتوى. وهو ما يدل على أن النقد الأدبى كما يهتم بالشكل فكذلك يهتم بالمضمون. وكان هناك النقد النفسى والنقد الاجتماعى والنقد الأخلاقى والنقد الدينى، وكل هذا النقد ينصب على المضمون، مثلما كان هناك الاهتمام

بالكلمة والجملة والعبارة وبنية القصيدة أو الرسالة والكتاب والقصة مما يتصل بالناحية الجمالية فى النص الأدبى. فكيف يزعم د. الغذامى هذا الزعم الغريب الذى لا يصح أبدا؟

ألم يسمع بما قالته زوجة امرئ القيس حين كانت تفاضل بين وصفه لفرسه ووصف علقمة الفحل، فوجدت فرس علقمة أفضل؟ لقد كان معيار الحكم معيارا مضمونيا لا شكليا. وحين انتقدت الخنساء حسان بن ثابت لأنه قلل جفانه وجعلها أقل سطوعا مما ينبغى بما يترتب عليه من أن عدد قصاد بيته من الضيفان سيكون قليلا، كان المعيار أيضا معيارا مضمونيا لا شكليا. واشتهر زهير كشاعر بأنه كان رجلا حكيما يسعى إلى وضع نهاية لحرب عبس وذبيان ونشر السلام بين القبيلتين المتحاربتين بدلا من اجتهاد كل منهما فى إفناء الأخرى. وهذا يمت إلى المضمون لا إلى الشكل. وحين أخذ ابن سلام على امرئ القيس أنه كان يستبهر بالفواحش، أى يعلنها ولا يستتر بها، أليس هذا معيارا مضمونيا لا أدبيا جماليا؟ وحين اقترح رسول الله ﷺ على حسان أن يقعد إلى أبى بكر ويأخذ منه أنساب قريش حتى يستعين بذلك فى رده على شعرائها، أليس هذا اهتماما بمضمون الشعر لا بأدبيته؟ وحين بين الرسول عليه السلام أن شعر حسان آلَمُ للمشركين من وقع السهام فى غلس الظلام وأن شعر زميليه فى الرد على شعرائهم أقل إيلاما لكونهما يهجوانهم بأنهم مشركون، والشرك لا يغضبهم، إذ هم يتفاخرون ويتمسكون به، بينما يهجوهم حسان بمعرات أنسابهم فيبلغ منهم فى الإيلام ما لم يبلغه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، ألم يكن هذا نقدا مضمونيا لا شكليا؟ وحين انزعج الرسول والمسلمون من شعر اليهودى كعب بن الأشرف الذى نال فيه من عِرْض زوجة العباس بن عبد المطلب وغيرها من نساء المسلمين، ألم يكن انزعاجهم سببه مضمون شعر ذلك اليهودى لا أدبيته؟ وحين عابت سكينة بنت الحسين جريرا والفرزدق وكُثَيِّر عَزَّة ونُصَيْبًا لأنهم لم يعاملوا حبائبهم بالرقة المطلوبة، وفضلت جميلا لأنه كان أرق حاشية وأكثر لياقة فى ملاقاة صاحبته، أليس هذا معيارا مضمونيا؟ وحين انتقدوا عمر بن أبى ربيعة لأنه، بدلا من الحديث عن شغفه بالمرأة، يصور المرأة على أنها هى التى تجرى وراءه وتغازله، أليس هذا انتقادا من ناحية المضمون لا الشكل؟ أوليس قد فضل كثير من النقاد جريرا على الفرزدق لأن جريرا

كان أكثر استمساكا بدينه؟ أليس هذا نقدا فى صميم المضمون؟ وعندما شتم عبد الملك بن مروان الشاعر الأخطل حين فاجأه فى مطلع مدحية نظمها فيه بقوله:

أتصحو أم فؤادُك غيرُ صاحِ عشيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بالرَّوَاحِ؟

فكان تعليقه على ذلك: "بل فؤادك أنت يا ابن الفاعلة!"، أليس هذا نقدا يتعلق بمضمون الشعر لا بناحيته الجمالية؟ ألم يتعرض إسماعيل بن يسار لِغَطِّ رأسه فى الماء حتى كادت روحه تزهق جراء إشادته بجنسه الفارسى فى مدحته للخليفة الأموى هشام بن عبد الملك؟ وحين هاج العلماء على ما فى شعر الحلاج من خروج على العقيدة والدين، أليس هذا نقدا مضمونيا؟ ألم ينتقدوا المتنبى أشد الانتقاد حين شبه وضعه فى أمته بوضع المسيح وصالح عليهما السلام فى قوميهما؟ ألم يأخذوا عليه قوله:

يترشفن من فمى قبلات هُنَّ فيه أحلى من التوحيد"؟

ألم يهاجمه بعض شراح شعره جراء حملته العنيفة على ملوك عصره وتصايحه بالكلام عن مطامحه إلى الحكم دون أن يكون لديه مؤهلاته؟ ألم يتعرض المعرى إلى تشكيك البعض فى عقيدته وادُّعِىَ عليه أنه وضع كتابا يعارض فيه القرآن ليثبت أنه لا معجز ولا يحزنون؟ ألم يَتَحَدَّ القرآنُ المشركين بأن يأتوا ولو بسورة من مثله، ولْيستعينوا فى سبيل ذلك بالإنس والجن جميعا، ثم وجدنا أن أقصى ما ردوا به على ذلك التحدى هو أنهم لو شاؤوا لقالوا مثل هذا، لكنهم مع هذا لم يكفوا عن انتقاد مضامين القرآن من حملته على الأوثان وتسفيهه لعقول الآباء والأجداد وانتقاده لكثير من عاداتهم وتقاليدهم حتى لقد رَمَوُا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون والكهانة والشعر، لكنهم لم يعيبوا أسلوب القرآن قط؟ وبطبيعة الحال فإن هذا كله نقد مضمونى لا شكلى. وكان حكم القرآن على شعراء المشركين أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون. وهذا نقد مضمونى كما هو واضح. وهناك كثيرون من المفسرين والنقاد يؤمنون بأن إعجاز القرآن يعود، فيما يعود، إلى ما فيه من إنباء بالغيوب الماضية والمستقبلة ومن التشريعات الراقية، وهو ما يتصل بمضمون النص القرآنى لا بلغته وبلاغته وبنائه. وحين أُنْشِد الرسول عليه السلام شعر أمية بن أبى الصلت، وكان قد كفر بنبوته حسدا لأنه لم يكن هو النبى كما كان يتطلع، قال النبى ﷺ: ذلك رجل آمن لسانه،

وكفر قلبه. وبطبيعة الحال هذا نقد يتعلق بالمضمون ولا يتصل بالنواحى الجمالية فى الشعر المذكور.

كذلك فالشعر لدى د. الغذامى هو المسؤول عن العيوب التى تعانى منها الشخصية العربية، وكأن الشعر هو المقوم الثقافى الوحيد الذى كان للعرب طوال تاريخهم. وهذا خطأ بواح، فقد كان هناك فى الجاهلية الخطب والقصص والأمثال وسجع الكهان. وبعد الإسلام صار هناك القرآن والحديث والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والعلوم الرياضية وكتب الرحلات وكتب التراجم وكتب السيرة النبوية، إلى جانب الخطب والرسائل والقصص والنقد الأدبى وكتب التفسير والتصوف والبلاغة وغير ذلك. فهل يمكن أن يصدق عاقل مقولة د. الغذامى من أن الشعر هو المؤثر الوحيد فى الشخصية العربية؟ وأى تأثير؟ إنه تأثير سلبى أصاب الشخصية العربية بالطبقية والأنانية وغيرهما من العيوب الخطيرة التى لا نزال تعانى منها حتى الآن، ولا أظنها حسب تقارير الأرصاد الغذامية سوف تشفى منها إلى أن ينفخ إسرافيل فى الصور ويقوم الموتى من مراقدهم.

ثم كعادته فى الانتقال من فكرة إلى فكرة تناقضها يعود فيقول إنه كان هناك فى البدء تصور مزدوج للشعر: تصور يرفع من شأنه، وتصور يحط منه. ثم استشهد على التصور الذى يحط من شأن الشعر بقول الرسول: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خير من أن يمتلئ شعرا"، معقبا بأن الإسلام مضاد للشعر. وهذا كلام فطير وخطير، فالرسول الذى اتهمه الغذامى بأنه يكره الشعر وينفِّر منه وينهى المسلمين عن روايته وحفظه هو نفسه الذى كان يشجع حسانا وابن رواحة وكعب بن مالك على نظم الشعر دفاعا عن الدين الجديد، ويخص ابن ثابت بمزيد من التشجيع والإعجاب لأن سهام هجائه كانت آلم وأعنف وأشد تأثيرا على معنويات المشركين من شعر زميليه فى الكفاح الأدبى حسبما وضحنا آنفا. كما كان يستمع من بعض صحابته إلى شعر أمية بن أبى الصلت رغم كفره، وذلك لما فى شعره من تمجيد الله وتأمل لصنعته العظيمة فى ملكوته. وكان المسلمون من حوله ينظمون الشعر ويروونه ويحفظونه ويستشهدون به. وفى عام الوفود كانت كل قبيلة تأتى إلى المدينة ومعها شاعرها وخطيبها، فيقوم كل منهما يجلجل بصوته فى المسجد النبوى، والنبى والصحابة ووفود القبائل جميعا

ينصتون إليه بكل اهتمام وتقدير. وإذا كان قد قيل عن لبيد بن ربيعة إنه بمجيء الإسلام قد توقف عن الشعر إلا بيتا يتيما فقد برهنت فى كتابى: "من ينابيع الثقافة الإسلامية فى العصرين الإسلامى والأموى" أن تلك مقولة كاذبة، إذ للصحابى الجليل قصائد إسلامية متعددة مثلما له قصائد جاهلية. وقد درسنا موقف الإسلام من الشعر فى قسم اللغة العربية وآدابها مذ كنا طلابا وتبين لنا أن ما يقال عن كراهية الدين المحمدى للشعر هو كلام غير صحيح. ولا شك أن د. الغذامى قد درس ذلك مثلنا لأن كل طلاب اللغة العربية بجامعات العالم العربى يدرسون تلك القضية حتما، ويعرفون ما أقوله هنا عز المعرفة. فلِمَ يعيدها الغذامى جَذَعَةً من جديد، ويذهب فيردد اتهامات المستشرقين للإسلام بكراهية الإبداع الشعرى، أى كراهية الإسلام لجانب من جوانب الحضارة المهمة؟

ومعروف استفسار الشعراء المسلمين من النبى عن موقف الإسلام من الشعر حين رأوا حرص القرآن على نفيه عنه وقرأوا آيات سورة "الشعراء" التى تحمل على الشعراء وتصفهم بأنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وأنهم هم من تتنزل عليهم الشياطين لا الرسول عليه السلام، فسرعان ما نزل القرآن يقفِّى على تلك الآيات بآية حاسمة اختتم بها السورة تستثنى الشعراء المؤمنين الذين يردون العدوان الشعرى بمثله وينتصرون من الظلم الذى يقع بهم وبدينهم. فما معنى ترديد الغذامى لهذا الكلام السطحى الساذج؟ مرة أخرى إنه يردد اتهامات المستشرقين للقرآن والرسول والإسلام. ثم إن الغذامى لم يكتف بهذا بل مضى يورد مقولات من هنا وهناك تقلل من شأن الشعر.

هذا، ولا أظن القارئ الكريم قد نسى ما قاله د. الغذامى عن أهمية السياق، فكيف يا ترى أهمل السياق فى أمر الحديث المذكور آنفا هذا الإهمال الشنيع؟ إن هناك رواية لذلك الحديث تجرى على النحو التالى: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خير من أن يمتلئ شعرا هُجِيتُ به". صحيح أن فى هذه الرواية كلاما حسب مقاييس المحدثين الخاصة بالسند، ولكنها تبين سر تحذير الرسول من الشعر. فمن الواضح أن الرسول، طبقا لما قلناه قبل قليل، كان يستمع إلى الشعر ويشجع الشعراء المسلمين على رد هجوم المشركين عليه وعلى دينه وأتباعه، ومن الطبيعى إذن أن يكون تنفيره ﷺ من الشعر لا على إطلاقه بل من شعر

معين لا يقبله الإسلام، ويمثله آنذاك الشعر الذى كان المشركون واليهود ينظمونه فى العدوان على الإسلام والمسلمين، وكذلك أى شعر من شأنه أن يثير الأحقاد القديمة التى كانت بين الأوس والخزرج مثلا قبل أن تسلم القبيلتان.

ومن الأول قول أم جميل زوجة عمه أبى لهب تهجوه عليه الصلاة والسلام مسمية إياه: "مُذَمَّمًا" بدلا من "مُحَمَّد": "مذمماً أبَيْنا، ودينَه قَلَيْنا، وأَمْرَه عَصَيْنا". ومعروفة طبعا تلك الواقعة التى كاد حيا الأوس والخزرج بعد الإسلام أن يتقاتلا فيها قتالا شرسا جراء تحريش أحد اليهود بينهما إذ جلس مع رجالهما ذات يوم وهم فى أحسن حال من المودة والصفاء وأخذ فى ذكر وقائع الحروب السابقة بين القبيلتين وما قيل فيها من أشعار حتى هاج الفريقان وأوشكا أن يتضاربا لولا أن النبى تدارك الأمر حين بلغه ما وقع. أما إن أخذنا بالرواية التى أوردها د. الغذامى على حرفيتها فلسوف نقع فى حيص بيص جراء التناقض الذى سنصطدم به منذ الوهلة الأولى مما يبدو الرسول عليه السلام معه وكأنه يقول هنا شيئا، وهناك شيئا آخر يتناقض معه، دون أن يتنبه لما فى كلامه من تعارض أبلق. وحاشاه ﷺ أن يقع فى شىء من ذلك. وعلى كل حال لقد وضح القرآن القضية وبين أن الشعر الذى يقوله المشركون فى حق النبى ودينه هو المقصود بالتنفير والتحذير، أما الشعر الذى يردّ به المؤمنون على ذلك الشعر فهو خارج عن التنفير والتحذير، بل يستحق التشجيع والإشادة. وأما الشعر بإطلاق فينطبق عليه قاعدة الحلال والحرام، فما كان منه سبا وشتما وتحريشا بين الناس مثلا فهو غير مرحب به، وما كان فى غرض مشروع فأهلا به وسهلا أو على الأقل: لا مانع منه.

وأذكر هنا، بمناسبة ما نحن فيه من الكلام عن أهمية السياق ووجوب مراعاته حتى لا تتناقض النصوص ونلفى أنفسنا فى متاهة وحيرة لا مخرج لنا منها، أننى كنت أحاضر الطلاب يوما فى تربية الطائف فى تسعينات القرن الماضى، وجاءت سيرة المجاز فى القرآن، وكان زملائى يتجنبون الخوض فى ذلك الموضوع وأشباهه حتى لا يعرضوا أنفسهم للاتهام فى عقيدتهم، فاعترض بعض الطلاب على وجود المجاز فى القرآن طبقا لاتجاههم فى السعودية، لكنى أجبتهم بأننا لو رفضنا القول بالمجاز فى كتاب الله لتصادمت نصوصه تصادما مزعجا. فكان سؤالهم: كيف؟ قلت لهم: إن القرآن مثلا ينفى بحقٍّ عن الله سبحانه وتعالى النسيان: "وما كان ربك

نَسِيًّا"، "لا يضل ربى ولا ينسى"، وفى مواضع أخرى منه نراه يقول عن المنافقين: "نَسُوا الله فنَسِيَهم"، وللكافر: "كذلك أتتك آياتُنا فنَسِيتَها، وكذلك اليوم تُنْسَى". وعلى هذا فلا بد من مراعاة السياق: فالنسيان المنفى عن الله هو النسيان المعروف، والله لا ينسى شيئا بهذا المعنى. وأما النسيان المثبت له جل شأنه فهو إبعاده المنسى عن رحمته ولطفه. فسكتوا ولم يعقبوا بما يدل على أن كلامى دخل أدمغتهم، أو هكذا تصورت صوابا أو خطأ.

وهنا نحب أن نستفسر من د. الغذامى: ترى إذا كان الشعر فى نظر العرب بعد الإسلام ذميما على هذا النحو فكيف تسند إليه كل ذلك التأثير الذى تدعيه له (أو عليه: سيان)؟ المضحك أنه يجيب بأن المؤسسة الثقافية لم تعتمد هذا الموقف ولم تتخذ منه نظرية نقدية. وعبثا نتساءل: وهل العلماء الذين استشهد بهم فى التحقير من شأن الشعر لا ينتمون إلى تلك المؤسسة الثقافية؟ فكيف يا ترى؟ واضح أن الرجل يقول كلاما مفككا لا يستطيع أن يصمد أمام النقد والتدقيق. ثم هو يجعل من الشعر وحده كيان الذات العربية، وكأن العرب لم يكونوا يعرفون فى حياتهم سوى الشعر: يفطرون به ويتغدَّوْن ويتعشَّوْن ويتصبَّرون بلُمْجَة منه كلما قرص الجوع بطونهم بين الوجبات، فلا قرآن ولا حديث ولا تاريخ ولا خطب ولا رسائل ولا قصص وحكايات ولا فلسفة ولا تفسير ولا فقه ولا نقد أدبى ولا مقارنة أديان ولا علم كلام ولا تصوف ولا كتب رحلات ولا تراجم ولا سير نبوية ولا مقامات ولا رسالة الغفران ولا رسالة حى بن يقظان ولا ألف ليلة وليلة ولا سير شعبية ولا عبد الحميد ولا ابن المقفع ولا الجاحظ ولَا سهل بن هارون ولا ابن الكلبى ولا أبو الفرج الأصفهانى ولا القاضى التنوخى ولا القاضى الفاضل ولا ابن العميد ولا الصاحب بن عباد ولا ابن قتيبة ولا ابن سلام ولا القاضى الجرجانى ولا الآمدى ولا الهمدانى ولا الحريرى ولا أبو حيان التوحيدى ولا الوطواط ولا الغزالى ولا الشعرانى ولا ابن حزم ولا لسان الدين بن الخطيب ولا المعرى ولا ابن خلدون ولا الطبرى ولا ابن كثير ولا المسعودى ولا المقريزى ولا ابن تغرى بردى ولا ابن إياس ولا السيوطى ولا يوسف البديعى ولا ابن فضلان ولا ابن بطوطة ولا ابن جبير ولا الإدريسى ولا المقرى ولا ابن الأثير ولا ابن رشيق القيروانى ولا عبد القاهر الجرجانى ولا صلاح الدين الصفدى ولا ياقوت الحموى ولا ابن شاكر الكتبى ولا النويرى ولا السكاكى ولا ابن فضل الله العمرى ولا

القلقشندى... والقول بهذا إلغاء للعقل. والغريب أن د. الغذامى يعود فيقول إن الشعر العربى، الذى زَنَّه بتشويه الشخصية العربية، يشتمل على صفات أخلاقية وجمالية راقية يحسن بنا أن نتعلمها وأن نتمثلها ونربى الناشئة عليها. والسؤال هنا هو: إذا كان الأمر كذلك، وكان فى شعرنا صفات جمالية وأخلاقية راقية، فكيف لم يكن له من تأثير سوى تشويه الشخصية العربية وإفسادها فسادا لا سبيل إلى تقويمه، فضلا عن إصلاحه؟

ثم يرجع فيركز على صورة الشاعر الشحاذ المنافق المداح، والشاعر الهجاء صاحب اللسان السام، وصورة الممدوح الطاغية (الفحل)، وكأن هذا هو كل ما ورثناه من الشعر، فلا شعر لامرئ القيس ولا شعر لزهير ولا شعر لطرفة ولا شعر لعنترة ولا شعر لحاتم الطائى ولا شعر لعمرو بن كلثوم ولا شعر للمُرَقِّشَيْن ولا شعر لعُرْوَة بن الورد ولا شعر للخنساء ولا شعر لحسان ولا شعر لجميل ولا شعر لعمر بن أبى ربيعة ولا شعر لكثيِّر عزة ولا شعر للمجنون ولا شعر لابن ذَرِيح ولا شعر لذى الرمة ولا شعر لصالح بن عبد القدوس ولا شعر للعباس بن الأحنف ولا شعر لأبى الشمقمق ولا شعر للعَكَوَّك ولا شعر للصنوبرى ولا شعر لابن المعتز ولا شعر لأبى فراس الحَمْدانى ولا شعر للشريف الرَّضِىّ ولا شعر للشريف المرتضَى ولا شعر لأبى العلاء ولا شعر ليحيى الغزال ولا شعر لابن زيدون ولا شعر للبهاء زهير... إلخ. والحق أننى لو مضيت من هنا للصبح فلن أنتهى من سرد أسماء ذلك الضرب من الشعراء. بل إن للشعراء المداحين والهجائين أنفسهم لأشعارا غاية فى الرقة والرقى أو فى روعة الوصف والتصوير قلما يعثر الواحد منا على نظيرها فى الشعر العالمى، كقصيدة الفرزدق فى الذئب، وقصيدة بشار الرائية المفحشة، وقصيدته فى رثاء ابنه، وقصيدة أبى نواس فى تمجيد الله، وقصائده فى جنان، وقصائد ديك الجن فى الندم على قتل زوجته ورد، وقصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى، وقصيدته فى الحزن على مقتل المتوكل، وأبيات أبى تمام فى وصف الطبيعة، وأبياته فى الإعجاب بالقمريتين المتحابتين على غصن الشجرة، وقصيدته فى رثاء مُحَمَّد بن حميد الطوسى، وقصيدته فى فتح عمورية، وقصيدة ابن الرومى فى رثاء ابنه الأوسط، وأبياته فى وصف الشمس عند الغروب، وقصيدته فى توحيد المغنية، وقصيدته فى تصوير القيان وقد حملن على صدورهن أعوادهن ورحن يعزفن عليها وكأنهن أمهات يحنون على بنيهن ويرضعنهم،

وقصيدة المتنبى فى وصف البركة، وقصيدته فى وصف مصارعة بدر بن عمار للأسد، وقصيدته فى الشكوى من الحمى، وقصيدته فى الرد على خطاب سيف الدولة بعد مغادرته مصر هربا من كافور، وقصيدته فى رثاء خولة، وقصيدته فى رثاء جدته، وقصيدته فى وصف شعب بوان... وهذه مجرد عينه سردتها كيفما اتفق واجتزأت فيها بأقل بالقليل. أَوَهذا كله لم يكن له أثر فى الشخصية العربية، بينما كان التأثير كل التأثير للشعر الشِّحَاذى والهجائى فحسب؟

وكعادة د. الغذامى فى تقافزه من النقيض إلى النقيض نجده يلحق النثر بالشعر ويُصْلِيه هو أيضا ذما وتعييرا بأنه يقوم على الكذب والنفاق والتظاهر بما ليس فى صاحبه. وكأن النثر هو الرسائل والخطب فحسب. وهذا لو كانت الرسائل والخطب تقوم دائما على هذا العيب لا تفارقه ولا يفارقها. إن النثر أوسع من أن ينحصر فى الخطب والرسائل كما هو معروف، ولست أعرف لم يريد د. الغذامى أن يوهم قراءه بغير ذلك. لقد ذكرنا بضع عشرات من أسماء الناثرين قبل قليل، فهل هؤلاء لا يخاطبون العقل وإنما يهيجون الوجدان ويكذبون ويتصايحون بالزور والباطل والتفاخر الزائف؟ هل كان عمل من يخطبون فى الجيوش قبل الزحف لقتال الأعداء هو التفاخر بأنفسهم وقبائلهم ومضغ الكلام الفارغ الذى لا محصَّل منه؟ هل من يخطبون الجمع والأعياد كانوا يخصصون خطبهم لمدح قبائلهم وأنفسهم ويغالون فى ذلك ولا يعرّجون أبدا على العقل والمنطق وقيم الدين الكريمة المستقيمة؟ هل كان كتاب الرسائل الديوانية يفعلون ذلك؟ أبدا بل كانوا يعبرون عن الدولة فى كل ما يخطُّون كما هو معروف وكما ينبغى أن يكون الأمر، وإلا فهل أجَّرتهم الدولة كى يطنطنوا بمفاخر قبائلهم الكاذبة؟ قد يكون الغالب على بعض خطب العرب فى الجاهلية هو ما يقوله د. الغذامى، لكن منذ ذلك الحين مرت مياه لا تحصى كثرة فى النهر، وإلا فهل كانت خطب زياد بن أبيه أو الحجاج أو قطرى بن الفجاءة مثلا تجرى على النحو الذى يصوره؟ المشكلة أن الغذامى يريد أن يوقف مسيرة التاريخ ويثبت المصوِّرة على بعض الخطب فى الجاهلية تثبيتا أبديا.

بل إن الغذامى حين لم يجد فى رسائل عبد الحميد ما يعضد أطروحته المتهافتة عابها بأنها قائمة على الزخرف اللغوى. فليكن. المهم أنها لم تجر على التفاخر الشخصى والقبلى بالفحولة والظلم والتعاون على العدوان وعدم اتقاء الله فى أى شىء يتعلق بالآخرين كما يريد منا

الغذامى أن نعتقد. ومعنى هذا أن أول طلقة أطلقها الغذامى من مسدسه "طلعت فشنك". وسوف تكون كل طلقة يضربها من مسدسه فشنكا والحمد لله. وهذه آخر رسالة بعث بها عبد الحميد وهو منهزم مع مروان بن مُحَمَّد آخر الخلفاء الأمويين، والجيوش العباسية تطاردهما: "أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور. فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها. وقد كانت أَذَاقَتْنا أفاويقَ استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مُوَلِّيَة، فَمَلُح عَذْبُها، وخَشُن لِيّنها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً. فإن تتمّ البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقْنا ظُفُرٌ جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذُلِّ الإسار، والذل شرُّ جار. نسأل الله تعالى، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين".

ومن الواضح أن د. الغذامى لم يجد فى الورد عيبا فقال له: يا أحمر الخدين! ترى هل هذه بالله عليكم يا قرائى الكرام تعبيرات بليدة مكررة لإظهار التأنق ليس إلا كما يزعم ناقدنا الهمام؟ هذا هو مستوى د. الغذامى فى تذوق النصوص وتقييم الأساليب والمضامين؟ إننى، وأنا غير المتعاطف أصلا مع بنى أمية، لا أملك نفسى من الشعور بالشجى والشجن تعاطفا مع عبد الحميد، وبخاصة حين أعرف أن مروان بن مُحَمَّد عرض عليه أن يتركه لمصيره وينطلق فى حال سبيله فى بلاد الله الواسعة دون خوف من العباسيين لأنهم لا يريدون عبد الحميد بل يريدونه هو نفسه، لكن عبد الحميد، رغم معرفته بأنها النهاية، والنهاية الشنيعة، لم يقبل هذا الاقتراح وظل فى رفقة سيده إلى أن قتلا معا قتلة بشعة. إن ما كتبه عبد الحميد لهو من الكتابة العالية الغالية. صحيح أننا لا نكتب الآن بهذا الأسلوب، لكن الناقد الحصيف هو الذى يضع النصوص التى ينقدها فى سياقها التاريخى والإبداعى ويستطيع تذوق الأساليب المختلفة ويتلذذ بها ويقدرها حق قدرها مثلما يستمتع متذوق الطعام المحترف بأكلات الشعوب المختلفة حين تأخذه الأسفار إلى هذا البلد أو ذاك رغم أنه فى بلده وبين أهله إنما يأكل أطباقه القومية.

ثم إن د. الغذامى لا يكتفى بالتنقص من عبد الحميد بل ينطلق فيأخذ فى طريقه ابن المقفع ولا يترك فيه ولا فى كتاباته شيئا صالحا بل يمسح به الأرض، ثم يتابع الانطلاق فيدهس كُتَّاب المقامات (القصصية) على بكرة أبيهم غير راء فى إبداعاتهم أية جدوى ومتهما أسلوبهم بأنه أسلوب متصنع لا يقدم شيئا سوى تعليم الكدية والكذب، بينما المقاميون فى الواقع لا يعلّمون فى مقاماتهم الكدية والكذب بل يصورون الكدية والمكدين ويفضحون حيلهم ويضحكوننا ملء أشداقنا، كل ذلك فى أسلوب عجيب بلغ الغاية فى البراعة والإمساك بزمام الأمور دون أى اهتزاز البتة. أعرف أن هناك من لا يرى فى المقامات سوى ألاعيب لغوية وبلاغية، لكنى تعودت منذ صغرى أن أحكِّم عقلى دائما فيما يقال وفيما يُعْمَل. وأرى أن كاتب المقامات (القائمة على الحكاية) إنما هو مؤلف قصص قصيرة بديعة رغم كونها مسجوعة ومحملة بتزاويق البديع المختلفة. إنه كمن يستعمل الحبل المشدود فى الهواء فيمشى ويجرى فوقه ويجلس وينهض وينام ويقرفص ويأكل ويشرب ويروح ويجىء ويتقافز دون أن يفقد توازنه لحظة. فهل من يصنع هذا يعاب؟ نعم إننا لا نستعمل هذا الأسلوب بل لا نستطيعه أصلا، لكننا من الإنصاف بحيث إذا رأينا من يستطيعه ويؤدى به ما نؤديه نحن بأساليبنا المترسلة فإننا نهتف له ونصفق إعجابا به ونثنى عليه ونمدح مواهبه. إن المقامات ليست مجرد حيل بلاغية واستعراضات لغوية، بل هى فن قصصى فكاهى رائع. ولقد وقف صلاح الدين الصفدى أمام العبارة الأخيرة التى تتحدث عن الألوان وتستعملها استعمالا مجازيا بلغ الغاية من الروعة فى النص التالى من "المقامة البغدادية" للحريرى مبهورا وبهرنى معه أيما انبهار. والكلام فى النص هو كلام بطلة المقامة المخادعة الظريفة التى ليست فى الحقيقة سوى أبى زيد السروجى بطل المقامات الحريرية جمعاء متخفيا فى زى امرأة عجوز ومتخذا سَحْنَتها وسَمْتَها مما يعجز عن الإتيان بمثله اللص الظريف أرسين لوبين: "اعلَموا يا مآلَ الآمِلِ. وثِمالَ الأرامِل. أنّي منْ سرَواتِ القَبائِلِ. وسَرِيّاتِ العقائِلِ. لمْ يزَلْ أهلي وبَعْلي يَحُلّونَ الصّدْرَ. ويَسيرونَ القلْبَ. ويُمْطُونَ الظّهْرَ. ويُولُونَ اليَدَ. فلمّا أرْدَى الدّهرُ الأعْضادَ. وفجعَ بالجَوارِحِ الأكْبادَ. وانقلَبَ ظَهْراً لبَطْنٍ. نَبا النّاظِرُ. وجَفا الحاجِبُ. وذهبَتِ العينُ. وفُقِدَتِ الرّاحةُ. وصلَدَ الزَّنْدُ. ووَهَنتِ اليَمينُ. وضاعَ اليَسارُ. وبانَتِ المَرافِقُ. ولم يبْقَ لنا ثَنيّةٌ ولا نابٌ. فمُذْ اغْبرّ العيشُ الأخضَرُ.

وازْوَرّ المحْبوبُ الأصفَرُ. اسوَدّ يوْمي الأبيضُ. وابيَضّ فَوْدي الأسوَدُ. حتى رَثَى ليَ العدوّ الأزرَقُ. فحبّذا الموتُ الأحمَرُ!". يا إلهى! أى إبداع هذا؟

وقد بلغ إعجاب القاضى الفاضل بهذا السحر المدهش الشاده ما رواه الصفدى فى "نصرة الثائر على المثل السائر"، إذ قال عن مقامات الحريرى: "يحكى أن الفرنج يقرأونها على ملوكهم بلسانهم ويصورونها ويتنادمون بحكاياتها. وما ذاك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهره تلك الحكايات المضحكة، والوقائع التي إذا شرع الإنسان في الوقوف عليها تطلعت نفسه إلى ما تنتهي إليه، وتشوقت نفسه إلى الوقوف على آخر تلك القصة. هذا إلى ما فيها من الحكم والأمثال التي تشاكل كتاب "كليلة ودمنة" وإلى ما فيها من أنواع الأدب وفنونه المختلفة وأساليبه المتنوعة... وسمعت القاضي شهاب الدين محمودا رحمه الله تعالى حين قراءة هذا الكتاب عليه يحكي أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أراد معارضتها، وصنع ثلاث عشرة مقامة عارض كل فصل بمثله حتى جاء إلى قول الحريري في المقامة الرابعة عشرة: "اعلموا يا مآل الآمل وثمال الأرامل، أنني من سروات القبائل، وسريات العقائل. لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسيرون القلب، ويمطون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاد، وفجع بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهرا لبطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة، وصلد الزند، ووهت اليمين، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبر العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر، اسود يومي الأبيض، وابيض فَوْدِي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر"، فقال الفاضل: من أين يأتي الإنسان بفصل يعارض هذا؟ ثم إنه قطع ما كان عَمِلَه من المقامات ولم يظهر. أو كما قال. وناهيك بمن يقول مثل القاضي الفاضل في حقه مثل هذا، ويعترف له بالعجز. وأما أنا فكلما قرأت هذا الفصل وذكرته أجد له نشوة كنشوة الراح، وبهجة ولا بهجة الساري بطلعة الصباح. وفي أي ترسُّل تجد نظير هذا الفصل الذي له هذه الخفة والطلاوة، ولم تُرَوِّجْه الأسجاع؟".

ثم يفقد الغذامى أعصابه فيطيح بكل ما يجده فى طريقه من كتابات نثرية منذ الجاهلية حتى الوقت الحالى بما فى ذلك من كان يمكنه أن يتخذهم عونا له ودليلا على ما يقول. فكل كتاب النثر مدينون معيبون لم يستطع واحد منهم التفلت من إسار النسق الثقافى بما فيهم طه

حسين، وضِمْنًا العقاد والمازنى وزكى مبارك وأحمد أمين وكرد على وخليل مردم ونزار قبانى وباكثير ومحفوظ وحمزة شحاتة وأحمد السباعى وغازى القصيبى، اللهم إلا شخصا واحدا فى أسلوبه شىء غير قليل من الركاكة والتفكك وفى أفكاره كثير من التناقض والضحولة والفجاجة هو الغذامى نفسه، الذى يسطو على فكر بعض الغربيين ثم يأتى منتفشا متكلما عن "مشروعنا" بضمير جمع المتكلمين شعورا منه بفخامته وجلال قدره. وهذه حالة نفسية تحتاج إلى دراسة وتحليل. بل يصل الأمر إلى أن يلغى ناقدنا المتعبقر كل إنجازات الأمة العربية والإسلامية فى مجال الفكر والعقل والاجتماع على مدار تاريخها الطويل. أى أننا أمة متخلفة مذ كنا وإلى ألا نكون، أى إلى أن تقوم الساعة فلا نكون، ما عدا د. الغذامى، فهو نسيج وحده، وقد بعثه الله ليمسح بشَطَّابَةٍ أمة العروبة والإسلام من خريطة التاريخ ويريح العالم من شرها فلا يبقى سوى الغذامى، والغذامى وحده.

ولدن حديثه عن تشكل الفحل يقف الغذامى عند بعض أبيات لهذا الشاعر أو ذاك يتمدح فيها بأنه كيت وكيت وأن أحدا لا يسامته لأنه مخلوق متفرد أو ما إلى ذلك، مغفلا سائر شعره الذى يقول شيئا آخر بل أشياء أخرى، وموهما القارئ بتلك الطريقة بأنه لم يقل طوال حياته سوى هذه الأبيات المغالية فى الافتخار. ومن الأمثلة التى يضربها قول الفرزدق لجرير فى إحدى نقائضه معه:

فإنى أنا الموت الذى هو ذاهب ... بنفسك. فانظر كيف أنت محاولُهْ

ورَدَّ جرير عليه:

أنا الدهر. يفنى الموت، والدهر خالد ... فجِئْنى بمثل الدهر شيئا يطاولُهْ

فهو يؤكد أن قول الشاعرين على الترتيب: "أنا الموت" و"أنا الدهر" متغلغل فى الشخصية العربية، مع أن الجاهليين كانوا يقولون: "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر"، فهو اعتراف من المشركين بأنهم ميتون وأن الدهر مهلكهم، فما بالنا بالمسلمين المؤمنين بأن رسولهم نفسه ميت كما يقول القرآن؟ إن الأمر لا يخرج عن مبالغات الشعراء. بل إن الناس العاديين ليقولون كلاما مثل هذا عندما يريدون أن يهددوا أحدا أو يغالبوه بالكلام. والطريف أن الغذامى نفسه يقول إن جريرا ظل ينتفض حين سمع بيت

الفرزدق ووجد نفسه عاجزا فى البداية عن الرد عليه حتى لان له مِقْوَد الشعر فقال بيته المذكور. أى أن هذا القول غير متجذر فى الشخصية العربية، وإلا لأجاب جرير خصمه بهذا البيت من أول وهلة ما دام حاضرا بداخله بل متغلغلا بل متجذرا. أليس كذلك؟ وهل الكلام وقت الخصام والمنافسة عليه جمرك؟ إن الغذامى يجعل من الحبة قبة. إن ادعاء كل أحد أنه هو الموت أو أنه هو الدهر معناه أن هذا كلام لا يصدقه أحد وأنه مجرد "طق حنك" لأنه لا يمكن أن يكون كل إنسان هو الموت أو أن يكون هو الدهر، وإلا فلن يموت أحد ولن ينال أحدا سوء قط. وعلى كل حال ها هو ذا الفرزدق يقر بتقدمه فى العمر وابيضاض شعره، وينكسر أمام هذه الحقيقة ويستسلم لنتائجها، وهى أن الحياة موشكة أن تفارقه وأن الموت كارِبٌ أن يأتى فيأخذه:

رَأَيتُ العَذارى قَد تَكَرَّهنَ مَجلِسي ... وَقُلنَ: تَوَلّى عَنكَ كُلُّ شَبابِ

يَنُرْنَ إِذا هازَلتُهُنَّ، وَرُبَّما ... أَراهُنَّ فِي الإِثّارِ غَيرَ نَوابِي

عَتَبنَ عَلَى فَقدِ الشَبابِ الَّذي مَضى ... فَقُلتُ لَهُنَّ: لاتَ حينَ عِتابِ

وها هو ذا مرة أخرى يقر حزينا منكسرا فى النصوص التالية بأنه قد شاب وأن الشباب الذى ذهب لا عودة له، وأن الدهر يُخْضِع الجميع لحكمه، فلا يقدر أحد على مراجعته فى شيء. وهذا كله عكس ما قاله لجرير فى لحظة تهديد هو نفسه يعلم قبل غيره أنه تهديد فارغ. إنها مجرد رغبة فارغة فى الانتصار فى ميدان الكلام:

أَرى الدهرَ أَيّامُ المَشِيبِ أَمَرُّهُ ... عَلَيْنا، وَأَيّامُ الشَبابِ أَطايِبُهْ

إِذا نازَلَ الشَيبُ الشَبابَ فَأَصلَتا ... بِسَيفِيهِما فَالشيبُ لا بُدَّ غالِبُه

فَيا خَيرَ مَهزومٍ وَيا شَرَّ هازِمٍ ... إِذا الشيبُ راقَت لِلشَّبابِ كَتائبُهْ

وَلَيسَ شَبابٌ بَعدَ شَيْبٍ بِراجِعٍ ... يَدَ الدَهرِ حَتّى يَرْجِعَ الدَرَّ حالِبُهْ

* * *

إِن يُظعِنِ الشيبُ الشبابَ فَقَد تُرَى ... لَهُ لِمَّةٌ لَم يُرْمَ عَنها غُرابُها

لَئِن أَصبَحَت نَفسي تُجيبُ لَطالَما ... أَقَرَّت بِعَيْني أَن يغِيمَ سَحابُها

وَأَصبَحتُ مِثلَ النسرِ أَصبَحَ واقِعاً ... وَأَفناهُ مِن كَرِّ اللَيالي ذَهابُها

* * *

أَرى الدهرَ لا يُبْقي كَريماً لِأَهلِهِ ... وَلا تُحْرِزُ اللؤمانَ مِنهُ المَهارِبُ

أَرى كُلَّ حَيٍّ مَيِّتاً فَمُوَدِّعاً ... وَإِن عاشَ دَهراً لَمْ تَنُبْهُ النَوائِبُ

وها هو ذا الذى كان يصف نفسه بأنه هو الموت يتضعضع ويخزى هو نفسه أمام الموت:

أَرى المَوتَ لا يُبْقِي عَلى ذي جَلادَةٍ ... وَلا غَيْرَةٍ إِلّا دَنا لَهُ مُرصِدا

أَما تُصلِحُ الدنيا لَنا بَعضَ لَيلَةٍ ... مِنَ الدهرِ إِلّا عادَ شَيءٌ فَأَفسَدا؟

ويقول:

يا ابنَ رَبيعٍ، هَل رَأَيتَ أَحَدا ... يَبْقَى على الأَيّامِ أَو مُخَلَّدا؟

أى أن كل الناس ميتون. ومن ثم فزعمه أنه هو نفسه الموت مجرد شقشقة لسان عند النزاع لا أكثر ولا أقل.

ثم ملاحظة جد هامة، ألا وهى أننى، على كثرة ما حاولت، لم أستطع أن أجد أحدا من شعراء الجاهلية أو المخضرمين أو شعراء صدر الإسلام، وهم الشعراء الذين يسبقون جريرا والفرزدق، قد استخدموا تعبير "أنا الموت"، الذى نحن بصدده. أى أن المسألة لا علاقة لها بالنسق الثقافى الذى يتهوس به بعض أصحاب الأقلام، ويظنون أنهم قد أتوا بالذئب من ذيله حين يبدئون فيه ويعيدون فيما يكتبون. أما فى العصر الأموى فلم يقابلنى شاعر استخدمه ما عدا ثالوث النقائض: جرير والفرزدق والأخطل. وهذا ما قاله الشعراء الثلاثة على التوالى:

أَنا المَوتُ الَّذي آتِى عَلَيكُم ... فَلَيسَ لِهارِبٍ مِنّي نَجاءُ

* * *

فَإِنّي أَنا المَوتُ الَّذي هُوَ ذاهِبٌ ... بِنَفسِكَ، فَانظُر كَيفَ أَنتَ مُحاوِلُهْ

* * *

أَنا المَوتُ الَّذي حُدِّثتَ عَنهُ ... فَلَيسَ لِهارِبٍ مِنهُ نَجاءُ

وكما قلت آنفا: إن الكلام، وخاصة ساعة النزاع مع الآخرين، وعلى وجه أخص إذا كان شعرا، ليس عليه جمرك، وبابه مفتوح أبدا على مصراعيه. وها هو ذا الخبز أرزى الشاعر العباسى، وكان خبازا أميا، يتفاخر بأنه هو المنايا، وليس الموت فقط. وفى أى سياق؟ فى سياق التفاخر بأنه نال مبتغاه من غلام!

أنا المنــــــايا، أنا الحتــــــوف، أنا   أشــطر مــن كــل شــاطرٍ يُــذكَرْ

وها هو ذا أبو تمام يقول فى آخر أبيات يهجو بها شخصا اسمه عتبة يتهمه بالأبنة.

وَقائِــلٍ: مــا لَهُــم يُغْـضونَ عَنْـكَ إذا   أَثْأَرْتَ؟ قُلْــتُ لَــهُ: إِنّي أَنا الرَّمَــدُ

أَنا الحُـسامُ، أَنا المَـوتُ الـزُؤامُ، أَنا الـنْ   نَارُ الــضِّرامُ، أَنا الــضِّرغامَةُ العَبِــدُ

ثم ها هو ذا جبران خليل جبران، وهو ليس من الذين يمكن أن يتهموا بتجذر هذا النسق الثقافى فى نفوسهم، فقد كان غربى التفكير والشعور، وكان لشعره ككثير من شعراء المهجر طعم مختلف عن طعم الشعر العربى القديم اختلافا شديدا، ها هو ذا جبران يقول:

وَلما سَـأَلتُ الـنَّفسَ: مـا الـدَّهرُ فاعِـلٌ   بِحَــشْدِ أَمانينــا؟ أَجابَــت: أَنا الــدَّهرُ

بل هذا هو الفرزدق ذاته بشحمه ولحمه يقول إنه اقتحم قصرا منيفا رغم أنف من كان عليه من حراس وما كان يسد مدخله من بوابات هائلة غليظة معضدة بالمسامير الضخام الصلاب، ثم بعدما قضى وطره مع حبيبته دلته صويحباتها بالحبال من ثمانين قامة. بالله عليكم أين كان هذا الهجاص يظن نفسه؟ أكان يحسب أنه فى أمريكا يتدلى متبخترا بإنجازاته الغرامية من ناطحة سحاب؟ ذلك أننا لو افترضنا أن القامة متر ونصف فقط لكانت كل قامتين تمثلان طابقا، إذ الطابق يرتفع هذه الأيام نحو ثلاثة أمتار، ولو قسمنا الثمانين على اثنتين لكان عندنا أربعون طابقا دلت الفتيات فرزدقنا منها، ونزل سليما، ويا للعجب! ولا ينبغى أن ننسى ذلك الحوار الذى دار بينه وبينهن من على بعد أربعين طابقا، وفى سكون الليل بحيث إن أقل نأمة من شأنها أن توقظ الموتى وتنهضهم من مراقدهم، وهذا كله دون أن يسمعهم أحد من أهل البيت ولا من المارة ولا من الحراس. أما كيف دبرن الحبال فهذه مسألة بسيطة لا ينبغى أن نشغل أذهاننا بها. وأما د. الغذامى فلسوف يصدعنا آخر الدهر بأن النسق الثقافى عند العرب منذ الأزل هو أن بيوتهم لا ينبغى أن تقل فى ارتفاعها عن أربعين طابقا كحد أدنى.

والفرزدق إنما ينزل على النسق الثقافى المعمارى المنكتب فى أعماق الآزال. أما نحن فنعرف بكل بساطة أن الفرزدق فشار كبير، ولكنه فنان كبير أيضا فى ذات الوقت. ونحن نستمتع بهذه الخيالات العجيبة التى يبدعها عقله فتسحرنا وتفتننا. وبالمناسبة فهذه الخيالات حافز من حوافز التقدم الحضارى، إذ لولا هذا الفشر الفرزدقى وأمثاله فلربما لم تفكر البشرية فى بناء ناطحات السحاب.

إن الشعر يقوم، فيما يقوم، على الخيال، وبغير الخيال يصبح جثة هامدة. أما د. الغذامى فلا يفرق بين الشعر والعلوم الطبيعية والرياضية، ويريد من الشاعر أن يمسك مسطرة وقلما، فكلما قال كلمة أو نطق بعبارة أخرج مسطرته من عُبِّه وأنزل قلمه من فوق صوان أذنه وراح يقيس ويراجع القواعد والقوانين، وبهذا يجيء كلامه ماسخا ممسوخا، وعندئذ يرضى ناقدنا الهمام. وعلى كل حال هأنذا أقتطف من "الإلياذة" (بترجمة البستانى) بعض الأبيات عن الموت لا تقل إن لم تزد فى المبالغة عما قاله الفرزدق. ففى النشيد الخامس:

فأعرض هكطورٌ وفي القلب غُصَّة ... تحت خطاه وهو للفتك طائرُ
تسير دعاة الموت طوع حُسَامه ... ومن كَفِّه جَمْرُ الرَّدَى مُتَنَاثرُ

وفى النشيد الحادى عشر:

في صدرهم يجري أغاممنونُ ... تسير في يمينه المنونُ

وفى النشيد السابع عشر:

لكنما الطرواد ظلُّوا في العقبْ ... أنياس يغريهم، وهكطورٌ يَثِبْ
قرمان ضجت لهما الجيوشُ ... وانهزمت بالرُّعْب تستجيشُ
حَكَوْا سحابةً من الزرازرِ ... ولَّت لدى منظر صقرٍ كاسرِ
رأت به موتًا لها زؤاما ... فانهزمت من وجهه انهزاما

وفى النشيد الثامن عشر:

وما تألمت لابنٍ لن يأوب إلى ... أوطانه وهو بحرَ الموت يقتحمُ

ومن أقوال روبرت أوبنهايمر أبى القنبلة الذرية اقتباسا من كتاب الهنود المقدس: بهاجافاد جيتا: "Now I am become death, the destroyer of worlds". وكنا أيام العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م نردد مع نجاح سلام كلمات قصيدة محمود حسن إسماعيل:

أنا النيـــــل مقـــــبرة للغـــــزاةْ   أنا الـــشعب نارى تبيـــد الطغـــاةْ

أنا المـــــوت فى كـــــل شـــــبر إذا   عـــدوك يا مـــصر لاحـــت خطـــاهْ

إن الشاعر يتحدى المعتدين ويعلن أنه لن يسمح لهم أن يخطوا خطوة واحدة على أرض مصر الطاهرة، بل سينقض عليهم ويقتطف أرواحهم فور ظهور أشباحهم النجسة من بعيد. بيد أن د. الغذامى سوف يعترض على كلام الشاعر العبقرى قائلا: لا يمكن أن يكون أى إنسان هو الموت، إذ كل إنسان يموت، فكيف يكون هو الموت نفسه؟ إن هذا نسق ثقافى سخيف علينا أن نقتلعه من ذاكرتنا حتى نعيش حياة بلا طعم ولا لون ولا رائحة. فالمهم أن تكون الأوضاع كما أُرِيدُ وكما يريد نسقى الثقافى المتنطع.

فهذا ما قاله د. الغذامى عن وصف الفرزدق لنفسه بأنه الموت، وهذا ما وضحنا به ما قاله الشاعر الأموى. وهو ما ينطبق على كل ما أورده د. الغذامى من شواهد، ومن ثم لن نزعج أنفسنا ولا القراء الكرام بالرد على كل شىء يقوله الرجل، فكل ما يقوله ضعيف يترنح ولا يصمد أبدا عند أية لمسة. ومع كل هذا فإن الأمر لا يعدو أن يكون زوبعة فى فنجان، إذ لم يكن كلام الفرزدق ولا رد جرير عليه عراكا حقيقيا، بل أقرب ما يكون إلى مشهد مسرحى كان الشاعران يؤديانه فى سوق المربد آنذاك، والجمهور من حولهما يشاهد ويستمع ويستمتع، ثم ينفض الحشد، والشاعران صديقان كما كانا. لقد كان الأمر أقرب إلى الفكاهة منه إلى أى شىء من الجد. وأتصور أن معارك النقائض تشبه معارك التحطيب، التى كانت تمارَس فى طفولتنا وصبانا فى الأرياف على نطاق واسع، إذ يتواجه رجلان فى يد كل منهما عصا طويلة وغليظة ثم يبدأ الاشتباك بينهما على نحو يخيِّل لمن يرى المشهد لأول مرة أن كلا منهما سوف ينزل بعصاه على يافوخ الآخر فيفلقه قبل أن يسبقه الطرف الثانى إلى فلق دماغه هو، ليفاجأ المشاهد الجديد أن المسألة مجرد تمثيل لمعركة وليست معركة حقيقية، إذ كل من الخصمين حين يتمكن من تسديد عصاه إلى رأس الآخر لا يمضى فى الهُوِىّ بها على الرأس، بل ما إن يقترب

بها منه حتى يبعدها، وبذلك تحسب له نقطة... وهكذا دواليك. والحشد ينظر ويمتع عينيه بالحركات الموزونة والتقافز المحكم والتمثيل الجميل. فهكذا النقائض بين جرير والفرزدق كما أتصورها. والانتصار الذى يحرص كِلَا الطرفين على إنجازه ضد الآخر هو انتصار لفظى فنى ليس أكثر مهما كان الكلام قارصا موجعا. إن الغرض هو استيلاء الشاعر على إعجاب المشاهدين. فكلام الفرزدق هو مجاز لا حقيقة، ولا يمكن أن يكون هو نفسه مصدقا لما يقول، وإلا كان مجنونا رسميا، بل ولا يمكن أن يكون جرير أيضا متصورا أنه تهديد حقيقى، وإلا كان عبيطا رسميا.

يقول د. شوقى ضيف فى كتابه: "العصر الإسلامى" عن شعر النقائض وشعرائها: "هيّأ استعار العصبيات القبلية في البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء فى ذلك العصر، كما هيأ لنمو فن النقائض نموًّا واسعًا... حينئذ انبرى الهجاؤون يملاؤن أوقات الناس هناك بأهاجيهم، وسرعان ما تحولوا بها الى نقائض مثيرة: فشاعر قبيلة من القبائل يَنْظِم قصيدة من القصائد في الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الاخرى، فينبري له شاعر من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته وقافيتها، وكأنه يريد أن يُظْهِر تفوقه عليه من ناحية المعاني ومن ناحية الفن نفسه، ويتجمع الناس من حواليهما يصفقون ويهتفون ويصيحون. وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هي سدُّ حاجة الجماعة الحديثة في البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهي". ولعلنا لاحظنا أن الشعراء الثلاثة تعاوروا معنى واحدا، بل كانت عبارتهم جميعا واحدة، وهى "أنا الموت"، زيادة على أن عبارة الأخطل الموجودة فى الشطر الثانى من بيته هى نفسها عبارة جرير فى ذات الشطر. وأغلب الظن أن أحدهم قد افترع جملة "أنا الموت"، فانقض الآخران عليها وأخذاها عَنْوَةً واستعملاها كأنها ملكية خاصة. ولا نسق ثقافى ولا يحزنون، فالعبارة بنت ساعتها، إذ ليست لها، فيما يبدو، سابقة فى تاريخ الشعر العربى. والأمر كله، حسبما وضحنا وشاهدنا، فكاهة فى فكاهة، ومغالبة فنية ليس أكثر.

أما استشهاد الغذامى على تورم الذات المتنبئية وتكريره كلمة "أنا" وإبداء احتقاره للشعراء الآخرين فيمكن بكل بساطة إرجاعها إلى خلفيته الأسرية المتواضعة، إذ كان أبوه

سقاء، ومات عنه منذ وقت مبكر، فهو يعوض هذا بالتكبر على غيره. لكن لا بد أن نعرف فى نفس الوقت أن المتنبى لم يكن هكذا منذ البداية، بل كان يقبل أى شىء تجود به نفوس ممدوحيه مهما كان تافها حتى لو كان دينارا يتيما، ولم يكن ممدوحوه آنذاك من كبار رجال الدولة أو القبيلة، بل كان يمدح كل من تيسر له فى طريقه، إلى أن اشتهر وتميز بشعره، فأقبل عليه الحظ، و"دَرَّت له أخلافُ الدنيا" كما يقول الثعالبى فى كتابه: "أبو الطيب المتنبى وما له وما عليه"، وكان ذلك فى بلاط سيف الدولة. ومن ينظر فى شعره وهو فى السجن فى شبابه عقابا له على تمردٍ اشترك فيه واختلفت الآراء حول طبيعته فلسوف يراه مسكينا يستعطف الوالى استعطافا شديدا مذلا ويقلل من شأن نفسه ويؤكد له أنه ضعيف الحول والطول وأنه ما زال صبيا صغيرا لا خطر منه على الإطلاق، وذلك كى يطلق سراحه. وعلى أية حال فإن كل صاحب مهنة أو موهبة جماهيرية يظن نفسه فى العادة ابن بجدتها ويكثر من التمدح بتلك الموهبة.

أما رفض د. الغذامى إنكار الشعراء القدامى على غير البصراء بالشعر أن يدلوا بدلوهم فيما لا يحسنون من نقده وتذوقه فهو رفض سخيف لأنه لا يعقل أن ينط لنا كل من هب ودب ممن لا يعرف شيئا فى الموضوع المطروح للنقاش ويوجع أدمغتنا جهلا وتخليطا فنسكت ونتركه يثرثر بما لديه من جهل وغباء. وكان ينبغى للغذامى أن يتخلص أولا من تشدقه بالحديث عن نفسه وعن مشروعه النقدى فى الكتاب الذى نحن بصدده هنا وانتقاصه من كل الشعراء والكتاب العرب على مر العصور والإلحاح على أنه هو الفحل الذى لا فحل مثله، بل المهدى المنتظر فى ميدان النقد الأدبى الذى ظلت تنتظره الدنيا أحقابا طوالا حتى هل هلاله آخر المطاف بعدما كادت أرواحنا تزهق من طول الانتظار، وبخاصة أنه ليس له فى المشروع الذى ينسبه لنفسه، وبضمير الجمع، لا قليل ولا كثير، بل كل عمله هو متابعة ما يكتبه النقد الغربى ثم ترديده دون أن يكون قد هضمه جيدا مع تعمد الإفساد فى كثير من الأحيان ليأتى واحد مثلى فيجد تلالا من الأخطاء وسوء الفهم وتعمد الإفساد فى خلطة واحدة غريبة عجيبة، ويجد لزاما عليه أن يكشف للقراء هذا الزيف الثقيل ويقشع الهالة التى رسمت حول صاحبه بعمد وإتقان كى تمر الأفكار الفطيرة الضارة التى يروجها وتجوز على

المساكين من أبناء العروبة والإسلام ممن يظنون أن الشهرة تعنى العلم العميق الدقيق. ذلك أن مقتضى كلام الغذامى فى كتابه التافه هو أن العرب والمسلمين ليس فى ثقافتهم على مدار تاريخهم كله ومستقبلهم أيضا فوق البيعة شىء صالح لا شعرا ولا نثرا.

ونسق الفحولة عند الغذامى، وهو نسق معيب لديه أشد العيب، يقوم على أن الشعراء يرون لأنفسهم تميزا عن الآخرين وعليهم. فهل فى هذا الشعور عندهم أى تجاوز؟ أبدا، إذ الشعراء والأدباء بصفة عامة هم فعلا متميزون فى مجال الكلام والتعبير والتصوير. هل هناك من يمارى فى هذا؟ وأما قول الخليل بن أحمد فى مدح الشعراء الذى استشهد به الغذامى معترضا عليه من أنهم هم "أمراء الكلام يصرّفونه أنى شاؤوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم ويُحْتَجّ بهم ولا يُحْتَجّ عليهم ويصورون الباطل فى صورة الحق، والحق فى صورة الباطل" فالشعراء فعلا يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم، فهم إذا خاطبوا الملوك مثلا خاطبوهم بأسمائهم، ويستخدمون لهم ضمير المفرد، ويقدمون فى الجمل ويؤخرون على نحو لا يفعله الناثر ويرتكبون الضرورات الشعرية ويوجزون على راحتهم تماما مما لو فعله الناثر لما كان حسنا كما هو فى الشعر، إذ الشاعر محكوم بالوزن والقافية وقِصَر البيت، فكأنه يمشى على حبل مشدود فى الهواء لا براحته وحريته واتساع مجال حركته على الأرض مثلنا. أى أن النظام الموسيقى هو السبب فى لجوء الشاعر إلى هذه التراكيب والضرورات، ثم يعود النظام الموسيقى ذاته فيغطى بموسيقاه ونغماتها على تلك العيوب. فالنظام الموسيقى سبب فى الوقوع فى التقصير، وفى نفس الوقت هو حبل نجاة من عواقب هذا التقصير كما بينت ذلك فى الفصل الأول الخاص بالشعر من كتابى: "فنون الأدب فى لغة العرب". ومن ناحية أخرى فإذا كان الخليل قال ذلك فى حق الشعراء فثم من انتقد الشعراء انتقادا عنيفا، فبين سرقاتهم ودل على ركاكة أشعارهم وأبرز سخف معانيهم وكشف عن قصور معارفهم العلمية وفضح تجاوزاتهم الذوقية والاجتماعية والأخلاقية بل وتعرض لسلوكهم وسيرة حياتهم لم يترك منها حجرا دون أن يقلبه ليرى ماذا يمكن أن يكون تحته. لكن الغذامى يريد أن يوهم القراء أن الخليل هو وحده صاحب القول الفصل فى النقد الشعرى، فهو الإمام، وجميع النقاد عيال عليه يسيرون وراءه لا يشذ منهم أحد.

لا بل هناك من عكس المسألة ورأى النثر أفضل من الشعر بمراحل. ولنأخذ مثالين اثنين يجزئاننا عن كثير، فقد جاء فى "الإمتاع والمؤانسة" لأبى حيان التوحيدى عن الموازنة بين النثر والشعر ما يلى: "وسمعت أبا عابدٍ الكرخي صالح بن علي يقول: النثر أصل الكلام، والنظم فرعه. والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل. لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات: فأما زائنات النثر فهي ظاهرةٌ لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعيةٍ عارضة، وسببٍ باعث، وأمرٍ معين. قال: ومِنْ شرفه أيضاً أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منثورةٌ مبسوطة... قال: ومن شرفه أيضاً أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب، ولا توجد الوحدة غالبةً على شيء إلا كان ذلك دليلاً على حسن ذلك الشيء وبقائه وبهائه ونقائه. قال: ومن فضيلة النثر أيضاً كما أنه إلهي بالوحدة كذلك هو طبيعيٌ بالبدأة... قال: ألا ترى أن الإنسان لا ينطق في أول حاله من لدن طفوليته إلى زمانٍ مديدٍ إلا بالمنثور المتبدد، والميسور المتردد، ولا يُلْهَم إلا ذاك، ولا يُنَاغَى إلا بذاك؟ ولبس كذلك المنظوم لأنه صناعي. ألا ترى أنه داخلٌ في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقي الكسر واحتمال أصناف الزحاف، لأنه لما هبطت درجته عن تلك الربوة العالية دخلته الآفة من كل ناحية. قال: فإن قيل: إن النظم قد سبق العروض بالذوق، والذوق طباعي، قيل في الجواب: الذوق، وإن كان طباعياً، فإنه مخدوم الفكر، والفكر مفتاح الصنائع البشرية كما أن الإلهام مستخدم للفكر، والإلهام مفتاح الأمور الإلهية. قال: ومن شرف النثر أيضاً أنه مبرأٌ من التكلف، منزهٌ عن الضرورة، غنيٌ عن الاعتذار والافتقار، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرير، وما هو أكثر من هذا مما هو مدون في كتب القوافي والعروض لأربابها الذين استنفدوا غايتهم فيها. وقال عيسى الوزير: النثر من قِبَل العقل، والنظم من قِبَل الحس، ولدخول النظم في طَيّ الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر. وقال ابن طرارة، وكان من فصحاء أهل العصر بالعراق: النثر كالحرة، والنظم كالأمة. والأمة قد تكون أحسن وجهاً، وأدمث شمائل، وأحلى حركات، إلا أنها لا توصف بكرم جوهر الحرة ولا بشرف عرقها وعتق

نفسها وفضل حيائها... وقال أحمد بن مُحَمَّد كاتب ركن الدولة: الكلام المنثور أشبه بالوشي، والمنظوم أشبه بالنير المخطط. والوشي يروق ما لا يروق غيره. ويقال: كنا في نثار فلان، ولا يقال: كنا في نظام فلان. وقال ابن هندو الكاتب: إذا نُظِر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطلاع على هواديهما وتواليهما كان أن المنظوم فيه نثرٌ من وجه، والمنثور فيه نظمٌ من وجه، ولولا أنهما يستهمان هذا النعت لما ائتلفا ولا اختلفا. وقال ابن كعب الأنصاري: من شرف النثر أن النبي ﷺ لم ينطق إلا به آمراً وناهياً، ومستخبراً ومخبراً، وهادياً وواعظاً، وغاضباً وراضياً، وما سُلِب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر، ولا نُزِّه عنه إلا لما فيه من النقص، ولو تساويا لنطق بهما. ولما اختلفا خُصَّ بأشرفهما الذي هو أجول في جميع المواضع، وأجلب لكل ما يُطْلَب من المنافع. فهذا قليل من كثير مما يكون تبصرةً لباغي هذا الشأن، ولمن يتوخى حديثه عند كل إنسان".

وقال ابن سنان الخفاجى بعدما بين مزايا الشعر فى كتابه: "سر الفصاحة": "وأما الذي نقوله من تفضيل النثر على النظم فهو أن النثر يُعْلَم فيه أمور لا تُعْلَم في النظم كالمعرفة بالمخاطبات، وبينة الكتب والعهود والتقليدات، وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم ويطلع على خفي أسرارهم، وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة والانتفاع بها في الأغراض ظاهر، والشعر فضل يستغنى عنه ولا تقود ضرورة إليه وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدراً عالياً ولا ذكراً جميلا، والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة، وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك، وأن أكثر النظم إذا كُشِف وُجِد لا يعبر عن جد ولا يترجم عن حق، وإنما الحذق فيه الافراط في الكذب والغلو في المبالغة، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة، وكثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المِحَال والتقريب. وقد يتسع الكلام فيما لا يخرج عن هذا الفن، وهذه الجملة كافية في مثل هذا الموضع".

ومرة أخرى يحشر الغذامى نفسه فى زاوية ضيقة عسرة، فيقول: لقد شاع فى ثقافتنا الانتصار للفظ على المعنى، وللحفظ على الفهم بداعى أن اللفظ مذكر، والمعنى مؤنث. ولهذا لا نقدم جديدا ولا نبدع. وفاته، وهو يفوته الكثير لأنه ليس ممن يتعمقون فيما يكتبون، أن

الحفظ لا بد منه لأن العقل بدون معلومات ومعارف يتخذ منها أساسا للتفكير والإبداع لا يمكنه أن يأتى بشىء. ترى هل يمكن الرحى أن تزودنا بطحين إذا لم نغذها بالحب ونضعه بين شقيها؟ إنها فى هذه الحالة سوف تطحن نفسها وسرعان ما تتآكل وتفسد وتُرْمَى. كما فاته أن نظم العلوم فى متون لم يكن بقصد الحفظ لمجرد الحفظ كما يزعم بل كان المقصود خلق قاعدة بيانات فى كل علم يعتمد عليها الطالب والباحث فلا ينسى شيئا. والدليل على ذلك أن هذه المتون كانت تصحبها شروح لنصوصها الموجزة. ولو كان المقصود بالمتن هو مجرد الحفظ العميانى لما كانت هناك كتب تشرح تلك المتون. ثم من أين أتى هذا التراث الهائل فى كل ميدان من ميادين العلوم من طب وفيزياء وكيمياء وصيدلة وهندسة وحساب وجبر وجيولوجيا وجغرافيا وتاريخ واجتماع وفقه وعلم كلام ولغة وعروض وقافية وموسيقى وأدب وشعر ونثر ونقد وبلاغة وحكمة وسياسة؟ أتراه قد هبط من السماء، والعرب والمسلمون نيام يشخّرون؟ إنه إبداع الآباء والأجداد، وهو الإبداع الذى ترجمته أوربا وفهمته وهضمته واتخذته منطلقا لنهضتها الحديثة. واضح أن المحور الذى يدور حوله الكتاب هو الانتقاص والتحقير من ثقافتنا كلها تحت ستار القول بـ"نسق الفحل" وإعلان كراهية الفحولة والفحول، وهى مسألة غريبة، إذ هذه أول مرة أرى ذكرا يهاجم الذكورة. ذلك أن الفحل هو الذكر أو على الأقل: هو ذكر من الذكور. وهل تكون هناك حياة بله أن تستمر دون ذكر فى مقابل أنثى؟

ثم إن العرب ليسوا وحدهم الذين نظموا الشعر التعليمى، بل سبقهم إلى هذا اللون من الشعر أو النظم الهنود والإغريق وغيرهم. والشعر التعليمى أو المتون، كما هو معروف، فن يرمى إلى تعليم الناس شؤون دينهم ودنياهم وتزويدهم بمختلف الحقائق المتعلقة بالفرد والمجتمع والطبيعة وما وراءها، إذ يعرض للأخلاق والعقائد والعبادات والتاريخ والعلوم والفنون والصنائع، ويعالج هذه المسائل لتقرير ما ينبغى أن يعرفه الناس بصددها حسبما يوضح د. على عبد الواحد وافى فى كتابه: "الأدب اليونانى". ثم يمضى رحمه الله قائلا إن المسائل التى يعرض لها الشعر التعليمى تنقسم إلى مسائل أخلاقية، وفنون زراعية وصناعية، وتاريخ سماوى وأرضى. ومن الأمثلة على الشعر التعليمى اليونانى قصيدتان تحملان اسم هزيود هما "الأعمال

والأيام"، التى تعالج المسائل الأخلاقية والفنية، و"ثيوجونيا"، التى تتناول مسائل التاريخ الأرضى والسماوى.

كما نظم الهنود فى هذا اللون من الشعر جملة من المعارف والعلوم التطبيقية، وإن خرجوا أحياناً عن ضبط القواعد وما يستلزمه من دقة في التعبير. وكتب البيرونى فى "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة" أيضا أن كتب الهنود منظومة نظما بغية تسهيل استظهارها وأنهم قلما يرجعون فى العلوم إلى الكتب النثرية إلا للضرورة وأنهم يبتهجون بقراءة تلك المنظومات، وإن لم يعرفوا لها معنى. وبالمثل عرَف عدد من شعراء الرومان الشعر التعليمى، ومنهم لوكريتيوس وهوراس وفرجيل وأوفيد. وبالمثل عرف الأدبُ الإنجليزى فى القرن الثالث عشر الميلادى القصائدَ التعليمية حسبما ذكرت بعض المواد المتعلقة بالشعر التعليمى بالـ"Encyclopaedia Britammica". كما فصلت المادة الخاصة بهذا الفن الشعرى (Poésie Didactique) بالـ"Encyclopaedia Universalis" الفرنسية القول فى هذا الموضوع، طائفةً بنا بين الأدب الإغريقى والأدب اللاتينى والآداب النصرانية والأدب الفرنسى وذاكرة لنا أسماء بعض الشعراء الذين اشتهروا بالنظم فى هذا اللون من الشعر وأعمالهم فى كل أدب من تلك الآداب، إلى أن وصلنا إلى بودلير، الذى وقف ضد هذا الاتجاه ووضع له نهاية.

على أن النظم أو الشعر التعليمى لدى العرب لم يقتصر على متون النحو والفقه وما إلى ذلك، بل اتسع فشمل التاريخ والعقائد وغيرهما أيضا كما رأينا فى الآداب الأخرى. ومن الأمثلة على هذا قصيدة عبد الله بن المعتز فى التأريخ لحكم المعتضد العباسى، وقصيدة ابن قيم الجوزية، التى نظم فيها العقيدة الإسلامية فى الله والملائكة والرسل والجن واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب بما فى ذلك الحور العين، اللاتى انتهز فرصة التعرض لهن فى تلك القصيدة الشاسعة الطول، فانطلق فى تصوير جمال إحدى الحوريات غير مغادر شيئا فى جسدها مهما كانت حساسيته دون أن يصفه وصفا دقيقا، وكأنه يؤدى عملا يتقرب به إلى الله. وهى قصيدة شديدة الطول تبلغ ٥٨٠٤ من الأبيات، فهى تشكل ديوانا كاملا شديد الضخامة. كذلك نظم أبان بن عبد الحميد "سيرة أردشير" و"سيرة أنوشروان" وكتاب "بلَوْهَر" وكتاب "حكم الهند" وقصيدة "ذات الحلل" في نشأة الخلق وأمر الدنيا. وبالمثل نظم في فريضتى

الصوم والزكاة أرجوزة مزدوجة، ونظم كليلة ودمنة في خمسة آلاف بيت، أو في أربعة عشر ألفا على خلاف فى ذلك، وإن لم يبق من هذا كله إلاّ نتف يسيرة. فما المشكلة فى ذلك؟ وما وجه العيب فيه؟

ولعل من المفيد هنا أن نورد شيئا مما ما كتب د. طه حسين عن الشعر التعليمى فى محاضرته حول ابن المعتز من كتابه: "من حديث الشعر والنثر". قال تحت عنوان "الشعر التعليمي بينه وبين عبد الحميد": "ولكني لا أريد ولا أستطيع أن أتحدث إليكم عن هذه الفنون التي عُنِيَ بها ابن المعتز، وإنما أقف وقفة قصيرة على نوع عُنِيَ به عناية خاصة، ولم يكن يشبهه فيه إلا أبان بن عبد الحميد اللاحقي... هذا الفن هو الشعر التعليمي (Poésie Didactique) والذي يذهب فيه الشعراء مذهب التعليم، والذي تحول على مضي الزمن حتى أورثنا هذا النظم التعليمي الذي نراه في "ألفية ابن مالك" وغيرها من المنظومات التي كانت تُحفَظ وتُدرَّس في الأزهر إلى وقت قريب. يظهر أن أبان هو أول من عُنِيَ بهذا الفن، فقد نظم "كليلة ودمنة" ونظم في الفقه، ونظم ابنه حمدان في الحب، وبقي من هذا النظم شيء يختلف قلة وكثرة. أما ابن المعتز فقد سلك طريقة أبان، ولكنه لم يُعْنَ بالفقه ولا بالحب ولا بهذه الأشياء التي عُنِي بها أبو العتاهية أيضًا كالزهد، وإنما نظم في أشياء أخرى، وبقي لنا منها كتابان نجدهما في ديوانه: أحدهما في تاريخ الخليفة المعتضد. وبعض النقاد والأدباء يرون أن هذه المنظومة مظهر من فنون الشعر القصصي. وإنما قصد ابن المعتز أن ينظم حياة المعتضد، أو سيرة المعتضد في حياته العامة والأعمال الكبرى التي قام بها هذا الخليفة العظيم. أما كتابه الثاني فهو إلى الدعابة أقرب، وهو في ذم الصَّبُوح".

والطريف أن هذا النظم أو الشعر التعليمى الذى لم يحظ بشرف الرضا السامى من الجناب العالى قد رفعه الناقد الكبير صلاح الدين الصفدى ولوح به فى وجه ابن الأثير، الذى ذكر أن النَّفَس الشعرى عند العرب قصير جدا على عكسه عند العجم، إذ عندهم مثلا "شاهنامة" الفردوسى مثلا، وهى مكونة من عشرات الآلاف من الأبيات مما ليس للعرب شىء يضاهيه. لقد رد عليه الصفدى ردا قويا واتهمه بأنه، بقوله هذا، إنما يجرى فى خطا الشعوبيين

بـل يزيـد علـيهم، وأن العـرب تعـرف الـنظم الطويـل المـسهب، وعلـى رَوِيٍّ واحـدٍ فى بعـض الأحيان.

كـذلك نـرى الغـذامى فى هـذا الـسياق ينتقد انتقادا مزعجا سـخيفا تمييـز النقـاد العـرب لبعض الـشعراء والإشـادة بهـم كـالمتنبى وأبى تمـام والبحـترى، إذ هـذا فى رأيـه يرسـخ للاسـتبداد والغرور، وينطلق من نسق الفحل، وكأن الفحولة عيب لا حسنة. ولا أدرى سر نفور الغذامى مـن الفحولـة وعملـه الـدءوب علـى تنفـير الآخـرين منهـا بهـذا اللـدد وتلـك الـشراسة. أى أننـا ينبغى، فى نظره، أن نـسوى بين الغبى والـذكى، والمبدع والمجدب، والمتفوق والمنحط، والمتقدم والمتخلف. وهذا تنطع لا يطاق ولا يحتمل. إن الحياة قائمة على التراتبية، أى انقسام قـدرات البشر وغير البشر إلى درجات متفاوتة. فالدهاء درجات، والذكاء درجات، والحصافة درجات، والجمـال درجـات، والوسامة درجات، والأناقة درجات، والغنى درجات، والـشعور بالمسؤولية درجـات، واللباقـة درجـات، واللياقـة درجـات، والعلـم درجـات، والمكـر درجـات، والـصبر درجات، والحلم درجات، والقوة البدنية درجات، والصحة درجات، والتنطع درجات، والتنفج درجات، والرقاعة درجات... إلخ. وهذا موجود فى كل ميادين الحياة، وفى كل بلاد العالم، وفى كـل فـترات التـاريخ. والله يخبرنا أنـه قـد جعـل النـاس درجـات، وجعلهـم فى الإيمـان والعلـم درجات، وجعـل الآخـرة درجـات، والجنـة درجـات، والنـار دركـات. وأكـد الرسـولُ أن المـؤمنَ القـوىَّ خيرٌ وأحـبُّ إلى الله مـن المـؤمن الـضعيف. وحـتى فى الـشعر كـان عليـه الـسلام يفـضل حسانا على زميليه فى التصدى للشعراء المشركين ويدعو بأن يؤيده الله بروح القدس. بـل حتى فى ميدان النبوة هناك محمد على رأس الأنبياء، وهناك أولو العزم من الرسل، وهناك رسـل يأتون بعد ذلك، كما سوى الرسول الكريم بين أنبياء بنى إسرائيل وبين علمـاء أمته. والقرآن الكريم نفـسه يقول علـى لـسان رب العزة: "ولقـد فـضلنا بعـض النبيين علـى بعـض". والرسـول عليـه السلام يقول إنه فُضِّل على الأنبياء بستٍّ.

وفى الامتحانات المدرسية والجامعية يحـصل الطلاب والطالبـات علـى درجـات متفاوتـة، ومن ثم يصنَّفون فى مراتب يسفل بعضها بعضا طبقا لتلك الدرجات فنجد "الممتاز والجيد جدا والجيـد والمقبـول والـضعيف والـضعيف جـدا" و"مرتبـة الـشرف الأولى ومرتبـة الـشرف الثانيـة

وبدون مرتبة". وحين يتقدم عدد من الناس إلى وظيفة معينة فى مؤسسة ما تشكل لجنة تنظر فى إنجازات كل واحد منهم وشهاداته ومواهبه وقدراته، ثم ترتبهم حسب تلك الإنجازات والشهادات والمواهب والقدرات، ثم تختار أكفأ واحد أو جماعة فيهم. فلم يريد الغذامى أن يمحو من الشعر العربى بالذات تلك التراتبية؟ وهل بيرون ووردزورث وكوليردج عند الإنجليز شعراء عاديون كأى شاعر آخر؟ وهل يستوى حافظ الشيرازى وسعدى والفردوسى وعمر الخيام عند الفرس مع غيرهم؟ وطبقا للجاحظ "يقال للمُجِيد: فحل، ولمن دونه: مُفْلِق ثم شاعر ثم شويعر ثم شُعْرُور". وهذا كلام لا يخرّ منه الماء، ولا يمكن عاقلا أن يعترض عليه، وإلا كان فى الضمير خلل. ترى هل يعقل أن يكون هذا السخف الذى يذيعه الغذامى بتلك الحماسة صادرا من قلبه بإخلاص؟ لو قيل إن التعليم فى بلاد العرب الآن يقوم على الملخصات والحفظ دون فهم فى الغالب لما فتحت فمى بكلمة، أما أن يقال ذلك عن الثقافة العربية الإسلامية على طول تاريخها، يستوى فى ذلك فترات ازدهارها وفترات انتكاستها رغم أنها هى الثقافة التى اتخذتها الحضارة الحديثة أساسا لها، فهذه بجاسة.

أما زعم الغذامى بأن النقاد العرب يفضلون اللفظ على المعنى فهو كلام غير ممحَّص، كما أنه إن صح فليس معناه أن القائلين به يدعون إلى الحفظ على حساب الفهم. وعلى كل حال فالمعروف بين الدارسين أن من النقاد العرب من يبدو أنه ينصر اللفظ على المعنى، ومنهم من يفعل العكس فنراه يفضل المعنى على اللفظ، ومنهم من يسوى بين الطرفين. لكن الغذامى يتجاهل أو يجهل هذا كله فيدين الثقافة العربية كعادته دائما بحيث يقر فى ذهن قرائه أن العرب والمسلمين لا يستطيعون التفكير السليم أبدا. وهذا سلاح من أسلحة الغربيين فى الحرب الحضارية والثقافية التى تدور بيننا وبينهم منذ وقت طويل. بل إن الغربيين ليحتقرون البشر جميعا غير البيض، ويرددون أن الإنسان الأبيض مختار من قبل الأقدار ليحمل رسالة التحضير والتنوير للإنسانية جمعاء. ردد الغربيون ذلك كحجة تسوغ احتلالهم لبلاد الآخرين وبسط سلطانهم عليها ونهب خيراتها تحت ذريعة أنهم إنما يقومون بواجبهم نحو تلك الشعوب، وإلا فكيف يحضرونها ويرقونها وهم بُعَداء عنها؟

قال ابن رشيق فى "العمدة فى محاسن الشعر وآدابه" تحت عنوان "باب في اللفظ والمعنى": "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَج والشلل والعَوَر وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح. فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين، إلا أنه لا يُنْتَفَع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحاً في غير جسم البتة. ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب: منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده، وهم فِرَق: قومٌ يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبةً مُضَرِيَةً ... هَتَكْنا حِجَابَ الشمس أو قَطَرَتْ دما

إذا ما أَعَرْنا سيداً من قبيلة ... ذُرَى منبرٍ صلى علينا وسلَّما

وهذا النوع أدل على القوة، وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار، وكذلك ما مُدِح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت. وفرقةٌ أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر، كأبي القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه، فإنه يقول أول مذهَّبته:

أصاختْ فقالت: وَقْعُ أجردَ شَيْظَمِ ... وشامتْ فقالت: لمع أبيضَ مِخْذَمِ

وما ذُعِرَتْ إلا لجَرْس حليّها ... ولا رمقتْ إلا بُرًى في مخدَّمِ

وليس تحت هذا كله إلا الفساد، وخلاف المراد. ما الذي يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حَلْيها فتوهمته بعد الإصاخة والرمْق وقْع فرس أو لْمع سيف غير أنها مغزوة في دارها، أو جاهلة بما حملته من زينتها، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه. فما هذا كله؟ وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة: فإذا أخذ في الحلاوة والرقة، وعمل بطبعه وعلى سجيته، أشبه الناس، ودخل في جملة الفضلاء. وإذا تكلف الفخامة، وسلك طريق الصنعة

أضر بنفسه، وأتعب سامع شعره. ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الأحايين أشياء جيدة، كقوله في المطبوع يصف شجعاناً:

لا يأكـل الـسرحانُ شِـلْو عقـيرهم   ممـا عليـه مـن القنـا المتكـسِّرِ

العقير ههنا منهم. أي لم يمت لشجاعته حتى تحطم عليه من الرماح ما لا يصل معه الذئب إليه كثرة، ولو كان العقير هو الذي عقروه هم لكان البيت هجواً، لأنه كان يصفهم بالضعف والتكاثر على واحد. وقوله في المصنوع:

وجنيتمـو ثمـر الوقـائع يانعـاً   بالنـضر مـن ورق الحديـد الأخـضر

فهذا كله جيد وبديع، وقد زاد فيه على قول البحتري:

حملـت حمائلُـه القديمـةُ بقلـةً   مـن عهـد عـادٍ غـضةً لم تـذبلِ

ويروى: "من عهد تُبَّع". ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعُنِيَ بها، واغتُفِر له فيها الركاكة واللين المفرط، كأبي العتاهية وعباس بن الأحنف ومن تابعهما، وهم يرون الغاية قول أبي العتاهية:

يا إخـوتي، إن الهـوى قـاتلي   فيـسِّروا الأكفـان مـن عاجـلِ
ولا تلومـوا في اتبـاع الهـوى   فـإنني في شـغل شـاغلِ
عيـني علـى عتبـةَ منهلَّـةٌ   بـدمعها المنـسكب الـسائل
يا مـن رأى قبلـي قتـيلاً بكـى   مـن شـدة الوجـد علـى القاتـلِ؟
بـسطتُ كفـي نحـوكم سـائلاً   مـاذا تـردون علـى الـسائل؟
إن لم تُنِيلـوه فقولـوا لـه   قـولاً جميـلاً بـدل النائـلِ
أو كنـتم العـامَ علـى عـسرةٍ   منـه فمَنُّـوه إلى قابـلِ

وقد ذُكِر أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك الخليع اجتمعوا يوماً، فقال أبو نواس: لينشد كل واحد قصيدة لنفسه في مُرَاده من غير مدح ولا هجاء. فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة، فسلما له وامتنعا من الإنشاد بعده، وقالا له: أما مع سهولة هذه الألفاظ، وملاحة هذا القصد، وحسن هذه الإشارات، فلا ننشد شيئاً. وذلك في بابه من الغزل جيد

أيضاً لا يفضله غيره. ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته، كابن الرومي وأبي الطيب ومن شاكلهما. هؤلاء المطبوعون، فأما المتصنعون فسيرد عليك ذكرهم إن شاء الله تعالى".

بل إني لا أظن النقاد العرب القدماء الذين يقولون بتفضيل اللفظ على المعنى وأن المعانى مطروحة على قارعة الطريق يقصدون ما يتصوره المتسرعون، بل المقصود أن الأديب حينما يريد أن يصف منظرا من المناظر مثلا أو يعبر عن شعور من المشاعر فإن المنظر يكون آنئذ أمامه، والشعور قائما بداخل نفسه يحسه إحساسا مباشرا، ثم تبدأ عملية التعبير باللفظ عن ذلك المنظر أو هذا الشعور، وما على الأديب إلا أن يختار اللفظ والعبارة الملائمين لوصف المنظر أو تصوير الشعور. يقول ابن رشيق فى هذه النقطة فى كتابه المذكور: "وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى. سمعت بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ أغلى من المعنى ثمناً، وأعظم قيمة، وأعز مطلباً، فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف. ألا ترى أن رجلاً إذا أراد في المدح تشبيه رجل لَمَا أخطأ أن يشبّهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي المَضَاء بالسيف، وفي العزم بالسيل، وفي الحسن بالشمس؟ فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة لم يكن للمعنى قدر. وبعضهم، وأظنه ابن وكيع، مثَّل المعنى بالصورة، واللفظ بالكسوة. فإن لم تقابَل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها، وتضاءلت في عين مبصرها. وقال عبد الكريم، وكان يؤثر اللفظ على المعنى كثيراً في شعره وتآليفه: الكلام الجزل أغنى عن المعاني اللطيفة من المعاني اللطيفة عن الكلام الجزل. وإنما حكاه ونقله نقلاً عمن روى عنه النحاس. ومن كلام عبد الكريم: قال بعض الحذاق: المعنى مثال، واللفظ حذو، والحذو يتبع المثال، فيتغير بتغيره، ويثبت بثباته. ومنه قول العباس بن حسن العلوي في صفة بليغ: معانيه قوالب لألفاظه. هكذا حكى عبد الكريم، وهو الذي يقتضيه شرط كلامه. ثم خالف في موضع آخر فقال: ألفاظه قوالب لمعانيه، وقوافيه معدة لمبانيه، والسجع يشهد بهذه الرواية الأخرى، وهي أعرف. والقالب يكون وعاء كالذي تُفْرَغ

فيه الأواني، ويُعْمَل به اللَّبِن والآجُرّ، وقد يكون قدراً للوعاء كالذي يقام به اللوالك، وتصلح عليه الأخفاف، ويكون مثالاً كالذي تُحْذَى عليه النعال، وتفصَّل عليه القلانس. فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظاً مرة، ومعنى مرة. وللشعراء ألفاظ معروفة، وأمثلة مألوفة، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها: "الكتابية" لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي فيستعمله في الندرة، وعلى سبيل الخطرة، كما فعل الأعشى قديماً، وأبو نواس حديثاً، فلا بأس بذلك. والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر. فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر، ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا متكأ واستراحة، وإنما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وُضِع له، وبُنِيَ عليه، لا ما سواه. ومن مُلَح الكلام على اللفظ والمعنى ما حكاه أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي، قال: البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني. وقال غيره: الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار. وقال أبو عبادة البحتري:

وكأنها والسمع معقود بها = وجه الحبيب بدا لعين محبِّه"

هذا، وقد وضح ابن الأثير هذه المسألة، فقال مبكرا ما يقوله الأسلوبيون المعاصرون عن محورى الاختيار والتوزيع، وإن لم يستعمل هذين المصطلحين: "اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها اختيار الألفاظ المفردة، وحُكْم ذلك اللآلئ المبدَّدة، فإنها تُتَخَيَّر وتُنْتَقَي قبل النظم. الثاني نَظْم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه،. وحكم ذلك حكم العِقْد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها. الثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم: فتارةً يجعل إكليلاً على الرأس، وتارةً يجعل قلادة في العنق، وتارةً يجعل شنفاً في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه. فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر. فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة. وهذا الموضع يضل في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام

من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة؟ ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في موضعها؟". وحين يقول الأسلوبيون المعاصرون هذا فمعناه أن الفكرة فى الذهن، وما على الكاتب إلا اختيار الألفاظ الملائمة وتوزيعها، أى تركيبها، على النحو الذى يكفل التعبير الدقيق عما يريد وصفه وتصويره. فكما يرى القارئ فإن د. الغذامى لا يحسن الفهم أو يصطنع الخطأ اصطناعا لغاية فى نفسه، وهى اتهام العرب والمسلمين.

أما زعم الغذامى بأن الثقافة العربية تفضل البديهة على التروى، أى أن العرب بطبيعتهم لا يحبون التفكير فى الأمر بل يخبطونه كيفما اتفق مما لا يتسق مع طبيعة الثقافة، فهو خطأ فى فهم كلام الجاحظ عن العرب وأنهم يستطيعون بالبديهة ما لا تستطيعه الأمم الأخرى بالتروى والتدبير. فليس الأمر أمر تفضيل للبديهة بل أمر إشادة بالعرب وذكائهم وموهبتهم فى الشعر والخطابة. هذا كل ما هنالك. ويترتب عليه أن العرب، لو تَرَوَّوْا وتدبروا وأخذوا وقتهم، لكان إبداعهم أسمق وأشهق. والجاحظ بالمناسبة إنما كان يتحدث عن عرب الجاهلية، الذين لم تكن لهم كتب يقرأونها أو يصنفونها، بل يعتمدون على تجاربهم ومشاعرهم المباشرة فى ميدان الشعر والخطابة لا غير، لا عن عرب زمانه. فعرب زمانه صاروا يؤلفون الكتب والرسائل ويشاركون فى العلوم المختلفة من إنسانية ورياضية وطبيعية مما يستلزم التفكير والتروى والتدبير، وهو منهم. أم ترى الجاحظ مثلا قد وضع كتب "البيان والتبيين والحيوان والبخلاء" ورسائله المختلفة عفو اللحظة وبفرقعة من إصبعه، ولم يكتر دكاكين الوراقين وينكبّ على الكتب ويقرأ ويهضم ويقارن وينقد ويستدرك ويقتبس ويجرى التجارب بنفسه ويدلى بدلوه ويصوغ مؤلفاته بأسلوب تعب عليه حتى أحرزه؟

قال أبو عثمان: "وجملة القول أنَّا لا نعرف الخُطَبَ إلاّ للعرب والفُرْس، فأما الهندُ فإنما لهم معانٍ مدونة، وكتُبٌ مخلّدة، لاتضاف إلى رجلٍ معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنّما هي كتبٌ متوارثة، وآدابٌ على وجه الدَّهر سائرةٌ مذكورة. ولليونانيّين فلسفةٌ وصناعةُ منطق، وكان صاحبُ المنطقِ نفسُه بَكِيَّ اللسان، غيرَ موصوفٍ بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه، وهم يزعمون أنّ جالينوس كان أنطَقَ الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا

الجنس من البلاغة. وفي الفُرس خُطباء، إلاّ أنّ كلَّ كلامٍ للفُرس، وكلَّ معنىً للعجم، فإنّما هو عن طُولِ فكرة وعن اجتهاد رأي، وطُول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طُول التفكُّر ودِراسة الكتُب، وحكايةِ الثاني علمَ الأول، وزيادةِ الثالث في علم الثاني، حتَّى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخِرهم. وكلُّ شيءٍ للعرب فإنّما هو بديهةٌ وارتجال، وكأنّه إلهام، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدة، ولا إجالةُ فكر ولا استعانة، وإنّما هو أن يصرفَ وهْمَه إلى الكلام، وإلى رجَزِ يومِ الخصام، أو حين يمتَح على رأس بئر، أو يحدُو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صِراع أو في حرب، فما هو إلاّ أن يصرف وهْمَه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيِّده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده، وكانوا أُمِّيِّين لا يكتبون، ومطبوعِين لا يتكلَّفون، وكان الكلام الجيِّد عندهم أظهرَ وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهَر، وكل واحدٍ في نفسه أنطَق، ومكانُه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجَد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّظ، ويحتاجوا إلى تدارُس، وليس هم كمن حفِظ علمَ غيرِه، واحتذى على كلام مَن كان قَبله، فلم يحفظوا إلاّ ما عَلِق بقُلوبهم، والتحم بصدورهم، واتّصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفُّظ ولا طلب. وإنّ شيئاً هذا الذي في أيدينا جزءٌ منه لَبِالمقدار الذي لا يعلمه إلاّ مَن أحاط بقَطْر السَّحابِ وعدد التُّراب، وهو اللَّه الذي يحيط بما كان، والعالِمُ بما سيكون. ونحن، أبقاك اللَّه، إذا ادّعينا للعرب أصنافَ البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوِج وما لا يزدوج، فمعَنا العلم أن ذلك لهم شاهدٌ صادق من الدِّيباجة الكريمة، والرَّونق العجيب، والسَّبْك والنَّحت، الذي لا يستطيع أشعَرُ الناس اليومَ ولا أرفعهُم في البيان أن يقول مثلَ ذلك إلاّ في اليسير، والنَّبْذ القليل".

فهذا ما قاله د. الغذامى فى هذه النقطة التى نحن فيها الآن، وهذا ما قلناه فى تبيين عثراته وثغراته ونواقصه ونواقضه وتناقضاته مع العقل وتناقضاته مع نفسه. ومع ذلك فلا ينبغى أن يتسرع القارئ العزيز فيظن أن جعبة د. الغذامى قد فرغت من دعاواها الفارغة المتهافتة، فها هو ذا يخرج لنا دعوى أخرى لا تقل إن لم تزد عما مضى فروغا وتهافتا، إذ يقول إنه قد "حدث تطور ثقافى خطير فى أواخر العصر الجاهلى تغير معه النسق الثقافى العربى منذ

ذلك الوقت إلى اليوم، وتحولت "النحن" إلى"الأنا" مثلما تحولت القيم من بُعْدها الإنسانى إلى بُعْد ذاتى نفعى أنانى، وتحول الخطاب الثقافى إلى خطاب كاذب ومنافق، وهو أخطر تحول حدث فى الثقافة العربية وأثر تأثيرا سلبيا. ذلك هو ظهور شاعر المديح، وثقافة المدائح، وشخصية المثقف المداح، وفى مقابلها شخصية الممدوح، مع لعب الثقافة لهذه الأدوار جميها عبر شخوص يمثلون اللعبة ويحققون نسقيتها". وهو يعزو هذا التطور إلى التأثر بالفرس والروم وما كان فى ملوكهم من استبداد وسيطرة مطلقة وتعالٍ على رعاياهم، فأخذ ذلك عن الفرس المناذرةُ فى مملكتهم بالشمال الشرقى من بلاد العرب، وعن الروم الغساسنةُ بالشمال الغربى، وتوسل ملوك كل من المملكتين بالشعر لترسيخ استبدادهم وتعاليهم وتألههم على رعاياهم.

ولكن هل كان عند الفرس والروم الشعراء المداحون لقاء المال؟ فأين الشعر الذى كان يُمْدَح به أكاسرة الفرس وأباطرة الروم؟ وهل كانت مملكة حُجْر أبى امرئ القيس، وهى فى وسط بلاد العرب بعيدا عن تأثير الفرس والروم، تقوم على الشورى والحرية واحترام الرعية؟ فمن الذين يا ترى سُمُّوا بـ"عبيد العصا"؟ أليسوا رعايا حُجْر والد امرئ القيس، الذى كانوا يصطلون نار تعسفه وقسوته وإهانته وإكراهه لهم على دفع الأموال حتى ضجوا منه ومن استبداده فثاروا عليه وقتلوه؟ وأنى يا ترى اكتسب كليب بن ربيعة ما كان يعامل به الناس الذين يسوسهم من عسف وتأله؟ أكان يجاور الفرس أو الروم فاستعار منهم سياسته القهرية فى التعامل مع الناس؟ ومن أين للأسود العنسى بالاستبداد والقهر الذى كان يمارسه على رعاياه فى اليمن غِبَّ وفاة الرسول عليه السلام وإعلانه نفسه نبيا، وهو بعيد أشد البعد عن الفرس والروم وتأثير الفرس والروم؟ ومع هذا فلأن رعيته لم تكن تطيقه ولم تقبل منه ذلك العسف والكفر فقد استطاعوا التخلص منه وقتله وإعادة الأمور إلى نصابها. ولو كانوا رَضُوا بعسفه واستبداده لظل راسخا على صدروهم. إن المشكلة ليست أساسا فى الشِّعْر بل فى النفس الإنسانية. ذلك أن الناس بوجه عام إذا كانت لهم رئاسة وسلطان أو شعروا أنهم يمكن أن يكون لهم رئاسة وسلطان فإنهم يرغبون فى التمدد والانتشار خارج نطاق ذواتهم، فإذا صادفوا حاجزا صلبا يوقفهم عند حدهم ولم يستطيعوا إزاحته اضطروا حينئذ إلى لزوم حدودهم. وهذا

الحاجز هو الرعية. ذلك أنه إن كانت الرعية رعية عزة وكرامة ونزوع إلى الحرية ورفض للقهر والإهانة لم يستطع أحد من حكامها قهرهم على شيء، وأما إن كانت رعية عبودية وخنوع وخضوع فإنها تسارع إلى إلقاء يدها بالانصياع والطاعة المطلقة لكل مستبد قهار وترضى بالهوان والإذلال دون أن ينتفض فى جسدها عرق واحد بالرفض والإنكار. ولا يمنع الحكامَ من التغشمر والخروج على الدستور والقانون فى الدول الديمقراطية غير شعوبهم، التى مردت على تنفس الهواء النقى من أدران العبودية والهوان. ولو حدث أنْ شعر هؤلاء الحكام بأن شعوبهم يمكن أن تنصاع لاستبدادهم وعسفهم لاستبدوا وعسفوا ملء هواهم وعلى راحتهم دون أن يعبأوا بقيم الشورى واحترام الشعوب. وفى جو الحرية والهواء الطاهر الصافى هذا لا يمكن أن يكون ثم موضع لشعر المديح التكسبى أصلا. لكن د. الغذامى يقلب الوضع رأسا على عقب ويزعم أن شعر المديح هو الذى أله الحكام وأوزعهم على العسف والطغيان. ثم إن المناذرة والغساسنة المجاورين على الترتيب لفارس والروم قد زالوا، بل زالت فارس والروم، وعرف العرب فى ظل الإسلام الحكم الشورىّ واختفى شعر مديح الحكام والتكسب من ورائه، فلم يا ترى ظهر شعر المديح مرة أخرى بعد الخلفاء الراشدين؟ هل عادت فارس والروم من جديد أم ماذا؟ إن الحكام الجدد كانوا يعملون على نشر سلطتهم وتمددها، وانتهجوا كل سبيل يوصلهم إلى هذه الغاية حتى استقر الأمر لهم بعد انتصارهم على خصومهم بوسائل متنوعة لم يحسن أولئك الخصوم العمل بها أو لم يفكروا فى العمل بها أصلا، وخضع الناس لهم وأَلْقَوْا إليهم بيد الطاعة، وظهر شعر المديح من جديد فى هذا الجو الملائم تمام الملاءمة له. هذا، وأرجو أن يلاحظ القارئ كيف أن الغذامى يرجع بالنسق الثقافى المذموم الذى تدور حول ثقافتنا إلى الفرس. أى أن ذلك النسق الثقافى ليس من ابتداعنا بل مأخوذا من الفرس.

أما قول د. الغذامى إن الشعر العربى قد تحول مع ظهور شعر المديح الذى كان ينظمه النابغة والأعشى مثلا فى المناذرة والغساسنة من "النحن" إلى "الأنا" فهو كلام مرسل بلا أى دليل، بل إن الدلائل كلها تعكسه وتنقضه. ذلك أن الشاعر العربى طوال العصر الجاهلى كان ينظم فى النسيب بمن يحب من النساء والفخر بمآثره الشخصية ويصف الطبيعة من حوله، إلى جانب الشعراء الحكماء والشعراء المهتمين بالموضوعات الدينية، فضلا عن فخره بقبيلته

ومدحه لكرام رجال القبائل. بالله عليكم بم نصف شعر امرئ القيس وعلى رأسه معلقته، وهو شعر يفاخر فيه بما كان يفعله فى دنيا الغرام والنساء من عهارة وفحش؟ أليس شعرا أَنَوِيًّا لا نَحْنِيًّا نسبة إلى "الأنا" و"النحن" إذا كان لنا أن نتحذلق كما يتحذلق د. الغذامى؟ كذلك فشعره الذى يصف فيه حاله وهو يسعى إلى الأخذ بالثأر ممن تمردوا على أبيه وقتلوه هو شعر أنوى، إذ يخصه هو وحده ولا يضع مصلحة الجماعة فى الاعتبار. وكيف نصنف شعر عنترة، الذى يفاخر فيه ببطولاته وكرمه وحبه لعبلة؟ أليس شعرا أنويا؟ وأين نضع شعر طرفة فى التمرد على القبيلة وافتخاره بإشباع رغباته ومبادرته إلى الاستمتاع بحياته قبل أن يبادره الموت؟ أليس شعرا أنويا؟ وما تكييف شعر جليلة بنت مرة، الذى نظمته فى بكاء زوجها كليب والتعبير عن حيرتها وبؤسها بين زوجها المقتول وأخيها القاتل؟ أليس شعرا أنويا؟ وما نوع الشعر الذى كان ينظمه أبو دؤاد الإيادى فى وصف الخيل؟ أليس شعرا أنويا؟ وعلى نفس الغرار يجرى كثير من شعر طفيل الغنوى، فهو أيضا فى وصف الخيل. أى أنه شعر أنوى. والمتلمس الضبعى خال طرفة، الذى كان ينادم عمرو بن هند ملك العراق ثم هجاه وهرب منه، أليس شعره هذا شعرا أنويا؟ وشعراء الصعاليك أين نضع شعرهم؟ أليس شعرا أنويا يتحدثون فيه عن هجومهم على القبائل والقوافل وغنمهم أموالها وتوزيعها فيما بينهم وعلى الفقراء المحتاجين؟ أليس فخر شعراء الجاهلية بشرب الخمر ولعب الميسر وتوزيع نصيبهم من القمار الذى يكسبونه على المحتاجين والفقراء شعرا أنويا بامتياز؟ وأشعار كليب فى التمدح باستبداده أليس شعرا أنويا؟ وأشعار المرقش الأصغر فى محبوبته بنت الملك المنذر أليست من الشعر الأنوى؟ وأشعار المرقش الأكبر عم مرقشنا الأصغر فى محبوبته، التى مات ولم يتزوجها رغم حبه الطاغى لها، أليس شعرا أنويا؟ وكلام حاتم الطائى عن أَرْيَحِيَّته ومسارعته إلى مساعدة المحتاجين والبائسين فى سِنِى القحط والإجداب أليس شعرا أنويا؟ ويائية عبد يغوث البديعة فى تصوير حاله وهو فى أسر أعدائه قبل أن يقتلوه أليست شعرا أنويا مائة فى المائة دون مماحكة؟ وأشعار أمية بن أبى الصلت فى الحديث عن الله والملائكة والأمم القديمة أليست أشعارا أنوية؟ وأشعار الخنساء فى رثاء أخويها، وخاصة صخرا، أليست أشعارا أنوية بكل يقين؟ كما لا ينبغى أن يفوتنا أن المديح كان موجودا بعيدا عن مملكتى المناذرة والغساسنة أيضا. إن من يقرأ كلام د. الغذامى ولا يعرف وضع

الشعر الجاهلى سوف يظن أن كل شاعر لم يكن ينظم شعرا إلا فى التفاخر بقبيلته والدفاع عنها لا أكثر ولا أقل. فكلام د. الغذامى هنا كلام لا يقوم على أساس سوى افتتانه بكلمتى "الأنا" و"النحن"، وترديد مثل تلك المصطلحات الغريبة شِنْشِنَة منه معروفة، فهو مغرم بحب الظهور ولفت الأنظار. ومن يتتبع كتاباته المختلفة فلسوف يلفيها تعج بالمصطلحات والاستعمالات العجيبة التى يشذ بها عن غيره. ولست أستطيع نسيان ما صنعه مع الشاعر السعودى حمزة شحاتة، فقد نسب إليه الاعتقاد بأنه قد أتى إلى العالم ليكفر عن البشر خطيئتهم. ولهذا سمى ناقدنا الهمام كتابه: "الخطيئة والتكفير"، فكان له السبق أن أدخل استعمال هذا المصطلح والمفهوم الكنسى فى بلاد النبى مُحَمَّد عليه السلام وطبقه على شاعر مسلم. وهو موقف يدابر كل منطق وينافر شعر الرجل ونثره تمام المنافرة ويجرى مع مقولة الكنيسة فى السيد المسيح عليه السلام كما بينت فى الفصل الذى عقدته للدكتور الغذامى فى كل من كتابىَّ: "أدباء سعوديون" و"المرايا المشوِّهة".

والغذامى يرى أن تحول الشاعر الجاهلى إلى المديح المدفوع الأجر قد أثر على منظومة الأخلاق، فصار الشعراء لا ينظمون شعرا إلا بمقابل، كما وضع النقادُ أىَّ شعر آخر دون شعر المديح بمراحل، وقام شعر المديح على الكذب، وقام على ترديد رواسم محفوظة يرددها كل الشعراء، وصار الممدوح يعطى ويجزل العطاء رغبة فى استدامة الثناء وخشية من انقلاب المادح عليه وهجائه له. لقد صار الشاعر شحاذا، ونتج عن هذا أن القراء شعروا أنهم خارج الخطاب المديحى لأنهم لا مادحون ولا ممدوحون. أما الممدوح فقد صار طاغية بكثرة سماعه للشعراء يُعْلُون مكانته فوق البشر ويجعلون منه فحلا. فالشاعر المادح فحل يمدح فحلا ويجعل منه طاغية.

ونحن مع د. الغذامى فى أن المديح ليس أفضل أنواع الشعر، وإن وجب التحرز بأن هناك مدائح خرجت من القلب إعجابا بالممدوح فعلا وليس ترديدا لرواسم شعرية محفوظة. لكننا لسنا معه فى أن شعر المديح قد أفسد منظومة الأخلاق كلها، فليس من المعقول أن يكون لرواج شعر المديح كل هذا التأثير الذى نرى أنه قد بولغ فيه من جانب الغذامى مبالغة مقيتة، وبخاصة أنه، كما رأينا، يؤكد أن الجماهير قد انصرفت عن ذلك الشعر ولم تكن تبالى به

لأنه لا يهمها فى قليل أو كثير، إذ هى لا مادحة ولا ممدوحة. كذلك لست معه أبدا فى أن المديح قد أُطْلِق عليه: "غرض" بسبب أن لصاحبه غرضا من وراء نظمه. قد يكون لكلام الغذامى شيء من الوجاهة لو كان شعر المديح وحده هو المسمى: "غرضا". لكننا نعرف أن كل لون من ألوان الشعر يسمى: غرضا. فالنسيب غرض، والوصف غرض، والخمر غرض، والهجاء غرض، والرثاء غرض، والغلمان غرض، والتأمل فى الكون غرض، والزهد غرض، والوعظ غرض، والفكاهة غرض، والحرب غرض. أى أن كلام الغذامى هنا أيضا كلام فشنك. أما أن الشعراء لم يعودوا ينظمون إلا بمقابل مادى فهو كلام خاطئ خطأ فادحا، إذ ليس شعر المديح هو كل الشعر، بل هناك أشعار أخرى تكلمنا عنها مرارا فى هذا الفصل لا علاقة لها بالمديح من قريب أو من بعيد. ثم إن لشعر المديح ليس كله شعرا تجاريا، بل هناك مدائح رائعة نُظِمَتْ إعجابا بالممدوح.

كذلك نحن نعرف أن الشعراء فى أى عصر لم يجمعوا كلهم على حاكم واحد أو أسرة واحدة من الحكام يرونهم وحدهم الفحول طبقا لدعوى د. الغذامى. لقد رأينا عمرو بن كلثوم مثلا يطير رقبة الملك الحِيرِىّ عمرو بن هند ويتباهى بما فعل، فإذا كان الكلام عن الفحل يؤدى إلى الاستبداد والعسف بالمحكومين فلم يا ترى لم يضع عملُ ابن كلثوم هذا نهايةً للحاكم الفحل؟ لقد كان هناك دائما، بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين، تعارض بين توجهات الشعراء: فشعراء يقفون مع بنى أمية، وآخرون مع أهل البيت، وفريق ثالث مع الزبيريين، ولدينا أيضا الخوارج، وهم الذين يعتقدون أن الحكم ليس حكرا على أحد من البيوتات العربية بل ينبغى أن يُوَسَّد إلى الأمة ترى فيه رأيها وتُوَلِّى من يصلح له حتى لو كان هذا الذى يصلح من عُرْض الناس. وكان كل فريق من هؤلاء يهاجم حكام الفرق الأخرى هجوما شديدا. أى أنه إذا كان المشايعون لبنى أمية يرون الفحل أمويا فإن كل فريق من هؤلاء المتخاصمين يرون الفحل فحلهم هم. بل لقد كان هناك أحيانا انقسام داخل المعسكر الواحد، فقد كان هناك فى الدولة الأموية السفيانيون والمروانيون. وحين صار الأمر إلى بنى مروان كان هناك نزاع بين هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد. وهذا إن كانت الفحولة هى المعيار الحقيقى لدى كل فريق من هذه الفرق، إذ إن شعراء كل فريق كانوا حريصين على وصف حكامهم بالتقوى

والورع والصدق والإخلاص والكرم والعمل من أجل مصلحة الأمة وما إلى ذلك. فلو كان للشعر كل هذا التأثير الذى يعزوه إليه د. الغذامى لقد كان ينبغى أن يكون حكامنا كلهم أتقياء ورعين صادقين مخلصين يَخْشَوْن ربهم أشد الخشية ويبذلون كل جهودهم من أجل خير الرعية. وفى أواخر بنى أمية اندلعت حرب بينهم وبين العباسيين انتهت بانتقال السلطان إلى الأخيرين، الذين قامت بينهم وبين آل البيت صراع على الحكم انشطر الشعراء فيه إلى شعراء موالين لبنى العباس وشعراء مشايعين للعلويين. وبعد موت الرشيد تحارب ابناه: الأمين والمأمون حربا شرسة انتهت بمقتل الأمين. وكان أحد أسلحة المأمونيين أن الأمين يقرب إليه أبا نواس، وهو شاعر فاسد غارق فى الخمر وفى الشذوذ الجنسى. وكانت أشعاره برهانا على ما يقولون فى حقه. ومعنى ذلك أنهم كانوا يتناولون تلك الأشعار من الناحية المضمونية، وإلا فأبو نواس من ناحية اللغة والوصف والتصوير هو شاعر فى الغاية الكبرى من البراعة والتفوق. ومع تقدم الزمن رأينا ابن المتوكل يقتل أباه ويتولى الحكم بعده، ورأينا البحترى مثلا يقف ضد الخليفة الجديد لبعض الوقت ويهجر بغداد تعبيرا عن نفوره مما صنعه الابن بأبيه، ثم بعد قليل عاد كرة أخرى إليه. ورأينا بعد ذلك صراعا بين ابن المعتز والمقتدر انتهى بعد يوم وليلة على أكثر تقدير بمقتل ابن المعتز واستيلاء أنصار المقتدر على السلطة. على أن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل رأينا جند الأتراك يعزلون هذا الخليفة ويقتلون ذاك، ويولون واحدا آخر مكانه. كما أن أيدى حريم القصر لم تكن أقل نشاطا من سيوف الجند وصراعات المتآمرين. ولا شك أن نجاح الأتراك والنساء فى خططهم قد بينت للناس أن حكاية "الفحولة" التى يطنطن بها د. الغذامى هى كلام فى الهواء لا يسمن ولا يغنى من جوع، وإلا فهل الفحولة تنهزم بهذه السهولة وتلقى ذلك المصير البشع الذى كثيرا ما انتهى إليه خلفاء بنى العباس؟ بل كثيرا ما غير الشعراء ولاءهم من حاكم إلى آخر. وقد أومأنا آنفا إلى البحترى وكيف ظل ولاؤه فترة للمتوكل المقتول على يد ابنه المنتصر ثم انقلب على نفسه وصار منتصريا بعدما استتبت للمنتصر أسباب النجاح ورسخت قدماه فى الحكم. وقبل ذلك بوقت طويل كان ابن قيس الرقيات زبيريا، ثم بعد انقشاع دولة الزبيريين رأيناه ينتقل إلى الشط الآخر ويمدح المروانيين، الذين قضوا على دولة ابن الزبير. ومثل آخر: فبعد قضاء صلاح الدين على دولة الفاطميين

وجدنا شعراءهم ينتقلون إلى المعسكر الجديد المنتصر، ومنهم عمارة اليمنى، الذى شرع يمدح صلاح الدين الأيوبى ويمد يده إليه كى يغرقه بالمال كما كان يفعل سادته القدامى، وإن كان قد انتهى مصيره إلى القتل بسبب طول لسانه على صلاح الدين وما ثبت من تآمره على الدولة الجديدة حين ألفاها لا تبالى به كما كان يتوقع ويرجو... إلخ. بل كثيرا ما انقلب الشاعر من هؤلاء على من كان يمدحهم بالأمس فيصليهم هجاء من أقذع ما يكون لا لشىء سوى أنهم لم يغرقوه، كما كان يأمل، بالأعطيات والهبات والهدايا؟ وما ابن الرومى عنا ببعيد. بل لقد وجدنا المتنبى يترك بلاط سيف الدولة، الذى "أكل فيه البقلاوة"، كما نقول فى مصر دلالة على التقلب فى النغنغة والتمتع ببُلَهْنِيَة العيش، إلى بلاط كافور، ثم وجدناه ينقلب على كافور ويحرقه بأشعاره الهجائية بعد أن هرب من مصر حين لم يجد عند كافور ما كان يؤمِّل من تولى إحدى الولايات، ويقصد بعدها بقليلٍ الصاحبَ بن عباد وعضد الدولة؟ وما هذه إلا بضعة شواهد ليس إلا. والأمثلة كثيرة بطول تاريخ العرب كما هو معروف. لا بل إن المتنبى قد هجا حكام المسلمين فى عصره بأنهم، وإن كانوا فحولا، فهى فحول عاجزة عن إنجاز شىء ينفع الإسلام والمسلمين:

وَذاكَ أَنَّ الفُحولَ البيضَ عاجِزَةٌ عَنِ الجَميلِ، فَكَيفَ الخِصْيَةُ السودُ؟

فهل تحول أولئك الحكام جراء كلامه إلى فحول عاجزة ولحقوا بالخصيان؟ لا بل إن كافورا، ذلك العبد الخصى، قد استطاع القبضَ على أزمة الحكم فى مصر فى ذلك الوقت وسَوْسَه بذكاء ودهاء، والتلاعب بالمتنبى وغير المتنبى، وكانت دولته أقوى من دولة بنى العباس ومن بعض الدول المتفرعة عنها كما هو معلوم. فأين يا ترى نضع الفحولة هنا والخصاء؟ كذلك ففى البيت التالى نجد ابن الرومى لا يربط بين الفحولة والتفوق بل بينها وبين الفسوق واجتراح الفاحشة حيث يقول فى شيخ ذى لحية عظيم النفاق:

ومائق فوق صدره هنةٌ جازت بشبرٍ مشَكَّ منطقتِهْ
إذا أراد الكرى توسدها فقد كفته مكان مِرْفَقَتِهْ
علامة الفسق طول لحيته وآية الفَحْل طول شقشقته

ليس ذلك فحسب، فهذا ابن شهاب العلوى (ق١٣- ١٤هـ) يؤكد أن النساء يغلبن الفحول بكل سهولة وسلاسة بظرفهن ومكرهن، ويصيّرن الفحولة غير ذات قيمة البتة:

إذا نشأتْ بين الأقارب فتنة ... بها اشتعلت نار الضغائن والحقدِ
وحار أولو الألباب فيما استفزّهم ... إلى نقض ميثاق الأخوة والعهدِ
ففتّشْ تجد أصل البلاء نساءهم ... بما اسْطَعْنَ من بذر التنافر والبعدِ
جُبِلْنَ على وضع القذا حيث يعظم ال ... أذى وعلى التفريق بين ذوي الود
كواذب يسلبن الفحول عقولهم ... بألسنة ممزوجة الهزل بالجِدِّ
ضعاف فلا قُضبٌ لديهن أو قنًا ... يَصُلْن بها فوق المطهَّمة الجُرْدِ
ولكن سلاح المكر والكيد فاتك ... بمن شئنه فَتْكَ الأساود والأُسْدِ
فخذ أيها المخدوع حذرك واحتفظ ... بسرك عن ليلى وسعدي وعن دَعْدِ

كذلك فالفحل يقاد بالحبل من أنفه كما جاء فى بيت ابن نباتة السعدى (ق٤- ٥هـ) التالى:

كما يُقادُ الفحلُ بالخِشَاشِ ... جَوَّزها أَصمعُ ذو انكمَاشِ

والفحل لا يظل فحلا طبيعةً، بل يمكن أن يخصى فتزول عنه الفحولة. قال النابغة الذبيانى:

وَإِنَّ الفَحلَ تُنزَعُ خُصيَتاهُ ... فَيُصبِحُ جافِراً قَرِحَ العِجانِ

ثم هل كانت الأشعار العربية كلها أشعارا فى مديح الحكام فقط، وبالفحولة لا غير؟ فأين مديح الحكام بالكرم والتقوى والعفاف والخشية من الله؟ ولماذا لم تثمر فيهم سوى أشعار الفحولة وحدها إن كان للفحولة كل هذا الاعتبار فى المِدَح المعدة لهم؟ وأين أشعار الفتوح وبطولات جند المسلمين فى العمل على نشر دين ربهم؟ وأين أشعار النسيب والغزل؟ وأين أشعار الفخر والتباهى من جانب كل شاعر بقبيلته صدقا أو كذبا؟ وأين شعر الحكمة؟ وأين شعر الزهد؟ وأين شعر التقوى والإشادة بالإسلام؟ وأين شعر المدائح النبوية؟ وأين شعر الفلسفة؟ وأين شعر المتصوفة؟ وأين شعر الزندقة والزنادقة؟ وأين شعر الفجرة والفجور؟ وأين

شعر الوصف وتصوير الطبيعة والبساتين والزهور والحيوانات الوحشية والإنسية والبرك والبحيرات والصحراء والرمال والجبال والتلال والمروج والأمطار والثلوج؟ وأين شعر الخمر؟ وأين شعر الغلمان؟ وأين شعر الرثاء؟ وأين أشعار الهجاء؟ وأين شعر شكوى الزمان؟ وأين شعر الصداقة؟ وأين الشعر القصصى؟ وأين شعر النقائض؟ وأين أشعار العَكَوَّك وأبى الشَّمَقْمَق وابن سَوْدُون وابن دانيال وأمثالهم من الأشعار التى تأخذ على عاتقها إضحاك الناس ولو بسخرية الشاعر من نفسه وأحواله هو وزوجته وأولاده؟ بل أين شعر الألغاز والأغراض التافهة كوصف محبرة أو قلم أو كتاب أو مرآة أو مشط أو ما أشبه؟ وأين شعر التهنئة بالمواليد والزواج وما إلى هذا؟ وأين يا ترى تقع قصيدة المتنبى فى الحُمَّى؟ وأين تقع أبيات ابن خفاجة فى الجبل وتشخيصه وإضفاء سمات الحكمة والوقار عليه؟ وأين تقع دالية المعرى فى التفلسف حول الموت؟

ثم هل كانت الجماهير تأخذ ما يقوله الشعراء عن ممدوحيهم من الحكام وكبار رجال الدولة مأخذ التصديق دائما؟ لنأخذ مثلا العزيز بالله الفاطمى، الذى كان يدعى كسائر الفاطميين معرفته بالغيب، وكان شعراؤه الكذابون يملأون الدنيا بالحديث عما فيه من عرق إلهى واطلاعه على الغيوب المخبأة، والذى رمى له أحد الرعية المصريين بطاقة شعرية تتطاول عليه وتحقر من شأنه وتتحداه، لو كان يعرف الغيب كما يزعم زورا وبهتانا، أن يعرف كاتب البطاقة، إذ تقول الروايات إن ذلك الخليفة صعد المنبر ذات يوم، فرأى رقعةً كُتِب فيها:

بالظلمِ والجورِ قد رَضِينا ... وليس بالكفرِ والحماقة
إنْ كنتَ أُعْطِيتَ عِلْم غيب ... فقُلْ لنا كاتِبَ البطاقة

وإنه قد أقلع عن ادِّعَائه الغيب بعد ذلك. بل لقد وصف ابن هانئ الأندلسى المعز لدين الله بكلام يخرج قائله عن الإيمان، إذ قال له من قصيدة طويلة يمدحه بها:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكم، فأنت الواحد القهارُ

فهل صدق الناس هذا الكلام الكفرى؟ لقد كانوا ينظرون عادة إلى مثل هذا الكلام بل إلى كل مديح تقريبا على أنه كلام شعراء يسترزقون به، وبخاصة أنهم كانوا يرونهم وقد انقلبوا

على ممدوحيهم وانتقلوا بمديحهم إلى ممول جديد إذا جف البئر الأول لسبب أو لآخر، دون أى شعور بالخجل أو العار.

ثم إن الفحولة كثيرا ما أضفيت على الشعراء، فهل ترتب على هذا أن أجمع الناس على تبجيل الشاعر الموصوف بالفحولة وكفوا ألسنة النقد عنهم؟ أبدا، فها هو ذا المتنبى، الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، كثيرا ما انتقده المنتقدون وأخذت عليه أشياء كثيرة فى شعره، بل اتُّهِم بالسرقة وانحطاط مكانته عن مكانة هذا الشاعر أو ذاك فى بعض المواطن على أقل تقدير. وقد شُتِم المتنبى من قِبَل بعض الشعراء أنفسهم، وحين كتبت سيرة حياته لم يُخْفِ الكاتبون أصله المتواضع ولا أن أباه كان سقاء بالكوفة ولا أنه ادعى النبوة، بغض النظر عن أنه ادعاها فعلا أو لا. وبالمثل تحدثوا عن أبى تمام ولم يقفزوا فوق عمله فى مسجد الفسطاط فى صباه حين كان يملأ خزانه بالماء لكى يتوضأ المصلون. كما تحدثوا عن رقة دينه. وقبله فضحوا أبا نواس وذكروا أشياء وأخبارا كثيرة عن شذوذه وإدمانه الخمر وعن حبس الرشيد له فترة من الوقت. وعندنا بشار، الذى أوردوا كل ما من شأنه تشويه صورته دينيا واجتماعيا وشكليا. كما لم يعفوا أبا العتاهية، الذى اشتهر بشعر الزهد، فذكروا أنه كان فى شبابه يعاشر المخنثين ويحمل الزاملة مثلهم، فضلا عن إيرادهم أشعاره البذيئة فى بعض من كان يحبهن واتهامه لهن بالسحاق. وفى أخبار الفرزدق أنه كان فيه عهارة بخلاف جرير. وبالنسبة للأخطل لم يفكروا بتاتا فى إهمال ما سمعه من عبد الملك حين أنشده قصيدته:

أتصحو أم فؤادك غير صاح   عشية همَّ صحبُكَ بالرواحِ؟

إذ قال له فى الحال: بل فؤادك أنت يا ابن الفاعلة. وهو، كما نرى، رد مسىء أفظع الإساءة... والأمثلة كثيرة لا تنتهى.

وهأنذا أقرأ الآن شعرا لإبراهيم ناجى يصف فيه زميلا له فى الطب اسمه علىٌّ بالفحولة، فأين علىٌّ الآن؟ وأين فحولته؟ ولماذا لم تحجز له الفحولة مقعدا فى الذاكرة بحيث يظل شاخصا فيها لا تنساه أبد الآبدين ولا تكف الأقلام عن الإشادة به وبها؟ إنه مجرد كلام شعراء. كلام جميل، نعم، وقد يكون صحيحا، نعم، ولكنه ليس أكثر من كلام سرعان ما ينساه الناس. فمَرُّ الأيام وكَرُّ الليالى من شأنه أن يُنْسِى أعتى الذواكر البشرية. يقول ناجى:

ولـــو أن المـــآثر ذات قـــول لقلـتُ: تكلمـي وصِـفِي وقـولي

أضــفها، فهــي أعمــار أضــيفت ومــا تــدري لماضــيك النبيــلِ

تعــال أذع لنــا ســر الفحــول ودع صــمت الحيــيِّ أو الخجــولِ

ســلالة عبقــرٍ وعــشير جــنٍّ بعــدتم في الحيــاة عــن الــشكولِ

ثم إذا كان الناس مع الأيام قد أداروا ظهرهم لدينهم فلم ينتفعوا به الانتفاع المرجو المنتظر فكيف نظن أن تأثير الشعر فيهم أشد وأقوى من تأثير الدين والقرآن والحديث مع أن الشعر لا يمكن أن يكون فى قوة تأثير القرآن والحديث ولا فى سعة انتشارهما؟ وها هو ذا إبراهيم المازنى يضع الفحولة الشعرية فى مكانة أقل من تعبيرات عيون المحبين:

مــا أفــصحَ اللحــظ يا حبيــبي وأعــــذب البــــثَّ بالعيــــون!

مــا الــشاعر الفحــل حَرَّكَتْــه علــى النــوى هــزة الحنــينِ

أخلــــب لي منطقــــاً وأحلــــى مــن نظــرة الطــرْف في ســكونِ

ثم ما قول د. الغذامى فى أننا فى العامية المصرية، إذا وصفنا شخصا بأنه "فحل"، فهذا سباب شنيع، إذ المقصود أنه ثور، أى أنه حيوان وليس آدميا، وليس له عقل ولا فهم ولا إحساس؟ كذلك فقد تدهدى معنى الفحولة حتى صرنا نضفيه على البصلة، فنقول: فحل بصل، وعلى حبة التوت، فنقول: فحل توت. وكنا فى قريتنا نطلق على رجل مسكين ظريف لا حول له ولا طول يأتى من قرية مجاورة للشحاتة من عندنا: فحل العِيلَة، مع أنه لم يكن فيه من الفحولة كثر أو قل. إن الغذامى فى هذا المضمار يعمل على خلق موضوع تافه يشغل الناس ويعمل على إرباك عقولهم، فبدلا من أن يتعمقوا الأسباب التى أدت إلى رسوخ الاستبداد فى بلاد العرب والمسلمين بعامة ينشغلون بالفحل والفحولة بوصفها هى السبب فى كل البلايا السياسية التى نعانى منها نحن العرب والمسلمين.

وعلى أية حال لقد كان الناس، عاجلا أو آجلا كما قلنا، ينتقلون بولائهم دائما إلى الحاكم الجديد حتى لو كان من وراء قلوبهم وضمائرهم. ليس ذلك فحسب بل إن من الشعراء من أكد أن الفحولة لا تعنى فى كثير من الأحيان شيئا، فقد يكون الإنسان ابنا لفحل من الفحول، لكنه لا يكون سيدا. قال ابن أبى حصينة من شعراء العصر الفاطمى:

مـا كُـلُّ مَـنْ وَرِثَ المَكـارِمَ قـائِمٌ فيهـا وَلا كُـلُّ ابـنِ فَحْـلٍ سَـيِّدُ

بل كثيرا ما يغتر الفحل بما هو فيه من عيش هنيء فيطمع فينهزم وتكون نهايته شنعاء. قال أبو حصينة أيضا:

يا رِفْـقُ، رِفْقـاً! رُبَّ فَحْـلٍ غَـرَّهُ ذا المَـشرَبُ الأَهْـنَى وَهَـذا المَطعَـمُ

كذلك فمعظم العالم الثالث الآن يعيش فى ظلام الاستبداد وسواده وقاره وزفته وقطرانه وتتعايش الجماهير والمثقفون معه على أحسن ما يرام، بل كثيرا ما يؤثرونه على نور الشورى والعزة والكرامة، وليس هناك شعر مديح بل ليس هناك شعر البتة بل إن كثيرا من حكام المسلمين لا يقرأون شيئا ولا يقرِّبون إليهم العلماء الكرام، بل كثيرا ما نجد الحاكم العربى أو المسلم أميا لا يستطيع كتابة اسمه بل لا يعرف الفرق بين الألف وكوز الذرة. وهذا أمر موجود منذ عقود وعقود. فماذا يقول د. الغذامى فى هذا؟ لقد بلغ من جرأته أن ترك الحكام العرب أجمعين، وبالذات الأميون منهم، وهو يعرفهم كما يعرف نفسه وأكثر، وطار إلى صدام حسين الحائط المائل لأنه لا ضرر من انتقاده على البعد، وأخذ يصكه صكا ويرميه بكل موبقة من العيوب. وصدام مستبد بلا أدنى جدال، ولكن هل الشعر هو الذى صيره مستبدا مغرورا؟ لقد كان هكذا قبل أن يصل للحكم، بل إن هذا هو السبب فى أنه دخل معترك السياسة حتى يكون زعيما نافذ الكلمة يسوق الناس بعصاه كالغنم فينساقون. وكان عسفه بهم وطغيانه عليهم وعقابه الوحشى لكل من يفكر فى الخروج من الصف هى التى أوزعتهم على الطاعة المطلقة. أما الشعراء فقد اختفَوْا من الساحة، وحل محلهم الإعلاميون، الذين ملأ الرعب قلوبهم فانطلقوا يخلعون على الرجل كل الصفات المستحيلة. فقسوة صدام، وهو فى هذا كأى ملك أو رئيس أو شيخ عربى آخر وليس نسيج وحده كما يريد الغذامى إيهامنا، قسوة صدام هى السبب فى انصياع الشعب لأوامره وانتهائه عما نهى عنه لأنه يعرف أن عقبى العصيان فادحة، وليس هناك من يريد أن يدفع ثمن الحرية ويضحى بحريته، إن لم يكن بحياته، كما فعلت وتفعل الشعوب التى تصر على نيل حريتها وحقوقها فى الحياة الكريمة العزيزة والاستمتاع بخيرات بلادها وعدم تركها الحاكم وبطانته وأسرته يصنعون بها ما يشاؤون ولا يلقون لها إلا بالفتات، وبخاصة فى أنظمة الحكم المتخلفة الرجعية التى تحتجن ثروات البلد فى

أيديها ملكية خاصة للأسر الحاكمة، وكأنها إرث تركه لهم الأجداد والآباء مع أن الأجداد والآباء كانوا أقرب إلى الشحاتين منهم إلى ملاك الثروات. ثم أليس غريبا وشاذا كل الغرابة والشذوذ أن ينتقد الغذامى ميمية المتنبى الشجاعة المتحدية بينما هو لا يستطيع أن يفكر مجرد تفكير فى قول كلمة مثلها فى ظرف من ظروف الشاعر الكبير؟

وظريف أن ينتقد الغذامى صدام حسين لترديد إعلامه لعبارات مثل "جيش صدام، وقادسية صدام"، متجاهلا نسبة بلد كامل فى اسمها الرسمى الذى تعرف به بين الدول إلى أسرة واحدة تملك كل شىء فيه، مما لا نظير له فى عالمنا، ولا يستطيع أحد فى ذلك البلد أن يخاطب أحدا من الأسرة الحاكمة أو يتحدث عنه إلا ب"سيدى فلان". وصحيح أنه لم يكن هناك مكان فى نظام الحكم أيام صدام للمعارضة، فهل هناك مكان فى أى نظام حاكم عربى للمعارضة، وإن كان هناك معارضة فى بلد عربى فهل هى معارضة حقيقية؟ لكن ليس الشعر مع هذا هو السبب، بل السبب هو مُرُود الشعوب العربية منذ وقت طويل على الخنوع للطغيان أو مسارعة من ينجح فى الوصول للحكم إلى الانفراد بالسلطة وممارسة الطغيان من خلالها. وأهم شىء عند الحاكم هو السيف والقوى التى تكفل له السيطرة والسلطان وإرعاب كل من يفكر فى العصيان، وهذه القوى هى الجيش والشرطة والقضاء والإعلام وعلماء الدين المنافقون الذى يقولون: يجب طاعة الحاكم مهما يكن من أمره ومهما تر فيه من خروج على الدين. وإذا كان الغذامى يقول إن ما كانت بعض البلاد تنادى به من وحدة وحرية واشتراكية هى قيم فارغة من المضمون منفصلة عن الواقع والمنطق فنحن نوافقه على هذا راجين أن يوافقنا على أن ما ترفعه بعض أنظمة الحكم من كونها حارسة على الشريعة المحمدية وأنها هى الدولة الوحيدة التى تطبق تلك الشريعة هو كلام كاذب زائف لا حقيقة له وأن كل صنوف الفساد ضاربة فى أعماق وسطوح تلك الأنظمة مما يتخيله العقل ومما لا يتخيله العقل.

وينطبق ما قلناه عن الاستبداد الخانق فى بلاد العرب والمسلمين على بلاد المعسكر الشيوعى أيام كانت هنالك شيوعية، وأيضا على الشعوب الأوربية فى عصورها الوسطى، وكل هذا دون أن يسمع هؤلاء بالفحل العربى ونسقه أو يعرفوا شيئا عن شعر الفحولة عند العرب. فما رأى ناقدنا الهمام فى ذلك؟ على أن المسرحية لما تنته فصولا، فلدينا أحمد شوقى، الذى

كان يمدح الخديوى عباس الثانى ويأخذ الأموال على ذلك، ومع هذا كان ينظم شعرا وطنيا ويفضح أفاعيل الإنجليز الإجرامية فى مصر ويندد بها. وهذا يفند بكل قوة ما زعمه الغذامى من أن شاعر المديح أصبح شاعر ذاته يجرى وراء مصلحته الشخصية ليس غير، ولا يعبأ بأمته أو وطنه أو جماعته. ومثل شوقى فى ذلك أحمد محرم. وقبل شوقى ومحرم كان القاضى الفاضل يمدح صلاح الدين الأيوبى ويعضده بكل قواه لأنه كان يحارب الصليبيين ولا يفتر أبدا فى هذه الحرب. فمدح القاضى الفاضل كان مديحا كريما يضع فيه مصلحة الأمة والإسلام فى الاعتبار الأول.

وكان المتنبى يمدح سيف الدولة ويأخذ منه المال لقاء المديح، لكنه كان يرى فيه بطلا عربيا مسلما يقف بالمرصاد للروم وجيوشهم. لكن الغذامى يقول إن المتنبى قد أقر بأن المديح الشعرى كذب وأنه مزيج من الحق والباطل، وحسب عبارته: "وإن مديح الناس حق وباطل". وهذا فهم خاطئ، فليس المقصود أن المتنبى يقر أنه يخلط فى مدائحه الحق بالباطل، بل المقصود بكل وضوح وحسم أن من المديح ما يصدر من قلب مخلص، وهذا هو المديح الحق، ومنه ما يخرج من قلب كاذب منافق، وهذا هو المديح الباطل، وليس كما فهم الغذامى. وقد قال المتنبى هذه العبارة فى قصيدة له يمدح بها سيف الدولة ويعاتبه فى ذات الوقت، ولا يعقل أبدا أن يكون مراده هو ما قاله د. الغذامى، وإلا كان مكذبا لنفسه بنفسه، وهو ما لا يقدم عليه أحد عنده ذرة من عقل. كذلك يقول الغذامى إن المتنبى فى قصيدته: "وا حر قلباه" إنما يهدد سيف الدولة بأنه مغادره لأنه لا يعطيه من المال ما يساوى قدره الشِّعْرِىّ، إذ الغذامى يفسر "الغُرَّة" فى قوله عن سيف الدولة مقارنا بين عاطفته هو نحوه وعاطفة خصومه فى البلاط تجاهه:

إن كان يجمعنا حبٌّ لغُرَّته   فليت أنَّا بقدر الحُبّ نقتسمُ

بأنها "الخيل والجِمال والعبيد". وهذا تفسير خاطئ تمام الخطإ وبيِّن العُوَار على نحو شنيع، إذ ليس هذا هو معنى "الغرة" بإطلاق بل هو معنى "غرة المال أو غرة المتاع" فقط، أما غرة سيف الدولة فهى إشراق وجهه. وهذا واضح دون أى لبس، أما شرح الغذامى فهو اعتساف متعمد مع سبق الإصرار والترصد حتى يلوى اتجاه البيت إلى الناحية الزائفة التى

يريد. ولو كان المتنبى يريد هذا الذى يدعيه الغذامى لقال ما يفهم منه أن المقصود: "حب غرة ماله" لا "حب غرته" هو. كذلك لو كان هذا هو المراد لكان معنى البيت: "لو كان يجمعنى أنا وخصومى حب لأمواله فالمفروض أن يعطينى أنا أكثر منهم لأن شراهتى للمال أضخم من شراهتهم". فهل هذا كلام يقوله عاقل؟ ولا يمكن أن يكون معنى "الغرة" فى بيت الشاعر هو المال، إذ لم يكن المتنبى يشكو من قلة أعطيات سيف الدولة له بل يشكو من أن أذن الرجل شرعت تسمع لخصومه فى البلاط وتُولِيهم الاهتمام، وظهر ذلك فى معاملته له، فأنشأ قصيدته هذه لينبهه ويعاتبه ويلمح له أنه سوف يتركه إن لم يغير معاملته ويعود إلى سابق عهده معه أيام كان الأمر بينهما صفاء فى صفاء. والقصيدة كلها واضحة الاتجاه والمغزى، ولم يَدُرْ بخَلَد أحد قبل ناقدنا الهمام هذا الشرح الذى يزعمه لأنه شرح خاطئ قائم على الهوى والنزوة بغية الوصول إلى الغاية الملتوية التى يريدها صاحبه. وهذه هى معانى "الغرة" كما نص عليها مثلا د. أحمد مختار عمر فى "معجم اللغة العربية المعاصر": "غُرَّة الأسنان: بياضُها، أوّل ما يبدو منها. غُرَّة الرَّجل: ناصيتُه، وجهُه. غُرَّةُ الشَّهر: ليلة استهلال القمر فيه، أُولَى لياليه. غُرَّة الفرس: بياض في جبهته. غُرَّة القوم: سيّدهم وشريفهم. غُرَّة المتاع: خياره ورأسُه. غُرَّة الهلال: طلعته".

بل إن د. الغذامى ليؤكد أن قول المتنبى للزعيم الحَمْدانى فى ميميته الشهيرة التى ألقاها فى حشد البلاط يعاتبه فيها ويعلن له غير موارِبٍ أو مُوَرٍّ أنه سوف يغادره إن لم يعد إلى معاملته الأولى له فلا يلقى أذنه إلى كلام الحاسدين من حوله:

مالي أُكَتِّمُ حُبّاً قَد بَرى جَسَدي ... وَتَدَّعي حُبَّ سَيفِ الدَولَةِ الأُمَمُ؟

أُعيذُها نَظَراتٍ مِنكَ صادِقَةً ... أَن تَحسَبَ الشَحمَ فيمَن شَحمُهُ وَرَمُ

وَما انتِفاعُ أَخي الدُنيا بِناظِرِهِ ... إِذا استَوَت عِندَهُ الأَنوارُ وَالظُلَمُ

ما كانَ أَخلَقَنا مِنكُم بِتَكرِمَةٍ ... لَو أَنَّ أَمرَكُمُو مِن أَمرِنا أَمَمُ

كَم تَطلُبونَ لَنا عَيباً فَيُعجِزُكُم ... وَيَكرَهُ اللهُ ما تَأتونَ وَالكَرَمُ

شَرُّ البِلادِ مَكانٌ لا صَديقَ بِهِ ... وَشَرُّ ما يَكسِبُ الإِنسانُ ما يَصِمُ

وَشَرُّ ما قَنَصَتْهُ راحَتي قَنَصٌ ... شُهبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ وَالرَخَمُ

هو هجاء مبطن لذلك الزعيم وازدراء له، إذ يقول له إنك لست موطن محبة صادقة، ومحبة الأمم له مجرد ادعاء مزيف، وأنه مصاب بعمى الألوان إذ لا يميز بين الشحم والورم، وتتساوى عنده الأنوار والظلم بما يعنى أنه لا ينتفع بعينيه ولا بعقله، أى أنه لا يميز ولا يستطيع الحكم السليم، وأنه يبيت نية سوء له إذ هو مهموم بالبحث عن أى عيب للشاعر مما لا يقبله الله ولا الخلق الكريم، وهو ما يعنى أن الممدوح ناقص المروءة والحس الخلقى والدينى، ومن ثم فإن بلد الممدوح هى شر البلاد، وعطاياه شر العطايا ووصمة عار. وهذا كله خبط عشواء. ولو كان هذا هو الفهم السليم للشعر لقلنا: على الدنيا وعلى النقد العفاء. وعجيب والله أن يكون هذا هو مبلغ فهم رجل يقدم نفسه للناس على أنه صاحب مشاريع نقدية ثقافية مع أنه مجرد ناقل لما يقوله النقاد الغربيون. ويا ليته ناقد واع فاهم، بل ناقد يلبِّس الأمور تلبيسا، مع قصور الفهم قصورا بينا لا ريب فيه.

إن المتنبى يعاتب سيف الدولة، وفى عقر داره وبين رجال بلاطه. وهذه شجاعة وثقة بالنفس تحسب له وتحله بين الشعراء من هذه الناحية فى أعلى مكان ومكانة بغض النظر عن رأينا فى شعر المديح بعامة. والعتاب شىء، والهجاء شىء آخر، ولكنْ كله عند الغذامى صابون. والشاعر يعلنها من أول النص واضحة مجلجلة أنه يحب سيف الدولة حبا قد أضر به وبرى جسده. هذه واحدة. أما ما أراد الغذامى أن يوهم قراءه بأنه هجاء فهو على العكس من ذلك، إذ يعلن الشاعر أنه لا يتوقع انخداع سيف الدولة بما يخترصه المخترصون فى حقه. وهل إذا قال معاتب لصديق له: "إن الله والخلق الكريم يكرهان ما تصنعه معى" يكون هذا شتما له؟ لا بل هو عتاب يعمل به على إيقاظ محبته القديمة له واستحثاث له على العودة إلى الوضع الأول حين كان يقربه إليه ويثق به ويبادله حبا بحب وإعجابا بإعجاب. وعلى كل حال فكل ما قاله المتنبى فى هذه القصيدة يدل على شجاعته واعتداده بنفسه، فلم يخفْ أن يؤذيه سيف الدولة أو يسلط عليه من يقتله فى السر. لكن د. الغذامى يدشن لنا فى تعليقه على تلك الأبيات طريقة فى فهم الشعر وتذوقه لا يمكن أن يقبلها أى ناقد فيه شىء من الحصافة والإخلاص النقدى. هذا كلام لا قيمة له فى دنيا الشعر ونقده.

ثم ما الذى يعاب فى قول المتنبى فى القصيدة ذاتها:

أَنا الَّـذي نَظَـرَ الأَعمـى إِلى أَدَبي ... وَأَسمَعَت كَلِماتي مَن بِهِ صَمَمُ

فَالخَيلُ وَاللَيلُ وَالبَيداءُ تَعرِفُني ... وَالسيفُ وَالرمحُ وَالقِرطاسُ وَالقَلَمُ

ما أَبعَدَ العَيبَ وَالنُّقصانَ عَن شَرَفي ... أَنا الثُّرَيّا، وَذانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ؟

إن ثم عيوبا تستحيل فى أشخاص آخرين حسنات. وكان زكى مبارك كثير العُجْب والإدلال بما يكتب. ومثله، ولكن ليس بهذا الوضوح، العقاد وطه حسين. ونحن نقبل هذا من أمثالهم ولا نقبله من كل من هب ودب. ويزيد الأمر حسنا فى حالة المتنبى أنه واجه بهذا الكلام ممدوحه وخصومه فى بلاطه هو نفسه، ولم يفكر فى العواقب. إنها لشجاعة أدبية بلغت مرتقى صعبا شديد الصعوبة. ومثل تلك الشجاعة لا يصح أن يعيبها عائب، إذ يأبى الله ذلك وكرم النفس والحساسية النقدية. وقبله كان أبو تمام يمدح ويأخذ الهبات، لكنه فى ذات الوقت كان معجبا بعدد من ممدوحيه لما أنجزوه من فعال عظيمة لمصلحة الأمة والإسلام. ولا أظن أحدا عنده شيء من الضمير الخلقى والأدبى يمكنه أن يمارى فى أن قصيدته فى فتح عمورية قد تحقق فيها هذا الذى أقول على أحسن وضع أو يمكن أن يمارى فى أن مرثيته فى ابن حُمَيْد الطُّوسِىّ قد بلغت الذروة التى ليس بعدها ذروة أخرى فنا أو مضمونا أو حرارة والتهابا. ولم تكن له مصلحة مادية فى هذا الرثاء بل وضع فيه عصارة قلبه وإخلاصه وإعجابه وحبه لذلك البطل الصنديد وإجلاله لبطولته الفريدة. وهى قصيدة باقية على الدهر ما دامت السماوات والأرض. ولنستمع منها إلى هذه الأبيات:

فَتىً كُلَّما فاضَت عُيونُ قَبيلَةٍ ... دَماً ضَحِكَت عَنهُ الأَحاديثُ وَالذِّكرُ

فَتىً ماتَ بَينَ الضَّربِ وَالطَّعنِ ميتَةً ... تَقومُ مَقامَ النَّصرِ إِذ فاتَهُ النَّصرُ

وَما ماتَ حَتّى ماتَ مَضرِبُ سَيفِهِ ... مِنَ الضَربِ وَاعتَلَّت عَلَيهِ القَنا السُّمرُ

وَقَد كانَ فَوْتُ المَوتِ سَهلاً، فَرَدَّهُ ... إِلَيهِ الحِفاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعرُ

وَنَفسٌ تَعافُ العارَ حَتّى كَأَنَّهُ ... هُوَ الكُفرُ يَومَ الرَّوعِ أَو دونَهُ الكُفرُ

فَأَثبَتَ في مُستَنقَعِ المَوتِ رِجلَهُ ... وَقالَ لَها: مِن تَحتِ أَخمَصِكِ الحَشْرُ

غَدا غَدوَةً وَالحَمدُ نَسْجُ رِدائِهِ ... فَلَم يَنصَرِف إِلّا وَأَكفانُهُ الأَجْرُ

تَـرَدَّى ثِيـابَ المَـوتِ حُمـراً، فَمـا أَتـى ... لَهـا الليـلُ إِلّا وَهْـيَ مِـن سُـندُسٍ خُـضرُ
كَـــأَنَّ بَـــني نَبْهـــانَ يَـــومَ وَفاتِـــهِ ... نُجُــومُ سَمــاءٍ خَــرَّ مِــن بَينِهــا البَــدرُ
يُعَــزَّوْنَ عَــن ثاوٍ تُعَــزَّى بِــهِ العُــلَا ... وَيَبكـي عَلَيـهِ الجـودُ وَالبَـأسُ وَالـشِّعرُ
مَـضى طـاهِرَ الأَثـوابِ لَم تَبـقَ رَوضَـةٌ ... غَــداةَ ثَــوَى إِلّا اشــتَهَت أَنَّهــا قَــبرُ

ورغم ذلك يأنس د. الغذامى الجرأة لرمى أبى تمام بكل فادح من العيوب غير مبق فيه أو فى شعره شيئا يستأهل الثناء. صحيح أن فى بعض شعره بعض التعقيد، لكنه شاعر كبير بغض النظر عن أن معظم شعره فى المديح. بيد أنه ليس كأى مديح، بل فيه فن وبراعة سامقان. سيقول من لا قدرة لهم على التذوق: لكنه يجرى وراء الفلوس، ويكذب فى مدائحه. ولا جدال فى أنه يجرى وراء الفلوس، ولكن شتان بين جارٍ وجارٍ. كما أن كثيرا من مدائحه خرجت من قلبه عن حب وإعجاب حقيقى. ثم إننا لاينبغى أن يأطرنا النفور من شخص على العمى عن حسناته.

وما دمنا قد تطرقنا إلى مرثية أبى تمام فى ابن حميد الطوسى ورأينا فيها برهانا ساطعا على حب الشاعر لذلك البطل فينبغى أن نشير هنا إلى مرثية المتنبى لأخت سيف الدولة، وكان قد تركه قبل ذلك بأعوام، ولم يلتقيا خلالها. ومع هذا فحين علم الشاعر بموت خَوْلة الحَمْدانية لم يتمالك نفسه من إبداع هذه الدرة الفريدة فى عالم الرثاء، الذى زعم الغذامى أنه لا قيمة له عند المداحين لأنه لا يجلب لناظمه مالا. وهذه هى المرثية العجيبة الفاخرة الشاهقة التى قلما تدانيها مرثية:

يا أُخـتَ خَـيرِ أَخٍ، يا بِنـتَ خَـيرِ أَبٍ ... كِنايَــةً بِهِمــا عَــن أَشــرَفِ النَّــسَبِ
أُجِـــلُّ قَـــدرَكِ أَن تُـــسْمَىْ: مُؤَبَّنَـــةً ... وَمَــن يَــصِفْكِ فَقَــد سَمّــاكِ لِلعَــرَبِ
لا يَملِــكُ الطَــرِبُ المَحــزونُ مَنطِقَــهُ ... وَدَمعَــهُ، وَهُمــا في قَبــضَةِ الطَّــرَبِ
غَدَرتَ يا مَوتُ! كَم أَفنَيتَ مِن عَدَدٍ ... بِمَـن أَصَبتَ وَكَـم أَسْـكَتَّ مِـن لَجَـبِ
وَكَـــم صَـــحِبْتَ أَخاهـــا في مُنازَلَـــةٍ ... وَكَـم سَـأَلتَ، فَلَـم يَبخَـل وَلَمْ تَخِـبِ
طَــوى الجَزيــرَةَ حَــتّى جــاءَني خَبَــرٌ ... فَزِعــتُ فيـــهِ بِآمـــالي إِلى الكَـــذِبِ

حَــتّى إذا لَمْ يَــدَع لي صِــدقُهُ أَمَــلاً … شَـرِقتُ بِالـدَّمْعِ حَـتّى كـادَ يَـشْرَقُ بي
تَعَثَّــرَت بِــهِ في الأَفْــواهِ أَلْــسُنُها … وَالبُـرْدُ في الطُرقِ، وَالأَقلامُ في الكُتُبِ
أَرى العِـراقَ طَويـلَ اللَيـلِ مُـذْ نُعِيَـتْ … فَكَيـفَ لَيـلُ فَـتى الفِتيـانِ في حَلَـبِ؟
يَظُــنُّ أَنَّ فُــؤادي غــير مُلتَهِــبٍ … وَأَنَّ دَمــعَ جُفــوني غــيرُ مُنــسَكِبِ
بَلَــى وَحُرمَــةِ مَــن كانَــت مُراعِيَــةً … لِحُرمَــةِ المجــدِ وَالقُــصّادِ وَالأَدَبِ
وَمَــنْ مَـضَت غَـيرَ مَـوروثٍ خَلائِقُهـا … وَإِن مَـضَت يَـدُها مَوروثَـةَ النَّـشَبِ
وَهَمُّهــا في العُــلا وَالمَجــدِ ناشِــئَةً … وَهَــمُّ أَترابِهــا في اللَّهــوِ وَاللَّعِــبِ
وَإِن تَكُـن خُلِقَـتْ أُنثـى لَقَـد خُلِقَـت … كَريمَـةً غَـيرَ أُنثـى العَقـلِ وَالحَـسَبِ
وَإِن تَكُــن تَغلِــبُ الغَلبــاءُ عُنــصُرَها … فَـإِنَّ في الخَمْـرِ مَعْـنًى لَـيسَ في العِنَـبِ
فَلَيــتَ طالِعَــةَ الشَّمْــسَيْنِ غائِبَــةٌ … وَلَيــتَ غائِبَــةَ الشَّمْــسَينِ لَم تَغِــبِ
وَلَيــتَ عَــينَ الــتي آبَ النَهــارُ بِهــا … فِــداءُ عَــيْنِ الَّــتي زالَــت وَلَم تَــؤُبِ
فَمــا تَقَلَّــدَ بِاليــاقوتِ مُــشْبِهُها … وَلا تَقَلَّـــدَ بِالهِندِيَّـــةِ القُـــضُبِ
وَلا ذَكَــرْتُ جَمــيلاً مِــن صَــنائِعِها … إِلّا بَكَيْـــتُ، وَلا وُدٌّ بِـــلا سَـــبَبِ
جَــزاكَ رَبُّــكَ بِالأَحــزانِ مَغفِــرَةً … فَحُـزنُ كُـلِّ أَخـي حُـزنٍ أَخـو الغَـضَبِ
وَأَنتُمُــو نَفَــرٌ تَــسخو نُفوسُــكُمُو … بِمــا يَهَــبْنَ وَلا يَــسْخُونَ بِالــسَّلَبِ
حَلَلتُمُـو مِـن مُلـوكِ النـاسِ كُلِّهِمـو … مَحَـلَّ سُمْـرِ القَنـا مِـن سـائِرِ القَـصَبِ
فَــلا تَنَلْــكَ اللَيــالي. إِنَّ أَيــدِيَها … إِذا ضَــرَبْنَ كَــسَرْنَ النَّبْــعَ بِالغَــرَبِ
وَلا يُعِــنَّ عَــدُوّاً أَنــتَ قــاهِرُهُ … فَــإِنَّهُنَّ يَــصِدْنَ الــصَّقرَ بِالخَــرَبِ
وَإِن سَــرَرنَ بِمَحبــوبٍ فَجَعــنَ بِــهِ … وَقَــد أَتَينَــكَ في الحــالَينِ بِالعَجَــبِ
وَرُبَّمــا احتَــسَبَ الإِنــسانُ غايَتَهــا … وَفاجَأَتــهُ بِأَمــرٍ غَــيرِ مُحتَــسَبِ
وَمــا قَــضى أَحَــدٌ مِنهــا لُبانَتَــهُ … وَلا انتَهـــى أَرَبٌ إِلّا إِلى أَرَبِ
تَخـالَفَ النـاسُ حَـتّى لا اتِّفـاقَ لَهُـم … إِلّا عَلى شَجَبٍ، وَالخُلفُ في الشَّجَبِ
فَقيــلَ: تَخلُـصُ نَفـسُ المَـرءِ سـالِمَةً … وَقيـلَ: تَـشْرَكُ جِسمَ المَرءِ في العَطَبِ

وَمَــن تَفَكَّــرَ في الــدُّنيا وَمُهجَتِــهِ أَقامَــهُ الفِكــرُ بَــينَ العَجــزِ وَالتَّعَــبِ

الله! الله! هذا ليس شعرا بل سحرا وفتونا مذهلا. ولقد بلغ من افتتان الناس بهذه القصيدة ما يقوله الخبر التالى، وهو من كتاب "الصبح المنبى عن حيثية المتنبى" ليوسف البديعى: "قيل إن الصاحب بن عباد طمع في زيارة المتنبي إياه بأصفهان وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان، وهو إذ ذاك شاب، والحال حُوَيْلة، والبحر دُجَيْلة، ولم يكن استوزر بعد، فكتب يلاطفه في استدعائه، ويضمن له مشاطرته جميع ماله، فلم يقم له المتنبي وزناً، ولم يجبه عن كتابه، وقيل إن المتنبي قال لأصحابه: إن غُلَيِّمًا معطاءً بالري يريد أن أزوره وأمدحه، ولا سبيل إلى ذلك. فصيره الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة، يتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته، وهو أعرف الناس بحسناته وأحفظهم وأكثرهم استعمالا لها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته. وكان أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد يسمع بأخبار أبي الطيب، وكيف اشتهاره في الأقطار، وترفعه عن مدح الوزراء. وسمع أنه خرج من مدينة السلام متوجهاً إلى بلاد فارس وكان يخاف ألا يمدحه، ويعامله معاملة المهلبي، فيتكره من ذكره، ويعرض عن سماع شعره. قال الربعي: قال لي بعض أصحاب ابن العميد: دخلت عليه يوماً قبل دخول المتنبي فوجدته واجماً، وكانت قد ماتت أخته عن قريب، فظننته واجداً لأجلها، فقلت: لا يحزن الله الوزير. فما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي، واجتهادي في أن أخمد ذكره، وقد ورد عليَّ نَيِّفٌ وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا وقد صُدِّرَ بقوله:

طــوى الجزيــرةَ حــتى جــاءني خــبرٌ فَزِعــتُ فيــه بآمــالي إلى الكــذبِ

حــتى إذا لم يــدعْ لي صِــدْقُه أمــلاً شَـرِقْتُ بالـدمع حتى كـادَ يَـشْرَقُ بي

فكيف السبيلُ إلى إخماد ذكره؟ فقلت: القَدَر لا يغالَب، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر، واشتهار الاسم. فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر". وأرجو هنا أن نتنبه إلى تأبى المتنبى عن مديح الصاحب رغم ما عرض عليه من مشاطرته أمواله، وهو ما يدل على أن الأمر فى المديح ليس هو المال دائما أو أنه لا يقوم إلا على النفاق. وبالمناسبة فقد كنت أرجو أن ينتفع د. الغذامى بما قاله صاحب ابن العميد حين ظن أنه يستطيع إخماد ذكر المتنبى من أن "القدر لا يغالب".

وأخيرا وليس آخرا ماذا فى "الفحولة" و"الفحول" من عيب؟ إن الفحل هو الذكر، وبالذات الذكر القوى الذى يغلب الذكور الآخرين. وفى عالم الحيوان بوجه خاص يراد به الذكر الذى يطرق الإناث. وما من مخلوق حى فى الكون إلا وينقسم إلى ذكر (أى فحل) وأنثى. سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فما المشكلة فى ذلك؟ بل إن هذا ليصدق على النباتات؟ فهل يريد د. الغذامى منا أن نتنكر لقوانين الكون والنظام الذى خلق الله كونه وأرساه على أساسه ونذهب فنعترض على الفحولة والفحول؟ وإذا اختفت الفحول من الحياة فيا ترى كيف تستمر الحياة وتبقى؟ إن اختفاء الفحل معناه انتهاء الحياة لأن الأنثى وحدها لا تستطيع أن تنتج حياة.

وهنا يدعى الغذامى أن الشعراء كانوا يروِّجون أن من لا يعطيهم ما يطلبون فيا ويله ويا سواد ليله، إذ إن "عداوة الشعراء بئس المقتنَى" كما قال أحدهم، وأن هذا راجع إلى اعتقاد الشعراء من قبل أن هجاءهم لأى شخص سوف يعود عليه باللعنات. وكلامهم هذا، إن صح أنهم قالوا ذلك، مرسل بلا قيمة لأنه مجرد تهديد لا حقيقة له، وإلا فقد كان الشعراء يتهاجَوْن أمام الناس جميعا، وكان ينبغى أن يبصر الناس بأنفسهم إذن أن هذا الكلام ليس إلا زعما سخيفا، وبخاصة أن الهجاء عادة يخلو من اللعنات ويفيض على العكس من ذلك بالبذاءات والفحش وقلة الأدب وتحقير المهجو وقومه. أما خوف كبار القوم من الهجاء فبسبب الفضائح التى تلاحق المهجوّ والبذاءات التى يلجأ إليها الشاعر الهاجى، إذ الشعر من طبيعته الانتشار على ألسنة الكثيرين، ومن شأن هذا أن يجعل أعراضهم وشرفهم مضغة فى الأفواه. وأما زعم الغذامى أن الشعراء قد اختلقوا حكاية وادى عبقر كى يربطوا بين شعرهم وبين الجن فيضفوا على أنفسهم وعلى ما ينظمون رهبة تخلع القلوب فليس بشىء، فقد كان القدماء يؤمنون بهذا فعلا، بل إن الإغريق كانوا يقولون بأن الشعراء يستوحون آلهة الأولمب ذاتها وليس الجن، وشتان بين الجن والآلهة. وكثير جدا من العرب حتى الآن يؤمنون بظهور الجن والعفاريت. ومن ثم فليس هناك أصل سحرى للهجاء مثلما يردد الغذامى خلف بعض المستشرقين مثل بروكلمان وغيره كعادته دائما.

وبعد أن صَدَّع الغذامى أدمغتنا بثرثرته عن "الفحولة والفحل ونسق الفحل" انتقل إلى الناحية الأخرى: "الصمت والمعارضة ونسق المعارضة"، فتعالوا حتى نرى ماعند الرجل من كلام فى هذا الموضوع، وهل يمكن أن يخرج على شِنْشِنَتِهِ وقدراته المحدودة فى التفكير والتحليل والتذوق والتعبير أم هل سيكرر نفس السمات ولا يأتى بجديد؟ فتحت عنوان "متى اكتشف الإنسان الصمت؟" يقول: "فى الأصل كان الكلام، والكلام للإنسان ليس تعبيرا نفعيا وجماليا فحسب، بل إنه أيضا ضرورة فطرية، به تتحقق إنسانية الإنسان. وكان التعريف الفلسفى القديم أن الإنسان حيوان ناطق، حسب أرسطو، ينص على الفارق الجوهرى بين درجة الحيوانية البحتة وبين أن يصبح الحيوان إنسانا. والكلام ليس مخترعا ثقافيا، وإنما الصمت هو المخترع الثقافى. فالكلام صفة جوهرية غريزية فى الإنسان، وعجزه عن الكلام علة تطرأ عليه: إما لأسباب مرضية أو لأسباب قمعية سلطوية أو ثقافية".

والواقع أن كلا من الكلام والصمت صفة جوهرية غريزية فى الإنسان، إذ لا يعقل أن يكون الله قد خلق الإنسان لكى يتكلم طول الوقت ولا يسكت إلا إذا مرض أو قمعه قامع. والواقع أيضا أن للصمت أسبابا كثيرة تتجاوز هذين السببين: فإن الإنسان يصمت قبل أن يتكلم، إذ لا بد أن يسبق الكلام تفكير فيما نحن مقبلون على الكلام بشأنه، وهذا التفكير يستلزم الصمت. كما أن من يشترك فى حوار ما، والحوار كلام، لا بد له أن يصمت حين يأتى دور محاوره فى الكلام. أليس كذلك؟ وقد يكون عند الإنسان ملل من الكلام، وقد يكون عنده يأس من أن يأتى كلامه بثمرة فيفضل الصمت والسكوت، وقد يصمت كبرا عن أن يرد على من يوجه إليه الحديث، وقد يصمت لأنه ليس عنده ما يقوله، وقد يصمت خجلا من الكلام فى المجتمعات، وقد يصمت لأنه مفكر يحب التركيز على ما يدور فى ذهنه من معان حتى يراجعها وينقيها من الشوائب وينضجها فى سكون وسكينة، وقد يصمت لأسباب أخرى كما هو الحال عندما يتنزه الإنسان وحيدا بين مجالى الطبيعة متأملا روعتها وجلالها وجمالها، وكما هو الحال حين ينفرد بنفسه ولا يكون معه من يبادله الحديث، وكما هو الحال حين يستمع إلى أغنية يحبها وتبهجه، وكما هو الحال حين يكون فى محاضرة أو ندوة أو فى المسجد ينصت إلى خطبة الجمعة أو العيدين، وكما هو الحال حين يستمع إلى القرآن، وكما هو الحال

حين يكون عاكفا على تأليف كتاب أو إجراء تجربة علمية أو تصحيح امتحان أو مراجعة تقارير أو قراءة دعوى مثلا أو كتابة حكم فى قضية من القضايا، وكما هو الحال حين يكون نائما، وكما هو الحال حين يقضى حاجته، وكما هو الحال حين يكون ممن يفضلون اللواذ بالعزلة على مخالطة الناس، وكما هو الحال عندما يكون مختبئا من عدو يريد به شرا، ولو تكلم لعرف أين يختبئ ووصلت يده إليه بالأذى. ومن كلام الحكماء: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. بل إن الشرطة فى البلاد الديمقراطية حين تقبض على متهم فأول ما تنصحه به ألا يتكلم إلا فى حضور محاميه حتى لا يضر نفسه من حيث يظن أنه ينفعها. وقال رسول الله ﷺ: "يا أبا ذرٍّ، ألا أدلُّكَ على خصلتينِ هما خفيفتانِ على الظَّهرِ وأثقلُ في الميزانِ من غيرِهما؟ قال: بلى يا رسولَ اللَّهِ. قال: عليكَ بحسنِ الخُلُقِ وطولِ الصَّمتِ، فوالَّذي نفسي بيدِه ما عملَ الخلائقُ بمثلِهما"، وقال أيضا له: "عليك بطُولِ الصَّمتِ، فإنَّه مطرَدةٌ للشَّيطانِ، وعونٌ لك على أمرِ دِينِك".

ولو تفكرنا فى الأمر إذن لوجدنا أن الصمت يشغل حيزا من الوقت أكبر كثيرا جدا جدا من الكلام. إلا أن د. الغذامى يظن أن وظيفة الإنسان أن يظل يثرثر طول الليل والنهار لا يتوقف ولا يستريح ولا يريح، وكأنه آلة لا تكف عن الدوران دون كلل أو ملل مثل أم على الرغاية التى كان يقلدها الممثل الفكاهى أحمد الحداد فى "ساعة لقلبك"، اللهم إلا إذا أخرسه مُخْرِسٌ جبرا وكرها. إن الغذامى للأسف لا يستطيع أن يرى فى الصمت أية فائدة. وهو ما يؤكد ما قلته من أنه يتصور أن الإنسان قد خُلِق ثرثارا، فهو لا يمكنه أن يصمت من تلقاء نفسه. وقد قلت آنفا، من واقع استقراء دواعى الصمت وأوقاته، أن الصمت يشغل من وقت الإنسان أكثر جدا جدا من الكلام. وبالمناسبة فأنا الآن أكتب هذا الكلام الذى يطالعه القراء الكرام منذ عدة ساعات كنت خلالها صامتا صمتا مطلقا اللهم إلا حين كنت أقوم لأصلى أو آكل، بينما زوجتى نائمة فى فراشها وصامتة بطبيعة الحال طوال هذا الوقت أيضا لأن النوام لا يتكلمون. ولم يجبرنا أحد على الصمت، بل إن ظروفنا هى التى استلزمت ذلك.

ثم ينتقل د. الغذامى إلى نادرة أخرى من نوادره فيقرر أن "الشعر فى طبيعته كشف وبوح، ولكن الحَكْى تقنُّعٌ وتَسَتُّرٌ، ولذا فإن ما لا يمكن قوله فى العلن هو ما تتولى الحكاية

التعامل معه، ومن ثم فإن الحكايات مخزن نسقى مهم، نجد فيها المضمر والمجاز الكلى لا الفردى، ونجد فيها الخلاصة الثقافية بما فى الثقافة من هواجس وما فيها من رغبات مقموعة. ومن هنا فإننا سنستعين بالحكايات للتعرف على جواب عن سؤالنا حول إصرار الثقافة على ترويج مخترعها العجيب: الصمت". ثم ينطلق فيورد بعض الحكايات المتعلقة بهذا الموضوع. ووجه العجب فى هذا الكلام هو ما يدعيه من أن الشعر كشف وبوح، بينما الحكاية استتار واختباء. ترى هل حين ينظم الشاعر قصيدة يمسك بوقا ويصيح: يا خلق هوه، لقد نظمت قصيدة، فتعالوا واسمعوا، وإلا متُّ غما وكمدا، فأنا شاعر، والشعر إعلان وبوح، ولا يمكننى من ثم الصمت والهدوء؟ فماذا نصنع مع الشعراء الذين كان الواحد منهم يقضى حولا كريتا، أى كاملا، فى معاودة النظر فى قصيدته وتنقيحها وصنفرتها؟ كيف يا ترى استطاع كل منهم الصمت حولا كريتا مع أن الشعر بطبيعته، طبقا لفرمان د.الغذامى، بوح وإعلان لا صمت لعام كامل؟ وهل بالمقابل حين يؤلف أحدهم حكاية يحضر زجاجة ضيقة العنق وقطر فتحتها نصف سنتيمتر، ويضعها على فمه ويوشوش فيها لغير أحد؟ ترى أين الأنساق الثقافية التى يعج بها الشعر وأزعجنا ناقدنا على مدار مائتى صفحة حتى الآن بالحديث عنها؟ أتراها قررت بغتة الانتقال من الشعر إلى النثر؟ ولكن ما السبب؟ هل هو الملل من جانبها؟ أم هل هو ضيق صدر الشعر بها لأنها رزحت على قلبه مائتى صفحة، وكان ينبغى أن تتبع المثل القائل: يا بخت من زار وخفف؟ والطريف أنه يقول فى نفس الوقت إن الصحيفة النسقية فى الثقافة العربية تجمع بين الشعر والحكى كما فى كتاب "الأغانى". إذن فليس الشعر والحكى بمنفصل أى منهما عن الآخر على عكس ما يروج د. الغذامى، بل هما شىء واحد يتمازجان ويتعاونان. ومعنى هذا أن أفكار الغذامى تفتقر إلى الإحكام والاتساق. ليس هذا فحسب، بل إننا نعرف أن هناك كتبا حكائية لا تحتوى على شىء من الشعر، ودواوين شعرية تخلو تماما من أية حكاية. فما قول صاحبنا الهمام فى هذا؟ وأيا ما يكن الحال فهل ثقافتنا العربية تنفرد بأى شىء من هذا؟ أبدا والله ففى كل الثقافات واللغات يوجد ذا وهذا وذاك وهذاك وذلك وهَذَالِكَ. كذلك ليست الحكايات وحدها هى التى تتحدث عن الصمت وحسنه، بل يصدق

هذا على الشعر أيما صدق كما هو معروف. كما أن ثقافتنا لم تحسِّن الصمت فى كل الأحوال بل فى مواقف بعينها فقط.

ففى القرآن والحديث نجد من صفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومعنى هذا أن الكلام واجب فى هذه المواضع، وما أكثرها! والمسلم يصلى، وفى كل حركة من صلاته يقول شيئا: تكبيرا أو قرآنا أو تسبيحا أو حمدا أو دعاء. وبعد الصلاة يسبح ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين. ودعاء المسلمين إلى الصلاة يتم عن طريق الأذان، والأذان كلام. والمسلم، حين يسمع كلمات الأذان، يرددها خلف المنادى. وهذا كلام. وشعائر الحج تستلزم الكلام فى مواطن كثيرة منه. وفى الصيام يدعو المسلم ربه عند الفَطُور وعند السَّحُور ويحمده لدن الانتهاء من الطعام. والكلمة الطيبة صدقة. وإذا عطس العاطس شمَّته الحاضرون، والتشميت كلام. ولدن دخول المسلم الحمام وخروجه منه يدعو ربه. وعندما يرزق رزقا أو ينجو من خطر يشكر الله. وعندما ينام يدعو، وكذلك عندما يستيقظ. وحينما يسمع اسم النبى يصلى عليه ويسلم. ويوم الجمعة يخطب الخطيب، والخطبة كلام. ومثلها خطبة النكاح وغيرها من الخطب. والمسلم مطالب بإفشاء السلام بينه وبين الناس وإلقائه على من يعرف ومن لا يعرف. وهذا كلام. وكان النبى يشاور أصحابه ويستمع إلى ما يقولون ويأخذ بما يراه من كلامهم نافعا وحسنا، ولا يكبتهم أو يعنفهم أو يعاتبهم على الكلام. وأوجب ﷺ على المسلم أن يقول الحق متى علمه وألا يحقر نفسه عن ذلك. وحذره كتمان الشهادة أو اللياذ بالصمت إذا رأى ظلما يرتكب فى حضوره. والقرآن الكريم يفيض بالآيات التى تأمر النبى عليه السلام بأن يقول كذا وكذا. فهى إذن أمر بالكلام لا بالصمت، والمسلم يتخذ من رسوله أسوة حسنة فيصنع كما كان يصنع. ومن كتم شيئا من العلم ألجم يوم القيامة بلجام من نار. وقراءة القرآن، وهى كلام، أجرها فى الإسلام كبير. والمسلم يفتتح أى شىء يعمله بالتسمية، ويختمه بحمد الله. وهذا كلام. وعندما كان يفد وفد على النبى عليه السلام كان يدور الكلام بين أعضاء الوفد وبين المسلمين: كلاما عاديا أحيانا، وخطبا وشعرا أحيانا. أم تراهم كانوا يجلسون متقابلين ينظر كل منهم فى عين الآخر ثم لا يقول شيئا، وفى آخر النهار يقومون جميعا ليناموا دون أن يسلم بعضهم على بعض أو يسأل بعضهم عن أحوال بعض؟ وفى المعاهدات كانوا

يتكلمون، وفى الخصومات والمعارك كانوا يتكلمون. وفى النزاعات كانوا يتقارضون الهجاء، والهجاء كلام. وكان النبى عليه الصلاة والسلام دائم الدعوة لدين الله، والدعوة إلى الله تستلزم الكلام والشرح والتوجيه والهداية. والمسلم مأمور بذلك أيضا متى كان أهلا له وقادرا عليه. والإنسان الصامت يصعب الحكم عليه وعلى عقله، أما إذا تكلم صار ذلك أمرا سهلا ميسورا. وعلى الإنسان إذا كان متهما بظلم أن يدفع التهمة عن نفسه وألا يستسلم لها.

وقال على بن أبي طالب: تكلموا تُعْرَفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه. وقال شمس الدين السفاريني: المعتمد أنَّ الكلام أفضل لأنَّه من باب التحلية، والسكوت من التخلية، والتحلية أفضل، ولأنَّ المتكلم حصل له ما حصل للساكت وزيادةٌ. وذلك أنَّ غاية ما يحصل للساكت السلامة، وهي حاصلةٌ لمن يتكلم بالخير مع ثواب الخير. وقال ابن تيمية: التكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها. كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ رأى رجلًا قائما في الشمس، فقال: ما هذا؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ: مروه فليجلس وليستظل وليتكلم، وليتم صومه. وتذاكروا عند الأحنف بن قيس: أيهما أفضل: الصمت أو النطق؟ فقال قوم: الصمت أفضل. فقال الأحنف: النطق أفضل لأنَّ فضل الصمت لا يعدو صاحبه، والمنطق الحسن ينتفع به من سمعه. وقال رجل من العلماء عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله: الصامت على علم كالمتكلم على علم. فقال عمر: إني لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلهما يوم القيامة حالًا. وذلك أن منفعته للناس، وهذا صمته لنفسه. وقال ابن عبد البر: الكلام بالخير من ذكر الله وتلاوة القرآن وأعمال البر أفضل من الصمت، وكذلك القول بالحق كله، والإصلاح بين الناس وما كان مثله. وقال أيضًا: مما يبين لك أنَّ الكلام بالخير والذكر أفضل من الصمت أن فضائل الذكر الثابتة في الأحاديث عن النبي ﷺ لا يستحقها الصامت. وقال النيسابوري: الإنصاف أن الصمت في نفسه ليس بفضيلة لأنَّه أمر عدمي، والنطق في نفسه فضيلة. وإنما يصير رذيلة لأسباب عرضية مما عددها ذلك القائل، فيرجع الحق إلى ما قاله النبي ﷺ: رحم الله امرأً قال

خيرًا فغنم، أو سكت فسلم. وقال علي بن أبي طالب: لا خير في الصمت عن العلم، كما لا خير في الكلام عن الجهل.

هذه مجرد أمثلة جد قليلة على أفضلية الكلام وإن كنا قد رأينا من قبل أن الحياة معظمها صمت، لكن هذا موضوع آخر. أما ما قاله الغذامى فالرد عليه جد ميسور، وهو: وكيف عرفت إشادة من أشادوا بالصمت إلا من خلال الكلام: شفويا كان أو مكتوبا؟ ثم ألا يعرف أن هذه الكتب كلها التى تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية هى كلام فى كلام؟ ولو صمت أصحابها من كبار الكتاب والأدباء والنقاد والفلاسفة والعلماء والشعراء وصغارهم لما كان هناك علم ولا فن ولا أدب ولا شعر ولارتد الناس إلى بدائيتهم الأولى يوم كانوا أقرب إلى الحيوانات العجماوات من بنى الإنسان. لكن الغرض مرض كما يقولون بحق وإخلاص. فكونهم قد كتبوا وحاضروا فى المساجد والمدارس والبيوت والقصور معناه بكل بساطة ووضوح أنهم قد آثروا الكلام على الصمت. أما تفضيل الصمت فلا يقصد به الصمت المطلق بل الصمت حين يكون الكلام مسيئا على أى نحو من الأنحاء، وهو الصمت فى المجالس الخاصة وأوقات الخطر وما إلى هذا.

كذلك ليس صحيحا أن الإنسان قد أجبر على الصمت حين عرف الشعر والخطابة وظهر النسق الثقافى الخاص بالكلام والصمت كما يقول الغذامى، بل قبل ذلك بأزمان وأزمان حين تبين له أنه إن تكلم وقع له ما لا تحمد عقباه، إلى جانب الأسباب الاختيارية التى تدعوه إلى الصمت حسبما وَضَّحْتُ. وهذا، ولا شك، قد حدث قبل ظهور الشعر والخطب بأزمان. ولا اظن الإنسان كان حرا حرية مطلقة، كما يزعم الغذامى، فى يوم من الأيام. ذلك أن الإنسان كائن مخلوق، ومن ثم فهو محدود فى كل شىء يتعلق به، ومنه الكلام. وما دام هناك آخَر، ومن ثم لغة، فهناك محدودية فى الكلام وفى التصرف. فقد يقول الإنسان البدائى كلمة تغضب أحدا ممن حوله، وقد يعتدى عليه هذا الغاضب، فلا يكررها بعد ذلك فى حضوره، اللهم إلا إذا كان شجاعا وقويا يمكنه الرد والصمود وفرض كلمته فى آخر المطاف، أو عنده العزيمة الجبارة التى تعينه على تحمل الأذى حتى يقتنع الآخرون بما يقول ويشايعوه عليه. أما حسب ما يوحى به فهم الغذامى فإن الإنسان إذا ما تكلم فلا يخرج عن أن يكون شاعرا أو

خطيبا. وفى هذه الحالة إما أن يقول ما تريده الجماعة وإما أن يصمت لأن الشاعر والخطيب لا بد أن يكونا صوتا لجماعتهما. فمن قال ذلك؟ ألا يتحدث الناس فيما بينهم ليلا ونهارا فى موضوعات عادية جدا؟ بلى يفعلون ذلك على الدوام. وحتى حين يرى أحدهم ما لا يوافقه سائر الجماعة على ما يقول فإنه لا يصمت بالضرورة، بل كثيرا ما يستمر فى قول ما يريد رغم اصطدامه بموقف الجماعة الرافض أو الساخر، بل رغم معرفته بأن احتمال الضرب والأذى بل القتل وارد، وإلا فكيف تتغير المجتمعات وتتطور؟

وعلى هذا فليكن هناك فحول أو لا فليس هذا بمسكت للآخرين بالضرورة. ولقد جوبه الأنبياء والرسل والمصلحون طوال التاريخ بإنكار الجماعة كلها عليهم، بما فيها "الفحول" طبقا لمصطلح الغذامى، لكن ذلك لم يفتَّ فى عضدهم وظلوا يقولون ما تنكره الجماعة، ويكررونه ليل نهار وبأساليب شتى، إلى أن يحدثوا ثغرة فى جدار هذا الإنكار ويتبنى واحد فاثنان فثلاثة فأربعة... إلى ماشاء الله هذا الذى يقولون، وقليلا قليلا يزداد معتنقو الفكرة الجديدة، وغالبا ما تقوم صراعات ومعارك بين الطرفين، وفى معظم الأحيان تكسب الفكرة الجديدة أرضا رغم ما كان يبدو عليها وعلى معتنقيها من ضعف وهوان بل وعجز. وإذا كان د.الغذامى يعمد إلى قصص بعينها يختارها اختيارا ليدل على أن الصمت فى حضرة الفحول كان يشكل نسقا ثقافيا، ومنها أن النابغة كان يُقْوِى فى شِعْره، وأنه لما أتى المدينة لاحظ أهلها فى شعره هذا الإقواء فلم يشاؤوا أن يجبهوه به بل أحضروا مغنية وأمروها أن تغنى أمامه البيت المُقْوِى وتمدّ حرف الإقواء مدا حتى تنبه إليه وأصلح العيب. وهو يزعم أن أهل المدينة لم يجرؤوا على مواجهته بعيبه لأنه فحل، والفحول لا تخطئ، وإذا أخطأت لا ينبغى أن تواجه بالخطإ، مع أن المسألة فى رأيى لا تعدو أن تكون مجاملة من المدينيين نحوه، إذ لم يريدوا أن يحرجوه لا أنهم كانوا يخشونه لكونه فحلا من الفحول. ثم إن الرواية فى "الموشح" للمرزبانى تختلف عن هذا، إذ تذكر أن هذا الإقواء قد عيب عليه فى يثرب، لكنه لم يبال، فأحضروا قينة تغنى وتبرز العيب القافوى أثناء غنائها، فعندئذ تنبه وأصلح الإقواء. بل تزيد الرواية فتجعله يقر بهذا العيب ويثنى على أهل يثرب لأنهم ساعدوه على التخلص منه. قال: "قدمت الحجاز وفى شعرى شىء، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس". وفضلا عن ذلك كان من العلماء من ينتقد

أشياء فى شعره لا يبالون أنه من الفحول، ومنهم الأصمعى والأعمش وابن طباطبا العلوى مثلا. وكان بشر بن ابى خازم فى شعره إقواء مثل النابغة، فنبهه أخوه إلى ذلك، فتنبه ولم يعد يسقط فيه كما جاء فى "نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب" لابن سعيد المغربى، ولم يجعل من الحبة قبة، بل تقبل الأمر بصدر رحب، ولم يقل: كيف تخطئنى وأنا شاعر كبير؟ أتريد أن تكذّب د. الغذامى يا ولد؟

وها هى ذى بعض الحكايات التى تتعلق بالنابغة وتسير عكس ما أراد الغذامى: فقد جاء فى "الإشراف فى منازل الأشراف" لابن ابى الدنيا أن "النابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر:

تَـراكَ الأرضَ إمـا مُـتَ خِفًّـا وَتَحيـا مـا حييـتَ بِهـا نَبـيلا

قال النعمان: هذا بيت إن أنت لم تتبعه ما يوضح معناه فهو إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح. فأراد ذلك النابغة، فعسر عليه، فقال: أجلني. فقال: قد أجلتك ثلاثا، فإن أنت أتبعته ما يوضح معناه فلك مائة من العصافير نجائب، وإلا فضربة بالسيف أخذت منك ما أخذت. فأتى النابغة زهير بن أبي سلمى فأخبره الخبر، فقال زهير: اخرج بنا إلى البرية، فإن الشعر بريٌّ. فخرجا وتبعهما ابن لزهير يقال له: كعب فقال: يا عم، أردفني. فصاح به أبوه، فقال: دع ابن أخي يكون معنا. فأردفه، فتجاولا البيت مَلِيًّا، فلم يأتهما ما يريدان، فقال كعب: يا عم، ما يمنعك أن تقول:

وذاك بأن حللـتَ العـز منهـا فتمنـع جانبيهـا أن تمـيلا

قال النابغة: جاء بها ورب الكعبة. لسنا والله في شيء. قد جعلت لك يا ابن أخي ما جعل لي. قال: وما جعل لك يا عم؟ قال: مائة من العصافير نجائب. قال: ما كنت لآخذ على شعري صفدا. فأتى بها النابغة النعمان، فأخذ منه مائة ناقة سود الحدق". فانظر كيف لم يستنكف الفحل النابغة من أن يعينه فى ورطته غلام صغير! وتروى هذه الحكاية فى "بدائع البدائه" لابن ظافر على نحو آخر، ولكن المغزى واحد.

كما أن القصة التالية تنسف من جذورها دعوى أخرى من دعاوى الغذامى الكثيرة، إذ زعم أن الفحول لا تقبل أن يناقشها شاعر صغير، وأنه لهذا السبب لقى طرفة إهمالا من أبى

الفرج الأصفهانى، إذ لم يترجم له وألحقه بترجمة المتلمِّس لأنه لم يره أهلا للاستقلال بترجمة خاصة لاعتراضه على شعر قاله المتلمس وسخر منه، وهو أحد الفحول حسب الغذامى. ذلك أن القصة التالية ترينا النعمان معجبا بشعر لبيد بن ربيعة رغم أنه كان صبيا حتى لقد جعله أشعر العرب: "نظر النابغة الذبياني إلى لبيد بن ربيعة وهو صبي، مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر، فسأل عنه، فنُسِب له، فقال له: يا غلام، إن عينيك لعينا شاعرٍ. أفتقرض من الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا عم:

ألم تَرْبَع على الدِّمَن الخوالي؟

فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر. زدني يا بني. فأنشده:

طللٌ لخولةَ بالرسيس قديمُ

فضرب بيديه إلى جنبيه وقال: اذهب، فأنت أشعر من قيس كلها، أو قال: هوزان كلها. وأخبرني بهذا الخبر عمي قال: حدثنا العمري عن لقيط عن أبيه، وحماد الرواية عن عبد الله بن قتادة المحاربي قال: كنت مع النابغة بباب النعمان بن المنذر، فقال لي النابغة: هل رأيت لبيد بن ربيعة فيمن حضر؟ قلت: نعم قال: أيهم أشعر؟ قلت: الفتى الذي رأيتَ من حاله كيت وكيت. فقال: اجلس بنا حتى يخرج إلينا. قال: فجلسنا. فلما خرج قال له النابغة: إليَّ يا ابن أخي. فأتاه فقال: أنشدني. فأنشده قوله:

ألم تُلْمِمْ على الدمن الخوالي ... لسلمى بالمذانب فالقفال؟

فقال له النابغة: أنت أشعر بني عامر. زدني. فأنشده:

طلل لخولة بالرسيس قديمُ ... فبعاقلٍ فالأنعمين رسومُ

فقال له: أنت أشعر هوازن. زدني. فأنشده قوله:

عفت الديار محلُّها فمقامُها ... بِمِنًى تأبَّد غولُها فرِجامُها

فقال له النابغة: اذهب، فأنت أشعر العرب".

ومن هذا الوادى كذلك القصة التالية التى يسخر فيها صبى صغير من أحد فحول الشعر العربى، فيتقبل الفحل السخرية بروح رياضية عالية غاية فى الظرف، ولم يقل له هو ولا أى شخص آخر: كيف تجرؤ يا ولد يا مفعوص أن تتطاول على فحل من الفحول وتمرمط به

وبكرامته الأرض؟ ففى "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب" لعبد القادر البغدادى أن الكميت الشاعر الأموى المتشيع "كان في صغره ذكيا لوذعيا. يقال إنه وقف، وهو صبي، على الفرزدق وهو ينشد، فأعجبه سماعه، فلما فرغ قال: يا غلام، كيف ترى ما تسمع؟ قال: حسن يا عم. قال: أيسرك أني أبوك؟ قال: أما أبى فلا أبغي به بدلاً، ولكن يسرني أنك أمي! فحَصِر الفرزدق وقال: ما مر بنا مثلها". الله يخرب بيت شيطانك يا عم فرزدق! لم أكن أدرى أنك خفيف الظل إلى هذا الحد. ويزيدك ظرفا عندى أنك بخفة ظلك قد جعلت عالى نظرية د. الغذامى سافلها، وجعلت الذى لا يشترى يتفرج.

ومما يدل أيضا على أن ما قاله د. الغذامى فى هذا الصدد هو كلام فى الهواء أن الخنساء، وهى امرأة، خطّأت حسان بن ثابت فى شعره على ما مر فى هذا الكتاب من قبل، وجبهته بتلك الأخطاء فى سوق عكاظ على مرأى ومسمع من الجماهير هناك، وبمحضر من النابغة الذبيانى، الذى كان يحكم بين الشعراء فى موسم عكاظ، ومع هذا سكت حسان، وهو من الفحول، فلم يعقِّب رغم أنه كان قد أعلن قبلها بقليل أنه أشعر منها ومن النابغة ذاته على ما جاء فى إحدى روايات هذه القصة.

وأما استهانة الأصفهانى بطرفة حتى إنه لم يفرده بترجمة خاصة بل ألحقه بترجمة المتلمس كما قال الغذامى فيكفى فى الرد عليه أن الأصفهانى ليس كل النقاد العرب بل مجرد واحد منهم. وقد ضرب صفحا عن ابن الرومى مثلا، فهل نال هذا من مكانة ابن الرومى؟ والثانية أن ابن قتيبة قد ترجم له فى "الشعر والشعراء"، وكذلك المرزبانى فى "الموشح"، وابن أبى الخطاب فى "جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام"، وابن سعيد المغربى فى "نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب"، وعبد القادر البغدادى فى "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، وأن الأعلم الشنتمرى قد روى شعره ضمن الشعراء الستة الجاهليين فى كتابه الموسوم بهذا العنوان، وأن قصيدته الدالية هى إحدى المعلقات، وأن العلماء قد نصوا على أنه أول من طرد الخيال، وأن المعرى قد جعله أحد شخوصه فى "رسالة الغفران" وأطال الوقوف لديه واستشهد مرارا بشعره. وهذا من أعظم ألوان التقدير لطرفة. كما اختار له الأصمعى شعرا فى "أصمعياته". وفى كل كتب النقد والبلاغة تقريبا، بما فيها "الأغانى" ذاته، نجد استشهادات

بشعر طرفة أو حكايات عنه أو ثناء على شعره أو اختيارا من قصائده أو مقارنة بين شعره وشعر غيره من الشعراء أو ذلك كله دفعة واحدة. ويحرص كل كتاب من كتب "الحماسة" على أن يروى لطرفة عددا من أشعاره. وتورد كتب الأمثال طائفة من أبياته سار كل منها مسير المثل، بل ذكر بعضهم أنه أكثر الشعراء الجاهليين أمثالا، ومنها، ويا للمفارقة العجيبة، العبارة التى سخر بها من المتلمس وقال الغذامى إنها كانت مقدمة لشقائه ونهايته الفاجعة، وهى عبارة "اسْتَنْوَقَ الجملُ". كل هذا وقد مات عن ستة وعشرين عاما. وقال الجاحظ: "وليس في الأرض أعجبُ من طرفَةَ بنِ العبد وعبد يغوث، وذلك أنَّا إذا قسنا جودةَ أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمْن والرّفاهيَة". ويا له من حكم يصدره الجاحظ العظيم على هذا الشاب الصغير! وفى "الديباج" لمعمر بن المثنى أن "لبيداً مر بمجلس لبنى نهد بالكوفة وهو يتوكأ على عكاز له، فلما جاوز أمروا فتى أن يلحقه فيسأله: من أشعر العرب؟ فلحقه، فقال لبيد: الملك الضِلّيل. يعنى امرأ القيس بن حُجْر. فرجع الفتى فأخبرهم، فقالوا: ألا سألته: ثم من؟ فرجع إليه فسأله: ثم من؟ فقال لبيد: ثم ابن عشرين. يعنى طرفة بن العبد. وبهذا احتجت علماء ربيعة. فرجع فأخبرهم، فقالوا: سألته: ثم من؟ فرجع فسأله، فقال: ثم صاحب المحجن. يعنى نفسه". وفيه أيضا أن العلماء "اتفقوا على أن أشعر الشعراء في الجاهلية واحدةً طرفة بن العبد والحارث بن حِلِّزَة وعمرو بن كلثوم". وفى "المزهر" لجلال الدين السيوطى أن النضر بن الشميّل يقرر أن طرفة أشعر الناس. ليس هذا فحسب بل كان النبى عليه السام يتمثل ببيته المشهور:

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

وأما الحكاية التى قصها علينا د. الغذامى عن امرئ القيس وعجزه عن إتمام بيته القائل:

مِكَرٍّ مِفَرًّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا

إلا بعدما لقنته إياه جاريته، إذ حين غدت إلى المرعى تعمدت أن تنشغل عن الغنم حتى أتى الذئب وهجم عليها، فعندئذ أسرعت إلى سيدها تولول: "لقد جاء الذئب من الخلف مسرعا ومباغتا كجلمود صخرٍ حَطَّه السيلُ مِنْ عَلِ"، فإنى لأستغرب أشد الاستغراب كيف قبلها الغذامى. ذلك أن الحكاية كلام ساذج مضحك لا ينبغى أن يخطر ببال أى إنسان.

فليس من المعقول أن يمشى امرؤ القيس يكلم كل من حوله بأنه عاجز عن تكملة البيت المذكور، ثم يشق ثيابه ضيقا وغيظا من هذا العجز، وإلا فكيف عرفت الجارية بالأمر؟ ومع هذا فإذا كان الأمر كذلك فمعناه أن شاعرنا لا يبالى أن يعرف الناس عنه هذا العجز، ومن ثم إذا تقدمت الجارية وعرضت المساعدة فلن يغضبه ذلك. ثم إنه من المستغرب أن تعرّض الجارية غنم سيدها للهلاك وتترك الذئب يلتهمها من أجل شطر بيت. وما دامت سيادتها ذكية إلى هذ الحد فلماذا لم تختلق القصة اختلاقا وتدعى أن الذئب هجم على الغنم واندفع كجلمود صخر حطه السيل من عل، لكنها صدته؟ ثم ما دامت بارعة إلى هذا الحد فى نظم الشعر فلماذا لم تَصُغ الكلام الذى قالته شعرا؟ وهل لو صارحت سيدها بأنها توصلت إلى تكملة البيت أكان سيطير رقبتها بالسيف؟ كذلك من الصعب جدا أن يتنبه الشاعر إلى الشطر المقصود فيستخرجه من وسط ركام الكلام المنثور الذى قالته الجارية. وفوق هذا فالدكتور الغذامى نفسه قد تشكك فى مصدر الحكاية ورجح أن تكون تراثا شعبيا، وهو ما لا يمكن إلا أن تكونه. ومن ثم كان عليه ألا يوردها البتة، فإن إيرادها مما لا يليق بمن يتصل بعالم الكتابة مهما كان من شأنه فيها. ولا ينبغى أن ننسى أن نقادنا القدماء قد أعجبوا بصورة جلمود الصخر الذى حطه السيل من عل، وعَدُّوها من إبداعات الملك الضِّلّيل التى سبق إليها وأخذها منه الشعراء. فهل كان نقادنا القدماء من السذاجة بحيث يعزون إليه عبارة كهذه ويثنون عليه بسببها ويعدونه أبا عذرتها وهم يعرفون أنها ليست له؟ وأخيرا فهل يظن ظان أن امرأ القيس، وهو بالكبر والحساسية اللذين وصفهما د. الغذامى فى موضوع حاجته إلى من يعاونه على تكملة بيت من بيوت الشعر، كان ليقبل الاستعانة بكلام جاريته فيدخله فى بيته الناقص وهو يعرف أنها ستكون أول من يتنبه إلى استعانته به؟ إن هذا يذكرنى بالمثل القائل: أذنك من أين يا جحا؟

وننتقل إلى أبى تمام، الذى كوم الغذامى فوق رأسه كل العيوب الأدبية والخلقية، ووقف إزاء قصيدته التى يقول فيها:

يَنالُ الفَتى مِن عَيشِهِ وَهْوَ جاهِلٌ ... وَيُكْدِي الفَتى في دَهرِهِ وَهْوَ عالِمُ
وَلَو كانَتِ الأَرزاقُ تجري عَلى الحِجا ... هَلَكْنَ إِذَن مِن جَهلِهِنَّ البَهائِمُ

فَلَـم يَجتَمِـع شَـرقٌ وَغَـربٌ لِقاصِـدٍ وَلا المَجـدُ في كَـفِّ امْـرِئٍ وَالـدَراهِمُ

والتى يعلق عليها ناقدنا بأن أبا تمام ينشئ هنا معادلة للنص المدائحى بين المادح والممدوح تتلخص فى أن الأول يملك العقل بلا مال، والثانى يملك المال بلا عقل، وأنه لو كان التمتع بالعقل شرطا للغنى لهلكت البهائم إذن لأنها ليس لها عقل، ومعنى هذا أن الممدوح يشبه البهيمة، ويحتاج إلى من عنده عقل، وهو أبو تمام المادح صاحب العقل، وأنه يعرض على الممدوح أن يأتى فيحصل منه على بعض عقله ويعطيه بعض ماله، وأن هذا ما تقوله الأبيات التالية:

وَلَم أَرَ كَـالمَعروفِ تُـدْعَى حُقوقُـهُ مَغـارِمَ في الأَقْـوامِ وَهْـيَ مَغـانِمُ

وَلا كَـالعُلا مـا لَمْ يُـرَ الـشِعرُ بَينَهـا فَكَـالأَرضِ غُفْـلاً لَـيسَ فيهـا مَعـالِمُ

وَمـا هُـوَ إِلّا القَـولُ يَـسْري فَتَغْتَـدي لَـهُ غُـرَرٌ في أَوجُـهٍ وَمَواسِـمُ

يُـرَى حِكمَـةً مـا فيـهِ وَهْـوَ فُكاهَـةٌ وَيُقْـضَي بِمـا يَقـضي بِـهِ وَهـوَ ظـالِمُ

وآخرها:

وَلَـولا خِـلالٌ سَـنَّها الـشِّعرُ مـا دَرَى بُغـاةُ النَـدى مِـنْ أَيـنَ تُـؤْتَى المَكـارِمُ

وقد قلت مرارا إننى لست مع شعر المديح بوجه عام، وأقصد المديح الذى لا هم للشاعر فيه سوى كسب الدراهم ليس إلا، ولكنى قلت أيضا إن هناك مدائح تعبر فعلا عن تقدير الشاعر لممدوحه إذ يمدحه لإنجازاته الكريمة فى خدمة الأمة والملة والرعية وما إليه. وهنا أقول إنه لو كان هناك نظام آخر يكرم الشعراء بطريقة مغايرة لكان الأمر أفضل وأكثر إنسانية. ومع هذا أفلا يستحق الإعجاب أن يقف أبو تمام من الممدوح هذا الموقف الذى يُدِلّ فيه عليه مواجهة بمواهبه ولا يرى أنه أقل منه فى شىء إن لم يتفوق عليه؟ على أن الأمر ليس مجرد تحريك لعواطف الممدوح كى يعطى الشاعر ما يريد من مال، بل تحريك لعواطفه كى يقوم بواجبه فى ميدان الكرم والقيم الإنسانية بوجه عام. وإذا كان الغذامى يستشهد بنص للرازى من كتابه: "الفراسة" يتحدث فيه عن الأغنياء وغرورهم بأموالهم وتصورهم أنهم بتلك الأموال التى فى أيديهم أفضل من غيرهم، فها هو ذا أبو تمام يفهمهم أن الأمر ليس كذلك وأنهم رغم أموالهم محتاجون إلى الشعراء ليحركوهم نحو العلا ويهزوا أنفسهم لدواعى الندى

ويسجلوا فعالهم فى تلك الميادين. وأرى أن هذا جانب إيجابى فى القصيدة رغم موقفى بوجه عام تجاه شعر المديح التكسبى كما قلت مرارا. ولا ينبغى أن يقال إن ممدوح أبى تمام لم يكن يستطيع أذاه أو على الأقل: "قَبْض يده عن إعطائه شيئا"، فقد كان هناك فى تاريخ الأدب العربى من فعل مع مادحيه هذا، ولم يستطع المادح أن ينال منه منالا، أو هجاه وهرب من وجهه على أكثر تقدير. ومن هنا يرانى القارئ أقول إن أبا تمام شاعر شجاع وقف فى وجه ممدوحه وهو شاعر تمام الشعور بقيمته رغم أنه فى نهاية المطاف شاعر من شعراء المديح.

ثم مضى الغذامى فحمَّل الشعرَ والشعراءَ إثم صناعة الطاغية متطرقا إلى صدام حسين، الذى قلت آنفا إنه يمثل الحائط المائل بالنسبة للغذامى رغم أن هناك من هم أسوأ من صدام كثيرا وأقرب إلى الغذامى ويعرف من عيوبهم القاتلة ما لا يعرفه غيره بكامل الوضوح والتفصيل، لكن الغذامى ارتعب ولم يخطر له أن ينتقد ما هو من شأنه، ولم يشأ بل لم يستطع أن يرتفع إلى المستوى الذى ارتقى إليه أبو تمام فى هذه القصيدة، وهو المستوى الذى صادم فيه ممدوحه ولم يتصاغر أمامه ولا ذل ولا استخذى. وقد سبق ان رددنا على ما قاله الغذامى بشأن صدام ووَسَّعْنا الكلام بحيث يشمل حكام العرب والمسلمين بوجه عام فى عصرنا هذا، ومنهم كما قلت حكام أميون لا يفكون الخط ولا يفرقون بين الألف وكوز الذرة، ورغم هذا لم يجرؤ هذا الشجاع الذى لا يعجبه شيء فى تاريخ الأدب العربى ولا الثقافة العربية أن يفتح فمه ولو من غير كلام تجاه أولئك الحكام الجهلاء صانعا نسقا نقديا يتخلص فى حاكم جاهل ظالم غشوم يملك البلاد والعباد ويكوّش على ثروات الوطن كلها، وكاتب عامل نفسه من بنها فلا يرى ولا يسمع ولا يتكلم بل يشتم صدام حسين. رائع جدا هذا النسق.

أما ما يقوله الغذامى من أن شعر المديح هو السبب فى ظهور الطغاة فى تاريخنا، فالطغاة موجودون فى كل البلاد وتفرزهم كل البيئات والحضارات والثقافات. ومنهم فى عصرنا قيصر روسيا وستالين ومصطفى كمال أتاتورك وهتلر وموسولينى وشاه إيران وتيتو وأنور خوجه وشاوشيسكو وموجابى وطغاة أمريكا الجنوبية وطغاة أفريقيا، ولم يكن لأى من هؤلاء علاقة بشعر المديح العربى ولا بنسق الفحل سواء فحل البشر أو فحل البصل ولا بالغذامى نفسه وكلامه المتناقض الفطير. البشر بوجه عام، إذا ما أتيحت لهم الفرصة، يحبون أن يتمددوا خارج

ذواتهم: فإن صادفوا بيئة هشة ضعيفة تستجيب للطغيان وترضى به ولو عن عجز ونفور من دفع ضريبة العزة والكرامة، تمددوا وتسلطوا وتفرعنوا. أما إن كانت الجماعة التى ينتمون إليها جماعة حمية الأنف جريئة القلب مبدعة العقل تضع نصب عينيها أن تعيش عيشة كريمة محترمة تليق بالإنسان الحر العزيز فإنهم يخنسون ويخرسون ويلزمون حدودهم. وأما شعر المديح فهو نتيجة لا سبب. وقد اختفى الآن شعر المديح، فهل انتهت الفحولة التى صدعنا بها د. الغذامى؟ أبدا بل هناك الإعلاميون من صحفيين وإذاعيين وكتاب ومحاضرين، وكلهم يترامَوْن على أقدام الطغاة يلحسونها ويتصايحون بعبارات الرضا والبهجة أَنْ مكَّنهم الطاغية من لعق حذائه، ثم لا يكتفون بذلك بل يهيجونه على الكرام المعتزين بأنفسهم الذين لا يشاركونهم لعقهم للاحذية ويعلنون عن مواقهم من أولئك الطغاة انتقادا ودعوة إلى التغيير وإعطاء الشعب حقوقه فى أموال الدولة وفى الحرية وفى العدل وفى الكرامة متحملين فى سبيل ذلك التضييق والاعتقال والتنكيل والتعذيب بل والقتل أيضا. ومن أعجب العجب أن يجعل الغذامى قصيدة عمرو بن كلثوم هى اللبنة الأولى فى نسق الفحولة الذى أدى إلى طغيان حكامنا، رغم أن صاحبها قد صاغها تعبيرا عن رفضه للطغيان وحرصه على كرامة أمه وكرامته هو أيضا وكرامة قبيلته، إذ قتل الملك الذى أراد هو وزوجته أن يذلا أمه، ونظم تلك الدرة العظيمة التى ينبغى أن تكون دستورا لكل مقاوم للاستبداد والطغيان مهما تكن البواعث التى حملته على كراهية ذلك الطغيان.

ويعود د. الغذامى فيعمل على إيهامنا بأن ثقافتنا إنما شكَّلها كتاب أفلاطون عن "الجمهورية" وكلام ابن المقفع فى "الأدب الصغير" و"الأدب الكبير" و"كليلة ودمنة"، إل جانب نسق الفحل الشعرى. أى أن ثقافتنا لا تعرف قرآنا ولا حديثا ولا خطبا ولا قصصا ولا أمثالا ولا حكمة ولا علوما طبيعية ولا علوما إنسانية ولا شعرا غزليا أو فكاهيا أو حماسيا أو افتخاريا أو حكميا أو هجائيا أو وصفيا أو قصصيا... والله لو كنا لقطاء ما كانت ثقافتنا بهذا القزامة. ترى ماذا يريد الغذامى حين يحصر ثقافة العرب والمسلمين فى هذا الركن الضيق البائس؟ وإلام يهدف بهذا الكلام العجيب المريب؟

وهو لا يكتفى بهذا بل يقول إنه قد جرى تهميش السود والنساء والجوارى والأعراب فى تاريخ الأدب العربى، فلم تعد لهم ولا لإنتاجهم الشعرى قيمة. وهذا خطأ بواح، فلقد بينا فى هذا الكتاب بعشرات الاستشهادات الشعرية والنقدية أن الأدب العربى لم يهمش أحدا لا للونه ولا لدينه ولا لعاميته ولا لأميته ولا لسنه ولا لمذهبه الفقهى ولا لاتجاهه العقيدى ولا لنوعه ولا لشعوبيته ولا لقرمطيته، ولا حتى لموضوعه سواء كان فحشا وعريا وبذاءة أو سخفا وتفاهة ورقاعة، فكل شيء وكل إنسان يجد مكانه فى ذلك الأدب. ثم يستطرد د. الغذامى إلى موضوع العصا عند الجاحظ فى "البيان والتبيين". ومعروف لنا جميعا أن الجاحظ قد أنشأ هذا الجزء من الكتاب المذكور ردا على الشعوبيين الذين كانوا يسخرون من العرب ومن خطباء العرب وإمساكهم العصا عند الخطابة. لكن الغذامى يقلب الأمر رأسا على عقب، إذ يزعم أن الجاحظ إنما يسخر هو أيضا من العصا، وأنه قد حكى على سبيل الاستطراد حكاية ظريفة ظلت تتشعب إلى أن وصلنا إلى عبارة "تفاريق العصا"، ومعناها أن العصا بعد تشظِّيها وتحولها إلى قطع صغيرة لم تفقد أيةُ قطعة منها قيمتَها ووظيفتَها التى لا يغنى عنها غيرها. وينتهى الغذامى بالقول بأن أبا عثمان يريد أن يقول إن العصا، التى كان يعتز بها العرب، لم تصلح إلا حين تحطمت وصارت قطعا، أى حين لم تعد تصلح للخطابة.

ولكى يصل الغذامى إلى هذه النتيجة العجيبة أخذ يقرأ النصوص قراءة شاذة خارجة عن كل منطق، إذ دخل الميدان وفى ذهنه أن يصل إلى تلك النتيجة بكل سبيل وبأى سبيل. ومن هنا نراه يرى فى النص أشياء لا وجود لها، ويستخلص منها أمورا ما أنزل الله بها من سلطان، ويلوى رقبة كل شيء معطيا إياه تفسيرا لا يستطيعه الشياطين أنفسهم. وهذا ديدنه دائما فى قراءة النصوص، إلا أنه هنا قد زاد العيار حبتين، فجاءت الطبخة ماسخة زاعقة المساخة. لقد أورد الجاحظ، فى باب الدفاع عن العصا والثناء عليها وعلى دورها عند الكلام وإلقاء الخطب، قصةً تصوِّر النبى عليه السلام وهو يمسك بالعصا يعظ بعض صحابته ويعلمهم عقائد دينهم، وكان يخط بها على الأرض، وقصة أخرى تروى لنا أنه ﷺ قد أعطى رجلا من صحابته هو عبد الله بن أنيس عصا وأخبره أنها سوف تكون معه حين يتلاقيان فى الجنة. فهل

يمكن أن يسخر الجاحظ من استعمال النبى للعصا واتخاذه لها علامة بينه وبين أحد الصحابة حين يلتقيان فى الفردوس؟

وكيف يكون الأمر على ما يريد الغذامى إيهام القراء به، وقد انحاز الجاحظ للعرب انحيازا تاما حتى إنه سلب الأمم الأخرى قدرتها على الخطابة، وجعل الخطابة للعرب وحدهم ومعهم الفُرْس ليس إلا، مع تفوق العرب بأنهم يخطبون على البديهة فيبلغون من الخطابة مدى لا يبلغه غيرهم بالاستعداد المسبق؟ فهل من يقول هذا فى العرب يمكن أن يدور فى ذهنه أن يقلل من شأنهم ويسخر من تقاليدهم وإمساكهم العصا عند الخطابة؟

ثم يأخذ الجاحظ فى الحديث عمن كانوا يستعملون العصا، فيذكر سليمان النبى عليه السلام واستعماله للعصا فى مقاماته وصلواته وأدعيته ومواعظه، ويذكر عصا موسى وعِصِيّ سحرة فرعون، ويذكر كيف كان ابتلاء الله لآدم وحواء متمثلا فى شجرة نهاهما عن الأكل منها، والعِصِيّ إنما تتخذ من الشجر، وكيف كانت بيعة الرضوان تحت شجرة، كما ذكر سدرة المنتهى فى السماء، والسدرة شجرة من الشجر، وأورد أيضا عددا من العبارات والقصص الهامة المتعلقة بالعصا مما يدل على مكانة العصا وخطرها فى الحياة. ثم يعرج على قصة امرأة وابنها والبيت الشعرى الذى قالته ثناء على هذا الابن وما رزقها الله به من أوسع الأبواب بسببه والذى ينتهى بكلمة "تفاريق العصا"، ثم شرع يعدد أوجه المنافع التى تؤديها العصا بعدما تصير تفاريق، ليقول فى نهاية الكلام: "فإذا كانت العصا صحيحةً ففيها من المنافع الكِبار والمرافق الأوساط والصِّغار ما لا يُحصيه أحد، وإن فُرِّقت ففيها مثلُ الذي ذكرنا وأكثر، فأيُّ شيءٍ يبلغُ في المرفق والرَّدِّ مبلغَ العصا، وفي قول موسى: "وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى" دليلٌ على كثرة المرافق فيها لأنه لم يقل: ولي فيها مأرُبة أخرى، والمآرب كثيرة؟ فالذي ذكرنا قبل هذا داخلٌ في تلك المآرب".

وبعد أن عدد الجاحظ منافع العصا عاد يقول محتجا على علو مكانتها وأهمية وظائفها: "انظر، أبقاك اللَّه، في كم فنٍّ تَصرَّف فيه ذكرُ العصا من أبواب المنافع والمرافق، وفي كل وجه صَرّفَتْه الشُّعراء وضُرِب به المثل. ونحن لو تركْنا الاحتجاج لمخاصِر البلغاء، وعِصِيّ الخطباء، لم نجد بُدّاً من الاحتجاج لجِلَّة المرسَلين، وكبار النبيِّين، لأنّ الشُّعوبيّة قد طعنت في جملةِ هذا

المذهب على قضيبِ النبي ﷺ وعَنَزَته، وعلى عصاه ومِخْصَرَته، وعلى عصا موسى لأنّ موسى ﷺ قد كان اتَّخذها من قبل أن يَعلم ما عند الله فيها، وإلامَ يكون صَيُّور أمرها. ألاَ ترى أنَّه لما قال الله عزّ وجل: "وما تِلْكَ بِيَمِينكَ يَا مُوسى"، قال: "هِيَ عَصَايَ أتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مآرِبُ أُخْرى"، وبعد ذلك قال: "قال: أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاها فإذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسعَى"، ومَن يستطيع أن يدَّعي الإحاطةَ بما فيها من مآربِ موسى إلاّْ بالتقريب وذِكرِ ما خطَر على البال؟ وقد كانت العصا لا تُفارِق يدَ سليمانَ بنِ داود عليه السلام في مَقاماته وصلواته، ولا في موته ولا في أيّام حياته، حتَّى جعل الله تسليط الأرَضَة عليها، وسليمانُ ميّتٌ وهو معتمدٌ عليها، من الآياتِ عندَ مَن كان لا يعلم أنّ الجنَّ لم تكن تعلم إلاَّ ما تعلم الإنس. ولو علم القومُ أخلاقَ كلِّ ملّة، وزيَّ أهلِ كلِّ لغةٍ وعِلَلهم في ذلك، واحتجاجَهم له، لقلَّ شَغْبُهم، وكَفَوْنا مَؤُونتهم. هذه الرُّهبان تتَّخذ العِصيّ من غير سُقْم ولا نُقصانٍ في جارحة. ولا بدَّ للجاثَليق من قناعٍ ومن مظِلَّة وبَرْطُلَّة، ومن عُكّازٍ ومن عصاً، من غير أن يكون الدَّاعي إلى ذلك كِبَراً ولا عجزاً في الخِلقة. وما زال المُطِيل القيام بالموعظةِ أو القراءةِ أو التِّلاوة يتخذ العصا عند طول القيام، ويتوكّأُ عليها عند المشي، كأَنَّ ذلك زائدٌ في التكهُّل والزَّماتة، وفي نفي السُّخف والخِفّة. وبالنّاس، حفظك اللهُ، أعظم الحاجةِ إلى أنْ يكونَ لكلِّ جنسٍ منهم سِيمَا، ولكلِّ صنف حليةٌ وسِمَةٌ يتعارفون بها".

فكيف يقال إن الجاحظ قد أراد، على نحو ملفوف خبيث، إلى ذم العصا والسخرية منها ومن اتخاذ العرب إياها أداة يستعينون بها على الخطابة، والقول بأنها لم تصلح إلا بعد تحطمها وصيرورتها قطعا وشظايا؟ هذه طريقة فى القراءة شيطانية تحرف الكلم عن مواضعه وتقلب المعنى فوقا لتحت، وتزعم زيفا وبهتانا أن الجاحظ، الذى كتب هذا الكلام ليهاجم الشعوبيين ويقبح فكرهم وموقفهم، إنما كتبه للنيل من العرب ومرافأة الشعوبيين على ما يقولونه فى حقهم، ولكن بمكر وخباثة لا فى صراحة واستقامة. منذ متى كان الجاحظ يتلجلج فيما يكتب؟ لقد كتب عن كل المذاهب والاتجاهات بل وعن كل النزوات والشهوات، ويكفى أنه وضع رسالة تحتوى على مناظرة بين رجل شاذ يفضل اللواط وآخر طبيعى يفضل جماع النساء، وساق على لسان كل منهما كل ما يخطر وما لا يخطر على البال من ألفاظ ومعان

وأفكار دون أى احتشام أو مبالاة. فهل مثل هذا الرجل يمكن أن يخبث على النحو الذى يصوره د. الغذامى؟ لقد نسى الدكتور أننا نتحدث عن الجاحظ لا عن الغذامى، الذى يلف ويدور ويعكس الأفكار إلى نقيض اتجاهها. والحق أنه لو قدر للجاحظ أن يقوم من مرقده ويطلع على ما يكتبه د. الغذامى بشأن موقفه من الشعوبيين والعصا لوضع فيه وفى طريقته السقيمة الشاذة فى الاستشهاد والتفسير واستخلاص النتائج رسالة تجعل منه عبرة وأمثولة للأجيال كلها وأضحوكة فى أفواههم من يوم الناس هذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأداة للتسلية ينسى بها كل حزين وحزينة همومهما ويضحكان ملء رئتيهما وقلبيهما دون أن يحملا للدنيا هما. ألم تجد، يا د. غذامى، سوى الجاحظ تفترى عليه وتُقَوِّله عكس ما قاله؟ أضاقت الدنيا عليك بما رحبت، فلم تجد إلا أبا عثمان تتلاعب بكلامه وتقلبه على رأسه وتظن أنه يمكنك بعد ذلك أن تمشى بين الناس فخورا تظن أنك سوف تخرق الأرض وتبلغ الجبال طولا؟

وبعد، فهل نحن ضد النقد الثقافى؟ لقد قلت قبلا فى هذا الكتاب إنه لون من ألوان النقد الاجتماعى، وإن كانت له مصطلحاته الطريفة التى لم نكن نسمع بها، إلا أنها فى الواقع لا تعنى الكثير. وإذا كان الغذامى مثلا يرى أن النقد الثقافى ينبغى أن يحل محل النقد الأدبى ويزيحه من مكانه إلى الأبد فنحن لا نقول بهذا ولا يمكن أن نقوله لأننا بحمد الله لم نفقد عقولنا ولا حاستنا العلمية والأدبية بعد، ولن نفقدها إن شاء الله تعالى. ذلك أن النقد الثقافى لا يناقض النقد الأدبى ولا يدابره، بل ينضوى تحته كما ينضوى النقد اللغوى والبلاغى والنفسى والاجتماعى والأسلوبى والبنيوى... وهلم جرا. أى أن النقد الأدبى أوسع وأعرض وأطول وأكبر من النقد الثقافى. النقد الثقافى هو واحد من المناهج النقدية التى تُعْنَىَ بالمضمون، إلى جانب مناهج أخرى كالأسلوبية والبلاغية والبنيوية تأخذ على عاتقها العناية بالشكل والنواحى الجمالية. والنقد الأدبى يشمل هذا كله وكل ما يستجد من ألوان النقد. فالنقد الأدبى يهتم بالشكل والمضمون معا، والنقد الثقافى يقوم، أو المفروض أن يقوم، بالتعمق فى معانى النص الأدبى حتى يصل إلى قراره من الناحية الثقافية، أى ناحية الدين والعادات والتقاليد والقيم وما إلى هذا. والنص الأدبى لا يمكن أن يُفْهَم، فضلا عن أن يفهم فهما صحيحا، دون أن نعرف

علام يدور وأى موقف هو موقف صاحبه من الحياة والسياسة والاجتماع والدين... إلخ. والنقد الثقافى يقوم بتلك الوظيفة مع المنهج النفسى والمنهج الأيديولوجى والمنهج اللغوى والمنهج البلاغى، وبذلك يستطيع القارئ تذوق الأدب والاستمتاع به إن كان ممتعا أو النفور منه إن كان ركيكا رديئا سخيفا. د. الغذامى يشعلها حربا طاحنة بين النقد الأدبى والنقد الثقافى متصورا أن بين النقدين نفارا وتعارضا، ولا نفار ولا تعارض بل احتواء من جانب النقد الأدبى للنقد الثقافى، وانضواء من جانب النقد الثقافى فى كنف النقد الأدبى.

ويتهم د. الغذامى نقادنا القدماء بأنهم فى تعاملهم مع النصوص وتفسيرهم لها كانوا منضبطين تمام الانضباط فلم يكونوا يقولون شيئا مخالفا لما تقوله المؤسسة. وواضح أنه لا علم لديه كاف بتفسيرات المتصوفة لشطحات مشايخهم ورفقاء طريقهم، إذ ترى الخروج على العقيدة فى كلام بعض مشاهيرهم والتصايح بالحلول والاتحاد بالذات الإلهية واضحا يخزق العين، ثم ينبرى بعض الثعالب فيزعم أن ضيق العبارة هى السبب فى هذا. وكان ينبغى أن يَسَع أولئك الشطاحين ما وَسِعَ النبى عليه السلام وأصحابه فى هذا المجال، وقربهم من الله سبحانه أشد وأقوى وأعمق، ومع هذا لم يصدر عن أى منهم ما يسمى فى عالم التصوف بـ"الشطح". كما فاته الطريقة التى يفسر بها كثير من الصوفية آيات القرآن المجيد خارجين على كل أعراف الشرح الصحيح ومنفلتين من كل عقل ومنطق وأعراف لغوية. وفاته كذلك أن للشيعة تفسيرات للقرآن الكريم تخالف تماما ما يقوله أهل السنة. ومن ذلك مثلا أنهم يخرجون زوجات الرسول عليه السلام من "أهل البيت" قاصريها فقط على فاطمة وزوجها وأولادها، وممزقين آيات سورة "الأحزاب" التى تنص نصا على أن أمهات المؤمنين هن من صلب آل البيت وأن الله سبحانه يريد أن يذهب عنهن وعن أهل البيت كلهم الرجس ويطهرهم تطهيرا، ومتجاهلين آية سورة "هود"، التى تخاطب سارة زوجة الخليل عليه السلام قائلة بكل وضوح: "رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ". ومنه أيضا قول بعضهم فى تحد واضح لآيات سورة "النور" وروايات التاريخ المستقيمة إن الإفك إنما ارتكبته عائشة والمنافقات، إذ اتهمن ظلما وعدوانا السيدة مارية القبطية فى شرفها وادَّعَيْنَ أن إبراهيم الصغير ليس ولد النبى عليه الصلاة والسلام، موردين رواية عجيبة عن إرسال النبى ﷺ على بن أبى طالب وراء جريج ليقتله،

هكذا بدون تثبت أو تحقيق، لمجرد أن عائشة قد اتهمته فى مارية رضوان الله عليها... إلى آخر القصة الغبية. فهل انصاع هؤلاء المفسرون الشيعة لتفسير المؤسسة المزعومة؟ الحق لقد كان الفضاء واسعا يتسع لكل من يكتب ويتكلم. تشهد بذلك الكتب والروايات التى وصلتنا حاملة الآراء المختلفة بل المتناقضة فى كثير من الأحوال.

وينتقل د. الغذامى إلى القول بأن التأثير الاجتماعى للنكت والنصوص غير المشهورة التى يقول إن المؤسسة الثقافية القديمة قد أهملتها إهمالا يفوق تأثير النصوص التى تحظى برضا المؤسسة المزعومة. وقد حرصت فى هذا الكتاب على إيراد عدد كبير جدا من النصوص التى يشير إليها د. الغذامى من نكت ونصوص لشعراء وكتاب غير مشهورين أو كانوا يحترفون صنعة متواضعة أو كانت النصوص نفسها عارية ومفحشة... إلخ، وهو ما يدل على أن ما يدعيه غير صحيح، فلم تهمل الكتب القديمة شيئا من هذا، بل إنى لأرى أنها على العكس من ذلك قد أسرفت فى الاهتمام به وروايته لدرجة التغثية. وعلى أية حال فإن د. الغذامى حين يقول هذا لا يقوله من عنده بل يردد ما كتبه النقاد الثقافيون فى الغرب مجرد ترديد.

وهو يدعو إلى تغيير المصطلحات القديمة إلى أخرى جديدة كى نستطيع على حد قوله الانعتاق من تأثير المؤسسة. وهى مصطلحات فضفاضة ومختلفة، ومن شأنها إرباك المشهد. ومن هذه المصطلحات "الرسالة والمرسِل والمرسَل إليه والشفرة وأداة الاتصال...". ومع هذا فتلك المصطلحات بما فيها من غرابة وتقليد للنقاد الغربيين تفتن قطاعا كبيرا من شبان الباحثين. ويمر علىَّ وأنا أقرأ الرسائل الجامعية أو أبحاث الترقية كلام كثير من هذا القبيل يردده مستعملوه دون أن يدركوا أبعاده فى كثير جدا من الأحيان. وحين أسأل أصحابه أفاجأ أنهم إما لا يعرفون جيدا ما يقولون أو لا يدركون أبعاده كما ينبغى. إنما هو التقليد لما يأتى به الوسطاء بينهم وبين النقاد الغربيين دون إعمال للعقل، تلك الآلة النقدية التى أنعم الله بها علينا كى نفرز بها الغث من السمين، والجد من الهزل، والعلم الحقيقى من الاستعراض المتورم الفارغ. وقد سألت ذات مرة باحثا كان يعمل معى للحصول على درجة الماجستير فى تسعينات القرن الماضى، وكان يردد رواسم التفسير الأسطورى ومفاهيمه ترديدا أعمى دون فهم، فقلت له: إنك تقول، جريا على خطا فلان، إن العرب كانوا يقدسون الناقة. فيا ترى كيف كانوا

يقدسونها؟ هل كانوا يعبدونها؟ هل كانوا يصلون لها؟ هل كانوا يبتهلون إليها إذا حزبهم أمر قاس؟ هل كانوا يلجأون إليها حين يضيع منهم شىء فتساعدهم على معرفة مكانه أو سارقه؟ فإذا به يجيبنى بآخر شىء يمكن أن يخطر على البال فى هذا السياق، ألا وهو أن العرب كانوا يقدسون الناقة بدليل أنهم كانوا يركبونها. بالله عليكم ماذا يمكن أن يقال لمثل هذا المعتوه؟

كما لاحظت مثلا فى الرسائل والأبحاث الأخيرة الإسراف فى استعمال كلمة "التشظِّى" لدرجة تخيل لك أن الدنيا كلها تشظٍّ فى تشظٍّ (وكلهم تقريبا يكتبون هذه الكلمة هكذا: "تَشَظِّى" بياء رغم تنكيرها وعدم إضافتها) حتى لقد سمعت أحد الساخرين يقول لشاب من شبان الباحثين ألفاه يكرر هذه الكلمة فى رسالته على نحو خانق لا يطاق: يا بنى، لقد أصبتنى بتشظٍّ فى يافوخى لا أظننى سأبرأ منه أبد الآبدين. يا بنى، إنكم ترددون مفاهيم النقد الحداثى وما بعد الحداثى ومصطلحاته فى بلاد تعانى من التخلف معاناة شنيعة، وليس لها فى الحداثة قليل أو كثير. فكيف يتسق هذا وذاك؟ ثم إنكم لا تحسنون لغتكم، وأخطاؤكم النحوية والصرفية والمعجمية كثيرة جدا، وكثير منها أخطاء بدائية، مما يدل على ضحالتكم فى العلم. فكيف يتسق هذا وذاك؟ ودائما ما أسمع هذا الزميل وهو يردد العبارة التالية كلما قرأ أو سمع شيئا من تلك الرطانة الغريبة تردده ألسنة الشبان الفارغين المتحمسين: هَبْلَة، ومَسّكوها طَبْلَة!

وإلى القارئ العزيز مثالا آخر على التصايح بالشعارات دون تدقيق: فقد اطلعت قبل يومين على بحث وضعته إحدى الكاتبات عن الموسيقى فى الشعر النسائى العربى المعاصر، فراحت تطنطن بشعار "نسق الفحل"، وهو شعار صكه أحد الرجال لا إحدى النساء، وتتهم النظام البطرياركى بأنه يخنق النشاط النسائى على الدوام، وفَرَض على الشاعرة الحديثة النظام العمودى فرضا، وأن المرأة ثارت على ذلك الإكراه بالنظم على الطريقة التفعيلية وكتابة قصيدة النثر، وكأن النساء هن اللاتى توصلن إلى هذين النظامين الموسيقيين وليس الرجال، فضلا عن تجاهلها أو جهلها أن الرجال هم الذين دَعَوْا إلى أن تتعلم المرأة مثل الرجل وتأخذ نفس الفرصة، ومنهم الطهطاوى والشدياق وقاسم أمين والحكومات الرجالية، وأن أباها هو الذى أنفق على تعليمها ووفر لها كل ما تحتاج إليه فى دراستها حتى تخرجت من الجامعة على

الأقل. وبدلا من أن تتحدث عما يجب من التعاون بين الجنسين راحت تمطرنا باتهام المجتمع وأنظمته بالذكورية والأبوية والبطرياركية والفحولية، أى أنه مجتمع ظالم للمرأة مجحف بحقوقها، وهى اتهامات فى غير محلها، فإن النداء بإفساح الطريق لانتعاش مواهب النساء قد جاء أولا من جانب الرجال دون أى ضغط من الجنس اللطيف الرقيق. ثم إن المرأة العربية تشارك الرجل فى ميدان الشعر منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، ولم يقمعها أحد ولا قال لها: "لا تقولى شعرا واخرسى"، وإن لم يكن شعرها قبل عصرنا هذا بنفس الغزارة التى لشعر الرجل، ولكن ذلك موضوع آخر. بل لقد احتفى الرجال الأقدمون والمحدثون جميعا بإبداع المرأة أيما احتفاء وأثنَوْا عليها وأفردوا الحديث عنها وعن شعرها بكتب ودراسات خاصة حسبما نعرف، ولم يحاولوا أن يطمسوا شيئا منه أو ينتقصوا من شأنه.

وقد لاحظت أن عبارة السيدة تعانى من الأخطاء النحوية والإملائية البدائية والركاكة والكلام الإنشائى الفضفاض والتعسف فى فرض الأفكار المسبقة على النصوص كى تتوافق مع ما تريد إثباته من أن المجتمع مجتمع ذكورى ظالم ابن ستة وستين. ومن أخطائها النحوية والصرفية أنها مثلا ترفع أحيانا المفعول به وتنصب خبر "إن" وترفع اسمها، وترفع خبر "كان" والمضاف إليه، وتقول: "نشوى" (صفة مشبهة) وهى تقصد "نشوة" (المصدر) و"سمعتُ الكاتبتين يقولان" و"اثنا عشر لقطة" (بتذكير العدد، والصواب "اثنتا عشرة لقطة") و"عندما ينتهوا" (بحذف نون المضارع دون ناصب أو جازم) و"مَعْنًا" بدل "معنى" و"نستشفّ من كذا إلى أن الأمر بخلاف ما يبدو لنا" مستعملة حرف الجر: "إلى" مع الفعل المتعدى دون أى داع... وكنا نناقش رسالة ماجستير منذ أيام كَرَّرَتْ فيها صاحبتُها الهجوم الكاسح على البطرياركية، فخطر لى أن أسألها خلال المناقشة: هل تعرفين معنى "البطرياركية"؟ فقالت فى التو: لا. فقلت لها: فكيف تهاجمينها كل هذا الهجوم الضارى فى رسالتك إذن؟ فقالت: وجدت من قرأت لهم ونقلت عنهم يهاجمونها، فهاجمتها مثلهم. هؤلاء تلاميذ للغذامى فى طريقة تفكيره العجيبة حتى لو لم يقرأوا له.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة – غربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

عنترة بن شداد – قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى – مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين – دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن – دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م

د. مُحَمَّد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام – أستاذ جامعى يزعم أن مُحَمَّدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: مُحَمَّد لطفى جمعة – قراءة فى فكره الإسلامى

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية – خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف – دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة – دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوِّهة – دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين – حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى – تحليل وتذوق

فى الشعر الإسلامى والأموى – تحليل وتذوق

فى الشعر العباسى– تحليل وتذوق

فى الشعر العربى الحديث – تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم – دراسة تحليلية

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل – دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين – مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود – النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

عبد الحليم محمود – صوفى من زماننا

د. ثروت عكاشة – إطلالة على عالمه الفكرى

ثروت عكاشة بين العلم والفن

إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات – قراءة فى كتابه: "النضال من أجل الاستسلام"

دراسات فى اللغة والأدب والدين

"مدخل إلى الأدب العربى" لروجر ألن – عرض وتقويم

على هامش كتاب جوزيف هل: "الحضارة العربية"

ابن رشد – نظرة مغايرة

تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى

من ينابيع الثقافة الإسلامية فى العصرين الإسلامى والأموى

كتاب لويس عوض: "مقدمة فى فقه اللغة العربية" تحت المجهر

"روبنسون كروسو" – دراسة فى الأدب المقارن

أبو نواس الحسن بن هانئ – دراسة فنية نفسية اجتماعية أخلاقية

"لو كان البحر مدادا" للصحفية الأمريكية كارلا باور (حوار مع الشيخ أكرم ندوى)– عرض وتحليل د. إبراهيم عوض

الإسلام والتنافس الحضارى

تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى

مباحث فى التشريع الإسلامى

دراستان فى الأدب المقارن

روايات أخذت أكثر من حقها – ثمانى روايات عربية (رؤية جديدة)

"مُحَمَّد ونهاية العالم" لبول كازانوفا – عرض ومناقشة وتفنيد

سورة الرعد – دراسة أسلوبية أدبية

فى تحليل النص القرآنى (دفاعا عن الكتاب الكريم)

من الأدب المقارن فى كتابات طه حسين – نصوص وتحليلات

خواطر على الخواطر (مع الشعراوى فى تفسيره)

معَ روايتَىْ "عذراء الهند" لأحمد شوقى و"ربما يأتى القمر" للسعيد نجم (نقد قصصى)

جولة فى كتاب مصطفى محمود: "القرآن – محاولة لفهم عصرى"

قراءة فى كتابات ابن حزم وابن رشد وابن مضاء حول النحو والنحاة مع محاولة تيسير بعض المسائل النحوية

القرآن ونظرية القراءة فى نسختها العربية الإسلامية

فى النقد التطبيقى– حلمى القاعود روائيا (قراءة تكاملية)

مع "التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" للدكتور حسن حنفى (دراسة تحليلية تقييمية)

النقد الثقافى فى كتابات نقادنا القدماء، مع دراسة عن نسق الفحل عند د. الغذامى

مقتل ابن أبى الحقيق

مقتل كعب بن الأشرف

مقتل الأسود العنسى

علاوة على الدراسات المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

الفهرست